



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغفلة



الرعد
عليه صاب

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

آية الله العظمى شهاب الدين

العلماء الأعلام

شرح مختصر على نهج الأعلام

مناهج كبرى في الفقه
أعدادها: محمد بن محمد

الجزء السادس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نفحات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه

كاتب:

آيت الله العظمى ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابي طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٩	نفحات الولاية (شرح عصرى جامع لنهج البلاغه) المجلد ٦
١٩	اشاره
٢٠	اشاره
٢٤	الخطبه ١٥١
٢٤	اشاره
٢٤	نظره إلى الخطبه
٢٦	القسم الأول
٢٦	الشرح والتفسير: الشمس التي أشرق في الظلام
٣٠	القسم الثانى
٣٠	الشرح والتفسير: الحذر من الفتنه
٣٣	تأمل: مميزات الحكام اتباع الهوى
٣٤	القسم الثالث
٣٤	الشرح والتفسير: خصائص هذه الفتنه الكبرى
٣٨	القسم الرابع
٣٨	الشرح والتفسير: التكليف حين الفتنه
٤٢	الخطبه ١٥٢
٤٢	اشاره
٤٢	نظره إلى الخطبه
٤٤	القسم الأول
٤٤	الشرح والتفسير: شمه من صفات الله الجماليه والجلاليه
٥٠	القسم الثانى
٥٠	الشرح والتفسير: إنتظار الفرج
٥٨	الخطبه ١٥٣

٥٨	اشاره
٥٨	نظره إلى الخطبه
٦٠	القسم الأول
٦٠	الشرح والتفسير
٦٢	القسم الثاني
٦٢	الشرح والتفسير: الموعظه البالغه
٦٦	القسم الثالث
٦٦	الشرح والتفسير: الحذر الحذر
٧٠	القسم الرابع
٧٠	الشرح والتفسير: الموبقات الخمس
٧٤	الخطبه ١٥٤
٧٤	اشاره
٧٤	نظره إلى الخطبه
٧٦	القسم الأول
٧٦	الشرح والتفسير: أبواب علم النبي
٧٨	تأملان
٧٨	١. الفارق بين العُجب والتعريف بالذات
٧٩	٢. الفضل ما شهدت به الاعداء
٨٢	القسم الثاني
٨٢	الشرح والتفسير: خصائص دعاه الحق
٨٦	القسم الثالث
٨٦	الشرح والتفسير: معرفه المحسن والمسيء
٩٠	الخطبه ١٥٥
٩٠	اشاره
٩٠	نظره إلى الخطبه
٩٢	القسم الأول

٩٢	الشرح والتفسير: درس في معرفه الله
٩٦	القسم الثانى
٩٦	الشرح والتفسير: الطائر العجيب
١٠٠	القسم الثالث
١٠٠	الشرح والتفسير: عجائب الخفاش
١٠١	تأمل
١٠١	خلقه الخفاش العجيبه
١٠٤	الخطبه ١٥٦
١٠٤	اشاره
١٠٤	نظره إلى الخطبه
١٠٦	القسم الأول
١٠٦	الشرح والتفسير: ظهور الاحقاد بذرائع واهيه
١١٠	القسم الثانى
١١٠	الشرح والتفسير: السبيل إلى النجاه
١١٤	القسم الثالث
١١٤	الشرح والتفسير: عوامل النجاه فى القيامه
١٢٠	القسم الرابع
١٢٠	الشرح والتفسير: الفتنه الكبرى
١٢١	تأملان
١٢١	١. الرد على بعض الأسئلة
١٢٣	٢. الشهاده مفخره لا مصيبه
١٢٤	القسم الخامس
١٢٤	الشرح والتفسير: الحيل الشرعيه فى استحلال المحرمات
١٢٦	تأمل: الحرام لا يحلل بالزيف
١٢٨	الخطبه ١٥٧
١٢٨	اشاره

١٢٨	نظرة إلى الخطبة
١٣٠	القسم الأول
١٣٠	الشرح والتفسير: انعطافه على المبدأ والمعاد
١٣٣	تأمل: كيف يعيد التاريخ نفسه
١٣٦	القسم الثاني
١٣٦	الشرح والتفسير: تقلب الدنيا
١٤٢	القسم الثالث
١٤٢	الشرح والتفسير: حضور المحكمه الإلهية
١٤٦	تأملان
١٤٦	١. الشهود على الأعمال
١٤٧	٢. ثلاث عبارات عميقة المعنى
١٥٠	الخطبة ١٥٨
١٥٠	إشاره
١٥٠	نظرة إلى الخطبة
١٥٢	القسم الأول
١٥٢	الشرح والتفسير: الكتاب الذى استوعب كل شىء
١٥٦	القسم الثاني
١٥٦	الشرح والتفسير: حكمه الظلم ودوله الطغيان
١٥٨	تأملان
١٥٨	١. وظيفه الحاكم والرعيه
١٥٩	٢. فاجعه نهايه دوله بنى اميه
١٦٢	الخطبة ١٥٩
١٦٢	إشاره
١٦٢	نظرة إلى الخطبة
١٦٤	الشرح والتفسير
١٦٤	الدعم المطلق

١٦٨	الخطبه ١٦٠
١٦٨	نظره إلى الخطبه
١٧٠	القسم الأول
١٧٠	الشرح والتفسير: عجز العقول امام عظمه الله
١٧٦	القسم الثاني
١٧٦	الشرح والتفسير
١٧٦	عبيد الدنيا
١٧٩	تأمل
١٧٩	الخوف والرجاء
١٨٣	القسم الثالث
١٨٣	الشرح والتفسير: التأسي بالنبي صلى الله عليه و آله
١٨٧	القسم الرابع
١٨٧	الشرح والتفسير: زهد الأنبياء
١٩٠	تأملات
١٩٠	١. مزامير داود
١٩١	٢. الصوت الداودي
١٩١	٣. زهد الأنبياء
١٩٣	القسم الخامس
١٩٣	الشرح والتفسير: سيره النبي صلى الله عليه و آله إزاء عبده الدنيا
١٩٧	القسم السادس
١٩٧	الشرح والتفسير
١٩٧	زهد النبي صلى الله عليه و آله
٢٠١	القسم السابع
٢٠١	الشرح والتفسير: لم التأسي بالنبي الأكرم صلى الله عليه و آله
٢٠٤	تأمل
٢٠٧	الخطبه ١٦١

٢٠٧	اشاره
٢٠٧	نظره إلى الخطبه
٢٠٩	القسم الأول
٢٠٩	الشرح والتفسير: صفات النبي صلى الله عليه و آله
٢١٢	تأمل
٢١٢	من قال أم ما قال ؟
٢١٥	القسم الثاني
٢١٥	الشرح والتفسير: الاعتبار بالامم السابقه
٢٢١	الخطبه ١٦٢
٢٢١	اشاره
٢٢١	نظره إلى الخطبه
٢٢٣	القسم الأول
٢٢٣	الشرح والتفسير: عله غضب الخلافه العلويه
٢٢٧	القسم الثاني
٢٢٧	الشرح والتفسير
٢٣٠	تأملات
٢٣٠	١. حق السؤال
٢٣٢	٢. الهدف الاصلى من السؤال والجواب فى الخطبه
٢٣٤	٣. بنى اميه ومؤامره القضاء على الإسلام
٢٣٦	الخطبه ١٦٣
٢٣٦	نظره إلى الخطبه
٢٣٨	القسم الأول
٢٣٨	الشرح والتفسير: حادثه مهمته
٢٤٤	تأمل: الله حقيقه مطلقه
٢٤٤	القسم الثاني
٢٤٤	الشرح والتفسير: العلم الإلهى المطلق

- ٢٤٧ تأمل: دور الإيمان بعلم الله على العمل
- ٢٥٠ القسم الثالث
- ٢٥٠ الشرح والتفسير: الأرفع من الخيال والوهم
- ٢٥٤ تأمل
- ٢٥٤ الدوره الجينيه المذهله
- ٢٥٧ الخطبه ١٦٤
- ٢٥٧ اشاره
- ٢٥٧ نظره إلى الخطبه
- ٢٥٩ القسم الأول
- ٢٥٩ الشرح والتفسير: إتمام الحجه على عثمان
- ٢٦٢ تأمل
- ٢٦٢ سبيل نفوذ الكلام فى الآخرين
- ٢٦٣ القسم الثانى
- ٢٦٣ الشرح والتفسير: خصائص الحاكم العادل والظالم
- ٢٦٨ أضواء على حادثه قتل عثمان
- ٢٧١ الخطبه ١٦٥
- ٢٧١ اشاره
- ٢٧١ نظره إلى الخطبه
- ٢٧٣ القسم الأول
- ٢٧٣ الشرح والتفسير: خلق الطيور
- ٢٧٧ تأمل: عجائب عالم الطيور
- ٢٨١ القسم الثانى
- ٢٨١ الشرح والتفسير: أعجب طير فى العالم
- ٢٨٦ القسم الثالث
- ٢٨٦ الشرح والتفسير: صورته رائعه لجناح الطاووس
- ٢٩٠ القسم الرابع

٢٩٠	الشرح والتفسير: صورته دقيقه عن جمال الطاووس
٢٩٥	القسم الخامس
٢٩٥	الشرح والتفسير: حيره العقول فى الوصف
٢٩٧	تأمل
٢٩٧	غرائب الطاووس
٢٩٩	القسم السادس
٢٩٩	الشرح والتفسير: الديدان والقبيله والحيتان
٣٠٠	تأمل: غيض من عجائب الحيتان والقبيله
٣٠٠	الحيتان
٣٠١	القبيله
٣٠٣	القسم السابع
٣٠٣	الشرح والتفسير: نعم الجته ومفاتها
٣٠٦	تأمل: أيها أجمل ؟
٣١٠	الخطبه ١٦٦
٣١٠	نظره إلى الخطبه
٣١٢	القسم الأول
٣١٢	الشرح والتفسير: ثلاث وصايا أخلاقيه
٣١٤	القسم الثانى
٣١٤	الشرح والتفسير: المصير الأسود لبنى أميه
٣١٦	تأمل: ثورات داميه ضد بنى أميه
٣٢٠	القسم الثالث
٣٢٠	الشرح والتفسير: عامل التخلف
٣٢١	تأمل: بنو اسرائيل
٣٢٢	الخطبه ١٥٦
٣٢٢	اشاره
٣٢٢	نظره إلى الخطبه

٣٢٤	القسم الأول
٣٢٤	الشرح والتفسير: معرفه سبيل الحق
٣٢٨	القسم الثاني
٣٢٨	الشرح والتفسير: المسؤوليه الشامله
٣٣٠	تأمل: سلامه البيئه وحمايه الحيوانات فى الإسلام
٣٣٢	الخطبه ١٦٨
٣٣٢	اشاره
٣٣٢	نظره إلى الخطبه
٣٣٤	القسم الأول
٣٣٤	الشرح والتفسير: أسباب تأخير عقوبه قتله عثمان
٣٣٧	تأملان
٣٣٧	١. معوقات العدالة
٣٣٧	٢. إشكال الثوار
٣٤٠	الخطبه ١٦٩
٣٤٠	اشاره
٣٤٠	نظره إلى الخطبه
٣٤٢	القسم الأول
٣٤٢	الشرح والتفسير: القيام أو زوال الحكومه الإسلاميه
٣٤٤	القسم الثاني
٣٤٤	الشرح والتفسير: الصبر على الفتنه
٣٤٦	الخطبه ١٧٠
٣٤٦	اشاره
٣٤٦	نظره إلى الخطبه
٣٤٨	القسم الأول
٣٤٨	الشرح والتفسير: لماذا لايتابع
٣٥٠	تأمل: عمق تأثير كلام الإمام عليه السلام

الخطبه ١٧١ - ٣٥٢

اشاره - ٣٥٢

نظره إلى الخطبه ٣٥٢

القسم الأول ٣٥٤

الشرح والتفسير: الجته أمامكم ٣٥٤

تأمل ٣٥٨

الخطبه ١٧٢ - ٣٦٠

نظره إلى الخطبه ٣٦٠

القسم الأول ٣٦٢

الشرح والتفسير: قريش والخلافه ٣٦٢

تأملان ٣٦٥

١. العيون المعصوبه ازاء الحقائق ٣٦٥

٢. هل ينبغي التنازل عن بعض الحق ٣٦٦

القسم الثاني ٣٦٨

الشرح والتفسير ٣٦٨

فضيحه أصحاب الجمل ٣٦٨

سؤال آخر: ٣٧١

الخطبه ١٧٣ - ٣٧٢

اشاره ٣٧٢

نظره إلى الخطبه ٣٧٢

القسم الأول ٣٧٤

الشرح والتفسير: أجدر الأفراد بزعامه الأمة ٣٧٤

سؤال: ٣٧٥

الجواب: ٣٧٥

سؤال: ٣٧٧

الجواب: ٣٧٧

٣٧٨	القسم الثاني
٣٧٨	الشرح والتفسير
٣٧٨	تعليمات عسكريه
٣٨٠	تأمل: حوار مع عمار بن ياسر في صفين
٣٨٢	القسم الثالث
٣٨٢	الشرح والتفسير: الدنيا ليست داركم
٣٨٦	الخطبه ١٧٤
٣٨٦	اشاره
٣٨٦	نظره إلى الخطبه
٣٨٨	القسم الأول
٣٨٨	الشرح والتفسير: تناقض طلحه دليل فضيحه
٣٩٢	الخطبه ١٧٥
٣٩٢	اشاره
٣٩٢	نظره إلى الخطبه
٣٩٤	القسم الأول
٣٩٤	الشرح والتفسير: الغفله التامه
٣٩٦	القسم الثاني
٣٩٦	الشرح والتفسير: علمنى رسول الله صلى الله عليه و آله كل شىء
٤٠٠	الخطبه ١٧٦
٤٠٠	اشاره
٤٠٠	نظره إلى الخطبه
٤٠٢	القسم الأول
٤٠٢	الشرح والتفسير: حفت الجته بالمكاره والنار بالشهوات
٤٠٤	تأمل: عشق الطاعه
٤٠٦	القسم الثاني
٤٠٦	الشرح والتفسير: نقد الذات

٤٠٧	وصايا ضروريه
٤١٠	القسم الثالث
٤١٠	الشرح والتفسير: القرآن دواء لكل داء
٤١٢	تأمل
٤١٢	القرآن والشفاء
٤١٤	القسم الرابع
٤١٤	الشرح والتفسير: القرآن شفيع القيامه
٤١٤	القسم الخامس
٤١٤	الشرح والتفسير: الدفاع المشروط
٤٢٠	القسم السادس
٤٢٠	الشرح والتفسير
٤٢٢	تأمل: الإستقامه فى مسار الولايه
٤٢٤	القسم السابع
٤٢٤	الشرح والتفسير: فرق المؤمن عن المنافق فى إصلاح اللسان
٤٢٨	تأملان
٤٢٨	١. اللسان اعجب اعضاء البدن
٤٢٩	٢. رصيد الإنسان
٤٣٢	القسم الثامن
٤٣٢	الشرح والتفسير: أخطار البدع
٤٣٥	تأمل
٤٣٥	البدعه
٤٣٨	القسم التاسع
٤٣٨	الشرح والتفسير: القرآن ربيع القلوب وينابيع العلوم
٤٤٢	القسم العاشر
٤٤٢	الشرح والتفسير: إصلاح النفس
٤٤٥	تأمل: العيش بصوره جماعيه أم الإنزواء

٤٤٩	الخطبة ١٧٧
٤٤٩	اشاره
٤٤٩	نظره إلى الخطبه
٤٥١	القسم الأول
٤٥١	الشرح والتفسير: بطلان الحكم بانحراف الحكمين
٤٥٣	تأمل: تولّى الحكمين عن القرآن
٤٥٥	الخطبة ١٧٨
٤٥٥	اشاره
٤٥٥	نظره إلى الخطبه
٤٥٧	القسم الأول
٤٥٧	الشرح والتفسير: عظمه الله وكرامه نبيّه صلى الله عليه و آله
٤٦٠	تأملان
٤٦٠	١. مشكله الصفات
٤٦١	٢. أهداف بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله
٤٦٣	القسم الثاني
٤٦٣	الشرح والتفسير: صدق النيه مع الله
٤٦٧	الخطبة ١٧٩
٤٦٧	اشاره
٤٦٧	نظره إلى الخطبه
٤٦٩	القسم الأول
٤٦٩	الشرح والتفسير: هل رأيت الله؟
٤٧٥	الخطبة ١٨٠
٤٧٥	اشاره
٤٧٥	نظره إلى الخطبه وسبب الورود
٤٧٧	القسم الأول
٤٧٧	الشرح والتفسير: الجهاد أو الموت والعار

القسم الثاني - ٤٨٢ -----

الشرح والتفسير - ٤٨٢ -----

تأملان - ٤٨٥ -----

١. الفرق بين المعونه والعطاء - ٤٨٥ -----

٢. الخدمات الثقافيه الأربع للإمام عليه السلام - ٤٨٦ -----

تعريف مركز - ٤٨٧ -----

عنوان و نام پديد آور: نفحات الولاية: شرح عصري جامع لنهج البلاغه المجلد ٦ / ناصر مكارم شيرازي، بمساعده مجموعه من الفضلاء؛ اعداد عبدالرحيم الحمداني.

مشخصات نشر: رقم: مدرسه الامام علي ابن ابي طالب (ع)، ١٤٢٦ق. = ١٣٨٤.

مشخصات ظاهري: ١٠ ج.

شابك: ٣٠٠٠٠ ريال: دوره ٩٥٨-٨١٣-٩٦٤ X؛ ج. ١ ٩٠٧-٨١٣-٩٦٤ ٥؛ ج. ٢ ٩٠٨-٨١٣-٩٦٤ ٣؛ ج. ٣ ٩٦٤-٨١٣-٩٦٤ ٣-٩١٧ ٢؛ ج. ٤ ٩١٨-٨١٣-٩٦٤ ٠؛ ج. ٥ ٩٤١-٨١٣-٩٦٤ ٥؛ ج. ٦ ٩٧٨-٨١٣-٩٦٤ ٥-١٢٠ ٥؛ ج. ٧ ٩٧٨-٨١٣-٩٦٤ ٥-١٢١ ٢؛ ج. ٨ ٩٧٨-٨١٣-٩٦٤ ٥-١٢٢ ٩؛ ج. ٩ ٩٧٨-٨١٣-٩٦٤ ٥-١٢٣ ٦؛ ج. ١٠ ٩٧٨-٨١٣-٩٦٤ ٥-١٢٤ ٣.

يادداشت: عربي.

يادداشت: ج ١-٥ (چاپ دوم: ١٣٨٤).

يادداشت: ج. ٦-١٠ (چاپ اول: ١٤٣٢ ق. = ١٣٩٠).

يادداشت: کتابنامه.

مندرجات: ج. ٦. من خطبه ١٥١ الى ١٨٠. ج. ٧. من خطبه ١٨١ الى ٢٠٠. ج. ٨. من خطبه ٢٠١ الى ٢٤١. ج. ٩. من رساله ١ الى ٣١. ج. ١٠. من رساله ٣٢ الى ٥٣

موضوع: علي بن ابي طالب (ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت - ٤٠ ق. -- خطبه ها

موضوع: علي بن ابي طالب (ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت - ٤٠ ق. -- كلمات قصار

موضوع: علي بن ابي طالب (ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت - ٤٠ ق. -- نامه ها

موضوع: علي بن ابي طالب (ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت - ٤٠ ق. . نهج البلاغه -- نقد و تفسير

شناسه افزوده: حميراني، عبدالرحيم

شناسه افزوده: علي بن ابي طالب (ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت - ٤٠ ق. . نهج البلاغه. شرح

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره: ۲/۳۸/۰۲ BP / م ۱۳۸۴۷

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی: م ۸۴-۴۰۳۴۷

ص: ۱

اشاره

نفحات الولاية: شرح عصرى لجامع لنهج البلاغه المجلد ٦

ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء

اعداد عبدالرحيم الحمدانى

ص: ٣

وَمِنْ حُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُحَدِّثُ مِنَ الْفِتَنِ (١)

نظرة إلى الخطبه

تتكوّن هذه الخطبه من أقسام ثلاثه:

أمّا القسم الأول: فهو حمد الله والثناء عليه، ومن ثم الشهاده بالرساله للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وبعض صفاته الخاصه. حيث أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم إلى الأوضاع المربكه التي كانت سائده إبان الجاهليه ليقف المسلمون من خلال المقارنه على عظمه النعم التي أفاضها الله عليهم ببركه الإسلام.

أمّا القسم الثاني من الخطبه: فقد أخبر فيه الإمام عليه السلام عن ظهور الفتن في المستقبل والعوده القهقري إلى الجاهليه بأفكارها وممارساتها، كالفتن التي يقودها

ص: ٥

١- (١) سند الخطبه: لم ترد هذه الخطبه في مصادر أخرى والشىء الوحيد الذى يعتمد عليه مؤلف «مصادر نهج البلاغه» ما ذكره السيد اليماني في كتاب «الطراز» وقد استشهد فيه بعدة عبارات من هذه الخطبه، رغم أنه عاش بعد السيد الرضى، إلا أن اختلاف بعض العبارات مع ماورد في نهج البلاغه يفيد أنه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغه. راجع مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص

الظلمه والتي تفعل فعلها فى الوسط الإسلامى.

وأخيراً يختتم الخطبه بوصيه الناس بالحذر من الظلمه وعدم الإنخداع بفتنهم والاستجابه لتحقيق مآربهم، إلى جانب عدم أتباع خطوات الشيطان والسقوط فى شركه، والإبتعاد عن تناول الحرام وتقوى الله على كل حال.

ص: ٦

وَأَحْمَدُ اللَّهَ وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى مَدَاحِرِ الشَّيْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ وَالْإِعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَنَجِيُّهُ وَصَفْوَتُهُ. لَا يُؤَاوِزِي فَضْلُهُ، وَلَا يُجَبِّرُ فَقْدُهُ. أَضَاءَتْ بِهِ الْبِلَادُ بَعْدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلِمَةِ، وَالْجَهَالَةِ الْعَالِيَةِ، وَالْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ؛ وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ، وَيَسْتَنْدِلُونَ الْحَكِيمَ؛ يَحْيُونَ عَلَى فِتْرِهِ، وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرِهِ!

الشرح والتفسير: الشمس التي أشرقت في الظلام

إن هذه الخطبة من خطب الملاحم التي تتعرض إلى جانب من الأحداث الخطيرة التي تقع في المستقبل وتحذر الناس من ضروره التحلى باليقظه ومراقبه الذات بغيه عدم التلوث بالظلم والفتن والفساد. فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه والاستعاذه بذاته المقدسه من شر الشياطين فقال:

«وَأَحْمَدُ اللَّهَ وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى مَدَاحِرِ (١) الشَّيْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ (٢) وَالْإِعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ (٣)»، فالإمام عليه السلام يسأل الله تعالى في هاتين العبارتين التوفيق للطاعة والعباده والاعتصام من الذنب والمعصيه، فليس هنالك من وسيله لابعاد

«مداحر» الشيطان و

«مزاجره» سوى طاعه الله وامثال أوامره، وليست

«حبائل» الشيطان و

«مخاتله» سوى

ص:٧

١- (١). «مداحر» جمع مدحر، بمعنى الأمر الذي يسبب طرد الشيء وإبعاده من ماده (دحور) بمعنى الطرد والإبتعاد

٢- (٢) «مزاجر» جمع مزجر، بمعنى المانع من الشيء من ماده (زجر) بمعنى المنع

٣- (٣) «مخاتل» جمع مختل، المكيدة وهي الوسيله التي يتم بها الخداع من ماده (ختل)

ولا تبدو طاعه الله والاحترام من الذنب والمعصيه ممكنه دون تسديد الله وتوفيقه، وذلك لأن طريق الطاعه واجتناب المعصيه صعب مليئ بالمطبات والعوائق، ثم يقر لله بالوحدانيه وللنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالرساله فيقول:

«وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَنَجِيْبُهُ وَصَفْوَتُهُ». وذهب أغلب شراح نهج البلاغه إلى أن

«نجيبه» و «صفوته» بمعنى واحد هو الانتخاب والاصطفاء وكل منهما يؤكد الآخر، والصحيح أن هنالك فرقاً بين المفردتين. بالنظر إلى أن النجيب يعنى النفيس، والمفردة الأولى فى الواقع ممهده للمفردة الثانيه؛ لأنّ الشئ يصطفى حين يكون نفيساً قيماً، ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشاره إلى صفتين من صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«لَا يُؤَاوِزِي فَضْلُهُ، وَلَا يُجْبِرُ فَقْدُهُ» حقاً يتعذر تعويض الشئ الذى لا نظير له حين يفقد، كما أشار فى آخر صفه إلى آثار النبي صلى الله عليه وآله الوجوديه فى تلك الظروف التى شهدها عصر الجاهليه حيث أشرقت بنور وجوده البلاد التى كانت غارقة فى لجاج الضلاله والظلمه وقد استحوذ الجهل على أفكار أهلها فقسّت قلوبهم وطفحت بالجمود:

«أَضَاءَتْ بِهِ الْبِلَادُ بَعِيدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلَمَةِ، وَالْجَهْلِ الْعَالِيَةِ، وَالْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ(١)». وذلك حين كان الناس يستحلون الحرمات ويحتقرون العلماء فى ظل الفتره وغياب أولياء الله وهم يموتون على الكفر ومجانبه الدين

«وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ، وَيَسْتَدْلُونَ الْحَكِيمَ؛ يَحْيُونَ عَلَى فِتْرِهِ، وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرِهِ!». فهذه الصفات السبع التى أوردها الإمام عليه السلام بعبارات مجمله بشأن عهد الجاهليه إنما تجسد صورته رائعه عن ذلك الزمان الذى اتسم بالضلال، والجهل، والقسوه، واستحلال الحرمات، والإستخفاف بالعلماء، وانعدام وجود القائد والمرشد، والموت على الكفر.

وقد بلغ ضلال القوم مرتبه من الفضاغه إلى الحد الذى جعلهم يفخرون بجناياتهم

ويرون سفك الدماء ووأد البنات دليلاً على الغيره، والسلب والنهب شجاعه، كما تأصلت لديهم معانى الجهل والخرافه حتى جعلهم يصنعون آلهتهم بأيدهم تاره من الخشب وأخرى من الحجر وأخيراً من التمر، فإن جاعوا التهموها. وأما قساوه قلوبهم فقد تجذرت فى أعماقهم حتى توارثوا الحقد جيلاً عن جيل، فكانوا لا يأبهون بسفك الدماء وممارسه سائر المفاسد والانحرافات. وفى ظل هذه الظروف العصيه يمكن إدراك عظمه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ومعطياته فى تلك الأ-جواء المتلفعه بالظلمه، حتى استطاع خلال تلك الفتره القصيره من النهوض بذلك المجتمع الخرافى الجاهل والمتخلف ليضعه فى مصاف المجتمعات المتمدنه والمتحضره.

«ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعَشَرَ الْعَرَبِ أَعْرَاضُ بَلَايَا قَدِ اقْتَرَبَتْ، فَاتَّقُوا سِكَرَاتِ النُّعْمَةِ، وَاحْذَرُوا بَوَائِقَ النُّقْمَةِ، وَتَثَبُّوا فِي قَتَامِ الْعِشْوَةِ، وَأَعْوِجَاجِ الْفِتْنَةِ عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا، وَظُهُورِ كَمِينِهَا، وَأَنْتِصَابِ قُطْبِهَا، وَمِيدَارِ رَحَاهَا. تَبْدَأُ فِي مِيدَارِ حَفِيئِهِ، وَتَوُولُ إِلَى فِطَاعِهِ جَلِيئِهِ. شَبَابُهَا كَشِّيبَابِ الْغُلَامِ، وَأَثَارُهَا كَأَثَارِ السَّلَامِ، يَتَوَارِثُهَا الظُّلْمَةُ بِالْعُهُودِ! أَوْلَهُمْ قَائِدٌ لآخِرِهِمْ، وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوْلِهِمْ؛ يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دُنْيَاهِ، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيفِهِ مَرِيحِهِ. وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ مِنَ الْمُتَّبِعِ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمَقُودِ، فَيَتَزَايَلُونَ بِالْبُغْضَاءِ، وَيَتَلَاعَنُونَ عِنْدَ اللَّقَاءِ».

الشرح والتفسير: الحذر من الفتنة

أخبر الإمام عليه السلام الناس في هذا المقطع من الخطبة بالفتن التي تنتظرهم إلى جانب تحذيرهم وإفادات نظرهم إلى خطورتها ليتحصنوا قدر المستطاع من ضربات تلك الفتن ويحذوا من الخسائر، حيث أشار الإمام عليه السلام بعبارات لطيفة إلى مصادر هذه الفتنة وكيفيه تبلورها ومرورها بمختلف المراحل فقال:

«ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعَشَرَ الْعَرَبِ أَعْرَاضُ بَلَايَا قَدِ اقْتَرَبَتْ، فَاتَّقُوا سِكَرَاتِ النُّعْمَةِ، وَاحْذَرُوا بَوَائِقَ (١) النُّقْمَةِ». فقد ركز الإمام عليه السلام في هذه العبارة على عنصرين يقفان وراء الفتن؛ أحدهما سكرات النعمة، والآخر عقوبه الأعمال.

ص: ١١

١- (١). «بوائق» جمع بائقة، بمعنى الحادثه المهمه والداهيه المميته من ماده (بوق) على وزن فوق، بمعنى الفساد

وبين نتيجة تلك الفتن التي يعصف بلاؤها بالناس. ثم أوصى الناس بالتحلى باليقظة والحذر بغية التقليل من الخسائر حين تهب رياح الحوادث المعتمه وتستفحل الفتن عند ظهور اجنتها وانتصاب محورها وحرکه رحاها

«وَتَبَّئُوا فِي قَتَامِ (١) الْعِشْوَةِ (٢)، وَأَعْوَجِاجِ الْفِتْنَةِ عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا، وَظُهُورِ كَمِينِهَا، وَأَنْتِصَابِ قُطْبِهَا، وَمَيْدَارِ رَحَاهَا». فالأمام عليه السلام يشبه الفتنه فى هذه العبارة بالجنين الذى يترعرع بصورة خفيه ويولد فجأه تاره، وتاره أخرى يعدّها كالرحى التى يقام محورها بادئ الأمر ثم تدور حوله، وتشير الشواهد التاريخيه إلى أنّ الفتن كذلك حقاً، فهى مراحل تتبلور أثر بعض العوامل الاجتماعيه المختلفه لتنفجر فجأه ويطفو على السطح ما يعتصر فى باطن المجتمع، ثم يتطرق الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه إلى الملامح الأخرى لتبلور الفتن على أنّها تبدأ من مراحل خفيه لتظهر فى خاتمه المطاف بوجهها الخطير، وهى تنمو وتنتشر بسرعه على غرار نمو الشباب وتسدد ضرباتها الموجهه إلى جسد المجتمع

«تَبْدَأُ فِي مَدَارِجِ خَفِيِّهِ، وَتُؤَوَّلُ إِلَى فِظَاعِهِ جَلِيَّةٍ. شِبَابُهَا كَشِبَابِ (٣) الْغُلَامِ، وَأَثَارُهَا كَأَثَارِ السَّلَامِ (٤)».

هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغه فى الفتنه التى أشار إليها الإمام عليه السلام فى هذه العبارة وحدّر منها؛ ويبدو أنّ المراد بها فتنه بنى أميه التى بدأت منذ عهد عثمان وبرزت بقتله ثم بلغت ذروتها إثر خلافه معاويه ويزيد وعبد الملك بن مروان ومن سار فى فلكهم، وقد اتّضحت هذه الفتنه وتجلّت فضيحتها بشتم أمير المؤمنين على عليه السلام من على منابر المسلمين وتلك الضربات التى وجهت إلى الإسلام بحيث لو وضعت على جبل لتصدّع.

ص: ١٢

١- (١). «قتام» بمعنى الغبار

٢- (٢) «العشوه» ركوب الأمر على غير بيان

٣- (٣) «شباب» بكسر الشين أى بداياتها فى عنفوان وشده كشباب الغلام وفتوته، وقد وردت هذه المفرده بكسر الشين فى بعض نسخ نهج البلاغه وبالفتح فى البعض الآخر

٤- (٤) «السلام» بكسر السين جمع سلمه، على وزن كلمه بمعنى الحجاره الصم

ثم واصل حديثه بالإشارة إلى سائر خصائص هذه الفتنة

«يَتَوَارَثُهَا الظَّلْمَةُ بِالعُهودِ! أولُهُم قَائِدٌ لِأَخْرِهِم، وَآخِرُهُم مُقْتَدٍ بِأَوْلِهِم». أجل ففاده الفتن على هذه الشاكلة يتوارثون فيما بينهم أسباب الفتنة ويسيرون جميعاً في خط واحد وباتجاه مشترك، ومن شأن هذا الانسجام والاتفاق والوراثه أن يضاعف أخطار الفتنة ويشعب آثارها السلبية، آنذاك أشار الإمام عليه السلام إلى الدافع الأصلي لقاده الفتن والظلمه في أنهم يتسابقون من أجل الظفر بهذه الدنيا الدنيه ويتكالبون على حطامها كتهافت الكلاب على المزابل التننه، فالواقع هم متحدون في الظاهر وينطلقون معا في مسار واحد، غير أنهم يعيشون باطنياً حاله من الصراع والنزاع ويسعى كل فرد منهم لأن يكون رأس الفتنة ويقتفى آثاره الآخرون

«يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دُنْيِهِ، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيفِهِ مُرِيحِهِ (١)».

ثم أشار عليه السلام بعباره قصيره وبلغه إلى عاقبتهم المريره فقال:

«وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَّبِرُ التَّابِعُ مِنَ الْمُتَّبِعِ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمُقُودِ، فَيَتَرَايِلُونَ بِالْبُغْضَاءِ، وَيَتَلَاعَنُونَ عِنْدَ اللُّقَاءِ».

لعل هذه العباره إشاره إلى أصحاب الفتن من بنى العباس.

رغم أنهم اقتفوا آثار بنى أميه في سلوك هذا النفاق والتكالب على الدنيا وتوجيه الضربات إلى أهل البيت عليهم السلام زعماء الأُمَّه الإسلاميه وأتمتها، إلماً أن الظاهر أنهم كانوا يلعنونهم ويتبرأون من أفعالهم، وكان شعارهم الذى أرادوا به خداع الناس «الرضا لآل محمد»، ففتكوا بفلول بنى أميه وسفكوا دماءهم حتى سالت أنهار من الدماء وقضوا على تراثهم ونهبوا أموالهم، وذهب البعض من شراح نهج البلاغه إلى أن المراد من العباره

«وَيَتَلَاعَنُونَ عِنْدَ اللُّقَاءِ»، لقاء الله ويوم القيامة، كما ورد فى القرآن الكريم: «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ» (٢) كما ورد فى القرآن الكريم بشأن براءه المشركين من أئمتهم: «وَيَوْمَ

ص: ١٣

١- (١) «مريح» بمعنى التنن والعفن من ماده (ريح) بمعنى التنن

٢- (٢) . سورة البقره، الآيه ١٦٦

نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» (١). وعبارته

«وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيفِهِ مُرِيحِهِ» تشبه هذه الفئه الطاغية المتهافته على الدنيا بالكلاب التي تهجم على الميتة العفنه وينهش كل منها ما فى يد الآخر وفمه، وياله من تشبيه بليغ رائع!

تأمل: مميزات الحكام اتباع الهوى

يستفاد من العبارات المذكوره فى خطبه الإمام عليه السلام أنّ الحكام الظلمه يتسمون ببعض المميزات التي يشهد بها التاريخ البشرى، ومنها:

١. إثارة الفتن والبلابل بغيه تحقيق الأهداف؛ الأمر الذى نشهده فى استغلال بنى أميه لقضيه المطالبه بدم عثمان.

٢. الاتحاد والتنسيق فى الانطلاقه والتواطىء فى الخطط الهدامه وإثارة الفتن.

٣. اشتداد المنافسه حين الغلبه بحيث تبدو المجموعه وكأنها حفنه من الكلاب التي تتكالب على جيفه ليحوز كل حصته من الآخر.

٤. لعن كل طرف للآخر فى خاتمه المطاف وتحميله المسؤوليه ولعل التاريخ بماضيه وحاضره شاهد حى على كلام الإمام عليه السلام.

ص: ١٤

«ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ، وَالْقَاصِمَةُ الرَّجُوفِ، فَتَرِيغُ قُلُوبَ بَعْدَ اسْتِقَامِهِ، وَتَضِلُّ رِجَالَ بَعْدَ سَلَامِهِ؛ وَتَخْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا، وَتَلْتَبِسُ الْأَرَءَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا. مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصِيصَتُهُ، وَمَنْ سَدَّ عَمَى فِيهَا حَطْمَتُهُ؛ يَتَكَادِمُونَ فِيهَا تَكَادِمَ الْحُمْرِ فِي الْعَانَةِ! قَدِ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبِيلِ، وَعَمِيَ وَجْهُ الْمَأْمُرِ. تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةَ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظُّلْمَةَ، وَتَدُقُّ أَهْلَ الْيَدِوِ بِمَسِّ حِلْيَتِهَا، وَتَرْضُضُهُمْ بِكَلْكَلِهَا يَضِيعُ فِي عُبَارِهَا الْوُحْدَانُ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرَّكْبَانُ؛ تَرُدُّ بِمَرِّ الْقَضَاءِ، وَتَحْلُبُ عَيْطَ الدَّمَاءِ، وَتَتْلِمُ مَنَارَ الدِّينِ، وَتَنْقُضُ عَقْمَدَ الْيَقِينِ. يَهْرُبُ مِنْهَا الْأَكْيَاسُ، وَيُدْبِرُهَا الْأَرْجَاسُ. مِرْعَادُ مِرْزَاقٍ، كَاشِفَةٌ عَن سَاقٍ! تُقَطِّعُ فِيهَا الْأَرْحَامَ، وَيُفَارِقُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ! بَرِيئُهَا سَقِيمٌ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ!».

الشرح والتفسير: خصائص هذه الفتنة الكبرى

أشار الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبة - إلى فتنة مهممة أخرى تنتظر المسلمين، فتنة مرعبة وكاسره وردت تفاصيلها في عبارات الإمام عليه السلام في هذه الخطبة، على أمل أن يتعرف عليها المسلمون فينأوا بأنفسهم بعيداً عنها ولإجتنب من فداحه أضرارها، فقال عليه السلام:

«ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ (١)،

ص: ١٥

١- (١). «رجوف» من ماده (رجف) على وزن حذف بمعنى شدة الاضطراب، وتطلق الأراجيف على الاشاعات التي تجعل المجتمع شديد الاضطراب

وَالْقَاصِمَهُ (١) الزُّحُوفِ (٢) ، فَتَزِيغُ قُلُوبٌ بَعْدَ اسْتِقَامِهِ ، وَتَضِلُّ رِجَالٌ بَعْدَ سَلَامَتِهِ ؛ وَتَخْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا ، وَتَلْتَبِسُ الْأَرَائِ عِنْدَ نُجُومِهَا (٣) .

ذهب أغلب شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بهذه الفتنه هنا فتنه المغول والتاتار، ولم يذكروا حسب اطلاعنا احتمالاً آخر؛ إلّا أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيداً؛ لأنّ أهداف المغول لم تكن سوى نهب الأموال وخراب البلدان والسيطره على الممالك الإسلاميه؛ فى حين أخبر الإمام عليه السلام بعبارات فى هذه الخطبه عن فتنه تستهدف أفكار الناس ومعتقداتهم وتلقى بهم فى غياهب الغى والضلال والاختلافات الفكرية والدينيه، وعليه يمكن أن يكون المراد بها فتنه بنى العباس التى أعقبت فتنه بنى أميه والتى أشارت إليها العبارات السابقه، والواقع هو أنّ بنى العباس وبنى أميه وإن كانوا وجهين لعمله واحده وسياسه شيطانيه واحده، إلّا أنّ بنى أميه وكما صرح زعيمهم معاويه كانوا لا يكثرثون للصوم والصلاه وطقوس الناس الدينيه، سوى - فى المواقع - التى تصطدم بحكومتهم الغاشمه؛ بينما اخترق بنو العباس عقائد الأُمّه حتى ظهرت على عهدهم أغلب المدارس المنحرفه والمذاهب الفاسده، كما اشتدت الاختلافات فى بعض المسائل من قبيل «حدوث القرآن وقدمه» و «الجبر والتفويض» إلى جانب الخلافات بين «الأشاعره والمعتزله»، وممّا لا شك فيه أنّ ذلك كان يجرى وفق خطه مرسومه حتى أنّهم كانوا يشجعون العلماء والمفكرين لإثاره مثل هذه المباحث بهدف الاستمرار فى السلطه، طبعاً لا نزعماً أنّ بنى أميه تخلوا مطلقاً عن هذه الأمور، لكننا نقول ليس لمثل هذه المباحث من ظهور آنذاك كالذى أصبح عليه بنو العباس، كما يبدو، مستبعداً أيضاً، الاحتمال الآخر الذى ذكره بعض شراح نهج البلاغه من أنّ هذا الكلام إشاره إلى فتنه «الذجال» فى آخر الزمان

ص: ١٦

١- (١) . «قاصمه» من ماده (قصم) على وزن خصم بمعنى الكسر مع الشده

٢- (٢) «زحوف» من ماده (زحف) على وزن حرف بمعنى الثقل فى المشى وتطلق على حركه الجيش الكثير، وزحوف فى العبارة إشاره إلى الافتتان الذى يستشرى فى المجتمع

٣- (٣) «نجوم» وردت هنا بالمعنى المصدرى وهو الظهور

الذى يضل فئه من الناس.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى شدّه تلك الفتنة قائلاً:

«مَنْ أَشْرَفَ لَهَا فَصِيحَتُهُ، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتُهُ؛ يَتَكَادِمُونَ (١) فِيهَا تَكَادِمَ الْحُمْرِ (٢) فِي الْعَانَةِ!» وهذه العبارة تأكيد لما ذكر في الكلام السابق بشأن الفتنة الأولى من أنّ رؤوس الفتنة متحدون بادية الأمر، أنّهم سرعان ما يسعون لطرده كل منهم الآخر عند الغلبة، ثم تطرق إلى أوضاع الناس الدينيه والأخلاقية آنذاك فقال:

«قَدِ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبِيلِ، وَعَمِيَ وَجْهُ الْمَأْمُرِ. تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةَ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظَّلَمَةَ، وَتَدُقُّ أَهْلَ الْبَيْدِ بِمِشْحَلِهَا (٣) ، وَتَرُضُّهُمْ (٤) بِكَلْكَلِهَا (٥)». نعم، حين يغيب العلماء عن مسرح الأحداث تؤول الأمور إلى الظلمة ليقولوا ما يريدون ويحملوا الآخرين على فعل ما يشاؤون، آنذاك تعم الفتنة لتشمل البلاد بأسرها وتأتى على القرى الصغيره والنائبه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بشأن فضاعه أخطار هذه الفتنة (حيث يصبح الوضع بالشكل الذى) يضعف فى غبارها المشاه من الأفراد وتهلك فيها الفرسان:

«يَضِيحُ فِي غُبَارِهَا الْوُحْدَانُ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ». إشاره إلى أنّ الفتنة على درجه من القوه بحيث يكفى غبارها لقمع المعارضين المتفردين، كما تعصف بالجمع الكثير منهم إن اعترضوا سبيلها، بالتالى ليس لأحد القدره على مواجهتها والصمود بوجهها.

قال بعض شراح نهج البلاغه فى تفسيرهم لهذه العبارة، إنّ المراد ب

«الوحدان»، العلماء والفضلاء الذين يتلون بغبار الشبهات ويضيعون الحق، والركبان كناية عن الفئات المقتدره التى لا تقوى أيضاً على مقاومه رؤوس الفتنة وتهلك فى مواجهتها؛

ص: ١٧

١- (١). «يتكادمون» من ماده (كدم) على وزن شرم بمعنى العض والتكادم أن يلتحم حيوانان فيعض كل منهما الآخر

٢- (٢) «حمر» جمع حمار، بمعنى الحمار الوحشى هنا بقريته العانه وهى الجماعه من حمر الوحش

٣- (٣). «مسحل» من ماده (سحول) بمعنى الفأس والمبرد وما شابه ذلك ممّا يبرد به الشيء

٤- (٤). «ترض» من ماده (رض) التهشيم

٥- (٥) «كلكل» بمعنى الصدر

إِلَّا أَنْ التَّفْسِيرَ الْأَوَّلَ أَقْرَبَ، لِأَنَّ

«الوحدان» إشاره إلى الأفراد الوحيدين أو المشاه، و

«الركبان» إلى الأفراد الأشداء أو الفرسان.

ثم قال عليه السلام:

«تَرِدُ بِمَرِّ الْقَضَاءِ، وَتَحْلُبُ عَيْطَ (١) الدِّمَاءِ، وَتَتَلَمُّ مَنَارَ الدِّينِ، وَتَتَّقِضُ عَقْدَ الْيَقِينِ. يَهْرُبُ مِنْهَا الْأَكْيَاسُ، وَيُدْبِرُهَا الْأَرْجَاسُ»، أَجَلٌ حِينَ يَنْحَى الْأَكْيَاسُ وَالْحُكَمَاءُ وَيَتَسَلَّمُ الْأَرَاذِلُ وَالْأَرْجَاسُ زَمَامَ الْأُمُورِ تَتَصَدَّعُ عَرَى الْإِيمَانِ وَتَتَفْسَخُ عَقْدَ الْيَقِينِ وَتَتَعَرَّضُ أَرْوَاحُ النَّاسِ وَأَعْرَاضُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلَى الْخَطَرِ.

ويختتم الإمام عليه السلام بيانه لخصائص هذه الفتنة العظيمة بالقول:

«مِرْعَادٌ (٢) مِبْرَاقٌ، كَاشِفَةٌ عَن سَبَاقٍ! تُقَطِّعُ فِيهَا الْأَرْحَامَ، وَيُفَارِقُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامَ! بَرِيئَةٌ سَقِيمٌ، وَظَاعِنَةٌ مُقِيمٌ!». و «مِرْعَادٌ مِبْرَاقٌ»، صفات كنهية لشده هول هذه الفتنة، لأن هذه العبارات عادة ما تستعمل بهذا المعنى، رغم أن بعض الشراح عدوا ذلك إشاره إلى أصوات ضربات السيوف وبرقها، غير أن المعنى الأول أنسب. وعبارته

«كَاشِفَةٌ عَن سَبَاقٍ» كناية عن شده مشقتها؛ لأنَّ الإنسان يشمر عن ذراعه وساقه عادة إن همَّ بإتيان عمل شاق. وعبارته

«تُقَطِّعُ فِيهَا الْأَرْحَامَ» إشاره إلى أن رؤوس الفتنة لا- يرعون في آخ وأب وأم إلا- ولا- ذمه ويذبحون كل من يعترض طريقهم ولتحقق رغباتهم.

ومن الطبيعي أن تغيب التعاليم الإسلامية في ظل هذه الظروف، وأخيراً عبارته

«بَرِيئَةٌ سَقِيمٌ، وَظَاعِنَةٌ مُقِيمٌ!» إشاره إلى أن الفتنة تطال حتى من يعتقد بأنه بعيد عن مخاطر هذه الفتنة، كما يقع فيها حتى من ظن باستطاعته الهرب منها، فهي فتنة كاسره قاصمه قل من ينجو منها.

ص: ١٨

١- (١). «عَيْطٌ» من مادة (عبط) على وزن خبط بمعنى قطع رأس الحيوان ويقال الدم العييط للدم الطرى الذى يجرى من بدن الإنسان أو الحيوان

٢- (٢). «مِرْعَادٌ» من مادة (رعد) الشىء العظيم الصوت والمبراق من مادة (برق) الشىء البراق الذى يخطف الأبصار

بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ، يَخْتَلُونَ بِعَقْدِ الْإِيمَانِ وَبِعُزُورِ الْإِيمَانِ؛ فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ، وَأَعْلَامَ الْبِدَعِ؛ وَالزُّمُوا مَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ، وَبَيِّتْ عَلَيْهِ أَرْكَانَ الطَّاعَةِ؛ وَأَقْدَمُوا عَلَى اللَّهِ مَظْلُومِينَ، وَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ؛ وَأَتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ وَمَهَابِطَ الْعُدْوَانِ؛ وَلَا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ الْحَرَامِ، فَإِنَّكُمْ بَعَيْنٍ مِّنْ حَرَمٍ عَلَيْكُمْ الْمَعْصِيَةَ، وَسَهْلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ.

الشرح والتفسير: التكليف حين الفتنه

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى عدم إرتباط هذا الجانب من الخطبه بما سبقه من كلام، وقد اختاره السيد الرضى جرياً على عادته فى الاقتطاف ولم يذكر الكلام الذى سبقه؛ والحال هنالك ارتباط وثيق بين هذا المقطع من الخطبه وما سبقه من مقاطع، حيث تصدت المقاطع السابقه لبيان الفتن التى تنتظر الناس وأهم مميزاتها، وانتقلت هنا إلى نتائجها ووظيفه الأُمَّه فى ظلها، فقد استهل الإمام عليه السلام كلامه هنا قائلاً:

«بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ (١)، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ»، ثم واصل كلامه بالقول:

«يَخْتَلُونَ (٢) بِعَقْدِ الْإِيمَانِ وَبِعُزُورِ الْإِيمَانِ».

أجل فرأس الفتنه يتشبت بكل وسيله لتحقيق مآربه الشيطانيه من قبيل ممارسه

١- (١). «مطلول» من هدر دمه من ماده (طل) على وزن حل بمعنى هدر الدم

٢- (٢) «يختلون» بمعنى (يخدعون) من ماده (ختل) على وزن قتل بمعنى الخداع

القتل والقمع والتظاهر بالإيمان إن اقتضت الضرورة واعطاء الأمان لبعض الأفراد ومن ثم ضرب كل هذه الأمور عرض الحائط، ثم أشار الإمام عليه السلام إلى وظائف الناس في ظل هذه الفتن والإرباكات فأورد خمس تعليمات لأصحاب الحق فقال في وصيته الأولى:

«فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ، وَأَعْلَامَ الْبِدَعِ» إشاره إلى اعتزال هذه المعركة الخطيره دون التعاون مع رؤوس الفتنه وأصحاب البدعه.

والوصيه الثانيه:

«وَالزُّمُومَا مَيَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبِيلُ الْجَمَاعَةِ، وَبُنِيَ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ» والزموا ما عقد عليه حبل الجماعة، وبنيت عليه أركان الطاعه إشاره إلى ضروره الالتزام بالقوانين والتعاليم الشرعيه التي تضمن طاعه الله وبقاء المجتمع الإسلامى ورعايتها قدر المستطاع فى ظل نشوب الفتن، ذلك لأنه إن كان هنالك من سبيل للنجاه من الفتنه إنما يتمثل فى الالتزام بهذه التعاليم، والكلام يشمل بالطبع التعاليم الإسلاميه الوارده بهذا الخصوص من قبيل الجمعه والجماعه والحج والتكافل الاجتماعى، وهى الأمور التى تؤدى إلى النجاه من الفتنه.

وقال فى الوصيه الثالثه:

«وَأَقْدَمُوا عَلَى اللَّهِ مَظْلُومِينَ، وَلَمَّا تَقَدَّمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ». طبعاً ليس مفهوم العبارة الاستسلام للظلم والاستجابة للظالم؛ فهذا الأمر منهى عنه فى الإسلام وهو نوع من إعانة الظالم على الظلم، لكن المراد إن خيرتم بين أمرين إما أن تهضم حقوقكم أو تهضموا حقوق الآخرين، فما عليكم إلا أن تغضوا الطرف عن حقوقكم لكي لا تدنسوا أنفسكم بظلم الغير، ومثل هذا الأمر عادل ومرضى لله على ضوء قاعده تقديم الأهم على المهم.

الوصيه الرابعه:

«وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ وَمَهَابِطَ الْعُدْوَانِ» أى لا تقتربوا من الخطوط الحمراء (الظلم والفساد)، والتعبير ب

«المدارج» و

«المهابط» إشاره إلى نكته لطيفه، أى أن الشيطان يرفع الإنسان من سلم الطغيان، فإن بلغ القمه قذف به إلى الأسفل، وأحياناً يهوى به إلى أوديه المعصيه ليزل قدمه فتهوى به إلى أعماق الكبائر.

ص: ٢٠

«وَلَا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لُعُقَ (١) الْحَرَامِ، فَمَا نُنْكُم بَعِينٍ مِّنْ حَرَمٍ عَلَيْكُمُ الْمَعْصِيَةِ، وَسَيَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ». لا- شك في أن الأموال الحرام تزداد في أيدي الناس في ظل حكومه الظلمه وبروز الفتن والاستفاده من تلك الأموال تنعكس سلباً على الإنسان، فهي تسود القلب وتبعد الإنسان عن الله وتسوقه لاتباع خطوات الشيطان. فالإمام عليه السلام يحذر من الحرام ويلفت نظرهم إلى عدم غلق الرحمن لأبواب الطاعه والكسب الحلال قط، فالله يترك الباب مفتوحاً في كل الظروف بوجه عباده لممارسه الطاعه والنجاه من الفتنه. قال العلامه مغنيه: «إن أفضل تفسير لهذه العبارة وما بعدها ما أورده الإمام عليه السلام في الخطبه ١١٤

إِنَّ الَّذِي أَمَرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهِيْتُمْ عَنْهُ وَمَا أَجَلَ لَكُمْ أَكْثَرَ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُّوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ».

ص: ٢١

١- (١). «لعق» جمع لعقه، الشىء القليل، وما تأخذه من طعام بالملعقه

وَمِنْ حُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صِفَاتِ اللَّهِ جَلَّ جَلَّالُهُ، وَصِفَاتِ أُمَّتِهِ الدِّينِ (١)

نظرة إلى الخطبه

تتكون هذه الخطبه بصوره رئيسيه من ثلاثه أقسام. أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول إلى بعض النقاط المهمه بشأن صفات الله التي صرح فيها بعض شراح نهج البلاغه بأنها لم ترد في أى كتاب وهى أعظم من تلك المطالب التي ذكرها الفلاسفه والحكماء والعرفاء بشأن صفات الله، بينما أشار في القسم الثانى إلى المنزله الرفيعه لزعماء الدين وأئمه الهدى ومقامهم عند الله وموقعهم فى المجتمع البشرى، وتحدث الإمام عليه السلام فى القسم الثالث عن نعمه الله الكبرى أى الإسلام والقرآن، فذكر بعض النقاط الرقيقه بشأن هذا الكتاب السماوى ليقف المسلمون على عظمه الكتاب وينهلوا من فيضه العذب.

ص: ٢٣

١- (١) سند الخطبه: أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبه بعد تسلّمه الخلافه. هذا ما ذكره ابن أبى الحديد والذى يدل على أنه وجدها فى مصدر آخر غير نهج البلاغه؛ وذلك لأنّ نهج البلاغه لم يشر إلى هذا الموضوع، كما روى المرحوم الكلينى بعضها فى الجزء الأول من أصول الكافى، وأشار الآمدى فى غرر الحكم إلى بعض جوانب الخطبه. (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٣٤٤)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الدَّالُّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَبِمُخْدِتِ خَلْقِهِ عَلَى أَرْزَاقِهِ؛ وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَاشَبَهَ لَهُ. لَاتَسْبِيحُهُ الْمَشَاعِرُ، وَلَمَّا تَحَجُّبُهُ السَّوَابِرُ، لِإِفْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ، وَالْحَادِّ وَالْمُخْدُودِ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ؛ الْأَحَدِ بِلَا تَأْوِيلٍ عَدَدٍ، وَالْخَالِقِ لِابْمَعْنَى حَرَكَهٍ وَنَصْبٍ، وَالسَّمِيعِ لِابْأَدَاهِ، وَالْبَصِيرِ لِابْتَفْرِيقِ آلِهِ، وَالشَّاهِدِ لِابْمَمَاسَةِ، وَالْبَائِنِ لِابْتِرَاحِي مَسَافِهِ، وَالظَّاهِرِ لِابْرُؤِيهِ، وَالْبَاطِنِ لِابِلَطَافِهِ. بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَالْقُدْرَةَ عَلَيْهَا، وَبَانَ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ. مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَرْزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: «كَيْفَ» فَقَدْ اسْتَوْصَى فُهُ، وَمَنْ قَالَ: «أَيْنَ» فَقَدْ حَيَّزَهُ. عَالِمٌ إِذْ لَمَعْلُومٌ، وَرَبٌّ إِذْ لَمَرْبُوبٌ، وَقَادِرٌ إِذْ لَمَقْدُورٌ.

الشرح والتفسير: شمه من صفات الله الجماليه والجلاليه

كما ذكر آنفاً فإن الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبه بعد أن بايعته الأمة أثر نقيمتها على عثمان وبطانته وقتلها إياه، استهل الإمام عليه السلام الخطبه بمعرفه الله وبيان صفاته الجلاليه والجماليه؛ كونها دعامة السعاده والفلاح والصلاح الفردي والاجتماعي. وقد ذكر ثمان صفات في عبارات قصيره عميقه المعنى بما يعجز الفلاسفه والمتكلمون عن الوقوف على كنهها.

فقد قال عليه السلام:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الدَّالُّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ» أجل، حين نتأمل عجائب

الخلقه إلى جانب الأسرار والنظم التي تكتنف خلق الأرض والسماء والإنسان والحيوان لا نملك سوى التسليم بأن هنالك إرادته حكيمه وقادره عالمه وراء كل تلك الآثار البديعه التي لا يسعها أن تكون وليده هذه الطبيعه الصماء، وهذا هو برهان النظم الذى أشار إليه القرآن الكريم والروايات الإسلاميه بفضلله أدل دليل على معرفه الله.

ثم قال فى بيان الصفه الثانيه:

«وَبِمُخَيَّدَتِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلَّتِهِ» والعبارة فى الواقع إشاره إلى برهان الوجوب والإمكان؛ ذلك أن سلسله المخلوقات التي ارتدت لباس الوجود خلف بعضها البعض لا يمكنها الاستمرار إلى مالانهايه فكل حادث مخلوق، لأن عدم تناهى المعلول يحتاج بالتالى إلى علّه أزليه وغنيه عن الخلق والتي يصطلح عليها بواجب الوجود.

وقال فى الصفه الثالثه:

«وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَأَشْبَهَهُ لَهُ» والسؤال الذى يطرح نفسه: كيف يكون تشابه المخلوقات دليلاً على عدم الشبيه لله؟ الجواب: أن هذا الشبه دليل على تركيب هذه المخلوقات، لأن لها قدراً مشتركاً من قبيل الزمان والمكان وبعض الإشكال والعوارض الظاهريه، كما هنالك بعض الجهات المختلفه التي تميزها عن بعضها. وبناءً على هذا فإن كل مخلوق مركب مما به الاشتراك وما به الامتياز (الجهات المشتركه والجهات المختلفه) ومن الطبيعى أن تكون هذه المخلوقات المركبه محتاجه (محتاجه إلى أجزائها ومن يركبها) ومن هنا نفهم أن لا شبيه لله وإلا لزم التركيب والحاجه على ذاته المقدسه.

وقال فى الصفه الرابعه والخامسه:

«لَا تَسْتَلِمُهُ (١) الْمَشَاعِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَابِرُ، لِإِفْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ» والدليل واضح على تعذر بلوغ مشاعر الإنسان بما فيها الحواس الظاهريه والباطنيه والعقل كنه ذاته المقدسه؛ فهو وجود غير محدود ولامتناه من جميع الجهات، والعقل البشرى

ص: ٢٤

١- (١). «تستلمه» من ماده (الاستلام) بمعنى الاتصال بالشيء

محدود من جميع الجهات، وغير المحدود لا يسعه المحدود مطلقاً. من جانب آخر فقد ملأت آثار وجوده أركان العالم بأسره بحيث لا يسع شيء حجبها، فذاته خفيه على الجميع وآثاره ظاهره للجميع.

والعبارة

«لِإِفْتِرَاقِ الصَّانِعِ...» دليل على خفاء ذاته المقدّسه وظهور آثاره، لاختلاف الخالق والمخلوق والحاد والمحدود والرب والمربوب. فالمصنوع الممكن الوجود لا يمكنه إدراك الصانع الواجب الوجود، والمخلوقات المحدوده لا يسعها درك الخالق اللامحدود والموجودات الخاضعة لربوبيه الرب يتعذر عليها إدراكه كما هو. جدير بالذكر أنّ طائفه من شرّاح نهج البلاغه ذهبوا إلى أنّ هذه استدلالات على جميع الصفات المذكوره سابقاً، إلّا أنّ التفسير الأول يبدو أنسب.

وقال في بيانه للصفه السادسه والسابعه:

«الْأَحَدُ بِلَا تَأْوِيلٍ عَدَدٌ، وَالْخَالِقُ لَا بِمَعْنَى حَرَكَهِ وَنَصْبِ (١)» فحين يقال: الله واحد يتصور البعض أن مفهوم ذلك أنه واحد وليس بشان، وهذا خطأ محض؛ لأنّ مفهوم هذا الكلام إمكانيه تصور ثانٍ له ولكن لا- وجود له؛ والحال لا يمكن تصور ثانٍ لذاته المقدّسه، وهل يمكن تصور التعدد في الذات اللامحدوده من جميع الجهات؟! لو تصور التعدد لكان كلاهما محدودا. وعليه فتوحيد الذات الإلهيه ليس بمعنى الوحده العدديه، بل بمعنى الوحده بالنسبه للشبيهه والنظير وما شاكل ذلك، لا في الذهن ولا في الخارج. وحين يقال: قد يقتدح إلى ذهن البعض أنّ الخالق شمر عن ساقيه ويديه وانطلق من هنا إلى هنالك واجهد نفسه لخلق الموجودات؛ على غرار ما نقوم به حين نصنع بعض الأشياء، كلا:

«إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (٢).

ثم تطرق إلى الصفه الثامنه والتاسعه فقال:

«وَالسَّمِيعُ لَابَادَاهِ، وَالْبَصِيرُ لَابْتَفْرِيقِ آلِهِ». والتوضيح الذي أورده الإمام عليه السلام منشأ ما يتوارد إلى الأذهان حين الحديث

ص: ٢٧

١- (١). «النصب» بمعنى التعب والمشقه

٢- (٢) سورة يس، الآية ٨٢.

عن السمع والبصر وما شابه ذلك إلى سماعنا وبصرنا الذى يتم من خلال بعض الوسائل من قبيل الاذن والعين، والحال سماعه وبصره سبحانه ليس بأداة، بل بحضور ذاته المطلقة فى كل مكان وفى ظاهر جميع الأشياء وباطنها. العبارة

«لَمَّا بِنْفَرِيقِ آلِهِ» يمكن أن تكون إشاره إلى نقطه وهى أنّ الإنسان إذا أراد رؤيه صورته كامله - بيت مثلاً - ينبغى له أن يركز بصره على مختلف جوانب ذلك البيت، ليرى أعلاه وأسفله وشرقه وغربه، وتنتقل عدّه صور إلى الدماغ ليقوم بترتيبها للظفر بصوره صحيحه تامه عن البيت. وبناءً على هذا فوظيفه العين الأولى، التقاط الصور المستقله، والثانيه، تحويلها إلى الدماغ ليركبها مع بعضها. وهكذا بشأن مشاهدته حركه معينه - كحركه إنسان مثلاً - والعمليه أشبه بالتقاط الأفلام والتصوير، حيث تلتقط العين كل لحظه صورته لشكل ذلك الإنسان وهيته، ثم تنقلها إلى الدماغ ليركب هذه الصور واطهار الحركه.

قال فى بيانه للصفه العاشره والحاديه عشره:

«وَالشَّاهِدِ لِابِّمُؤَسَّسِهِ، وَالْيَائِنِ لَمَّا بِنْفَرِيقِ مَسَافِهِ». إشاره إلى أنّ حضور الله فى كل مكان لا بمعنى الحضور المكانى من خلال الاتصال بالأشياء، بل حضوره بمعنى إحاطته الوجوديه بكل شىء، كما أنّ مباينته عن الأشياء ليس على نحو المسافه المكانية أو الزمانيه، بل بمعنى أنّ ذاته فى ذروه الكمال وما سواه فى غايه النقص. لعل هنالك من يتصور تناقض هذه الصفات مع تلك التى ستأتى، فالبعد والقرب والعلو والदनو والظاهرية والباطنيه من الصفات التى لا يسع تفكيرنا جمعها مع بعضها؛ والأمر كذلك بالنسبه لهذه الصفات أن استعملت بشأن المخلوقات المحدوده من حيث الزمان والمكان ومختلف الجهات، غير أنّ هذه الصفات المتضاده يمكن جمعها فى الذات المقدسه اللامتناهيه، فرغم حضوره المطلق فى كافه الأماكن (بمعنى إحاطته العلميه بجميع الأشياء) لكن ليس له حضور مكانى فى أى مكان، ذلك لأنه ليس بجسم ليحتاج إلى مكان.

ثم خاض الإمام عليه السلام في بيان الصفه الثانيه والثالثه عشره فقال:

«وَالظَّاهِرُ لَا بُرُؤِيَّةَ، وَالْبَاطِنُ لَا بِلَطَافَةٍ» أَجَلٌ، فَهُوَ أَظْهَرَ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، فَآثَارُهُ قَدْ مَلَأَتْ الْعَالَمَ بِأَسْرِهِ فَاصْبِحِ الْوَجُودَ قَبْسًا مِنْ صِفَاتِ جَلَالِهِ وَجَمَالِهِ، وَهُوَ خَفِيَ لَا عَلَى شَاكِلَةِ الْأَشْيَاءِ اللَّطِيفَةِ الْغَايَةِ فِي الصَّغَرِ كَالْهَوَاءِ، بَلْ بِمَعْنَى عَجْزِ الْعُقُولِ عَنِ إِدْرَاكِ كُنْهِ ذَاتِهِ.

والصفه الرابعه عشره:

«بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَالْقَدْرَةَ عَلَيْهَا، وَبَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ» أَيْ إِنْ قِيلَ إِنَّ اللَّهَ بَائِنٌ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ، فَذَلِكَ لَا يَعْْنَى أَنَّهُ بَعِيدٌ عَنَّا، بَلْ هُوَ قَرِيبٌ مِنَّا بِمَقْتَضَى الْأَدْلَةِ الْفَلَسْفِيَّةِ الْقَطِيعَةِ وَصَرِيحِ الْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (١)، وَالْمَعْنَى أَنَّ قَدْرَتَهُ قَهَرَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ اللَّهِ، وَأَيْنَ الثَّرَى مِنَ الثَّرِيَا؟ كَمَا أَنَّ بَيْنُونَهُ الْأَشْيَاءِ عَنْهُ تَعْنَى خُضُوعِ كُلِّ شَيْءٍ لِإِرَادَتِهِ.

وقال في الصفه الخامسه عشره التي تنزهه الذات عن الوصف:

«مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَيَّرَهُ، وَمَنْ حَيَّرَهُ فَقَدْ عَيَّرَهُ، وَمَنْ عَيَّرَهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزْلَهُ، وَمَنْ قَالَ: «كَيْفَ» فَقَدْ اسْتَوْصِيَهُ، وَمَنْ قَالَ: «أَيْنَ» فَقَدْ حَيَّرَهُ» (٢).

وتوضيح هذا الكلام: إننا كمخلوقات نعيش في عالم الممكنات إنما نقارن كل شيء بالنسبه لنا، ونصف الله في أغلب الأحيان بأوصافنا الناقصه والمحدوده فنضفي عليه بعض صفات الممكنات وهذا هو وادى التشبيه الخطير الذي حذرتنا الآيات والروايات من السقوط فيه. ومن هنا قال الإمام عليه السلام من وصف الله بهذه الصفات فقد حده ومن حد الله فإنه سيتصور له شبيها لا محال وعليه سيجعله في قالب الأعداد فإن فعل ذلك أنكر عليه أزليته وأبديته، ذلك لأن هاتين الصفتين تترشحان من ذاته الغنيه عن الحدود، كما أن من يسأل عن كيفية ذاته فقد نعتة بصفات المخلوقات، ومن سأل عن مكانه أو زمانه فقد افترضه جسماً يقع ضمن

ص: ٢٩

١- (١). سورة ق، الآية ١٦

٢- (٢) «حيزه» من ماده (حيز) بمعنى المكان

دائره المكان والزمان. ولعل هنالك من يرى الوصف المذكور ليس بقوه الأوصاف السلبيه الثلاث عدم الحدوديه ونفى الكيفيه ونفى المكان على الذات المقدسه.

أما الصفات السادسه عشره والسابعه عشره والثامنه عشره، فقال فى بيانها عليه السلام:

«عَالِمٌ إِذْ لَمَّا مَعْلُومٌ، وَرَبٌّ إِذْ لَمَّا مَرْبُوبٌ، وَقَادِرٌ إِذْ لَمَّا مَقْدُورٌ». إِمَّا أَنَّهُ عَالِمٌ إِذْ لَا مَعْلُومَ فَذَلِكَ لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِذَاتِهِ وَذَاتِهِ مَصْدَرُ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ، وَعَلَيْهِ فَالْعِلْمُ بِالذَّاتِ هُوَ فِي الْوَاقِعِ عِلْمٌ بِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي لَبَسَتْ ثَوْبَ الْوُجُودِ تَدْرِيجِيًّا فِي الْعَالَمِ. وَإِمَّا أَنَّهُ رَبٌّ قَبْلَ وُجُودِ الْمَوْجُودَاتِ فَذَلِكَ لِأَنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى الرَّبُوبِيَّةِ وَرَبُوبِيَّةِ الْمَوْجُودَاتِ عَيْنُ ذَاتِهِ الْمَقْدَسَةِ، عَلَى غَرَارِ قَوْلِنَا: إِنَّ فَلَانًا مَدِيرًا وَمُدِيرًا فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَمْ يَتَسَلَّمْ فِيهِ لِحَدِّ الْآنِ زَمَامَ الْإِدَارَةِ.

وأخيراً إن قيل هو قادر قبل وجود المقدور فإنما يستند ذلك أيضاً إلى أن قدرته عين ذاته، وهكذا كقولنا إن فلاناً قادر على القيام بالعمل الفلانى ولم يقم به لحد الآن. وزبده الكلام فإن صفاته كالعلم والقدره وجميع الصفات الثبوتيه عين ذاته تبارك وتعالى، وعليه فقد كان كل شىء قبل أن يوجد أى شىء، ولو تمعنا قليلاً فهو الآن كل شىء وكل ما سواه لا شىء.

منها: «قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ، وَلَمَعَ لَمَاعٌ، وَلَمَّاحٌ لَائِحٌ، وَاعْتَدَلَ مَائِلٌ؛ وَاسْتَبَدَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ قَوْمًا، وَبِيَوْمٍ يَوْمًا؛ وَانْتَبَرْنَا الْغَيْرَ انْتِظَارَ الْمُجِيبِ الْمَطْرِ. وَإِنَّمَا الْأُمَّةُ قَوْمٌ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ، وَعَرَفَاؤُهُ عَلَى عِيَادِهِ؛ وَلَمَّا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ. وَلَمَّا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَاسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ اسْمٌ سَلَامٌ، وَجَمَاعٌ كَرَامَةٌ.

أَضِطَّفَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُجَهُ، وَبَيَّنَّ حُجَجَهُ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ، وَيَاطِنِ حِكْمٍ. لَمَّا تَفَنَّى غَرَائِبُهُ، وَلَمَّا تَنَقَّضَى عَجَائِبُهُ. فِيهِ مَرَابِيعُ النِّعَمِ، وَمَصَابِيحُ الظُّلْمِ، لَمَّا تَفْتَحُ الْخَيْرَاتُ إِلَّا بِمَفَاتِيحِهِ، وَلَمَّا تُكْشَفُ الظُّلْمَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ. قَدْ أَحْمَى حِمَاهُ، وَأَزْعَى مَرْعَاهُ. فِيهِ شِفَاءٌ الْمُسْتَشْفَى، وَكَفَايَةٌ الْمُكْتَفَى».

الشرح والتفسير: إنتظار الفرج

يعتقد البعض من شراح نهج البلاغه - كما ذكرنا سابقاً - بأن هذه الخطبه ولاسيما هذا المقطع منها يعالج مسائل الخلافه عقب مقتل عثمان وبيعه الأُمَّه للإمام عليه السلام بالخلافه، والشاهد على ذلك عباراتها وخاصه مايتعلق بأئمه المسلمين. على كل حال فإن الإمام عليه السلام أشار هنا بادىء الأمر إلى ظهور خلافه الحق فقال:

«قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ، وَلَمَعَ لَمَاعٌ، وَلَمَّاحٌ لَائِحٌ، وَاعْتَدَلَ مَائِلٌ» تفيد هذه العبارات بما لا يقبل الشك أنّ عهد حكومه عثمان كان من العهود المظلمه فى التاريخ الإسلامى، وذلك لأنّ بطانته وقرابته استاثرت بالسلطه وتسلطت على كافه المقامات المهمه فى البلاد

وجعلت بيت المال جزءاً من ملكيتها الشخصيه فتعالت صرخات المحرومين إلى عنان السماء، ثم أشرقت من بعده شمس العدالة واحترقت سحب الظلم لتعود الحكومه إلى سابق عزها على عهد النبي الأكرم صلى الله عليه و آله. جدير ذكره، هنالك خلاف بين شرّاح نهج البلاغه بشأن العبارات الثلاث الأولى، هل العطف فيها عطف تفسيري وأنها تبيّن مطلباً واحداً (بزوغ شمس ولايه الحق) بعدّه عبارات، أم أنّ كل عبارته تشير إلى معنى معين. ويبدو الصحيح أنّ لكل عبارته معنى معين؛ لأنّ الشمس إنّما تجتاز ثلاث مراحل حين البزوغ؛ الأولى: الخروج من الأفق، والثانيه: نشر شعاعها على سطح الأرض، والثالثه: ارتفاع قرص الشمس وتوسطها للسماء وطلوعها للجميع. وكل عبارته من العبارات الثلاث تشير إلى مرحله من هذه المراحل؛ أي أشرقت شمس الولايه وألقت بأشعتها على الأرض وبالتالي ارتفعت لتستقر في قلب السماء.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالقول:

«وَأَسِيَّبَدَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ قَوْمًا، وَيَوْمَ يَوْمًا؛ وَأَنْتَظَرْنَا الْغَيْبَ أَنْتَظَرَ الْمُخِيبِ الْمَطَرِ». حيث تشير هذه العبارات بوضوح إلى أنّ الحوادث التي وقعت على عهد عثمان لم تكن بعيدة عن التوقع، فكلّ شخص عاقل كان يتكهّن بأنّ مثل هذه الحكومه التي تتسلم فيها القرابه مقدرات البلاد دون رادع أو وازع سوف لن يكتب لها النجاح وأنها ترعرع نطفه الثوره في رحمها، وهذه سنّه إلهيه جاريه طيله التاريخ، ولعلّ من أشكال على على عليه السلام ما ورد في هذه العباره أنّه كان ينتظر مقتل عثمان، قد غفل عمّا ذكرناه آنفأ من أنّ تلك الأحداث كانت متوقعه من قبل شخص فطن، بعباره أخرى إنّما كان ذلك نتيجة طبيعیه لتلك الأعمال. أضف إلى ذلك فإنّ الإمام عليه السلام لم يكن راضياً بمقتل عثمان - بل ينتظر التغييرات على غرار من ينتظر المطر حين الجفاف؛ وياله من تعبير رائع! فالبلاد الإسلاميه أصبحت إثر ظلم بطانه عثمان وكأنها صحراء مقفره وقد أمطرتها السماء بزوال عثمان وظهور حكومه العدل العلوي. وقد تعرض ابن أبي الحديد المعتزلي لهذه القضيه من خلال

إثارته لسؤال والإجابة عنه.

فقد سأل نفسه بادية الأمر: هل يصح حسب عقيدة المعتزلة أن ينتظر على عليه السلام قتل عثمان انتظار نزول المطر حين الجفاف؟ أو ليس هذا دليلاً على حقانيه الشيعة؟ ثم قال ابن أبي الحديد في مقام الجواب عن هذا السؤال: إنَّ علياً عليه السلام لم يقل كُنَّا ننتظر قتله، بل كان ينتظر بعض التغييرات كعزله عن الخلافة، لأننا نعتقد أنه كان يرى أعماله توجب ضروره عزله لا قتله، وهذا ينسجم مع عقيدتنا، كما تعرّض لسؤال آخر وهو: هل تعتقد المعتزلة أنَّ علياً عليه السلام كان يعتبر عثمان فاسقاً يجب عزله عن الخلافة؟ فيجيب: إنَّ المعتزلة لا ترى ذلك، بل تعتقد إنَّ علياً عليه السلام كان يرى عثمان شخصاً ضعيفاً لا يستطيع تدبير أمور المسلمين، وذلك لأنه قرب بطانته وسلطهم على بيت مال المسلمين حتى قاموا عليه (١).

ثم تطرّق الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه إلى منزله أئمه الهدى فقال:

«وَأَيُّهَا الْأَيُّمَةُ قَوْمُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَعُرْفَاؤُهُ (٢) عَلَى عِبَادِهِ؛ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ.

وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ». وهذه العبارة تفيد أنَّ نصب الإمام عليه السلام من قبل الله تعالى لا من قبل الناس وإن كانت هنالك من بيعه وانتخاب فبغية تنسيق الأعمال والنهوض بمستوى الأئمة وتطوير شؤونها، والمفردة

«قَوْمُ» إشاره إلى تدبير شؤون الخلق والعرفاء جمع عريف إشاره إلى أن هؤلاء الأئمة بفعل معرفتهم بالآخرين وعلمهم بالظروف الزمانية والمكانية وخبرتهم بمصالح الناس ومفاسدهم إنما يضعون كل فرد في موضعه المناسب ويباشرون كل عمل بموعده وفي وقته.

وأما العبارة

«وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ...»

وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ» تأكيد لما قيل في العبارات السابقة؛ فلو سلّمنا أنهم نُصِبوا من قبل الله، فمن تبعهم وسار على نهجهم وقبلوا عمله كان من الداخلين إلى الجنة، ومن أنكرهم فقد أنكر في واقع الأمر أوامر الله،

ص: ٣٣

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ١٥٣

٢- (٢). «عرفاء» جمع عريف، بمعنى رئيس القوم الذي يدير أمورهم ويعرفه جميعهم

ومثل هذا الفرد يدخل النار. وطبعاً كل هذه العبارات تنسجم مع المدرسه الشيعيه التي ترى نصب الإمام من قبل الله بواسطه النبي أو من سبقه من إمام، وتراه معيار الفرقان بين الحق والباطل، وتعتقد بعدم اتّصاف من يختاره الناس بهذه المقامات ولعله يسير فيهم بالخطأ والظلم والعدوان، ومن هنا ورد في الحديث الشريف:

«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةَ الْجَاهِلِيَّةِ»^(١) والغريب إصرار ابن أبي الحديد على أنّ هذه العبارة صادقه على جميع الخلفاء من بعد النبي صلى الله عليه وآله والحال عرض الإمام عليه السلام في العبارات السابقه بالذم الشديد لحكومته عثمان؛ الأمر الذي يتناقض صراحة مع ما استنبطه ابن أبي الحديد. بل كيف يكون ذلك الخليفه الضعيف - الذي جعل كافة مناصب الدوله الإسلاميه وبيت مال المسلمين ومقدّراتهم تحت تصرف قرابته الانتهازيه الهزيله من عبده الأهواء حتى قامت ضدّهم جموع المسلمين وأباحوا دماءهم وقد صمت إزاء ذلك أغلب الصحابه - مصداقاً لقول الإمام عليه السلام: قوام الله على خلقه وعرفاؤه على عبادته؟ ليدخل من أذعن له الجنّه ومن أنكره النار؟! ورد في الحديث الشريف أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال لأمر المؤمنين على عليه السلام:

«ثَلَاثَةٌ أَقْسِمُ أَنَّهُنَّ حَقٌّ، إِنَّكَ وَالْأَوْصِيَاءَ مِنْ بَعْدِكَ عَرَفَاءٌ، لَا يَعْرِفُ اللَّهُ إِلَّا بِسَبِيلِ مَعْرِفَتِكُمْ، وَعَرَفَاءٌ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَكُمْ وَعَرَفْتُمُوهُ، وَعَرَفَاءٌ لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَكُمْ وَأَنْكَرْتُمُوهُ»^(٢).

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى أعظم النعمه التي منّ الله بها على المسلمين:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَاسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ» أجل، إنّ الله تعالى خصّكم بهذه النعمه العظيمه ورآكم أهلاً للذود عنه.

ثم أضاف:

«وَذَلِكَ لِأَنَّهُ اسْمُ سَلَامَةٍ، وَجَمَاعُ كَرَامَةٍ». ووضح ذلك بالقول:

«اضْطَفَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُجَهُ، وَبَيَّنَّ حُجَجَهُ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ، وَبَاطِنِ حَكْمٍ». لعلّ

ص: ٣٤

١- (١). اصول الكافي، ج ١، ص ٣٧١-٣٧٨؛ بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٢٣ ومستدرک الوسائل، ج ١٨، ص ١٨٧

٢- (٢) خصال الصدوق، باب الثلاثه، ح ١٨٣

«منهجه» و «حججه» يعود إلى الله أو الإسلام والنتيجة واحده لكليهما، والعبارة

«ظَاهِرٌ عِلْمٌ» إشاره إلى الأدله العقلية التي تثبت حقانيه الإسلام، كما أنّ العبارة

«بَاطِنٌ حِكْمٌ» إشاره إلى أسرار الأحكام الشرعيه المبيّنه في الأدله النقليه.

نعم، الإسلام دين السلامه وشرعه الكرامه، ودعوته أينما كان إلى الحب والسلام والوئام والتحذير من البغض والعنف والعداوه حيث يخاطب المؤمنين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» (١). أضف إلى ذلك فإنّه مصدر الكرامه الإنسانيه وداعيه العدل والمساواه والحرية وتنميه الفكر والبيان والورع والتقوى ومكارم الاخلاق. والحق أنّ المسلمين أفضل سند ودرع للدود عن الإسلام وقد ضحّوا بالغالي والنفيس طيله التاريخ من أجل إسلامهم وسعوا جاهدين لحفظ بيضته وكيانه، ولما كانت هذه العبارات تختزن إشاره واضحه إلى القرآن الكريم، فقد أردفها بيان خصائص هذا الكتاب السماوى بما يربو على عشر صفات فقال:

«لَمَّا تَفَنَّى غَرَائِبُهُ، وَلَا تَنَقَّضَى عَجَائِبُهُ. فِيهِ مَرَابِيعٌ (٢) النَّعْمِ، وَمَصَابِيحُ الظُّلَمِ، لَا تُفْتِيحُ الخَيْرَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ» فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات إلى ست صفات مهمه للقرآن الكريم كل واحده منها أروع من الأخرى، فذكر بادىء الأمر أن غرائب القرآن (صفاته البارزه الفريده) لا تفنى أبداً ولا يعتريها غبار القدم فتتآكل، فهى غصّه طريه على الدوام، وأشار فى الصفه الثانيه إلى التجدد والحيويه التى تبدو عليه كل يوم فقال: إنّها لا تنقضى؛ وعليه فالفارق بين

«الغرائب» و

«العجائب» و «الفناء» و «الانقضاء» أن الأولى إشاره الصفات البارزه التى كان وسيظل يتحلى بها القرآن، والثانيه إشاره إلى نقاط مهمّه تظهر كل يوم من تقادم الزمان وكثره القراءه، وهذا ما ورد فى الحديث المروى

ص: ٣٥

١- (١). سورة البقره، الآيه ٨٢

٢- (٢). «مرابيع» جمع مربع، على وزن مثقال بمعنى المكان يثبت نبتة فى أول الربيع. وقال بعض: المطر الذى ينزل أول الربيع

عن الإمام الصادق عليه السلام حين سئل:

«ما بال القرآن لا يزداد على النثر والدرس إلا غصاصة؟ قال: لأن الله تعالى لم يجعله لزمانٍ دون زمانٍ ولا لناسٍ دون ناسٍ فهو في كل زمانٍ جديدٍ وعند كل قومٍ غصٌّ إلى يوم القيامة» (١).

ثم شبّهه في الصفه الثالثه بالأرض المليئه بالنبات وتفيض بالنعم في فصل الربيع، ونعلم جميعاً ما عليه نبات الربيع من طراوه ولطافه وطعم عذب، كما شبّهه في الصفه الرابعه بمصاييح النور التي تخترق دهاليز الظلمه وتضيء بنورها كل شىء، بينما حصر في الصفتين الخامسه والسادسه سبل نيل الخيرات بالقرآن، إشاره إلى خطأ من يبحث عن مفاتيح الخير خارج القرآن ويستعين بغيره في ضياء عتمه القلب وظلمه المجتمع.

ثم اختتم كلامه بالإشاره إلى أربع صفات أخر في أنّ القرآن قد أوضح الحلال والحرام والمباح، فهو الشفاء لمن استشفاه والكفايه لمن استكفاه

«قَدْ أَحْمَى حِمَاهُ» (٢)، وَأَرْعَى (٣) مَرْعَاهُ. فِيهِ شِفَاءُ الْمُشْتَشْفَى، وَكِفَايَةُ الْمُكْتَفَى». فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الأوصاف إلى النظام القانوني القرآني حيث بين الأصول الكليه للحلال والحرام بصوره تامه وعرض سبل مواجهه الأمراض الأخلاقيه والمفاسد الاجتماعيه على عمق هذه العبارة ما لم يتعرف على القرآن. أجل إنّ علاج الأمراض الخلقيه والانحرافات الفكرية والمشاكل الاجتماعيه كافه، في القرآن. ومن كان القرآن معه وكان مع القرآن فقد ظفر بكل شىء، كما قال الإمام عليه السلام في خطبه أخرى:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيَّ أَحَدٌ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقِهِ وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غَنِيِّ» (٤). ومن هنا بلغ

ص: ٣٦

١- (١) بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٥، ح ٨، وقد قدمنا شرحاً وافياً بهذا الشأن ذيل الخطبه ١٨

٢- (٢). «حمى» المنطقه المحرمه العائده لشخص أو جماعه ولا- يحق للآخرين دخولها دون إذن، ووردت في الخطبه بمعنى حرمت الله

٣- (٣). «ارعى» من ماده (رعى) مراقبه الشىء ومن هنا يطلق الرعى على الأغنام وحيث يترك الحيوان بحريته في المرعى فإنّ الارعاء ورد بهذا المعنى في الخطبه، أى أنّ الله حكم في قرآنه بحريه ما ينبغى بقاؤه حراً

٤- (٤). نهج البلاغه، الخطبه ١٧٦

ذلك المجتمع شبه الوحشى فى الجاهلىه تلك المنزله المرموقه فى ظل تعاليم القرآن بعد أن كان يعىش منتهى الفقر الأخلاقى والإقتصادى والإجتماعى، وما ىجدر ذكره أن بعض شرّاح نهج البلاغه ىرى أن الصفات المذكوره تعود إلى الإسلام لا القرآن والضمائركذلك، ولكن بالنظر إلى ورود مثل هذه العبارات فى سائر خطب نهج البلاغه بشأن القرآن، ىتضح أن المراد بتلك الأوصاف هو القرآن وإن لم ترد مفرده القرآن فى نصوص العبارة، ناهىك عن عدم اختلاف النىجه مهما كان المراد(1).

ص: ٣٧

١- (١) قال المرحوم العلامه التستى فى شرحه لنهج البلاغه: كأن مفرده القرآن أو كتاب أنزله سقطت من نسخه نهج البلاغه الموجوده (نهج الصباغه، ج ٣٣، ص ١٣)

وَمِنْ حُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

نظرة إلى الخطبة

(١)

هذه الخطبة قطوف مختاره من خطبه طويله للإمام عليه السلام. يتحدث في القسم الأول عن صفات الأفراد الفاسدين والمفسدين ليتعرّف عليهم الناس وليبتعدوا عنهم.

وأشار في القسم الثاني إلى مميزات الغافلين الذين لا يفيقون إلّا حين ضياع الفرصه وفوات الأوان فيبتلون بشر أعمالهم. ويعرض في القسم الثالث بالوعظ والنصح لهم لينهضوا من سباتهم ويصلحوا أمر آخرتهم. وتطرق في الفصل الرابع إلى بعض الأمور الخطيره التي تحبط الأعمال وتحول دون النجاه. ويختتم الخطبه في القسم الخامس بالمقارنه بين صفات البهائم والسباع والناس من أصحاب الدنيا والمؤمنين.

ص: ٣٩

١- (١) سند الخطبه: ورد في مصادر نهج البلاغه: ذكرت هذه الخطبه في بعض نسخ نهج البلاغه كجزء من الخطبه السابقه. قال ابن أبي الحديد إنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبه حين اتجه إلى البصره (لقتال أصحاب الجمل والقضاء على الفتنه). ومما لا شك فيه أنه عثر على هذه الخطبه في مصدر آخر ليقول ذلك الكلام. وردت هذه الخطبه بالتفصيل من قبل السيد الرضى في كتاب تحف العقول، كما روى الكليني بعضها في الجزء الخامس من كتابه الكافي، كما وردت عبارته من خطبه في قصار الكلمات وهي الكلمه ٢٩٨ (ضع فخر ك، واحفظ كبرك واذكر قبرك)، (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٣٤٧)

«وَهُوَ فِي مُهَلِّهِ مِنَ اللَّهِ يَهْوَى مَعَ الْغَافِلِينَ، وَيَعْدُو مَعَ الْمُذْنِبِينَ، بِلَا سَبِيلٍ قَاصِدٍ، وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ».

الشرح والتفسير

يعتقد بعض شراح نهج البلاغه - كما ذكرنا سابقاً - أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبه أثناء حركته إلى البصره للقضاء على فتنه طلحه والزبير وعائشه وضمّنها جانباً من الوعظ والنصح والإرشاد. تحدّث عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه عن الإنسان الضال - والذي يتجلى نموذجه في مشعل فتيل معركة الجمل - على ضوء أربع صفات تميّزه، فقد منحه الله الفرصه في عمره لياشر الأعمال الصالحه من أجل الظفر بالسعاده الأبدية، ولكنه لا ينفك عن ملازمه الغافلين والمذنبين الذين يسلكون به مهاوى الردى، دون أن يسير على الحق ويقتدى بزعيم حق

«وَهُوَ فِي مُهَلِّهِ مِنَ اللَّهِ يَهْوَى (١) مَعَ الْغَافِلِينَ، وَيَعْدُو مَعَ الْمُذْنِبِينَ، بِلَا سَبِيلٍ قَاصِدٍ، وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ». نعم أنّ أسباب بؤسه وشقائه تكمن في أربعه أمور؛ ملازمه الغافلين والآثمين، وعدم السير على طريق الحق إلى جانب عدم الإقتداء بالإمام الصالح.

ولعلّ العبارة

«إِمَامٍ قَائِدٍ» إشاره إلى الإمام المعصوم عليه السلام أو كلّ عالم صالح من أتباع المعصومين عليهم السلام وعلى كلّ حال فإنّ الإمام عليه السلام يفصح عن دور القائد الصالح

ص: ٤١

١- (١). «يهوى» من ماده (هوى) على وزن نهى تعنى فى الأصل، السقوط من شاهق، وهوى على وزن نوى. بمعنى الرغبة فى الشئ وعاده ما تستعمل فى الميول النفسية والأمر الباطل، والمعنى الأول هو المراد فى العبارة، أى أنّ الشخص الذى يعبد الدنيا يسقط مع الغافلين فى وادى الشقاء

فى هدايه الناس ونجاتهم؁ كما يوضح دور ملازمه أهل الغفله والمعصيه فى بؤس الإنسان وسقوطه.

ص: ٤٢

منها: «حَتَّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جِزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلَابِيبِ غَفْلَتِهِمْ اسْتَقْبَلُوا مُدْبِرًا، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلًا، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلَا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ.

إِنِّي أُحَذِّرُكُمْ، وَنَفْسِي، هَذِهِ الْمُنْزِلَةَ. فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعَبْرِ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَدًا وَاضِحًا حَا يَتَجَبَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي، وَالضَّلَالَ فِي الْمَعَاوِي وَلَا يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ الْغَوَاهِ بِنَعْسَفٍ فِي حَقٍّ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ، أَوْ تَحْوُفٍ مِنْ صِدْقٍ».

الشرح والتفسير: الموعظه البالغة

لما أشار الإمام عليه السلام إلى غفله أصحاب الدنيا أردفها بعدم ديمومتها وطرحها قريباً حين يصفعهم الموت ويخرجهم من غفلتهم، وعليه فمدى هذه الغفله

«حَتَّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جِزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلَابِيبِ (١) غَفْلَتِهِمْ اسْتَقْبَلُوا مُدْبِرًا، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلًا» أجل، عمر الدنيا قصير فإن أشرف الإنسان على الموت وأزيلت عن عينه البرزخية حجب الغفله ورأى أعماله آنذاك عندئذٍ يتغير كل شيء ويواجه حقيقه الموقف. ومن هنا يخلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة واضحة

«فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلَا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ (٢)». قد ظن هؤلاء بخلودهم في الدنيا

ص: ٤٣

١- (١). «جلابيب» جمع جلباب، الستار والثوب

٢- (٢). «وطر» بمعنى الحاجه وقضاء الوطر الاستفاده التامه من الشيء

بما جنوا من تلك الأموال الطائلة والقصور الفارهه والبساتين الواسعه والخدم والحشم لكنهم ودعوا في الحال وأصبحوا تحت التراب.

كانّ العبارة الأولى تشير إلى أولئك الأفراد الذين لم ينتفعوا قط بإمكاناتهم (مثلاً شيدوا قصرًا فلم يتنعموا به حتى أتاهم الأجل). والعبارة الثانية إشاره إلى أولئك الذين تمتعوا قليلاً بإمكاناتهم ثم حال بينهم وبينها الموت من قبيل ذلك الذى بنى قصرًا، وما أن حلّ فيه حتى أخرجه الموت منه.

ثم استطرد الإمام عليه السلام ليسدى بعض النصائح والمواعظ التي تقود إلى السعادة والفلاح بعد أن حذّر من الحياه العصبية التي يعيشها أهل الغفلة

«إِنِّي أُحذِّرُكُمْ، وَنَفْسِي، هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ». ثم بين أثر ذلك، سبيل النجاه من هذه الغفلة القاتله من خلال خمسة تعاليم فقال:

«فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعَبْرِ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَدًا (١) وَاضِيحًا يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي (٢)، وَالضَّلَالَ فِي الْمَغَاوِي (٣)» فالإمام عليه السلام يخاطب نفسه والآخرين بادية الأمر ليأخذ النصيح موضعه من قلوب الآخرين، وذلك لأنّ المستمع إنّما يتفاعل مع الواعظ الذى يمزج القول بالعمل ولا يترفع عن الآخرين. ثم يحذّر الجميع من أنّ الله أسبغ عليهم ما لا يُحصى من النعم وأودعهم مختلف الإستعدادات والقابليات بغية استثمارها والإنتفاع بها من خلال تفعيل السمع بالأذن والنظر بالعين والإنتفاع على تجارب الآخرين وسلوك السبيل القويم الذى يجنبهم الإنحراف والضلال.

وأخيرًا يحذّر الإمام عليه السلام من تمكين الغواه من النفس:

«وَلَا يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ الْغَوَاةَ (٤) بِتَعَسُفٍ (٥) فِي حَقِّ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نَطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ». إشاره إلى أنّ

ص: ٤٤

١- (١) «جدد» و «جاده» بمعنى واحد يطلق على الطريق السهل الذى لا تغوص فيه القدم.

٢- (٢) «مهاوى» جمع مهواه، على وزن مقلاه الخفره التى يسقط فيها الإنسان.

٣- (٣) «مغاوى» جمع مغواه، على وزن مقلاه، الشبهه المضله.

٤- (٤) «غواه» جمع غاوى، الشخص الضال

٥- (٥) «تعسف» من ماده (عسف) على وزن خسف، المشى على غير هدى، ومن هنا يقال للظالم متعسف لأنه يسير بغير هدى.

البعض من الأفراد الضعاف النفوس والذين يميلون إلى الدعه والراحه حين يواجهون الغواه من الأفراد يسعون إلى التغاضى عن بعض الحقائق أو المداهنه فى بيان الحق أو الخشيه من الصدق والصراحه بهدف الحدّ من معارضتهم وهذا ما يؤدى إلى تسلط أولئك الغواه وتفاقم جرأتهم بما يجعل من المتعذر الوقوف بوجههم. وعليه لابدّ من اعتماد الصراحه المفعمه بالأدب والشفقه فى بيان الحقائق والإبتعاد عن الخشيه، فالغواه عاده ما يتراجعون وينكسرون إزاء المواقف الشجاعه، وقد دلت بعض النماذج التى حفل بها التاريخ على أنّ الأفراد الذين يحزفون الحقائق ويكتمون الواقع إنّما أسهموا فى مضاعفه المشاكل التى جرّت عليهم وعلى مجتمعاتهم الويلات. فقصه قريه الحوآب المعروفه فى معركه الجمل معروفه. حيث سمعت عائشه من النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال لها:

«فِيكُنَّ مَنْ تَبَحَّهَا كِلَابُ الْحَوَآبِ». وحين انطلق أصحاب الجمل إلى البصره وبلغوا الحوآب سمعت عائشه ذلك النباح، فسألت عن اسم الموضع فقيل لها: الحوآب. فعزمت على العوده إلى المدينه، فاعترضها محمد بن طلحه وقال لها: هذه ليست الحوآب، ثم أتى ببعض الأفراد وشهدوا لها زوراً، فواصلت مسيرها.

وما أكثر القصص من هذا القبيل فى الماضى والحاضر(١).

ص: ٤٥

«فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَيِّئَاتِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مَنْ غَفَلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مَنْ عَجَلَتِكَ، وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - مِمَّا لَأُبَيْدَ مِنْهُ وَلَمَّا مَحِيصَ عَنْهُ؛ وَخَالَفَ مَنْ خَالَفَ ذَلِمَكَ إِلَى غَيْرِهِ، وَدَعَا وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ؛ وَضَعَفَكَ، وَاحْطُطْ كَثِيرَكَ، وَادْكُرْ قَبِيرَكَ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمْرَكَ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ، وَمَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَدًا، فَاْمْهَدْ لِقَدَمِكَ، وَقَدِّمْ لِيَوْمِكَ. فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ! وَالْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْغَافِلُ! «وَلَا يُبْنِيكَ مِثْلُ خَبِيرٍ».

الشرح والتفسير: الحذر الحذر

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه بعد تلك التحذيرات السابقه فى إسداء الوعظ والنصح بعبارات قصيره عميقه المعنى فخاطب مستمعه قائلاً:

«فَأَفِقْ (١) أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَيِّئَاتِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مَنْ غَفَلَتِكَ، وَاخْتَصِرْ مَنْ عَجَلَتِكَ». إشاره إلى أن زخرف الدنيا والمال والمقام والشهره تسكر الإنسان وتقذفه فى سبات الغفله وتضطره للعجله دون التروى والترىث، وتورث هذه الأمور مختلف المعاصى والذنوب والأخطاء، وهل يرتجى من السكران سوى الخطأ والزلل؟

ثم قال عليه السلام:

«وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ (٢) - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

ص: ٤٧

١- (١). «افق» من ماده (افقه) بمعنى الصحو

٢- (٢). «أمي» ينسب إلى الأم بمعنى عديم القراءه، وكأنه بقى على تلك الحاله التى ولد فيها من بطن امه ولم يتعلم، وبالطبع فإن معنى أميه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أن جميع علومه ومعارفه إلهيه ولم يتعلم من الإنسان. راجع سائر الآراء بهذا الشأن فى الجزء السادس من تفسير الأمثل، ذيل الآية ٥٧، سوره الأعراف

وَأَلِهٍ وَسَيِّئَم - مِمَّا لَأَبْدُ مِنْهُ وَلَا مَحِيصَ عَنْهُ؛ وَخَالَفَ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ وَدَعَا وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ» فقد دعى بادية الأمر إلى الاتباع التام للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، فما يقوله عليه السلام هو الوحي السماوى الذى يهدف إلى سعادته الإنسان فى الدنيا والآخرة. ثم يوصى عليه السلام بمخالفه من يخالف ذلك مهما كثر عدد المخالفين واتباع الحق دون أدنى شك وريبه أو إكتراث للآخرين.

وواصل عليه السلام نصحه قائلاً:

«وَضَعُ فَخْرَكَ، وَاحْطُطْ (١) كِبْرَكَ، وَأَذْكَرْ قَبْرَكَ» فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه الوصايا الثلاث إلى أساس الشر والفساد الذى يتمثل فى الفخر والكبر التى لن تجعل الإنسان يذوق طعم السعادة ما لم يطرحها جانباً، وسيكون مصيره مصير الشيطان الذى قاده نحو فخره وكبره. وتطرق عليه السلام بعد ذلك إلى القبر الذى يسوق نسيانه الإنسان إلى طول الأمل والانغماس فى الدنيا، وهو الموضوع الذى يتساوى فيه الجميع وهذا ما ورد فى الكلمة القصيره رقم ٣٩٨ من قصار الكلمات وهذا يدل على أن السيد الرضى كان يقتطف أحياناً الكلمات القصار من بعض الخطب الطويله.

ثم أورد عليه السلام ثلاث نصائح أخرى منسجمه مع بعضها، فقال:

«وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ، وَمَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَدًا، فَاْمَهْدُ (٢) لِقَدَمِكَ، وَقَدَّمَ لِيَوْمِكَ».

كيف ينتظر الإنسان من الله أن يعفو عن سيئاته ويجازيه بالاحسان وهو يظلم الآخرين ويقابل الاحسان بالإساءه؟ أم كيف ينتظر الورد من يزرع الشوك؟! الواقع

ص: ٤٨

١- (١). «احطط» من ماده (حط) على وزن خط لازم ومتعدى بمعنى الخفض والاختفاض وارىد به المعنى الثانى فى الخطبه
٢- (٢). «فامهد» من ماده (مهد) على وزن عهد تعنى فى الأصل مهد الطفل أو الموضوع الذى يعد للأطفال، ثم استعملت بمعنى الإعداد كما وردت فى هذه الخطبه

هو أن هذه النصائح مستقاه من الآيات القرآنيه والأحاديث النبويه، فالله: «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» وفي الحديث:

«الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ» والآيه الشريفه: «وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ»^(١) والآيه الكريمه: «وَمَا تَقَدَّمُوا لِنَفْسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ»^(٢). ثم يعود الإمام عليه السلام فى ختام الخطبه الى ذات المطلب الذى ابتدأ به ليقظ الغافلين ثانيه من سباتهم ويسوقهم إلى الجد والاجتهاد فيقول:

«فَالْحَيَاةُ الْجَدْرُ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ! وَالْجِدُّ الْجِدُّ أَيُّهَا الْغَافِلُ! «وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ»». العبارة الأخيره المقتبسه من الآيه ١٤ من سوره فاطر إشاره إلى أن أى شخص لا يضاهى القائل فى بيانه لحقيقه الموت والحياه وحاضر الإنسان وغده ومصيره فى المستقبل وعاقبته فى الآخره.

وقد قال أحد شراح نهج البلاغه: إن من يتأمل خطب أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله وقصار كلماته يكتشف بوضوح أن أحداً لا يسعه التحدث بهذه الدقه والرقه عن الدنيا وماهيتها وبدايتها ونهايتها.

قال الشاعر بشأن النصائح الأخيره فى الخطبه:

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ بِمَلِّ فِيهَا

ص: ٤٩

١- (١). سوره الحشر، الآيه ١٨

٢- (٢) سوره البقره، الآيه ١٦٠

«إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللَّهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَى وَيَسَخَطُ، إِنَّهُ لَا يَنْفَعُ عَبْدًا - وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ - أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا، لَأَقِيًّا رَبَّهُ بِخَصْلِهِ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ لَمْ يَتَّبِعْ مِنْهَا: أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ بِهَلَاكِ نَفْسٍ، أَوْ يُعَرِّ بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بَدْعِهِ فِي دِينِهِ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْتَسِيَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ. اعْقِلْ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمِثْلَ دَلِيلٌ عَلَى شَبْهِهِ.

إِنَّ الْبُهَائِمَ هُمُّهَا بُطُونُهَا؛ وَإِنَّ السَّبَّاعَ هُمُّهَا الْعِيدُونَ عَلَى غَيْرِهَا؛ وَإِنَّ النِّسَاءَ هُمُّهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا؛ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ.

إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ».

الشرح والتفسير: الموقفات الخمس

حذر الإمام عليه السلام مخاطبيه في المقطع السابق من الخطبه من سبات الغفله وحثهم على الجد والاجتهاد، ليشير هنا إلى خمس من الذنوب الكبيره الخطيره التي لا يقبل عمل العبد دون التوبه منها، فقال:

«إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللَّهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَى وَيَسَخَطُ، إِنَّهُ لَا يَنْفَعُ عَبْدًا - وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ - أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا، لَأَقِيًّا رَبَّهُ بِخَصْلِهِ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ لَمْ يَتَّبِعْ مِنْهَا». العبارة

«وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ» - مع العلم، يتعذر الإخلاص في العمل لمن اتصف بهذه الخصال

السيئه - تبدو إشاره إلى الإخلاص المرحلى والآنى حين ينسى فى لحظه كل هذه المساوىء من قبيل التصدق فى سبيل الله ومد العون للفقير، إلّا أنّ هذا الإخلاص لا يدوم حتى يحل محله الشرك والنفاق والبدعه.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى شرح هذه الخصال المتمثله بالشرك وقتل النفس والتهمه والبدعه والنفاق حيث بين كل واحده منها بعباره قصيره فقال:

«أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، أَوْ يَشْفِي عَيْظَهُ بِهَلَاكِ نَفْسٍ، أَوْ يُعَرِّ (١) بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بَدْعِهِ فِي دِينِهِ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْسِي فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ. اغْتِيلَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمِثْلَ ذَلِيلٌ عَلَى شِبْهِهِ». وعلى هذا الضوء فإنّ أول كبيره هى الشرك. فى عبوديه الله؛ وهى الكبيره التى مالم يتب عنها العبد لن ينال عفو الله ومغفرته «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» (٢).

والكبيره الأخرى اطفاء الإنسان لغضبه بسفك دم الآخرين، حيث ورد فى القرآن: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا» (٣). ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ العبارة تشمل الانتحار وقتل النفس أيضاً، إلّا أنّ المعنى الأول هو المراد من ظاهر الآيه. على كل حال فإنّ البعض اعتبر الآيه دليلاً على أنّ قتل النفس البريئه يؤدى بالقاتل إلى الموت على الكفر، لأنّ الخلود فى جهنم يختص بالكافرين، أمّا بالنسبه للخصله الثالثه، اتهام الأفراد بما لم يقارفوا من أعمال هو فى الواقع قتل لشخصيه الآخرين وإراقه ماء وجوههم. الأمر الذى تعدّه بعض الروايات بمثابه إراقه الدم.

وأما الخصله الرابعه أى البدعه فى الدين بهدف نيل المال والمقام فيكفى فى ذمها ما ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«أَهْلُ الْبِدْعِ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ، أَهْلُ

ص: ٥٢

١- (١). «يعر» من ماده (عر) على وزن شر، أو عر على وزن حر، يعنى فى الأصل الجرب الذى يصيب الجلد، ثم أطلق على كل ضرر يلحق بالإنسان، وأريد به العيب والتهمه فى العبارة

٢- (٢) سورة النساء، الآيه ٤٨

٣- (٣). سورة النساء، الآيه ٩٣

وأخيراً خصله النفاق التي قال بشأنها القرآن الكريم: «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ»(٢) وقد صرحت ما بعدها من آيات أنّ الإحباط هو نصيب عمل هؤلاء المنافقين الذين لن يهديهم الله.

حقاً أنّ المجتمع البشرى إذا طهر من دنس هذه الرذائل الخمس لعاش الأمن والسلام والوئام ولحفظت فيه الأموال والأنفس والأعراض، ولتكاتف الجميع على الحبّ والموده وسارعوا على مدارج السمو والكمال والابتعاد عن البدعه والشرك، ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بالعباره

«أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بَوَجْهِينِ» معنى معين، وبالعباره

«أَوْ يَمُشِي فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ» معنى آخر؛ فالأول يشير إلى نفاقه بالنسبه لنفسه، والآخر إلى النفاق بالنسبه للآخرين. ومن هنا جعلوا الصفات المذكوره ستاً، لكن يبدو أنّ كليهما من آثار النفاق، أحدهما باللسان والآخر بالوجه، وعليه فالأفضل جمعهما فى عنوان واحد. القضية الجديده بالاهتمام ما أورده بعض شراح نهج البلاغه من أنّ هذه الخطبه وإن وردت أثناء المسير إلى البصره لمواجهه أصحاب الجمل إلى أنّها تشير إلى أنّ الصفات المذكوره موجوده فى أصحاب الجمل؛ ذلك لأنهم حكموا أهواءهم بدلاً من الله من جانب، ومن جانب آخر فإنهم يسعون لإطفاء غضبهم على على عليه السلام بسفك دماء الأبرياء، كما نسبوا لعلى عليه السلام تهمة قتل عثمان الذى قتل على أيديهم بتحريض الآخرين، كما أنكروا إمامه على عليه السلام ونسبته من رسول الله صلى الله عليه و آله فابتدعوا فى الدين ما ليس منه، وأخيراً منعوا الناس من التعرض لقتل عثمان من جهه، ومن جهه أخرى كانوا يتآمرون على قتله خفيه. والعباره

«اغْقِلْ ذَلِكَ» إشاره إلى هذا المعنى(٣). قال الإمام عليه السلام إثر طرحه

ص: ٥٣

١- (١) كنز العمال، ح ١١٢٦، ١٠٥٩.

٢- (٢) . سورة البقره، الآيه ١٤.

٣- (٣) . اقتباس من شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ١٦٢

«اغْتَمَلْ ذَلِكَ»، وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ هذه العبارة إشاره إلى مطلب سيرد لاحقاً، إلّا أنّ هذا خلاف التعبير (ذلك).

وأخيراً أشار الإمام عليه السلام في ختام الخطبه إلى بعض النقاط المهمّة التي لا تبدو بمعزل عن قضيه معركة الجمل فقال:

«إِنَّ الْبُهَائِمَ هَمُّهَا بَطُونُهَا؛ وَإِنَّ السَّبَاعَ هَمُّهَا الْعِدْوَانُ عَلَى غَيْرِهَا؛ وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا؛ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ (١). إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ».

أجل فالمؤمنون الصالحون العاملون خائفون من الله وخائفون من خلق الله، إمّا خوفهم من الله بدليل تكاليفهم ووظائفهم تجاهه، وإمّا خوفهم من خلق الله حذراً من هضم حقوق فرد من الأفراد، خلافاً للسباع الذين لا يفكرون سوى في بطونهم والعدوان على الآخرين.

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام يوجز المظاهر الدنيوية في ثلاثة أشياء؛ الاهتمام بالبطن والتزعه السبعيه والاهتمام بالزينة، فأسند أحدهما إلى البهائم والأخرى إلى السباع إشاره إلى قاده معركة الجمل الذين ساقتهم هذه العناصر إلى تأجيج نار حرب الجمل فسفكوا تلك الدماء ولم يظفروا بأهدافهم (لابدّ من الالتفات إلى أنّ الإمام عليه السلام على ضوء بعض الروايات أورد هذه الخطبه حين سار إلى قتال أصحاب الجمل).

يذكر فيها فضائل أهل البيت عليهم السلام (١)

نظرة إلى الخطبه

تدور مطالب هذه الخطبه بصورة رئيسيه حول ثلاثه محاور:

١. فضائل أهل البيت عليهم السلام وعلومهم ومعارفهم الخارقه ووصيه الناس باتبعاهم.

٢. بحث بشأن ارتباط الظاهر بالباطن وأن طهاره الباطن عاده ما تؤدي إلى طهاره الظاهر لأعمال الإنسان، ومن كان ملوثاً باطناً غالباً ما يكون ملوثاً ظاهرياً.

٣. لابد من الرجوع إلى الجذور في ممارسه إصلاح كل شيء والانطلاق من الأساس والبنيه التحتيه في الإصلاحات.

ص: ٥٥

١- (١) سند الخطبه: أورد الآمدى الذى صنف كتابه (تحرر الحكم على أساس الحروف الأبجديه) جوانب مختلفه من هذه الخطبه بتفاوت فى حروف «ق» و «ن» و «ه» و «ا» ورغم أن الآمدى عاش بعد المرحوم السيد الرضى، إلا أن اختلاف عباراته مع نهج البلاغه يفيد أنه اقتبسها من مصدر آخر، كما أوردها السيد باختلاف طفيف فى كتابه، الطراز، وهذا يشير إلى أنه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغه

«وَنَاطِرُ قَلْبِ اللَّيْبِ بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ، وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ دَاعٍ دَعَا، وَرَاعٍ رَعَى، فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِي.

قَدْ خَاضُوا بِحَارَ الْفِتَنِ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ. وَأَرَزَ الْمُؤْمِنُونَ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. نَحْنُ الشُّعَارُ وَالْأَصِيحَابُ، وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ؛ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا؛ فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقًا.

الشرح والتفسير: أبواب علم النبي

إنَّ الأبحاث المتنوعة لهذه الخطبه تفيد جرى المرحوم السيد الرضى على عاداته فى اقتطاف هذه المقاطع من خطبه طويله، ولذلك يبدو هنالك نوع من التعقيد فى ترابط مقاطع هذه الخطبه. يورد الإمام عليه السلام مقدمه لبيان فضائل أهل البيت عليهم السلام فيتحدث عن صفات المهتمدين والضالين فيقول:

«وَنَاطِرُ (١) قَلْبِ اللَّيْبِ (٢) بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ، وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ (٣)» إشاره إلى أن الإنسان العاقل لا يقنع بظواهر الأمور، بل يسعى إلى الوقوف على ملاسباتها وتفصيلها وما يمكن أن تؤول إليه عاقبتها فلا يسلك مساره جزافاً ويواجه بعض المطيات والمخاطر.

ثم قال عليه السلام:

«دَاعٍ دَعَا، وَرَاعٍ رَعَى، فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِي» من

ص: ٥٧

١- (١). «ناظر» بمعنى سواد العين التى يقع فيها البؤبؤ.

٢- (٢) «لييب» من ماده (لب) على وزن حب بمعنى الدماغ ويقال: اللييب للشخص العاقل الحكيم

٣- (٣). «نجد» ما ارتفع من الأرض

الواضح أنّ المراد بالداعى نبي الإسلام صلى الله عليه وآله الذى أرسى دعائم الدين، والمقصود بالراعى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذى تزعم الأمة الإسلاميه بأمر الله ورسوله صلى الله عليه وآله.

فالكلام يشير إلى هذا الأمر: أنّكم إن نظرتم بحكمه لمعرفة رسول الله صلى الله عليه وآله وخليفته بالحق، وبموجب هذه المعرفة سوف لن يكون لديكم أدنى شك وريبه فى اجابه دعوته واقتفاء آثار خليفته.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الفئه الأخرى التى تقابل الفئه المذكوره وهى الفئه المعاديه للحق التى خاضت فى بحار الفتن وابتدعت فى الدين حتى انتهى الأمر إلى اقضاء المؤمنين فخدمت أصواتهم ولم تصدح سوى اصوات الضالين المكذبين المنحرفين

«قَدْ خَاضُوا بِحَارِ الْفِتَنِ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ. وَأَرَزَ (١) الْمُؤْمِنُونَ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ».

فالعباره إشاره إلى تلك الفئه المنحرفه التى غصبت الخلافة عقب رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حتى انتهت إلى بنى أميه بزعامه معاويه ويزيد وآل مروان. أجل لم يكن هم تلك الفئه سوى إثارة الفتن من قبيل فتنه الجمل وصفين والنهروان واستغلالها لصالحها إلى جانب ايجاد البدع فى دين الله وهجران سنن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، الأمر الذى اتضح بجلاء على عهد خليفه بنى أميه الثالث، بعد ذلك خاض الإمام عليه السلام فى صفات وفضائل أهل البيت عليهم السلام فقال:

«نَحْنُ الشُّعَارُ وَالْأَصْحَابُ، وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ؛ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا؛ فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقًا».

إشاره إلى أننا أقرب الجميع للنبي صلى الله عليه وآله (لابد من الالتفات هنا إلى أنّ الشعار يعنى مايلى البدن من الثياب) وقد ورثنا علم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وكل من أراد نيل تعاليمه صلى الله عليه وآله والافتداء بهديه عليه أن يمر من خلالنا.

والمواقع هو أنّ هذه العبارات قد اقتبست من روايات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بشأن أهل

ص: ٥٨

١- (١). «ارز» من ماده (ارز) على وزن فرض، تعنى فى الأصل الايقاض والثبات، ثم استعملت بمعنى الاعتزال والانعزال عن المجتمع، وهذا هو المعنى المراد بها فى العباره

البيت عليهم السلام عموماً وعلى عليه السلام على وجه الخصوص. ومن ذلك حديث الثقلين الذى أُلزم المسلمين بالتمسك بالقرآن وأهل البيت إلى يوم القيامة وحديث:

«أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بِأُيُوبِهَا فَمَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَأْتِ الْبَابَ»^(١). جدير بالذكر أنّ شارح نهج البلاغه ابن أبى الحديد حين بلغ هذا الموضوع من الخطبه صرّح بأنّ ما أشار إليه على عليه السلام فى هذه الخطبه لا يتضمّن سوى عشر الفضائل التى صرّحت بها العديد من الروايات الواردة عن النبى صلى الله عليه وآله بشأن على عليه السلام. ثم أضاف: لا اقصد الروايات التى استدلت بها الإماميه على إمامه على عليه السلام، بل مرادى الروايات التى رواها كبار محدثى العامه فى مصادرهم عن فضائل على عليه السلام وأذكر هنا بعضها، ثم يذكر أربعاً وعشرين روايه معتبره فى فضائل على عليه السلام سنشير فى البحث القادم إلى جانب منها إن شاء الله.

تأملان

١. الفارق بين العُجب والتعريف بالذات

يتساءل بعض المغرضين هنا: لماذا خاض الإمام عليه السلام فى مدح ذاته والتعريف بها؟ أليس هذا الأمر دون شأن الإمام عليه السلام؟ وقد روى ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغه أنّ البعض أشار على عمر بتأمير على عليه السلام على الجند. فقال: إنّ علياً عليه السلام يرى نفسه أرفع شأنًا من ذلك.

ولكن يبدو أنّ مثل هذه الإشكالات إنّما يفرزها الجهل والحسد الذى لا يصمد أمام منطق العقل، وذلك أنّ أغلب الناس قد لا يقفون على عظمه شخص وعمق مكانته فلا يكادون يفتحون على أفكاره ومشاريعه وخططه التربويه والإصلاحيه، ونقول هنا: ألا ينبغى لهذا الشخص أن يعرف الآخرين بذاته وإمكاناته؟ ولعل هذا

ص: ٥٩

١- (١). ورد هذا الحديث المشهور فى مصادر العامه المعروفه مثل مستدرک الحاکم و المعجم الكبير للطيرانى وغيرها (وللوقوف على المزيد من مصادر هذا الحديث فى كتب العامه راجع كتاب احقاق الحق، ج ٥، ص ٤٦٩ و ما بعدها)

الأمر أشبه بذلك الطبيب الماهر والمتخصص بمختلف الأمراض والذي نصب لوحه كبيره على باب عيادته ليبيّن عليها شهاداته وخبرته الطبيه والعلميه حتى يتعرف عليها الآخرون فيقبلون على عيادته، فهل هذا العمل من العُجب ومدح الذات أم التعريف بالنفس في مقابل الجهال؟

ناهيك عما سبق، فإن احدى مراحل شكر النعم التحدث بها. قال الله تبارك وتعالى في قرآنه الكريم بهذا الشان: «وَأَمَّا بِنِعْمِهِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ»^(١).

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير هذه الآيه الكريمه أنه قال:

«حدث بما أعطاك الله وفضلك ورزقك وأحسن إليك وهداك»^(٢). ومن هنا ورد فى بعض الروايات أنّ علياً عليه السلام حين سئل عن بعض فضائله، أجاب بأنّ الثناء على النفس مذموم؛ لكننى أُجيبك عن هذه الفضائل على أساس ما ورد فى القرآن الكريم: «وَأَمَّا بِنِعْمِهِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» ثم يبيّن عدداً من فضائله ومناقبه.

٢. الفضل ما شهدت به الاعداء

كما أشرنا سابقاً فإنّ ابن أبى الحديد حين بلغ فى شرحه لنهج البلاغه هذه الخطبه، نقل أكثر من أربع وعشرين روايه روتها مصادر العامه فى فضائل على عليه السلام وصرّح بأنّ هذه الروايات غير تلك الأحاديث التى تمسكت بها الشيعة الإماميه فى مقام اثبات ولايه وإمامه على عليه السلام. ومن الضرورى بمكان أن نشير هنا إلى بعض تلك الروايات العظيمه المضمون:

١. قال النبى الأكرم صلى الله عليه و آله:

«يا عَلِيُّ إِنَّ اللَّهَ قَدْ زَيَّنَكَ بِزِينَةٍ لَمْ يُزَيِّنِ الْعِبَادَ بِزِينَةٍ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْهَا هِيَ زِينَةُ الْأَبْرَارِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى؛ الزُّهُدُ فِي الدُّنْيَا جَعَلَكَ لَا تَزُرُّ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئاً، وَلَا تَزُرُّ الدُّنْيَا مِنْكَ شَيْئاً وَوَهَبَ لَكَ حُبَّ الْمَسَاكِينِ فَجَعَلَكَ تَرْضَى

ص: ٦٠

١- (١) سورة الضحى، الآيه ١١

٢- (٢) . مجمع البيان، ذيل الآيه المذكوره

بِهِمْ أَتْبَاعاً وَيَرْضُونَ بِكَ إِمَاماً» (١).

٢. قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيَّ فِي عَلِيٍّ عَهْدًا، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ بَيْنَهُ لِي.

قَالَ: إِسْمِعْ أَنْ عَلِيًّا رَأْيُهُ الْهُدَى وَإِمَامٌ أَوْلِيَايَ وَنُورٌ مَنْ أَطَاعَنِي وَهُوَ الْكَلِمَةُ الَّتِي أَلَزَمْتُهَا الْمُتَّقِينَ مَنْ أَحَبَّهُ فَقَدْ أَحَبَّنِي وَمَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَنِي فَبَشِّرْهُ بِذَلِكَ» (٢).

٣. قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«مَنْ سِرَّهُ أَنْ يَحْيَا حَيَاتِي وَيَمُوتُ مَمَاتِي وَيَسْكُنُ جَنَّةَ عَدْنِ الَّتِي عَزَّسِيهَا رَبِّي فَلْيُؤَالِ عَلِيًّا مِنْ بَعْدِي وَلْيُؤَالِ وَلِيِّهِ وَلْيَقْتَدِ بِالْأَثَمَةِ مِنْ بَعْدِي فَإِنَّهُمْ عَثَرَتِي خُلِقُوا مِنْ طِينَتِي وَرُزِقُوا فَهْمًا وَعِلْمًا فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ مِنْ أُمَّتِي الْقَاطِعِينَ فِيهِمْ صَلَاتِي لَأَنَا لَهُمُ اللَّهُ شَفَاعَتِي» (٣).

ص: ٦١

١- (١) نقل ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغه هذا الحديث عن أبي نعيم الاصفهاني في حليه الأولياء ومسند أحمد بن

حنبل (شرح نهج البلاغه، ج ٩، ص ١٦٦)

٢- (٢) المصدر السابق

٣- (٣) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ١٦٦

منها: «فِيهِمْ كَرَامَاتُ الْقُرْآنِ، وَهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمَنِ. إِنْ نَطَقُوا صِدْقًا، وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسَبِّحُوا. فَلْيَضِ دُقْ رَأْسُ أَهْلِهِ، وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ، وَلْيَكُنْ مِنْ أَتْبَاءِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ، وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ.»

فَالنَّاظِرُ بِالْقَلْبِ، الْعَامِلُ بِالْبَصْرِ، يَكُونُ مُبْتَدَأَ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ: أَعْمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ؟! فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ. فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ. فَلَمَّا يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ إِلَّا بُعِيداً مِنْ حَاجَتِهِ. وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ. فَلْيَنْظُرْ نَاطِرًا:

أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ؟!».

الشرح والتفسير: خصائص دعاه الحق

تعرض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من خطبه بالإشارة إلى غيظ من فيض فضائل أهل البيت عليهم السلام بهدف إحباط الدعايات المغرضه لأجهزه بنى أميه ضد أهل البيت عليهم السلام والعناصر التي تأمرت عليهم من بعض العملاء الذين تجلببوا بثياب رواه الحديث، فقال:

«فِيهِمْ كَرَامَاتُ (١) الْقُرْآنِ، وَهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمَنِ. إِنْ نَطَقُوا صِدْقًا، وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسَبِّحُوا». العبارة

«فِيهِمْ كَرَامَاتُ الْقُرْآنِ» يمكن أن تكون إشارة إلى المعنى المذكور أو تعنى عندهم آيات القرآن الكريم، والعبارة

«كُنُوزٌ» إشارة إلى أن عندهم أحكام الله وتعاليم السماء؛ لأن الأشياء النفيسة عادة ما تحفظ في الكنز.

ص: ٦٣

«إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا» تتضمن احدى صفات أهل البيت عليهم السلام وهى الصدق فى الكلام التى تنسجم والآيه الشريفه: «كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ»^(١). والعبارة

«وَإِنْ صَيَّمْتُمْ لَمْ يُشَبِّهُوا» إشاره واضحه إلى أن صممتهم عليهم السلام لا- يعنى عجزهم عن الإجابة قط، بل صممتهم على ضوء الحكمه والمصلحه، وعليه فلا- يسع أحد أن يسبقهم. أو معنى ذلك أن هيبتهم تحول دون قدره الآخرين على الكلام حين صممتهم. على كل حال فإن هذه الصفات الأربع فى أهل البيت عليهم السلام تميز مقامهم عن الآخرين وتكشف عن علو منزلتهم ومكانتهم العلميه، ثم قال تأكيداً لهذا المطلب فى أن الهدف ليس المدح والثناء على الذات:

«فَلْيَصُدِّقْ رَائِدُ (٢) أَهْلَهُ، وَلِيُحْضِرْ عَقْلَهُ، وَلِيَكُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ، وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ».

تعنى كلمه

«رَائِدٌ» فى الأصل، الشخص الذى يتقدم القافله ويبحث عن الماء والمرعى. فلو كان مثل هذا الشخص كاذباً لعرض أهل القافله أنفسهم إلى الخطر.

فاختيار هذه الكلمه يشير إلى لطيفه مؤداها أتى إن شرحت لكم خصائص أهل البيت عليهم السلام فذلك لأنى بمنزله ذلك الشخص الذى يوفر لاتباعه ضروريات وسائل العيش. ولعل العبارة

«فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ» تشير مفهوم الآيه الشريفه: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ». أو بعبارة أخرى أن الآخره تعنى هنا ماوراء الطبيعه. نعم ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن المراد بالعبارة أنا خلقنا للآخره، كما ورد ذلك فى قصار كلمات الإمام:

«أَلَا فَمَا يَصْنَعُ بِالْدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلْآخِرَةِ»^(٣).

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالنظر إلى ما ورد قبيل ذلك بشأن أهل البيت عليهم السلام

ص: ٦٤

١- (١). هذه هى الآيه ١١٩ من سوره التوبه التى تأمر المؤمنين فى كل عصر ومصر باتباع الصادقين وملازمتهم، وقد سيرت الروايات الوارده فى مصادر الفريقين، الصادقين، بالأئمه المعصومين عليهم السلام. راجع للوقوف على مصادر هذا الحديث كتاب، نفحات القرآن، ج ٩، ص ١٦٧

٢- (٢). «رائد» من ماده «ورد» على وزن قوم بمعنى السعى للقيام بشى، كما ورد فى الشرح، فانها تطلق عادة على الشخص الذى ينطلق امام القافله ويبحث عن المرعى والمرتع

٣- (٣) نهج البلاغه، الخطبه ١٥٧

ليحذر الآخرين من ضروره مراقبه أعمالهم وأن يلحقوا بتلك الكنوز أى الأئمه العارفين بالقرآن ويحذوا حذوهم ويسيروا على هديهم وأن يفكروا فى بدايه كل عمل بعاقبته ويعزمون عليه:

«فَالنَّاطِرُ بِالقَلْبِ، العَامِلُ بِالبَصِيرِ، يَكُونُ مُبْتَدَأَ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ: أَعْمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ؟! فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ». والواقع هو أن الإمام عليه السلام يرى توقف النجاح على ثلاثه أمور تتفرع جميعها من العلم والمعرفه؛ التفكير فى أصل العمل، والعمل على أساس البصيره ودراسه وتأمل نتيجه ذلك العمل نفعه له أم مضره؟

ثم خاض فى بيان دليل ذلك وقد استعان بتشبيه رائع ليوضح الفارق بين العالم والجاهل فقال:

«فَإِنَّ العَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ. فَلَمَّا يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ الوَاضِحِ إِلَّا بُعِدًا مِنْ حَاجَتِهِ. وَالعَامِلُ بِالعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الوَاضِحِ».

يا له من تشبيه رائع! فالعالم والجاهل كلاهما يسعى، إلا أن العالم حيث يسير على الطريق الصحيح فإنه يقترب من هدفه كل آن، أمّا الجاهل حيث يسير على غير هدى وعلى غير الطريق فإنه يبتعد عن هدفه كل آن؛ بعبارة أخرى فإن سعيه لن يؤدى إلا إلى النتائج المعكوسه.

روى عن رسول الله صلى الله عليه و آله تعبير رائع بهذا الشأن حيث قال:

«مَنْ عَمِلَ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ» (١).

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«العَامِلُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ لَا يَزِيدُهُ سُرْعَةَ السَّيْرِ إِلَّا بُعْدًا» (٢).

ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَلْيَنْظُرْ نَاطِرًا: أَسَائِرُهُ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ؟!».

فالعبارة تشير إلى أن الجهال من الأفراد ليسوا فقط لا يبلغون الهدف بسعيهم وجهدهم، بل أحياناً يخطون بذلك الجهد إلى ما يخالفه.

ص: ٦٥

١- (١) اصول الكافى، ج ١، ص ٤٤ باب العمل بغير علم، ح ٣.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ٤٣، ح ١

«وَأَعْلَمَ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِنًا عَلَى مِثَالِهِ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ طَابَ بَاطِنُهُ، وَمَا خَبِثَ ظَاهِرُهُ خَبِثَ بَاطِنُهُ. وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ، وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَيُحِبُّ الْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ».

وَأَعْلَمَ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتًا. وَكُلُّ نَبَاتٍ لَأَغْنَى بِهِ عَنِ الْمَاءِ، وَالْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ؛ فَمَا طَابَ سَقْيُهُ، طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَّتْ ثَمَرَتُهُ، وَمَا خَبِثَ سَقْيُهُ، خَبِثَ غَرْسُهُ وَأَمْرَتْ ثَمَرَتُهُ».

الشرح والتفسير: معرفه المحسن والمسيء

كشف الإمام عليه السلام هنا - مواصلة لما أورده سابقاً - سبيل معرفه المحسن من المسيء فقال:

«وَأَعْلَمَ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِنًا عَلَى مِثَالِهِ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ طَابَ بَاطِنُهُ وَمَا خَبِثَ ظَاهِرُهُ خَبِثَ بَاطِنُهُ». فهذه قاعده كليه من شأنها تمهيد السبيل أمام الإنسان لمعرفة الأفراد والمجتمعات البشريه ومختلف التنظيمات الاجتماعيه والسياسيه والعقائديه (وإن كانت لها على غرار كل قاعده كليه شواذ) لأن أعمال الإنسان عاده ما تكون انعكاساً لأفكاره وأخلاقه وصفاته الباطنيه، وظاهره ما يترشح عن باطنه، على غرار ما ورد في المثل المعروف: الظرف ينضح بما فيه.

وعلى هذا الأساس فإن شككنا في باطن شخص كان لابد لنا من التوقف عند أعماله لننظر من خلالها إلى باطنه. وقد أيد القرآن الكريم هذه الحقيقه في عدّه آيات فقال بشأن المنافقين: «قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ

أَكْبَرُ»(١). وقال في موضع آخر: «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَيِّمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ»(٢). كما قال في آية أخرى: «وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِوَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا»(٣). كما ورد هذا الأمر في الروايات الإسلامية وكلمات الفقهاء.

فقد قال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئًا إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ وَصَيَفَحَاتِ وَجْهِهِ»(٤). وصرح الفقهاء في مبحث العدالة: أن حسن الظاهر والعمل بالتكاليف الشرعية يفيد وجود ملكة العدالة في الباطن. الغريب في عصرنا الراهن أن العلماء توصلوا إلى صنع جهاز من شأنه التعرف على كذب المقابل من صدقه في موضوع ما من خلال نبض قلبه وضغط دمه وما شاكل ذلك. وكما أشرنا سابقاً أن لهذه القاعده كما لسائر القواعد الكليه شواذ؛ فهناك بعض الأفراد الذين يعيشون حاله من التعقيد بحيث لا يمكن التعرف عليهم من خلال أعمالهم بسهولة، كما يمكن لبعض المرئيين والمنافقين أن يخدعوا العقلاء، ومن هنا واصل الإمام عليه السلام كلامه ليقول:

«وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَيْدَ، وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَيُحِبُّ الْعَمَلَ وَيُبْغِضُ يَدَنَهُ». فافتراق الظاهر عن الباطن والعمل عن العقيدة في بعض الحالات يعزى إلى بعض العوامل التي تحدث وتبعد الشخص عن ذلك الأصل الكلي؛ من قبيل مجالسه الصالحين والطالحين والتواجد في الأوساط الطاهره والفاصله إلى جانب التعصب والبغض والحق والفساد والدعايه المسمومه والفقر المدقع وما شاكل ذلك من الأمور التي تقدر أحياناً بانسجام الظاهر مع الباطن. آثار المرحوم العلامة الخوئي شارح نهج البلاغه مطلباً آخر في شرحه لهذه العبارة، فقد قال - بعد تلك الإشارة إلى تناقض صدر هذا القسم

ص: ٦٨

١- (١). سورة آل عمران، الآية ١١٨

٢- (٢). سورة الحمد، الآية ٣٠

٣- (٣). سورة الأعراف، الآية ٥٨

٤- (٤). نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٢٦

من الخطبه وذيلها - إنه تدبر وفكر لأيام وتوسل بجده أمير المؤمنين عليه السلام ليخلص إلى هذه النتيجة وهي أن الإمام عليه السلام أراد أن يشير بالاستناد إلى حديث النبي صلى الله عليه وآله إلى أن الشخص إن رأى عدم انسجام ظاهره وباطنه عليه أن يسعى لإصلاح نفسه، يعني، إن كان باطنه حسناً وعمله سيئاً يسعى لأن يصلح عمله، وإن كان عمله حسناً وباطنه سيئاً يسعى لإصلاح باطنه(1). وهذا الكلام وإن كان صحيحاً إلا أن استفاده هذا المعنى من العبارة المذكوره لا يخلو من إشكال، ويبدو التفسير الأول أنسب.

ثم اختتم الخطبه في إطار اتمام عبارته السابقه في مجال انسجام الظاهر والباطن ولزوم تطهير الباطن بهدف تطهير الظاهر بالقول:

«وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتًا. وَكُلُّ نَبَاتٍ لَاغْنَى بِهِ عَنِ الْمَاءِ، وَالْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ؛ فَمَا طَابَ سَقِيُّهُ، طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَّتْ ثَمَرَتُهُ، وَمَا خَبِثَ سَقِيُّهُ، خَبِثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ». فقد شبه الإمام عليه السلام الإنسان وأعماله بالنبات وثمره، فكما أن النبات لا غنى به عن الماء لسقيه ونموه، فإن الإنسان لا يستغنى عن التعليم والتربية والإرشاد. فمن عكف على التعليم والتربية والإرشاد الصحيح ظهرت أعماله صالحه، بينما تسي وتخبث أعمال ذلك الذي لاحظ له من الإرشاد والتربية. بعبارة أخرى فإن قيمه ثمره النبات تنشأ في الواقع من ثلاثه عوامل: البذر الطيبه والأرض الخصبه والماء الوفير. والحق أن بذره الإنسان على ضوء الفطره التي أودعها إياه الله، طيبه؛ كما أن عوامل البيئه الوراثيه بمثابه الأرض، والتعليم والتربية بمنزله الماء، فإن طهرت وطابت هذه الأمور، كانت ثمره وجود الإنسان طيبه وطاهره.

ص: ٦٩

يَذْكُرُ فِيهَا بَدِيْعَ خَلْقِهِ الْخُفَّاشِ (١)

نظرة إلى الخطبه

تعتبر هذه الخطبه من خطب نهج البلاغه التوحيديه المهمه وتتألف من قسمين.

يتعرض القسم الأول لحمد الله والثناء عليه وبيان عظمته التي حيرت العقول إلى جانب قدرته في الخلق دون الاستناد إلى فكره مسبقه حيث يختزن كل مخلوق عجائب الاسرار. اما القسم الثاني فقد ركز على الخفاش وعجائب خلقتة، فيتعرض الإمام عليه السلام إلى تفاصيل خلقه وكأنه استغرق سنوات في دراسته هذا المخلوق العجيب حتى وقف على اسراره.

ص: ٧١

١- (١) سند الخطبه: لم يرد في مصادر نهج البلاغه سند يمكن الاعتماد عليه كما في سائر المصادر، ويبدو أنّ السند الرئيسي لهذه الخطبه ما ذكره المرحوم السيد الرضى، إلّا أنّ مضمون الخطبه على درجه من الرفعه بحيث يقوى سندها حيث يفيد عدم ترشح تلك الكلمات سوى من فكر عظيم كفكر الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْحَسَرَتْ الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَّعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ، فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغًا إِلَّا إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ!

هُيَوَ اللَّهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبِينُ مِمَّا تَرَى الْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهًا، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلًا. خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمَثِيلٍ، وَلَمَّا مَشُورَهُ مُشِيرٍ، وَلَا مَعُونَهُ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَدْعَنَ لِبَطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَأَنْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ».

الشرح والتفسير: درس في معرفه الله

ذكرنا آنفاً أنّ الإمام عليه السلام استهل هذه الخطبه بحمد الذات الإلهيه المطلقه وبيان صفاتها الجماليه والجلاليه، فأشار بادىء ذى بدء إلى معرفه كنه ذات الله فقال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْحَسَرَتْ (١) الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَّعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ، فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغًا (٢) إِلَّا إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ! (٣)».

والسؤال الذى يطرح نفسه: لماذا عجزت الاوصاف عن معرفه كنه الذات

ص: ٧٣

١- (١). «انحسرت» من ماده (حسر) على وزن قصر، تعنى فى الأصل العرى، ثم استعملت بمعنى الضعف والعجز حيث يتعرى الإنسان فى هذه الحاله من قواه

٢- (٢) «مساغ» من ماده (سوغ) بمعنى سهوله الاكل والشرب ثم أُطلقت على كل مسير سهل، وهذا هو المعنى المراد فى العبارة

٣- (٣) «ملكوت» من ماده (ملك) على وزن قفل، بمعنى الحكومه والملكيه، وإضافه الواو والياء تفيد التأكيد والمبالغه وإن استعملت بشأن الله تبارك وتعالى فإنّها تفيد حكومته المطلقه على العالم قاطبَةً

الإلهية؟ ذلك لأنّ جميع الألفاظ الموضوعه لبيان الأوصاف إنّما ترتبط بصفات المخلوقين وهى صفات محدوده ومخلوقه. وبعبارة أخرى فإنّ ذات الله المطلقة واللامتناهيه من جميع الجهات متعذره الإدراك من قبل عقولنا المحدوده ولا يسع ألفاظنا وأفكارنا بيانها والوقوف عليها، وهذا ما أذهل العقول البشريه وحال دون ظفرها بالسييل إلى معرفه تلك الذات، طبعاً هذا لا يعنى أننا نقول باستحاله معرفه البشر بالله، أو بعبارة أخرى أننا لا نقول بتعطيل المعرفه، بل المراد أنّ حظنا من العلم بتلك الذات المطلقة من جميع الجهات هو العلم الإجمالى الذى يسعنا الإشاره إليه من خلال آثاره وليس لدينا من علم تفصيلى بهذا الشأن. ولا تبدو هذه القضية عجيبه، فعظمه الله ممّا لا نقاش فيها. بل هنالك الكثير من مخلوقات عالم الإمكان التى تؤمن بها وتبدو واضحه لنا كالشمس، غير أننا نجعل كنهها، على سبيل المثال أننا نؤمن بوجود الروح، ووجود الجاذبيه والزمان والمكان، لكن ما حقيقه كنه هذه الأمور؟ إنّ هذه الأمور تعدّ من الأبحاث التى حظيت باهتمام الفلاسفه والحكماء وعلماء العلوم الطبيعیه ولم يتفقوا لحد الآن على نقطه مشتركه، بل أبعد من ذلك إننا لأقرب إلى أنفسنا من كل شىء ولكن ما زلنا نجعل الكثير من أسرار وجودنا، حتى انبرى العالم الغربى «الكسيس كارل» ليكتب كتابه «الإنسان ذلك المجهول».

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه ببيان صفه أخرى من صفات الله - وهى تأكيد لما سبق - فقال

«هُوَ اللَّهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبِينُ مِمَّا تَرَى الْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَّخْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهًا، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَّقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلًا». نعم، فوجوده أظهر الأشياء وكنهه فى غايه الخفاء وما تاره العين قد يكون خطأ البصره - الذى ذكر له العلماء عدّه أنواع - ولكن العلم بوجود الله لأخطأ فيه. وإننا نشعر بحضوره فى كل زمان وكل مكان وكل حال، مع ذلك نحن حيارى فى إدراك حقيقه ذاته، وكلما تقدمنا خطوه فى هذه المرحله رجعنا خطوات إلى الوراء، كما قال الشاعر:

كُلَّمَا قَدَّمَ فِكْرِي فِي

كَ شِبْرًا قَرَّ مَيْلَا

كأنّ هذا الموضوع أشبه بذلك الإنسان الذي يبصر مصدراً شديداً للنور يخطف الأبصار فيقترب منه ببطء فإذا النور يهزه فجأه ويدفع به خائفاً إلى الخلف. حقاً يبدو أننا سنقع لا محال في الخطأ إن حاولنا تشبيهه أيّ من صفات وكنه الذات المقدسه، ذلك لأننا نشبهه بمخلوقاته فنصاب بنوع من الشرك.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى خلقه سبحانه وتعالى للخلق فقال:

«خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمَثِيلٍ، وَلَا مَشُورَةٍ مُشِيرٍ، وَلَا مَعُونَةٍ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقَهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذَعَنَ (١) لَطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَأَنْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ» جدير ذكره أنّ كل ابداعات الإنسان إنّما تستند إلى برامج مسبقه وخطط معدة بشأن عالم الطبيعه. فأحياناً يستفيدها بعينها وأخرى يضيف لها بعض أفكاره، إلماً أنّ أيه فكره ليست جديده فى الواقع، على العكس من ذلك فإنّ نظرنا إلى عالم الوجود سنرى ملايين الأنواع من النباتات والحيوانات الصحراويه والبحريه والطيور وسائر الكائنات التى يتسم كل واحد منها ببعض الخصائص المميزه له، كلها تدين لخالقها تبارك وتعالى.

وأخيراً فإنّ الإمام عليه السلام قد أشار فى هذا المقطع من الخطبه إلى ثلاثه مواضيع مهمه؟ عجز الإنسان عن إدراك كنه الذات الإلهيه، وظهور وجوده تعالى، وأخيراً إبداعه الفريد فى عالم الخلق.

«وَمِنْ لَطَائِفِ صَنِيعَتِهِ، وَعَجَائِبِ خَلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هَذِهِ الْخَفَافِشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلَامُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ؛ وَكَيْفَ عَشِيَّتْ أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئِ نُورًا تَهْتَدِي بِهِ فِي مَذَاهِبِهَا، وَتَتَّصِلُ بِعَلَانِيَتِهِ بُرْهَانَ الشَّمْسِ إِلَى مَعَارِفِهَا. وَرَدَّعَهَا بِتَلَاؤِ ضِيَائِهَا عَنِ الْمُضِيِّ فِي سُبُحَاتِ إِشْرَاقِهَا، وَأَكْنَهَا فِي مَكَامِنِهَا عَنِ الذَّهَابِ فِي بُلُجِ اثْتِلَاقِهَا، فَهِيَ مُسَدِّدَةٌ الْجُفُونَ بِالنَّهَارِ عَلَى حِدَاقِهَا، وَجَاعِلَةٌ اللَّيْلَ سِرَاجًا تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي التَّمَاسِ أَرْزَاقِهَا؛ فَلَا يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافُ ظُلْمَتِهِ، وَلَمَّا تَمَتَّعَ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ لِعَسَقِ دُجْنَتِهِ. فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَيَدَّتْ أَوْضَاحَ نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَى الضِّيَابِ فِي وَجَارِهَا، أَطْبَقَتِ الْأَجْفَانَ عَلَى مَا فِيهَا، وَتَبَلَّغَتْ بِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ فِي ظُلْمِ لَيَالِيهَا. فَسَبَّحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَارًا وَمَعَاشًا، وَالنَّهَارَ سَكْنًا وَقَرَارًا».

الشرح والتفسير: الطائر العجيب

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيانه العام والجامع بشأن خلق العالم حتى ركز هنا على أعجب وأظرف مخلوقات الله، ألا وهو الخفاش الفريد في خلقه من كل النواحي، وإن كانت جميع المخلوقات عجيبة لو أجلنا التفكير بصوره صحيحه. فقد أشار عليه السلام إلى جانبين فريدين في خلقه هذا الحيوان؛ عينه وجناحيه، فقال:

«وَمِنْ لَطَائِفِ

صَنَعْتَهُ، وَعَجَائِبِ خِلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ عَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هَذِهِ الْخَفَافِشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَبْسُطُهَا الظُّلَامُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ».

ثم يردفها بالعباره:

«وَكَيْفَ عَشَيْتَ (١) أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيءِ نُورًا تَهْتَدِي بِهِ فِي مِزَاجِهَا، وَتَتَصَلَّ بِعَلَانِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَى مَعَارِفِهَا. وَرَدَّعَهَا بِتَلَاؤِ ضِيَائِهَا عَنِ الْمُضِيِّ فِي سُبْحَاتِ (٢) إِشْرَاقِهَا، وَأَكْنَهَا (٣) فِي مَكَامِنِهَا (٤) عَنِ الدَّهَابِ فِي بُلْجِ (٥) ائْتِلَاقِهَا (٦)». النقطه الجديره بالتأمل، إنّ الإمام عليه السلام أشار إلى ثلاث نقاط مختلفه بثلاث عبارات إلى التأثير السلبي لضياء الشمس عليها، فقال: إنّ ضياء الشمس لم يدعها تتلمس طريقها وإنّ أشعه الشمس تمنعها من بلوغ مقاصدها في هذه الطرق (كالطعمه والحجر) وأخيراً أنّها لو سلكت طريقاً وطلعت عليها الشمس فجأه لصدتها عن مواصله السير.

وبالنتيجه، ليس لها سوى الاختباء في الحجور المظلمه لتأمن أشعه الشمس، وعلى هذا الأساس فإنّ ضياء الشمس الذى ينير كل شىء ويساعد جميع الكائنات الحيه لأن تعرف طريقها وتواصل حركتها نحو غايتها، لا يبدو كذلك بالنسبه لهذا الطائر «الخفاش» فأثاره سلبيه عليه، وعلى العكس من ذلك فهو يستفيد من الظلمه التى تسوق كل ما سواه إلى السكون، ليبدأ بالنشاط والحركه.

ومن هنا واصل كلامه فقال:

«فَهِيَ مُسَدَّلَةٌ (٧) الْجُفُونِ (٨) بِالنَّهَارِ عَلَيَّ

ص: ٧٨

١- (١) . «عشيت» من ماده (عشو) بمعنى الظلمه، إشاره إلى أنّ عيونها عاجزه عن رؤيه ضياء الشمس

٢- (٢) . «سبحات» جمع سُبْحه، على وزن لقمه، بمعنى النور، كما تعنى الظلمه

٣- (٣) «اكنها» من ماده (كن) على وزن جن، تعنى فى الأصل، الظرف الذى يحفظ فيه الشىء، ثم اطلقت على جميع الوسائل التى تؤدى إلى الخفاء

٤- (٤) «مكامن» جمع مكن، من ماده (كمون)، بمعنى الاخفاء والمكن هو الموضع الذى يختفى فيه الإنسان أو الشىء

٥- (٥) . «بلج» جمع بلجه، أول ضياء الصباح

٦- (٦) «ائتلاق» من ماده (التق) على وزن برق، بمعنى البريق، وبلج ائتلاقها بمعنى أول الضياء ولمعان الشمس

٧- (٧) . «مسدله» من ماده (سدل) على وزن عدل، تعنى فى الأصل، هبوط الشىء من الأعلى إلى الأسفل بحيث يتغطى وهى هنا إشاره إلى سقوط أجفان الخفاش إلى الأسفل

٨- (٨) «جفون» جمع جفن، على وزن قفل، ما يغطى العين

حِدَاقِهَا (١) ، وَحِإِعَلَهُ اللَّيْلُ سِرَاجًا تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي التَّمَاسِ أَرْزَاقِهَا؛ فَلَا يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافًا (٢) ظَلَمْتِهِ، وَلَمَّا تَمَتَّنِعُ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ لِعَسَقٍ (٣) دُجَّتِيهِ (٤)».

ثم تطرق إلى وضع الخفاش حين شروق الشمس وارسالها لأشعتها على الجبال والصحارى فقال:

«فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَبَدَتْ أَوْضَاحُ (٥) نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَى الضُّبَابِ (٦) فِي وَجَارِهَا (٧) ، أَطْبَقَتِ الْأَجْفَانَ عَلَى مَا قِيَهَا (٨) ، وَتَبَلَّغَتْ (٩) بِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ فِي ظُلْمِ لَيَالِيهَا».

ياله من تشبيه لطيف! فقد شبه الشمس منتصف الليل بالمرآة التي تلمعت بخمارها وحين الشروق طرحته جانباً وقد أشرق ضياء وجه هذه الأم الحنون على مهد أولادها. العبارة الرائعة الأخرى أنه قال: إن إشراق ذلك النور والضياء بلغ جحور الضباب المعروفه بشغفها بطلوع الشمس وقد أخرج آنذاك راسه من جحره ليستقبل ضياء الشمس. وهي إشارة أيضاً إلى أن الخفافيش تحتفظ بما اصطادته في الليل لنهارها.

ص: ٧٩

- ١- (١) . «حداق» جمع حدقه، سواد العين
- ٢- (٢) «اسداف» جمع سدفة، على وزن وزنه، تعنى، أحياناً الظلمه، وأخرى النور، ووردت هنا بالمعنى الأول
- ٣- (٣) «عسق» بمعنى شدة الظلمه، كما تستعمل بمعنى منتصف الليل لاشتداد الظلمه منتصف الليل
- ٤- (٤) «دجنه» من ماده (دجون) بمعنى، السحاب والمطر، ولما كان السحاب والمطر يؤدى إلى الظلمه، فإن مفرده الدجنه تعنى الظلمه، وعسق دجنته، تعنى، شدّه الظلام
- ٥- (٥) . «اوضاح» جمع وضح، على وزن شفق، بياض الصبح
- ٦- (٦) . «ضباب» جمع ضب، على وزن سد، الحيوان المعروف
- ٧- (٧) «وجار» بمعنى، جحر
- ٨- (٨) «مآقى» جمع مؤق، على وزن قفل، بمعنى طرف العين ممّا يلي الأنف، كما فسّرهما البعض بمجرى الدمع الواقع فى زاويه العين، ووردت فى العبارة كإشاره إلى أنّ جفون الخفاش تغطى جميع عينه حتى زواياها. ولعل هذه العبارة إشارة إلى نقطه لطيفه وهى أنّ آخر نقطه تغلق عند غلق العين ما يلي طرف أنفه
- ٩- (٩) «تبلغت» من ماده (تبلغ) بمعنى اكتفت بالشىء

ثم يخلص إلى نتیجه ليقول بعباره قصيره:

«فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً، وَالنَّهَارَ سَيِّكناً وَقَرَّاراً!» فهذا الكائن الفريد، وخلافاً للكائنات الحيه كافه - ولاسيما الإنسان - التي تفتت في النهار وتستريح وتسكن في الليل «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً» (١)، إنما يستريح في النهار ويكد من أجل المعاش في الليل لتعلم الخليقه أن قدره الله لامتناهيه وكل ما يريده سبحانه يكون.

وستكلم في آخر الخطبه إن شاء الله عن عجائب خلقه الخفاش ولاسيما خلقه عينيه.

ص: ٨٠

١- (١). سورة النبأ، الآيتان ١٠ و ١١

«وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَهُ مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّيْرَانِ، كَأَنَّهَا شَطَايَا (١) الْأَذَانِ غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ وَلَا قَصَبٍ، إِلَّا أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ العُرُوقِ بَيْنَهُ أَعْلَامًا. لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقًا فَيَنْشَقُّمَا، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلَا. تَطِيرُ وَوَلَمَدَهَا لِمَاصِقُ بِهَا لَاجِيٌّ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَزْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لَا يُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلُهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفُ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ.

فَسُبْحَانَ النَّبَارِيِّ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ!».

الشرح والتفسير: عجائب الخفاش

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى أمرين من عجائب خلقه الخفاش (جناحه وتربيته لفرخه)، فقال:

«وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَهُ مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّيْرَانِ، كَأَنَّهَا شَطَايَا (١) الْأَذَانِ غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ (٢) وَلَا قَصَبٍ، إِلَّا أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ العُرُوقِ بَيْنَهُ أَعْلَامًا. لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقًا فَيَنْشَقُّمَا، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلَا». حَقًّا إِنَّ هَذَا لَمِنْ عَجَائِبِ الْخَلْقِ، فَاجْنِحُهُ جَمِيعُ الطُّيُورِ تَتَكُونُ مِنَ الرِّيشِ الَّذِي يَتَوَسَّطُهُ شَيْءٌ يَشْبَهُ الْقَصَبِ، وَنَظَرًا لَخَفْتِهِ فَإِنَّ الطُّيُورَ تَسْتَطِيعُ الطَّيْرَانِ بِوَسْطِهِ بِسَهُولَةٍ، أَمَّا الْخَفَاشُ الْمَعْرُوفُ بِطَيْرَانِهِ السَّرِيعِ فَهُوَ يَخْتَلِفُ تَمَامًا عَنِ جَمِيعِ الطُّيُورِ، فَجَنَاحُهُ قِطْعَةٌ مِنَ اللَّحْمِ يَتَوَسَّطُهَا عِظَامٌ نَحِيفَةٌ أَشْبَهُ بِالْغَضَارِيِّفِ. وَهَذِهِ الْقِطْعَةُ رِغْمَ نَحَافَتِهَا إِلَّا أَنَّهَا شَدِيدَةٌ

ص: ٨١

١- (١). «شطايا» جمع شظية، على وزن قضيه، القطع المتفرقة

٢- (٢) «ريش» الشيء المعروف عند الطيور

المقاومه، كما أنّها خفيفه وصامده على الدوام وهى تشبه صفحه إذن الإنسان.

والغريب أننا لو نظرنا إليه إزاء ضوء الشمس أو المصباح لشاهدنا مجموعه من الأنابيب الظريفه والواسعه والمعقده من العروق الدمويه التى تغذيه والتي يشتد نشاطها حين يطير لتوصل المواد الغذائيه اللازمه إلى الأجنحه بهدف السرعة فى الحركه.

ثم أشار إلى قضيه عجيبه أخرى فى خلقه هذا الطائر والتي تتعلق بتربيته لولده فقال:

«تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لَأَصِقُ بِهَا لَأَجِيءُ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَزْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لَأُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلُهُ لِلتُّهُوِضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفُ مَيِّذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ». معروف أن لهذا الحيوان دوره شهريه كسائر (الثديّات) وهو يحمل ويضع الحمل، خلافاً لسائر الطيور البيوضه وتفقيس فراخها فى بيوضها. وينفرد الخفّاش بحمله لفرخه معه حين الطيران والهبوط ليعلّمه الطيران وكيفيه الحصول على الغذاء وصيد الحشرات والخروج والرجوع إلى العش والحجر، ولعل سرّ حمله لفرخه معه خلافاً لعاده جميع الطيور أنّه يمارس الطيران ليلاً فيضطر لحمله معه.

على أيّ حال فإنّ كل شىء عجيب فى هذا الطائر، وهذا بدوره أحد عجائب الخليقه التى تعرف الإنسان على تنوع المخلوقات وقدره الخالق.

ثم اختتم الإمام عليه السلام خطبته الشريفه بالخشوع أمام عظمه الله وقال:

«فَسَيَّبِحَانَ الْبَارِيءِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ!» وكما استهل الإمام عليه السلام الخطبه بحمد الله والثناء عليه فقد اختتمها بتسبيحه وتنزيه ذاته المقدّسه.

تأمل

خلقه الخفّاش العجيبه

تحدث الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه عن بديع خلقه الخفّاش الذى يختلف فى كل شىء تقريباً عن سائر الطيور، حتى صرّحت بعض المصادر العلميه أنّ الخفّاش

ص: ٨٢

ليس من فصيله الطيور، بل جزء من الثدييات وذلك لما يلي:

١. للخفاش أسنان، بينما للطيور منقار.
٢. بدن الخفاش مغطى بالشعر، بينما للطيور ريش.
٣. تتكون أجنحه الخفاش من قطعه لحميه رقيقه وليست الطيور كذلك.
٤. للخفاش يدان ورجلان ويمشى على الأرض على يديه ورجليه وليست الطيور كذلك.
٥. الخفافيش ولوده، بينما الطيور بيوضه.
٦. ترضع الخفافيش صغارها، بينما توفر الطيور الغذاء المناسب لفراخها.
٧. معاش الخفافيش ليلاً، والطيور نهاراً.
٨. تنام الخفافيش نهاراً وتطير عقب الغروب وتتعلق حين النوم بأرجلها على الأشجار والسقوف، بينما ليست الطيور كذلك.
٩. تتغذى الخفافيش على الحشرات وتفتح أفواهها حين تطير وتبتلع عشرات أو مئات الحشرات ولعل هذا سبب رائحتها الكريهه، ولعل هذا العمل من الخفافيش هو الذى يسهم فى تنقيه أجواء البيئه من الحشرات، ومن هنا فقد عمد الناس إلى بناء الأبراج لتربيه الخفافيش فى المناطق التى تكثر فيها الحشرات. جدير بالذكر، وخلافاً لما يتصوره البعض من ضعف بصر الخفاش حتى راح يضرب به المثل أنّ الشخص الفلانى أعمى كالخفاش، فإنّ باصره الخفاش حاده جداً، إلّا أنّ عينه حساسه للضوء ولا يطبق تحمله. والخفاش يطير بسرعه ومهاره فى الليل حتى حين شدّه الظلمه، ولا يستعين الخفاش فى طيرانه الليلي بعينه فقط، بل يتمتع بجهاز صوتى يشبه الرادار. فالخفاش حين الطيران يُخرج صوتاً من أنفه وليست لدينا القدره على سماعه، إلّا أنّ هذا الصوت يصطدم بكل شىء يعترض طريقه وينعكس إليه، ويلتقط هذا الصوت المنعكس بأذنه الكبيره فيقف على الأشياء التى تقف فى طريقه فيغيّر مساره، ومن هنا قيل: الخفاش يرى بأذنه. عاده ما يتغذى الخفاش على

الحشرات، إلماً أنّ بعض الخفافيش تتناول الفاكهه، وبعضها الآخر وحشيه خطيره، ويبدو أنّ عددها قليل جداً. وهى تهجم على الإنسان حين النوم فتغرس أسنانها بكل هدوء فى بعض المواضع التى تفتقر إلى الأعصاب والحساسيه من قبيل شحمه الأذن فتمتص الدم، كما تتأتى خطورتها من إمكانيه حملها لبعض الميكروبات القاتله من قبيل الحمى الصفراء. والخفاش يقترب من الماء حين الطيران ليرتشف الماء كالقط بلسانه. ويضع الخفاش القليل الوزن ما يقارب من أربعة فراخ يحملها معه حين الطيران، أمّا تلك الثقيله الوزن والتى تشبه القطه أحياناً، فلا تلد أكثر من فرخ، أضف إلى ذلك فهناك بعض الخفافيش التى لاتزن أكثر من الدرهم (١).

وقد وردت فى كتاب التوحيد للمفضل بعض العبارات القصيره والعميقه المعنى بشأن خلقه الخفاش حيث إنّ الله خلقه وسطاً بين الطيور والأنعام (الثديّات) ذلك أنّ له أذنين طويلتين وأسناناً وهو يلد ويرضع وليده ويمشى على يديه ورجليه، وكل ذلك خلافاً للطيور، كما يطير فى الليل ويتغذى على الحشرات الطائره فى الهواء، ويعتقد البعض أنّه لا يتغذى سوى على الهواء، وهذا باطل، وذلك أولاً: لخروج البول والغائط منه وهذا غير ممكن دون غذاء، وثانياً: إنّ له أسناناً وليس لهذه الأسنان من معنى إن لم يتغذّ ونعلم أنّ الله لم يخلق شيئاً عبثاً (٢). على كل حال فكلما أمعنا النظر فى الخفاش أدركنا عمق الأسرار المركبه فيه، وهنا نقف على عظمه ما أورده الإمام عليه السلام فى أنّ الله كأنه خلق هذا المخلوق للتعريف بعظمه قدرته بعرضه أحد بدائع خلقه الذى انطوى على العديد من العجائب والغرائب.

ص: ٨٤

١- (١) الرساله الثقافيه، ج ٧، ص ٦٥٨. ألفت هذا الكتاب العالم الغربى موريس باركر وقد ترجم إلى الفارسى من قبل «رضا أقصى» ونخبه من الكتاب المعروفين، كذلك كتاب المعجم الزولوجى الحديث للمؤلف محمد كاظم المالكى، المتخصص فى علم الأحياء، ج ٢، ص ٦٣٦ وكتاب البحث عن الله، لآيه الله العظمى مكارم الشيرازى.

٢- (٢). راجع بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٠٧

حَاطَبَ بِهِ أَهْلَ الْبَصْرَةِ عَلَى جِهَةِ اِقْتِصَاصِ الْمَلَا حِمِ (١)

نظرة إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى مسائل مختلفه مرتبطه مع بعضها البعض رغم استقلاله كل منها، وتدور هذه الخطبه حول عدّه محاور هي:

الأول: أنّ الإمام عليه السلام حثّ الناس على طاعته وقد كشف لهم النقاب عن سبيل الجنّه الملى بالمتاعب والمشقات.

الثانى: إشار الإمام عليه السلام إلى دوافع عائشه فى إثارة فتنه الجمل حتى لا يظن الآخريين بأنّ خروجها للمعركه يضىفى شرعيه على ممارسات طلحه والزبير.

الثالث: يتحدث عن القيامه والمعاد ويعدّ الناس لذلك بالتزود من التقوى والعمل الصالح وكسب الفضائل ومكارم الأخلاق.

الرابع: أشار فيه إلى كيفية بعث الموتى من القبور وحضورهم فى المحشر.

ص: ٨٥

١- (١) سند الخطبه: لم يرد فى مصادر نهج البلاغه سند يمكن الاعتماد عليه كما فى سائر المصادر، ويبدو أنّ السند الرئيسى لهذه الخطبه ما ذكره المرحوم السيد الرضى، إلّا أنّ مضمون الخطبه على درجه من الرفعه بحيث يقوى سندها حيث يفيد عدم ترشح تلك الكلمات سوى من فكر عظيم كفكر الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام

الخامس: الحديث عن ممارسه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يخالف ظن البعض من المشاكل المترتبه عليها في الحياه الدنيا والآخره.

السادس: إشاره إلى أهميّه القرآن ودوره في إصلاح الفرد والمجتمع.

السابع: الرد على سؤال طرحه شخص بشأن الفتنه وهل سأل الإمام عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذلك، إلى جانب إخبارهم عن شهادته.

ص: ٨٤

فَمَنْ اسْتِطَاعَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَغْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيَفْعَلْ. فَإِنْ أَطَعْتُمُونِي فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ وَمَذَاقِهِ مَرِيرَةٍ.

وَأَمَّا فَلَانُهُ فَأَذْرَكَهَا رَأْيَ النَّسَاءِ، وَضِعْنَ غَلًا فِي صِدْرِهَا كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ، وَلَوْ دُعِيَتْ لِنَتَالٍ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ. وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَى، وَالْحِسَابُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

الشرح والتفسير: ظهور الاحقاد بذرائع واهيه

ذكرنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة بعد موقعه الجمل حيث تفيد العبارات الواردة في طليعتها إشاره الإمام عليه السلام قبل ذلك إلى الفتن التي تنتظر الناس ويحذرهم أنّ فتنه الجمل ليست الأولى والأخيرة فقال:

«فَمَنْ اسْتِطَاعَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَغْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيَفْعَلْ. فَإِنْ أَطَعْتُمُونِي فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ وَمَذَاقِهِ مَرِيرَةٍ (١)». مفهوم العبارة

«أَنْ يَغْتَقِلَ نَفْسَهُ» - بالنظر إلى أن يعتقل من ماله عقل بمعنى المنع - اقتصار النفس على طاعه أوامر الله التي تمثل أرفع درجات الطاعه والعبودية. والعبارة

«وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ» إشاره إلى أنّ الإنسان لا ينال الجنّة والسعادة بالهين، وعلى الفرد الذي يبغى الجنّة أن يعد لها عدتها؛ وذلك لأنّ جهاد النفس ولجم هواها شاق كمواجهه العدو.

وقد عبر الإمام عليه السلام عن هذا المعنى فى الخطبه ١٧٦ بما رواه عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله

«إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ».

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الدافع الذى ساق عائشه إلى الجمل - الفتنه التى عمت العالم الإسلامى آنذاك - وقد تطرق إلى التفاصيل بخمس عبارات عميقه المعانى فقال:

«وَأَمَّا فَلَانُهُ فَأَذْرَكَهَا رَأَى النِّسَاءِ، وَضَمَّعْنَ غَلَا فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلٍ (١) الْقَيْنِ (٢)، وَلَوْ دُعِيَتْ لَتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ. وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَى، وَالْحِسَابُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى». لا شك فى أَنَّ المراد من فلانه فى العبارة المذكوره عائشه، وحيث إنَّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبه بعد موقعه الجمل، يبدو أَنَّ الهدف هو الرد على بعض الشبهات، واحدى الشبهات، لو لم تكن هذه المعركه شرعيه كيف تشترك فيها عائشه لتلعب ذلك الدور الحساس؟ وقد أشار الإمام عليه السلام فى رده على هذه الشبهه إلى دافعين يكمنان وراء مسانده عائشه لطلحه والزبير:

الأول: آراؤها الضعيفه كامرأه التى يستطيع طلحه والزبير اختراقها وضمها إلى جانبهما، ويؤيد ذلك، الأخبار التى صرحت بندم عائشه على فعلتها وتوبتها.

والآخر، الحقد الدفين الذى كانت تكنه لعلى عليه السلام والذى فاق الحدود بحيث لم يدعها تفكر فى عواقب فعلتها وبوجه من تقف ولحساب من، وكيف ستكون نتيجة المعركه؟ وقد أسهب شرّاح نهج البلاغه فى بيانهم للعوامل التى تقف وراء ذلك الحقد والبغض؛ إلّا أَنَّ الشرح الوافى ما ذكره ابن أبى الحديد عن استاذه أبى يعقوب، ونشير إلى جانب من ذلك:

١. على عليه السلام زوج الزهراء عليها السلام والزهراء بنت خديجه وقد شحنت التواريخ المعروفه بالأخبار التى تتحدث عن حساسيه عائشه من خديجه حتى بعد وفاتها.

٢. منزله فاطمه الزهراء عليها السلام لدى رسول الله صلى الله عليه و آله التى تكشف عن شخصيتها عليها السلام

ص: ٨٨

١- (١). «المرجل» هو القدر

٢- (٢) «القين» الحداد

وأنه كان يوليها منتهى الحب والاحترام حتى صرحت بعض الروايات المعتبره أنه اطلق عليها «سيدة نساء العالمين» وقال:

«فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي مَنْ آذَاهَا فَقَدْ آذَانِي وَمَنْ أَغْضَبَهَا فَقَدْ أَغْضَبَنِي» (١). وهذا ما أثار حفيظه عائشه حيث كانت ترى أنها تستحق هذه الألقاب لا غيرها، ولذلك حملت الحقد على علي عليه السلام.

٣. منزله على عليه السلام لدى النبي صلى الله عليه وآله ومدى حب النبي صلى الله عليه وآله له وحديثه عن فضائله ومناقبه، وكانت ترى أحقيه أبيها أبي بكر بتلك الفضائل.

٤. كون نسل رسول الله صلى الله عليه وآله من فاطمه عليها السلام وعلي، ووجه للحسن والحسين عليهما السلام بينما لم تكن عائشه ولوده.

٥. إغلاق النبي صلى الله عليه وآله كآفه أبواب الصحابه في المسجد حتى باب بيت أبي بكر سوى باب دار علي عليه السلام. أضف إلى ذلك فهناك عدّه عوامل أخرى لا يسع المجال ذكرها (٢).

جدير بالذكر أنّ ابن أبي الحديد روى عن استاذه أبي يعقوب قال: «ثم بايع علي أباهما - عائشه - فسّرت بذلك، وأظهرت من الاستبشار بتمام البيعه واستقرار الخلافه وبطلان منازعه الخصم ما قد نقله الناقلون فأكثروا واستمرّت الأمور على هذا مدّه خلاف أبيها وخلافه عمر وعثمان، والقلوب تغلى، والأحقاد تذيب الحجاره، وكلّما طال الزمان على عليّ تضاعفت همومه وغمومه، وباح بما في نفسه إلى أن قتل عثمان، وقد كانت عائشه فيها أشدّ الناس عليه تأليماً وتحريضاً، فقالت:

أبعده الله! لَمَّا سمعت قتله، وأمّلت أن تكون الخلافه في طلحه، فتعود الإمره تيميه، كما كانت أولاً، فعدل الناس عنه إلى عليّ بن أبي طالب، فلمّا سمعت ذلك صرخت:

واعثماناه! قتل عثمان ظلوماً، وثار ما في الأنفس، حتى تولّد من ذلك يوم الجمل وما بعده» (٣).

ص: ٨٩

١- (١). بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٤٣

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١، ص ١٩٢ بتصرف وتلخيص

٣- (٣) المصدر السابق، ص ١٩٨ و ١٩٩

والغريب في الأمر أنّ بعض العلماء رغم اعترافهم بخطأ عائشه وارتكابها المعصيه في معركة الجمل، يزعمون أنّها تابت وقد عفا الله عنها. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل سفك دماء سبعة عشر ألفاً وفي روايه عشرين ألف مسلم في الجمل بالإضافة إلى تلك المصائب التي طالت العالم الإسلامي بسبب تلك المعركة وما زالت آثارها عالقه، يُغفر بمجرّد قول: «استغفر الله»؟ وهل يتجاوز الله عن هذا الحق بهذه السهوله؟ ذكر ابن عبد ربه في عقده الفريد أنّ امرأه تدعى أم أوفى دخلت على عائشه بعد الجمل وسألته: يا أم المؤمنين ما تقولين في من قتل ولده الصغير؟ قالت عائشه: وجبت له نار جهنم؟ ثم سألتها: فما تقولين فيمن قتلت عشرين ألفاً من ولدها؟ أدركت عائشه أنها المعنيه بهذا السؤال لما فعلته في الجمل فردت: عليكم بعدوه الله هذه (١).

وأما عبارته الإمام عليه السلام: (ولو دعيت لتتال من غيري ما أتت إليّ، لم تفعل) إشاره إلى أنّ هذه المرأه لم تكن لتطالب بدم عثمان، بل هدفها تأليب الناس علىّ. وأمّا عبارته (ولها بعد حرمتها الاولى) ذلك انها كانت زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وقد غض النظر عن عقابها في الدنيا حرمه لرسول الله صلى الله عليه وآله ولذلك أردفها بالعباره (والحساب على الله تعالى) في أنّ الله سوف لن يعفو عن هذه المعصيه. وقد أشار القرآن إلى هذا الأمر في الآية الكريمة ٣٠ من سوره الأحزاب: «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا».

ص: ٩٠

منها: سَبِيلُ أَبْلُجِ الْمُنْهَاجِ، أَنْوَرُ السَّرَاجِ، فَبِالْإِيْمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الْإِيْمَانِ، وَبِالْإِيْمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ، وَبِالْعِلْمِ يُزْهَبُ الْمَوْتُ، وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ الْآخِرَةُ، وَبِالْقِيَامَةِ تُزَلَفُ الْجَنَّةُ، وَتُبْرَزُ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ. وَإِنَّ الْخُلُقَ لَأَمْقَصَرُ لَهُمْ عَنِ الْقِيَامَةِ، مُزْقَلِينَ فِي مِضْمَارِهَا إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى.

الشرح والتفسير: السبيل إلى النجاه

تحدث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه عن الإيمان ثم آثاره - العمل الصالح والعلم والمعرفه وخوف العقاب والاستعداد للسفر الشاق وبالتالي نيل الجنه - فقال:

«سَبِيلُ أَبْلُجِ (١) الْمُنْهَاجِ، أَنْوَرُ السَّرَاجِ». شبه الإمام عليه السلام بالإيمان بالسبيل الواضح الخالي من العقبات نهاراً والملئ بالمصايح ليلاً، كما يحتمل أن يكون المراد من السراج، العلامات والألواح التي تنصب على جوانب الطرق بغية إرشاد المسافر إلى الهدف، أى أنّ الإيمان طريقه واضح وعلاماته جليه.

ثم قال عليه السلام:

«فَبِالْإِيْمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الْإِيْمَانِ، وَبِالْإِيْمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ، وَبِالْعِلْمِ يُزْهَبُ الْمَوْتُ» (٢). قطعاً أنّ معنى الإيمان في

ص: ٩١

١- (١). «أبلج» من ماده (ولوج) بمعنى الوضوح، سيما ضياء أول الصبح

٢- (٢). المعروف من سراج نهج البلاغه أنّ (سبيل) مبتدأ لخبر محذوف هو الإيمان، بقريته ما ورد في الجمله القادمه، كما احتمال البعض أنّ المبتدأ المحذوف «سبيل الجنه» التي وردت في المقطع السابق، والواقع، عبارته (واما فلانه...) ذكرت كجمله اعتراضيه

العبارتين هو الاعتقاد الباطني؛ و (يستدل) في العبارة الأولى، يعطى معنى العلية وفي العبارة الثانية، الكاشفيه، أى أنّ الإيمان سبب العمل الصالح، والعمل الصالح كاشف عن الإيمان، مع ذلك ربّما تكون العلية هي المراده من (يستدل) في المعنيين، أى كما أنّ الإيمان سبب العمل الصالح فإنّ العمل الصالح سبب قوه الإيمان. وقوله عليه السلام (وبالإيمان يعمر العلم) إشارة إلى أمرين:

الأول: إنّ الإنسان إن آمن بالخالق العالم والحكيم وانفتح على الهدف الذى ينطوى عليه الخلق سيوقن بان ليس هنالك شىء خُلق عبثاً فى هذا العالم فيسعى أثر ذلك للوقوف على علل الأشياء وأسرار الظواهر. حيث صرح أحد علماء العلوم الطبيعه بأنّ العنصر الذى دفع بكبار العلماء للسعى من أجل كشف أسرار الطبيعه ولسنين مديدة إيمانهم بالهدفية التى تحكم عالم الخليقه وأن ليس هنالك من سبيل للعبث فى خلق أى شىء.

الثانى: إنّ أحد موانع العلم والمعرفه هو التعصب الأعمى والغرور، لكن إن حل الإيمان زالت كل هذه الموانع وتمهد السبيل أمام بلوغ منابع العلوم والمعارف. أضف إلى ذلك فإنّ العلم دون عمل هو علم هدام يستبطن الجهل، والعنصر الذى يقرن العلم بالعمل هو الإيمان، كما ورد ذلك فى الحديث المروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنّه قال:

«إِنَّ الْعِلْمَ يَهْتَفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ازْتَحَلَ عَنْهُ» (١). وقوله عليه السلام: إنّ الإنسان بسبب العلم يرهب الموت فى أنّه لا يرى الموت نهايه الحياه، بل يراه بدايه حياه جديده يعيشها على ضوء ما أسلف من أعمال.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بذكره للعله والمعلول واللازم والملزوم فقال:

«وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ الآخِرَةُ، وَبِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ، وَتُبْرَزُ

ص: ٩٢

الْجَحِيمِ لِلْغَاوِينَ. وَإِنَّ الْخَلْقَ لَأَمَقَّصِرَ (١) لَهُمْ عَنِ الْقِيَامَةِ، مُزْقَلِينَ (٢) فِي مَضْمَارِهَا إِلَى الْغَيَابَةِ الْقُصْوَى». نعم، الموت نهاية الحياة الدنيوية وانطلاقه الحياة الأبدية، وصحيفه الأعمال تطوى بالموت؛ ذلك أن مزرعه الآخرة هي الدنيا، وليس في القيامة سوى الجنة والسعادة الأبدية أو النار والعذاب الأبدى، وكل إنسان دون استثناء آيل إلى أحدهما. لا يستبعد أن يكون ذكره لهذه العبارة بعيد موقعه الجمل أن أولئك النفر الضال لو كان إيمانهم قوى لما انساقوا إلى تلك الفتنة والمعركة القاتلة. فالإيمان يدعو العلم والمعرفة وترجيح الدار الباقيه على تلك الفانية: ولكن من المؤسف أن حجاب الهوى يحول دون إدراك العقل لهذه الحقائق رغم أن الطريق واضح والمعالم جليه.

أما العبارة

«وَبِالْقِيَامَةِ تُزَلَّفُ الْجَنَّةُ، وَتُبْرَزُ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ» مقتبسه من سوره الشعراء، الآيه ٩١-٩٠: «وَأُزْلَفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ».

ص: ٩٣

١- (١). «مقصر» من ماده (قصر) على وزن فصل، أحد معانيه، المنع، كما يطلق المقصر على الموقف، كونه يمنع الإنسان من الحركة

٢- (٢) «مرقل» من ماده (ارقال) بمعنى المسرع

منها: قَدْ شَخَّصُوا مِنْ مُسْتَقَرِّ الْأَجْدَاثِ، وَصَارُوا إِلَى مَصَائِرِ الْغَايَاتِ.

لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا، لَا يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا وَلَا يُنْقَلُونَ عَنْهَا.

وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَخُلُقَانٍ مِنْ خُلُقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ وَإِنَّهُمَا لَا يَقْرَبَانِ مِنْ أَجْلِ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ. وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، «فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ»، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَالرِّئْيُ النَّافِعُ، وَالْعِضْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَالنَّجَاهُ لِلْمُتَعَلِّقِ. لَا يَعْوُجُ فَيْقَامُ، وَلَا يَزِيغُ فَيَسْتَعْتَبُ، «وَلَا تَخْلُقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ»، وَوُلُوجُ السَّمْعِ. «مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ».

الشرح والتفسير: عوامل النجاة في القيامة

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه عقب العبارات السابقه - التي تحدث فيها عن الموت والجنه والنار - في مسأله الحشر والنشر يوم القيامة ثم تطرق إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأهميه القرآن الكريم، كونها تشكل العناصر المحوريه في النجاة يوم القيامة فقال:

«قَدْ شَخَّصُوا (١) مِنْ مُسْتَقَرِّ الْأَجْدَاثِ (٢)، وَصَارُوا إِلَى مَصَائِرِ الْغَايَاتِ. لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا، لَا يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا وَلَا يُنْقَلُونَ عَنْهَا».

فأشار بادية الأمر إلى أن الجميع ينهضون من القبر كما ورد ذلك كراراً في القرآن

ص: ٩٥

١- (١). «شخصوا» من ماده (شخوص) على وزن خلوص، بمعنى الخروج من الدار، كما وردت بمعنى، تركيز النظر على نقطه

معينه، وكأن العين تريد الخروج من حدقتها، وأريد بها هنا، الخروج

٢- (٢) «اجداث» جمع (جدث)، القبر

الكريم: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا» (١) ويستفاد من العبارة أنّ ذرات البدن التي تحولت إلى تراب تعود إلى القبر أينما كانت لتتحيا ثانية وتنفض عنها التراب.

وهنا يرد هذا السؤال: إنّ آيات القرآن صريحه في أنّ الدنيا ستنتهي بزلزله عظيمه تحطم كل شيء فكيف ستبقى القبور ويخرج الموتى منها إلى الحساب؟ أوردنا الاجابه عن هذا السؤال في الجزء الثالث من الأنوار العلويه.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى عدم استبدال دور الجنّة والنار وسيقيم كل شخص على ضوء أعماله في الجنّة أو النار؛ والمراد أنّ الثواب والعقاب في الآخرة للمؤمن والكافر أبديان، لا يمكن استبداله ولا نقله. والحق أنّ تلك الدار على قدر من النظام والدقه الذي ينسجم مع العقيدة والعمل وكان كل مكان يبحث عن شخص لا العكس. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى قضيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أنّ معرکه الجمل كانت من النماذج البارزه لهذا المفهوم، فقال:

«وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَخُلُقَانٍ مِنْ خُلُقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ وَإِنَّهُمَا لَا يُقَرَّبَانِ مِنْ أَجَلٍ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ». على غرار ما جاء في القرآن الكريم: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ». ويرى بعض شراح نهج البلاغه أنّ التعبير (بالخلق) عن الله هو تعبير مجازي (مجاز في الكلمه أو مجاز في النسبه)، لأنّ الخلق ملكه نفسانيه تنبعث من الأعمال الصالحه والسيئه، والله منزّه عن هذه العوارض والحالات، إمّا أن اعتبرنا الخلق بمعنى الوصف فليست هنالك من مشكله سواء أريد به الحاله النفسانيه أو الوصف عين الذات الذي يطلق على الله. على كل حال فإنّ الوظائف التي عينها الإسلام للناس تكون أحياناً متعلقه بالإنسان مثل العبادات وأغلب المحرمات، لكن هنالك أمور واسعه جداً تصدق حتى على الله، كالعداله وترك الظلم وإرشاد الجاهل وتبيه الغافل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إنّ أساس نزول الكتب السماويه وبعث الأنبياء على ضوء

ص: ٩٦

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو إرشاد الجاهل، وبناءً على هذا، كفى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهميته أنه محور انطلاقه جميع الأنشطة للأنبياء والرسل. وما قاله الإمام عليه السلام من أنهما لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق، إشارته إلى أن أغلب الناس من ذوى النظره الضيقه والآفاق المحدوده يعتقدون بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى الاشتباك مع أهل المعاصي، وهذا ما يؤدي بدوره إلى القتل تاره وأخرى انفراج الناس عن هذا الإنسان وبالتالي قله رزقه.

ولكن إن جرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق الأسلوب الصحيح والمعقول وجانب الإفراط والتفريط فإن الله يحفظ الإنسان الذي يمارس هذه الوظيفة ولا يبخل عليه في رزقه. وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، شرائط، منها: احتمال التأثير وعدم الضرر، كما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نوعان؛ عام، وهو وظيفه كآفه الناس (عن طريق القلب واللسان، وخاص، وهو وظيفه الحكومه الاسلاميه (من خلال الإجراءات العمليه). فلو راعى الإنسان هذه الأمور في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى جانب الأدب والاحترام فسوف يحظى بحب الآخرين واحترامهم لا انفراجهم عنه ونفرتهم، فإن عرضت له بعض المكاره يفرجها الله تعالى. وزبيده الكلام إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أساس ودعامه نظام المجتمع وقديسيته ونهضته وتطوره، والعكس بالعكس، فإن المجتمع الذي يموت فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستفحل فيه التنصل عن المسؤوليه وترتكب فيه الذنوب والمعاصي ويجهر فيه بالفسوق حتى يغط المجتمع في وحل الانحراف والفساد.

ولما كان سبيل نيل السعاده وحل المشاكل الفرديه والاجتماعيه يتمثل بالعوده إلى القرآن فإن الإمام عليه السلام يتطرق هنا إلى أهميته القرآن ليوضحها بعبارات حيه عميقه المعانى وتشبيهات لطيفه ضمن احدى عشره جمله - تشير كل جمله منها إلى ميزه من مزايا القرآن - قال

«وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ».

كأنَّ البشريه قبل التعليم والتربيه مستغرقه في وحل الطبيعه ولابدَّ لها من التمسك بحبل بغيه النجاه. وينبغي أن يكون هذا الحبل متيناً كي لا يتركها منتصف الطريق.

ومن هنا يعبر عن القرآن بالحبل المتين، الوسيله الفضلى في النجاه، وبالنظر إلى أنَّ سلوكك الطريق في الظلمات يؤدّي إلى الضلال والسقوط في المستنقعات فقد شبه القرآن بالنور المبين الذي يحف الإنسان حتى يبلغ الهدف.

وقال في صفته الثالثه والرابعه بالنسبه للقرآن:

وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَالرُّىُّ (١) النَّافِعُ (٢)، فالصفات الذميمة والرزائل الأخلاقية سواء تلك التي يتسم بها الفرد أو الجماعه كالأمرض المعضله وربّما القاتله وقد ورد علاجها في ظلال القرآن الكريم، وطالما كان أهم عوامل الحياه وديمومتها هو الماء فإنَّ القرآن الكريم يلعب دور الماء في حياه الإنسان المعنويه، ومن هنا عدّه الإمام عليه السلام وسيله رى عطاشى الحق.

ثم قال في الميزه الخامسه والسادسه:

«وَالعِصْمَهُ لِمُتَمَسِّكٍ، وَالنَّجَاهُ لِلْمُتَعَلِّقِ» فالإنسان عاده ما يتعرض في مسيرته نحو الصلاح والسعاده إلى بعض المطبات ولابدَّ له من التمسك بما يعونه من الوقوع في تلك المطبات. وقال في الميزه السابعه والثامنه

«لَمَا يَعْوَجُّ فَيْقَامُ، وَلَمَا يَزِيغُ فَيَسْتَعْتَبُ (٣)». قطعاً أنَّ كلام اللّهم الذى يستند إلى علمه المطلق ليس من سبيل للخلاف والخطأ والانحراف إليه، ذلك لأنَّ الخطأ إنّما يقارفه من كان علمه محدوداً وقدرته بسيطه، لا تلك الذات المطلقه العلم والقدره، ونعلم جميعاً أنَّ احدى ملامح اعجاز القرآن، عدم وجود التضاد والاختلاف في آياته:

«وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» (٤) كما

ص: ٩٨

١- (١). «رى» بمعنى السقى

٢- (٢) «نافع» من ماده (نفع) على وزن نفع، تعنى فى الأصل انغمار الماء، وتعنى هنا الرى الكامل، بحيث يزول العطش

٣- (٣). «يستعتب» من ماده (عتب) على وزن ثبت تعنى فى الأصل الانفعال الباطنى وان استعملت فى باب الاستفعال بمعنى

كسب ود الطرف المقابل وكانه يطلب منه العتبي حتى يرضى ويعودالى سبيل الحق

٤- (٤). سوره النساء، الآية ٨٢

ورد في سورة الكهف: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيَّ غَبِيَةَ الْكِتَابِ وَكَلَّمَ يَعْقِلُ لَهُ عِوَجًا» (١).

ثم قال في الصفحه التاسعه:

«وَلَا تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّذِّ، وَوُلُوجُ السَّمْعِ». أجل فطراوه القرآن وحلاوته ودوره التربوي يسمو على القراءه والتكرار، ذلك لأن القرآن كلام الله وكلامه كذاته غير متناهٍ وكلما تدبر الإنسان فيه اكتشف حقيقه جديده وكلما تطور العلم البشرى كلما تكشفت أبعاد جديده منه كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله

:«لا- تُحْصِي عَجَائِبُهُ وَلَا تُبْلِي غَرَائِبُهُ» (٢) أو كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام حين سأله شخص عن تسامى القرآن على التلاوه والتكرار فقال عليه السلام:

«لَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَجْعَلْهُ لِمَا نِ دُونَ زَمَانٍ وَلَا لِنَاسٍ دُونَ نَاسٍ فَهُوَ فِي كُلِّ زَمَانٍ جَدِيدٌ وَعِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ غَضٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (٣).

وأخيراً قال في الميزه العاشره والحاديه عشره:

«مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ». إشاره إلى أن القرآن معيار الحق والباطل والنصر والهزيمة، ومن تحدث على ضوء القرآن كان كلامه عين الحقيقه ومن التزم بالقرآن عملاً نال السعاده، ولاغرو فليس من سبيل للخطأ إلى القرآن وهذا ما يجعل الملتزم به قريباً من الحق في منطقته وسلوكه.

ص: ٩٩

١- (١) سورة الكهف، الآية ١

٢- (٢) . اصول الكافي، ج ٢، ص ٥٦٩

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ١٥، ص ٩٢

وقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن الفتنه، وهل سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عنها؟ فقال عليه السلام:

إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، قَوْلُهُ: «الْم * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَمَّا تَنْزَلُ بِنَا وَرَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا؟ فَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي»، فَقُلْتُ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتَشْهِدَ مَنْ اسْتَشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتُ لِي: «أُبَشِّرُ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟» فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذْنُ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ.

الشرح والتفسير: الفتنه الكبرى

جاء في متابعه الخطبه:

«وقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن الفتنه، وهل سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عنها؟» فالعبارة تشير إلى أن أذهان الناس كانت تساورها وقوع الفتنه، وأراد السائل أن يعرف هل ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله شيء بشأن هذه الفتنه الخطيره. فأجابه الإمام عليه السلام:

«إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، قَوْلُهُ: «الْم * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» (١)

عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَمَّا تَنْزَلُ بِنَا

ص: ١٠١

وَرَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا؟ فَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ (١) عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: «أَبَيْتَرُ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟» (٢) فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَنْ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ».

تأملان

١. الرد على بعض الأسئلة

تفيد العبارة الواردة في الخطبة أن الآية: «الم * أَحْسِبَ النَّاسُ...» أنها نزلت في المدينة بعد موقعه أحد، في حين يتفق المفسرون على أن سورة العنكبوت مكيه، حيث لم يكن آنذاك شيء عن الجهاد.

قيل في الجواب عن هذا السؤال: إن مكيه سورة معينه يعني نزول السوره بجميع آياتها في مكه، بل لا- يمنع أن تكون أغلب آياتها نزلت في مكه كما نزلت آيه أو أكثر، منها في المدينة، وقد أمر النبي صلى الله عليه وآله بوضع هذه الآية في السوره، على غرار إجماع المفسرين على مكيه سورة النحل مع العلم اليقين بنزول ثلاث آيات منها بعد موقعه أحد.

السؤال الثاني: من أين علم على عليه السلام بعد نزول الآية المذكوره أن الفتنة لا تقع على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بينما لم تشر الآية إلى هذا الأمر من قريب أو بعيد؟

ص: ١٠٢

-
- ١- (١). «حيزت» من ماده (تعنى) الوصول إلى شيء إن تعدت يالى، وعدمه إن تعدت بعن، كما فى الخطبه المذكوره
٢- (٢). «وراء» تعنى الخلف كما تعنى أحياناً الأمام

والجواب واضح في أنّ المراد من الفتنة خطر الانحراف عن أصول الدين وفروعه والذي يهدد كيان الأمة الإسلامية وليس لمثل هذا الانحراف أن يقع طالما كان النبي صلى الله عليه وآله بين ظهرانيهم، ولكن ما أن تغيب شمس النبي صلى الله عليه وآله حتى يستغل المنافقون الفرصه وتبرز الخلافات.

السؤال الثالث: ما تلك الفتنة التي أشار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في هذه الخطبه إلى وقوعها بعده؟ فقد ورد في روايه عن النبي صلى الله عليه وآله تعرض للتفاصيل أكثر من روايه نهج البلاغه، أنّه قال:

«إنّ أمتي ستفتن من بعدى فتأول القرآن وتعمل بالرأى وتستحل الخمر بالنبيذ(١) والسحت بالهديه والربا بالبيع وتحرف الكتاب عن مواضعه وتغلب كلمه الضلال فكن جليس بيتك حتى تقلدها، فإذا قلدها جاشت عليك الصدور وقلبت لك الأمور(٢). فهذا الحديث الذي ذكره ابن أبي الحديد في شرحه لهذه الخطبه يبيّن تلك الفتنة الكبرى(٣).

السؤال الرابع والأخير:

لماذا سأل علي عليه السلام بشأن شهادته؟ فهل أشار النبي صلى الله عليه وآله إلى شهادته حين تحدث عن تلك الفتنة؟ والحال لم يرد في الخطبه ما يشير إلى هذا الأمر؟ والجواب كما أسلفنا أنّ المرحوم السيد الرضى (ره) قد أوجز الخطبه. وقد ورد في الروايات المفصله أنّ علياً عليه السلام لما سمع من النبي صلى الله عليه وآله وقوع هذه الفتنة قال: يا رسول الله لقد وعدتني بالشهاده فاسأل الله أن يجعل لي بين يديك. قال صلى الله عليه وآله: فمن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين؟ أمّا أنى وعدتك الشهاده وستشهد تضرب على هذه فتخضب هذه(٤).

ص: ١٠٣

١- (١). المراد من النبيذ كما ورد في روايات أهل البيت أنّ النبي صلى الله عليه وآله أراد الحد من بروده ماء المدينه فأمر بطرح كميّه من التمر في ظرف كبير من الماء (لا أن يكون الماء مضافاً) إلّا أنّ بعض المنافقين تذرّع لاحقاً بهذا الموضوع وقذف بمقدار كبير من التمر حتى تخمر وخرج منه هذا الشراب الشفاف الذي يعرف بالنبيذ

٢- (٢). بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٢٤٣

٣- (٣) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٠٦

٤- (٤) المصدر السابق

القضيه الجديره بالذكر فى هذا المقطع من الخطبه ما ورد من حوار بين النبى صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام، حيث تطرق النبى الأكرم صلى الله عليه وآله إلى مفهوم الصبر الذى يكشف عن ذروه الإيمان وقمه الإيثار والتضحيه فى سبيل الله والقيم الإسلاميه التى لم تنقل عن شخص آخر على غرار ما هى عليه بالنسبه لعلى عليه السلام، ولعلنا نلمس امتدادات ذلك فى صرخته التى اطلقها عليه السلام حين ضرب فى محراب عبادته وخضب بدمه،

«فُرْتُ وَرَبُّ الكَعْبَةِ».

وَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيُؤْمِنُونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمُنُونَ سَيِّطَوْتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ، وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيدِ، وَالشُّحْتَ بِالْهَدْيَةِ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَبِأَيِّ الْمَنَازِلِ أَنْزَلْتَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ أَمْزَلَهُ رَدَّهُ، أَمْ بَمَنْزِلِهِ فَتْنَهُ؟ فَقَالَ: «بِمَنْزِلِهِ فَتْنَهُ».

الشرح والتفسير: الحيل الشرعية في استحلال المحرمات

قال الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه الذي يمثل آخرها ومواصله لنقل كلام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بخصوص الفتنة التي تقع من بعده:

«وَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيُؤْمِنُونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمُنُونَ سَيِّطَوْتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ، وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيدِ، وَالشُّحْتَ (١) بِالْهَدْيَةِ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ».

فقد ركز رسول الله صلى الله عليه وآله على تفاصيل هذه الفتنة الكبرى وأشار إلى خمس صفات من صفات الفتنه التي تعيش ذلك الاختبار. فصرح قبل كل شيء بافتنانهم بأموالهم في إشاره إلى أن المال من المحاور الرئيسييه في الاختبار والامتحان، كما نرى أن الأمر كذلك في كل عصر ومصر، والآخر، أنهم يعيشون حاله من الغرور

ص: ١٠٥

١- (١) «السحت» يعنى فى الأصل، فصل القشر عن الشىء، ثم اطلق على كل مال غير شرعى ولا سيما الرشوه، لأن هذه الأموال تسلب الإنسان البركه على غرار الشجره التى تذبل حين سقوط قشرها

الزائف، ذلك أنهم يتناولون على الناس بإسلامهم وكأنهم يمتنون على الله، ويظنون رغم كل آثامهم بنيل رحمه الله والأمان من عذابه، وهذه هي الحالة التي تستحوذ عادة على جميع الاثمين المغرورين الراضين عن أنفسهم.

قال القرآن الكريم بشأن بعض الأعراب الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً واتسموا بتلك الصفات: «يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلِمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (١).

الميزه الأخرى لهؤلاء أنهم يحاولون التغطية على أعمالهم السيئه بغيه خداع الآخرين وربما خداع أنفسهم. فهم على سبيل المثال يتناولون الخمر وحين يشكل عليهم بأنّها من المحرمات، قالوا: بل هذا النبيذ الذي كان يشربه رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه، في حين لم يكن ذلك النبيذ مسكراً ولا حراماً، وقضيه ذلك النبيذ أنّ أصحابه بعد أن قدموا إلى المدينة وشكوا من طبعه الماء، أشار عليهم بقذف عدّه تميرات في ظرف كبير من الماء. ولم يكن ذلك الماء مضافاً، كما لم تكن التميرات بالحد الذي يؤدّي إلى السكر، فكانوا يشربون من ذلك الماء ويتوضؤون به، إلّا أنّ بعض المغرضين استغل هذه القضية وقذف المزيد من التمر وعرضها للحراره حتى تخمرت وتحولت إلى مسكر، فكانوا يتعاطونه باسم النبيذ (٢). على غرار الكثير من الأشخاص ضعاف الإيمان في الماضي والحاضر الذين يصطلحون على الرشوه بالهديه، كما يمارسون الربا في معاملاتهم باسم البيع. طبعاً يسعى الآثمون في الأوساط الدينيه التي لا يخفى فيها الإثم ويؤدّي إلى بعض المشاكل بالنسبه لمن يقارفه إلى ممارسه الحرمات من خلال بعض المظاهر الزائفه، وهذا ما تناولته الأخبار الوارده بشأن الفتنه.

ثم اختتم الإمام عليه السلام خطبته في حديثه مع الرسول الله صلى الله عليه وآله:

«قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،

ص: ١٠٦

١- (١) سورة الحجرات، الآية ١٧٠

٢- (٢). راجع الكافي، ج ٦، ص ٤١٦، ح ٣٠

فَبِأَيِّ الْمَنَازِلِ أَنْزَلْنَاهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ أَمْزَلَهُ رَدُّهُ (١) ، أَمْ بَمَنْزِلِهِ فِتْنَتِهِ؟ فَقَالَ: «بِمَنْزِلِهِ فِتْنَتِهِ».

يبدو أنّ هؤلاء الأفراد يقرون بالتوحيد والنبوّه وكان انحرافهم فى القضايا العمليه، ولم يكونوا منكرين حتى لضروريات الدين وكانوا يسعون لتمويه ما يقترفون من محرمات بغطاء الحلال، وعليه لا- يجرى عليهم حكم الارتداد، ولم يعاملهم الإمام عليه السلام كمرتدين.

تأمل: الحرام لا يحل بالزيف

ما أورده النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بشأن الفتنه لا يقتصر على عهد على عليه السلام بل يمتد ليشمل كل العصور بما فيها عصرنا الراهن. فهناك العديد من الأفراد الذى يظنون أنّهم فى ركب المؤمنين حين يجرى الكلام عن الأموال والثروه غير المشروعه وكأنّهم يمتنون على الله بإسلامهم ويطمعون بعفوه ورحمته. والأسوأ من ذلك ارتكاب الكبائر فى إطار بعض العناوين المباحه والمزيفه، بعبارة أخرى يرتكبون هذه المخالفات من خلال التحايل على القانون واستغلال بعض فقراته المرنه. ولعلنا نشاهد اليوم أغلب المرابين الذين يتشبثون بمختلف الحيل، تاره باسم تبديل العملات النقديه بأخرى، وتاره أخرى عن طريق «ضم الضميمه» أى أنّهم يضمون إلى المعامله شيئاً زهيد القيمة فيبيعونه بقيمه فادحه، وأحياناً باسم تقاضى الأجور وأخرى ببيع الشروط الكاذبه أو حق العمل وذريعه التضخم وسائر العناوين الكاذبه والزائفه لإضفاء الحليه على الربا، حتى عدنا نلمس بوضوح ما قاله النبى صلى الله عليه وآله بهذا الخصوص

«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا أَكَلَ الرَّبَا فَإِنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ» (٢). حقاً أنّ هذا النوع من المخالفه للقوانين الشرعيه هو أسوأ وأخطر من

ص: ١٠٧

١- (١). «ردّه» على وزن مكه الرجوع عن شىء، و (ردّه) على وزن فتنه، الرجوع عن الدين، وهذا هو المعنى المراد فى العبارة المذكوره فى الخطبه

٢- (٢). مستدرک الوسائل، ج ١٣، ص ٢٣٣

المخالفة الصريحه؛ لأنها قد تستشري سريعاً في أوساط المجتمع دون أن تصطدم ببعض الموانع، والحال ليست المعاصي الصريحه بهذا الشكل والتي تصطدم بالكثير من العقبات في المجتمعات الدينيه. أضف إلى ذلك فإنّ هذا الهروب من القانون يعدّ جريمة مضاعفه؛ فهو ينطوي على معصيه الربا إلى جانب الرياء والتلاعب بأحكام الدين. بعبارة أخرى، لا يبقى من القانون والحكم الشرعي في الهروب سوى صورته الظاهريه مع اسقاط مضمونه وفلسفته؛ فتحريم الربا مثلاً يستند إلى مفسده العديده على النظام الاقتصادي للمجتمع وإثاره السلبيه في خلق الطبقيه البغيضه وبروز الطبقة المعدمه إلى جانب تلك المرفهه، ومن هنا عدّته بعض الروايات أسوأ من الزنا بالمحارم وأنه بمثابة محاربه الله، وذكرت سبعاً من مفسده أوضحنها في بحث الربا(1). ولنا أن نتساءل: هل تزول هذه المفسد بممارسه بعض الأمور الظاهريه من قبيل إضافه علبه كبريت أو مقدار من النبات إلى تلك المعامله الثقيله؟ كلا. وهل يكمن جوهر المشكله في كلمه السحت والربا كما قال المرحوم وحيد البهيهاني وأنّ جميع مساويء الربا إنّما تعود إلى هذه الألفاظ، أم أنّ هنالك حكمه في هذا الحكم لا ينبغي الغفله عنها؟!

ص: ١٠٨

١- (١). راجع كتاب الربا والبنوك المصرفيه لسماحه المؤلّف

يُحِثُّ النَّاسَ عَلَى التَّقْوَى (١)

نظرة إلى الخطبه

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبه كسائر خطب نهج البلاغه بحمد الله والثناء عليه، ثم خاض في بعض الأمور الحساسه. تطرق في القسم الأول إلى الاعتبار بالماضين - الذين نشترك معهم في المصير - ليأخذ بأيدينا إلى أعماق التاريخ لننظر بوضوح لمصيرنا فنظفر بالسعاده.

وأشار في القسم الثاني إلى أهميه الورع والتقوى والتزود من الدنيا للآخرة، وحذر من أن نهايه الحياه الدنيا ليست معلومه لأى فرد فلا- ينبغى الغفله. وتحدث في القسم الثالث عن المراصد التى تتابع أعمال الإنسان بما فيها الملائكه والحفظة وحتى جوارح الإنسان وأعضائه.

ص: ١٠٩

١- (١) سند الخطبه: رغم سمو مضامين الخطبه وألفاظها الفصيحه والبليغه التى يستبعد صدورها - على غرار سائر خطب نهج البلاغه - عن غير الإمام المعصوم عليه السلام، مع ذلك نشير إلى بعض المصادر التى وردت بشأنها فى كتاب مصادر نهج البلاغه، فقد أشار إلى بعضها العالم اللغوى ابن الأثير فى النهايه فى ماده شول وماده ربك، كما وردت بعض عباراتها باختلاف فى غرر الحكم والذى يفيد أنها أخذت من مصدر آخر غير نهج البلاغه

وخاض فى القسم الأخير فى نهايه الحياه وعالم القبر والوحشه هنالك وفناء الدنيا والقيامه من خلال عبارات قصيره تهز الإنسان وتحته على اغتنام الفرصه.

ص: ١١٠

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحًا لِذِكْرِهِ، وَسَبَبًا لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَدَلِيلًا عَلَى آلَائِهِ وَعَظَمَتِهِ.

عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَرِيهِ بِالْمَاضِينَ؛ لَا يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ، وَلَا يَبْقَى سَرْمَدًا مَا فِيهِ.

أَخِرُ فَعَالِهِ، كَأَوَّلِهِ. مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلَامُهُ. فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَخِدُوكُمْ حِدْوَالِ الزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ: فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَبَّرَ فِي الظُّلُمَاتِ، وَارْتَبَكَ فِي الْهَلَكَاتِ، وَمَدَّتْ بِهِ شَيَاطِينُهُ فِي طُعْيَانِهِ، وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّئَ أَعْمَالِهِ. فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفْرَطِينَ.

الشرح والتفسير: انعطافه على المبدأ والمعاد

استهل الإمام عليه السلام الخطبه بحمد الله بعبارات جديده فقال:

«الْحَمْدُ (١) لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحًا لِذِكْرِهِ، وَسَبَبًا لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَدَلِيلًا عَلَى آلَائِهِ وَعَظَمَتِهِ». أما بشأن الذكر الوارد في العبارة، فقد قيل: المراد به القرآن الكريم حسب بعض الآيات التي عبرت عنه بالذكر، وذلك لأن سورة الحمد بدايه القرآن (بناءً على أن سورة الحمد أول سورة نزلت على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأن القرآن جمع بهذا الشكل على عهد

ص: ١١١

١- (١). «الحمد» في اللغة، بمعنى المدح على عمل أو صفة اختيارية، ولما كانت افاضته النعم على المحتاجين احدى الأعمال الحسنه فإن هذه المفردة ترد بمعنى الشكر أيضاً

النبى صلى الله عليه و آله بأمره وقد صدر بسوره الحمد(١). أو أنها إشاره إلى بعض السور القرآنيه التى تصدرت بالحمد كسوره الحمد والأنعام والكهف وسبأ وفاطر. أو أنّ الذكر مطلق ذكر الله كما ورد فى الأحاديث عن النبى صلى الله عليه و آله أنه قال:

«كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم»(٢). ومن هنا نشاهد أغلب خطب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والمعصومين عليهم السلام تستهل بحمد الله والثناء عليه. والعبارة (سبباً للمزيد من فضله) إشاره للآيه الكريمة:

«لَنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ»(٣) وهنا لابد من الإلتفات إلى أنّ الحمد ورد فى أغلب الآيات القرآنيه بمعنى الشكر. والعبارة (دليلاً على عظمته وآلائه) إشاره إلى أننا حين نحمد الله ونشكره فإننا نكون قد توجهنا إلى نعمه وآلائه إلى جانب التفاتنا لمقام عظمته.

ثم خاطب الإمام عليه السلام عباد الله ليحذّرهم من تقلب الدنيا ويوصيهم بالاعتبار بمن سبقهم من الماضين فقال:

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ الدَّهْرَ (٤) يَجْرِي بِالبَاقِينَ كَجَزْيِهِ بِالمَاضِينَ».

والعبارة تشير إلى موضوع معروف فى أنّ التاريخ يعيد نفسه وأنّ حوادث اليوم هى حوادث الأمس بتغيير طفيف. ويقول موضعاً ذلك

«لَا يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ، وَلَا يَبْقَى سِرٌّ مَدَامَا فِيهِ، آخِرُ فَعَالِهِ، كَأَوَّلِهِ. مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلَامُهُ». أجل، لو تمعنا قليلاً لعرفنا أنّ سلسله من الأصول تحكم تاريخ البشريه وأنها تبرز كل يوم بصيغه جديده، ومن هنا يستطيع كل فرد الوقوف على مستقبله من خلال دراسه تاريخ الماضين، ذلك أنّ تاريخ الأمس مرآه عاكسه لأحداث اليوم. فهناك على الدوام فئه تمسك بزمام الأمور وتسيطر على كل شىء ولا تمضى عليها مدّه حتى

ص: ١١٢

١- (١). أكدنا على هذا الاحتمال فى بحث سوره الحمد فى التفسير الأمثل واعتبرنا تسميتها من قبل الروايات بفاتحه الكتاب دليلاً على ما ذهبنا إليه

٢- (٢). فقه السنه، ج ٢، ص ٢٣٠ (كما وردت بعض الروايات بهذا الخصوص فى كتاب المغنى لابن قدامه ونيل الأوطار للشوكانى)

٣- (٣). تفيد هذه العبارة أنّ الاحتمال الثالث أنسب الاحتمالات

٤- (٤). «الدهر» حسب الراغب فى المفردات أنها فى الأصل اسم لعمر العالم، ثم أطلقت على معنى أوسع يشمل الزمان وتاريخ الحياه البشريه، كما تستعمل بمعنى ناس عصر معين وخالق الزمان أيضاً

يدب فيها الضعف والعجز وتتخلى عن تلك السلطه مختاره أو مرغمه إلى الآخريين «فإذا جاء أجلهم لا يسئ تأخرون ساعه ولا يسئ تقدمون»، كما جرت العاده على أن يولد الفرد طفلاً ثم يصبح شاباً يافعاً وبالتالي يسير إلى الشيخوخه والهزم لينتظر أجله فيلتحق بقافله الموتى ويتوسد التراب.

وما أن يفرغ الإمام عليه السلام من هذا الأمر حتى يسدى نصائحه ومواعظه

«فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَحِيدُونَكُمْ (١) حَيْدُوا الزَّاجِرِ بِشَوْئِهِ». وبالنظر إلى أن الزاجر تطلق على من يسوق الجمال بسرعه، والشوال جمع شائله التي تطلق على الجمال الخفيفه، أى التي مضت مدّه على وضعها لحملها وقد جفّ ثدياها وبالطبع لا يلتفت إليها الراعى، نستنتج أن الدهر يسوق الناس سراعاً إلى الفناء. فما أسرع الليالى والأيام والسنوات والأشهر، إلى جانب الحوادث المفاجئه والأمراض وسائر الأمور التي تستهدف حياه الإنسان.

ثم يلفت عليه السلام الانتباه بعد ذلك التحذير إلى هذه الحقيقه:

«فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِي الظُّلُمَاتِ، وَارْتَبَكَ (٢) فِي الْهَلَكَاتِ، وَمَدَّتْ بِهِ شَيْطَانِيَّتُهُ فِي طُغْيَانِهِ، وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّئَ أَعْمَالِهِ». فكل إنسان ينطوى على بعض المناقص والمثالب ونقاط الضعف وليس له من سبيل سوى إصلاحها ليتدرج فى المسيره نحو الإنسان الكامل فيستحق قرب الله وخلافته، أما من صوب نظره خارج ذاته وانهمك بسائر قضايا الناس كالمال والثروه والجاه فلا مناص أنه سيعيش الحيره والارباك، والأسوأ من ذلك أن الشياطين تتخطف هذا الإنسان الغافل فتسوقه إلى الطغيان وتزين له سوء أعماله حتى يراها من مواطن قوته فيفخر بها، ومن الطبيعى أن مثل هذا الإنسان لا سبيل لديه إلى النجاه. صرح القرآن بشأن مثل هذا الفرد: «كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (٣).

ص: ١١٣

١- (١). «تحدو» من ماده (حدو) و (حدى)، سوق الابل، ومطلق السوق

٢- (٢). «ارتبك» من ماده (ربك) على وزن ربط، الاضطراب، بحيث يصعب على الإنسان النجاه

٣- (٣) سورة الانعام، الآيه ١٢٢

وأشار عليه السلام في ختام هذا القسم من الخطبه إلى مصير هذا العمل فقال:

«فَالجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفْرَطِينَ» والمراد طبعاً من السابقين، السابقين في ميدان طاعه الله وهدفهم الجنه، على غرار ماورد في القرآن الكريم: «سَيَأْبُقُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا» (١) العبارة (والنار غايه المفرطين) إشاره إلى الأفراد الذين تؤول أمورهم إلى النار بفعل تقصيرهم وعدم استغلالهم الفرص؛ حيث يقول القرآن الكريم بشأن مثل هؤلاء الأفراد: «قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا» (٢).

تأمل: كيف يعيد التاريخ نفسه

تاريخ البشريه سلسله من الأحداث الجمه المتنوعه والمختلفه، ولكن ما أن نتأملها بدقه حتى نستطيع التوصل إلى خصائص تلك الأحداث المختلفه وتقولبها في فئات معينه وعناوين خاصه، وبعض تلك الخصائص كما يلي:

١. الزوال السريع للنعم والسلطات: نعم، فالنعمه والسلطه تأتي بسرعه وتزول كذلك وتنتقل من طرف لآخر.

٢. التقلب: التقلب هو احد مميزات حوادث هذا العالم فما أن يتعلق الإنسان بشيء حتى يفقده، وما أن يدوب في شخص حتى يفجع به.

٣. غدر الدنيا: وقد ضرب المثل بهذا الشأن حتى قيل (لمن صفت الدنيا لتصفو لنا).

٤. النصر والهزيمه: ما زالت ذاكره التاريخ حافله بالكثير من الأفراد والطوائف

ص: ١١٤

١- (١) . سورة الحديد، الآيه ٢١

٢- (٢) سورة الانعام، الآيه ٣١

الذين عاشوا الانتصار وغروره ولكنهم ما لبثوا أن تجرعوا غصص الذل والهوان ومرغت انوفهم بوحل الهزيمة.

٥. استبدال الود بالعداء والعكس: فأقرب مقربى الإنسان اليوم قد يصبح عدوه فى الغد كما أنّ أعداء أمس قد يصبحون أصدقاء اليوم، الأمر الذى نلاحظه بجلاء فى حياة الساسه والحكام.

٦. الترحم واللعن: الذى يبقى فعلا- ويدعو إلى الذكر الحسن لدى الناس هو أعمال الخير والبر والمروءه والاخلاص، والعكس صحيح، فليس للظلم والطغيان سوى اللعن.

ص: ١١٥

اعلموا، عباد الله، أن التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لَمَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلَمَا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ. أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقَطَّعُ حُمَةُ الْخَطَايَا، وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى.

عِبَادَ اللَّهِ، اللَّهُ اللَّهُ فِي أَعَزِّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقَهُ. فَشِدَّةُ قُوَّةِ لَازِمَتِهِ، أَوْ سَعَادَةُ دَائِمَتِهِ! فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ. قَدْ دُلُّتُمْ عَلَى الزَّادِ، وَأُمِرْتُمْ بِالطَّعْنِ، وَحُشِّنْتُمْ عَلَى الْمَسِيرِ؛ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكِبٍ وَقُوفٍ، لَا يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ. أَلَا فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلْآخِرَةِ! وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسَلِّبُهُ، وَتَبْقَى عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ وَحِسَابُهُ!

عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ مَتْرُكٌ، وَلَا فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْعَبٌ.

عِبَادَ اللَّهِ، احذروا يَوْمًا تُفْحَصُ فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزَّلْزَالُ وَتَشِيْبُ فِيهِ الْأَطْفَالُ.

الشرح والتفسير: تقلب الدنيا

قال الإمام عليه السلام هنا - بعد أن خاض في تقلب أحوال الدنيا واعد المخاطبين لاستماع المواعظ والإرشادات:

«اعلموا، عباد الله، أن التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لَمَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلَمَا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ». إشاره إلى أن

التقوى ملكه باطنيه قويه تحول دون مقارفه الإنسان للذنب وهذا ما يؤدى بدوره إلى الاحتراز من انعكاسات الذنب الخطيره فى الدنيا والآخرة، بعكس الأفراد المجانين للورع والتقوى والذين يصبحون عرضه لنفوذ الشياطين وأهواء النفس وبالتالي السقوط فى مستنقع الذنب والفضيحة فى الدنيا وسوء العذاب فى الآخرة.

ثم تطرق عليه السلام إلى آثار التقوى فقال:

«أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقَطَّعُ حَمَمُهُ (١) الْخَطَايَا، وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْعَايَةُ الْقُصْوَى» فالإمام عليه السلام يشبه سطوه الذنوب بالحشرات السامه كالحيه والعقرب. نعم، فالتقوى هى التى تمنح الإنسان الحياه، ولما كانت التقوى واليقين لازماً وملزوماً لبعضهما البعض فقد صرح الإمام عليه السلام بأن من ينطق باليقين يبلغ الهدف، والتقوى تزيل عقبات الطريق ولا يفرز عدم التقوى سوى ضعف اليقين.

فهل يسع من يوقن بهذه الآيه:

«إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ مِظْلَمًا إِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا» (٢) أن يأكل مال اليتيم؟ وهل يسعك أن تجد شخصاً يتناول قطعه من النار ويضعها فى فمه؟! ثم قال فى اطار حث الآخرين على التزود من الدنيا للآخرة:

«عِبَادَ اللَّهِ، اللَّهُ اللَّهُ فِي أعزِّ الأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ». قطعاً المراد من (أعز الأنفس) فى هذه العبارة نفس الإنسان، ذلك لأن حب الذات مسأله طبيعیه لدى الإنسان وإن تعلق بشخص أو شىء ففى ظل غريزه حب الذات (بغض النظر عن أولئك الذين تجاوزوا ذواتهم ولم يعودوا يروا سوى الله وذاته المطلقه ولا يرومون سواه. على كل حال، فالمراد: إن لم ترحموا أحدا فعلى الأقل ارحموا أنفسكم وإن غفلتم عن مصالح الآخرين فلا تغفلوا عن مصالحكم، فهذا الأمر مودع فى فطرتكم.

ثم حذر قائلاً:

«فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْصَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقِهِ. فَشِقْوَةٌ لَّازِمَةٌ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ!». وخاض أخيراً فى بيان أسباب نيل السعاده الدائمه واجتناب

ص: ١١٨

١- (١). «حمه» بالضم، على وزن قوه، بمعنى لسع الحشرات والعقارب وما شابه ذلك، كما تطلق على سمها أيضاً

٢- (٢). سورة النساء، الآيه ١٠

«فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لِأَيَّامِ الْبُقَاءِ. قَدْ دُلُّنَا عَلَى الزَّادِ، وَأُمِرْتُمْ بِالظَّنِّ (١)، وَحُشِّنْتُمْ (٢) عَلَى الْمَسِيرِ». جدير ذكره أنّ المراد من الزاد: التقوى والعمل الصالح الذى أشار إليه القرآن: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» (٣). والعبارة (أمرتم بالظن...) يمكن أن تكون إشارة إلى أمر تشريعى ورد فى الآيات المرتبطة بفناء الدنيا وأنّ كل شخص سيدوق فى خاتمه المطاف طعم الموت على ضوء الدلالة الالتزاميه، كما يمكن أن يكون إشاره إلى أمر تكويني؛ لأنّ الله خلق أسباب الحركة بحيث يسرع الطفل نحو الشباب والشباب إلى الكهولة وحث الخطى نحو دار البقاء، وقد أصدر أمره بحث الحركة نحو أسباب العفو والمغفره: «وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» (٤). كما ورد فى الخطبه ٣١ من نهج البلاغه فى وصيه الإمام عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام

:«يابنى من كانت مطيته الليل والنهار، فإنّه يسار به وإن كان واقفاً، ويقطع المسافه وإن كان مقيماً وادعاً».

ثم واصل كلامه بتشبيه بليغ فقال:

«فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكِبٌ (٥) وَقُوفٍ، لَا يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ». لعل هنالك من يتساءل كيف التوفيق بين عباره الإمام عليه السلام وقوله (أمرتم بالظن) التى اردفها بالعبارة (لا- يدرون متى يؤمرون بالسير)؟ وإنّ أدنى تأمل يفيد أنّ العبارة الأولى إشاره إلى الحركة فى الدنيا نحو الكمال والمسارعه فى أعداد عناصر العفو والمغفره، أمّا العبارة الثانية فهى تشير الحركة من الدنيا إلى الآخرة.

على كل حال فقد ورد هذا التشبيه فى سائر مواضع نهج البلاغه ومنها الكلمات القصار حيث قال عليه السلام:

«أهل الدنيا كَرَكِبٍ يُسَارُّ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ» (٦) وهذا النوم هو الغفله

ص: ١١٩

١- (١). «الظن» بمعنى (الرحيل) من مكان إلى آخر

٢- (٢) «حشتم» من ماده (حث) على وزن وصف، الاندفاع والسرعه

٣- (٣). سوره البقره، الآيه ١٩٧

٤- (٤). سوره آل عمران، الآيه ١٣٣

٥- (٥). «ركب» جمع (راكب) تعنى فى الأصل، ركوب الدابه، إلّا أنّ معناها المتعارف، القافله

٦- (٦). نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٦٤

التي يعيشها أغلب الناس. ثم قال في توضيح هذه الحقيقة:

«أَلَمْ أَفَعَا يَصْنَعِ بِالْدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلْآخِرَةِ! وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسْئَلُهُ، وَتَبَقَى عَلَيْهِ تَبَعُهُ (١) وَحَسِبَ أَبُوهُ!». إن كانت دارنا الأصلية هي دار الآخرة والدار الدنيا ليست سوى ممر فما معنى تعلقنا بهذه الدنيا؟ وما معنى كل هذا السعى والجهد من أجل جنى الأموال ولو عن طريق مزج الحلال بالحرام وهي ليست سوى وديعه لدينا وإن يوماً سنفارقها ونحاسب عليها؟

ثم استعان الإمام عليه السلام في اطار حثه الآخرين على الخير والإحسان واجتناب الشر والسوء بمنطقتين مؤثرتين؛ الأول الذي قال فيه:

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ مَتْرُكٌ، وَلَا فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْعَبٌ». إشارة إلى أن من أمر ونهى ووعد بالثواب وتوعد بالعقاب ليس فرداً عادياً يمكن الريه في كلامه.

والثاني الذي قال فيه:

«عِبَادَ اللَّهِ، اخِذُوا يَوْمًا تُفْحَصُ فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَيَكْتُرُ فِيهِ الزَّلْزَالُ وَتَشْتَبِ (٢) فِيهِ الْأَطْفَالُ». ففي ذلك اليوم ستخضع جميع الأعمال مهما كانت صغيرة لدراسه دقيقه، كما قال القرآن الكريم: «يَا بَنِي إِنْهَإِ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَيْحُرِهِ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ» (٣)، والمراد من كثره الزلازل في ذلك اليوم زلزه الافكار وارتعاد القلوب من هول المحشر وخوف نتيجة الأعمال. صحيح أن نهايه العالم ستشهد زلزه بمعناها الحقيقي والتي تقلب كل شىء رأساً على عقب، وما ورد في العبارة إشارة إلى الزلزه الفكرية والاضطراب الذي يعانيه الإنسان في ساحه الحشر. والعبارة

ص: ١٢٠

١- (١). «تبعه» من ماده (تبع) على وزن خبر، بمعنى المتابعه، ويطلق تبعه العمل على الجزاء الذى يطال الإنسان بعد مقارفته المعصيه

٢- (٢). «تشيب» من ماده (شيب) على وزن عيب، بمعنى بياض الشعر، وتطلق عاده على الكهول، وشيب: على وزن سيب، جمع أشيب بمعنى الكهول فى مقابل الشباب، والشيبه بمعنى الشباب

٣- (٣). سورة لقمان، الآية ١٦

«تشيب فيه الأطفال» كناية عن عمق وشده ذلك المشهد وهو التعبير السائد لدينا في المكالمات اليومية حين نقول: إن تلك الحادثة مثلاً- تشيب الإنسان، كما ورد في القرآن الكريم: «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا» (١) نعم، ذهب البعض إلى أن شيب الأطفال هنالك بالمعنى الحقيقي لا الكنائي، إلّا أن هذا الاحتمال بعيد، فليس هنالك ما يشير إلى أن الطفل الذي يتلقى العذاب يشيب بفعل هول العذاب.

ص: ١٢١

١- (١) . سورة المزمل، الآية ١٧

اعلموا، عباد الله، أن عليكم رصداً من أنفسكم، وعيوناً من جوارحكم، وحفاظ صدق يحفظون أعمالكم، وعدد أنفاسكم، لتستركم منهم ظلمة ليل داج، ولا يكننكم منهم باب ذورتاج وإن غداً من اليوم قريب.

يذهب اليوم بما فيه، ويحيى الغد لاحقاً به، فكان كل امرئ منكم قد بلغ من الأرض منزل وحدثه، ومخط حفرته. فإله من بيت وحيده، ومنزل وحشه، ومفرد غزبه! وكان الصيحة قد أتتكم، والساعة قد غشيتكم، وبرزت لفصيل القضاء، قد زاحت عنكم الأباطيل، واضمحلّت عنكم العال، واستحقت بكم الحقايق، وصدرت بكم الأمور مصادرها، فاتعظوا بالعبير، واعتبروا بالغير، وانتفعوا بالندر.

الشرح والتفسير: حضور المحكمه الإلهيه

أشار الإمام عليه السلام تماماً لمواعظه السابقه إلى ثلاثه أمور مهمه؛ الأول، بشأن حفظه الأعمال، والثاني، الموت والقبر، والثالث، الحساب يوم القيامة والتي من شأنها تنبيه الغافل ويقظته من سبات الغفله، فقال في الأمر الأول:

«اعلموا، عباد الله، أن عليكم رصداً من أنفسكم، وعيوناً من جوارحكم، وحفاظ صدق يحفظون أعمالكم، وعدد أنفاسكم».

ثم وضع طبيعه هؤلاء المراقبين فقال:

«لا تستركم منهم ظلمة ليل داج (١)، ولا

١- (١). «داج» من ماده (دجو) على وزن هجو، بمعنى الظلم، وليل داج، الليله الظلماء التي لا يرى فيها القمر والنجوم

«أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصِيداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ» إشاره إلى شهاده أعضاء بدن الإنسان وجوارحه وجلده يوم القيامة، كما عبّر عن ذلك القرآن الكريم: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (٣) ثم قال:

«شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ» (٤). بالنظر أن معنى «الرصد» الرقيب، و«عيون» بمعنى الاطلاع فإن المفردتين من قبيل الإجمال والتفصيل؛ أى أن مراقبى أعمال الإنسان فى الدرجة الأولى أعضاؤه وجوارحه التى تنطق يوم القيامة وتشهد على جميع أعماله. أما ما ذهب إليه بعض شراح نهج البلاغه من أن «الرصد» يعنى وجدان الإنسان الذى يلومه على الأعمال السيئه، فليس بصحيح؛ لأنّ الوجدان قاضى الباطن لا المراقب والشاهد الكامن فى مفهوم الرصد. وهل هذه الشهاده بلسان القال والنطق المتعارف أم بلسان الحال وشهاده الآثار؟ الاحتمالان واردان؛ لأنّ أى عمل يقوم به الإنسان تنعكس آثاره على جميع أعضائه وستظهر هذه الآثار يوم القيامة لتفصح عن جميع أعماله التى أتى بها طيله عمره، كما يمكن تبديلها إلى أمواج صوتيه يسمعها الجميع. والعبارة

«وَحُفَظَ صِدْقٍ» إشاره إلى الملائكه الموكله بضبط أعمال الإنسان، كما ورد فى القرآن الكريم: «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ» (٥) وهنا يرد هذا السؤال المعروف: ما حاجه الله إلى هؤلاء الملائكه رغم علمه الذى أحاط بكل شىء وأنه أقرب إلينا من حبل الوريد؟ وتتضح الاجابه عن هذا السؤال من خلال الالتفات إلى هذه النقطه

ص: ١٢٤

- ١- (١). «يُكِنُّكُمْ» من ماده (كَن) على وزن جن، يقال عاده للظرف الذى يحفظ فيه الشىء، ثم توسع هذا المعنى وأصبح يطلق على كل ما يحفظ الأشياء أو الأشخاص
- ٢- (٢) «رتاج» و«رتج» على وزن كرج، الباب العظيم المحكم الاغلاق
- ٣- (٣). سوره النور، الآيه ٢٤
- ٤- (٤). سوره فصلت، الآيه ٢١-٢٢
- ٥- (٥). سوره الانفطار، الآيات ١٠-١٢

وهي أنّ الإنسان كائن مادي وليس له من معرفه عميقه بعالم ماوراء ماده ولا يشعر بقرب الله منه؛ إلّا أنّه يدرك هذا المطلب تماماً حين يقال له إنّ أعضاء بدنك ستشهد عليك يوم القيامة، كما يعبر هذا الموضوع أهميّة كبرى إن قيل له: عليك ملكان يكتبان كل أعمالك، وهذا بدوره يمثل عنصراً مهماً في ردعه عن ارتكاب الذنوب والمعاصي. فالله سبحانه وتعالى أراد بكل وسيله أن يصد عباده عن الذنوب، وشهادة الأعضاء والملائكة واحده من هذه الوسائل.

الغريب في الأمر أنّ هؤلاء الحفظة يحصون على الإنسان حتى عدد أنفاسه ولا يحتاجون في كتابتهم لأعمالنا لأدنى سراج ومصباح، فهم يكتبون حتى في عتمه الظلمه المطلقه، ولكن ما كفيه هذه الكتابه؟ قطعاً ليس ذلك من قبيل كتابتنا وإن لم نحط علماً بتفاصيل ذلك.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه عن الموت والقبر الذي يهزّ الغافل بعنف فقال:

«وَإِنَّ عَدَاً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. يَذْهَبُ الْيَوْمَ بِمَا فِيهِ، وَيَجِيءُ الْغَدُ لَأَحِقًّا بِهِ». المراد من

«الغد» قرب نهايه العمر والموت الذي إن غفل عنه الإنسان يهوى في مستنقع الغفله فإن رآه قريباً راقب أعماله وقام بوظيفته وتاب من ذنوبه. حقاً أنّ نهايه العمر ليست بعيده مهما عمّر الإنسان، ذلك أنّ الأشهر والسنين تمرّ بسرعه إلى جانب الحوادث غير المتوقعه والأمراض التي تهجم على الإنسان فجأه وتقضى عليه. وذهب بعض الشراح لنهج البلاغه إلى أنّ المراد ب

«الغد» في العبارة المذكوره غد القيامة، وهذا المعنى وإن كان قريباً إلّا أنّ المعنى الأول وبالاستناد إلى العبارات القادمه التي تحدثت عن القبر أنسب.

ثم ذكر الجميع بوحشه القبر فقال:

«فَكَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْأَرْضِ مَنَزِلَ وَحَدَّتِهِ، وَمَخَطَّ (١) حُفْرَتِهِ. فَيَا لَهُ مِنْ بَيْتٍ وَحَدَةٍ، وَمَنْزِلٍ وَحَشَةٍ، وَمُفْرَدٍ غُرْبَةٍ!».

ص: ١٢٥

١- (١) «مخط» من ماده (خط) بمعنى الخط والعلامه، فهو اسم مكان، والمراد به في العبارة، المكان الذي يُخط لحفر القبر

أجل، فالإنسان الذى لا يتحمل الوحده لساعه ويعيش دائماً بين صحبه وقرابته وأهله، لا يكاد يغمض عينيه عن هذه الدنيا حتى يفارق الجميع وإلى الأبد فينزل حفره مظلمه ومرعبه فى وحده وغربه مطلقه، فيالها من غربه أليمه صعبه، اللهم إلهما أن يظفر بأصحاب جدد من أعماله الصالحه فتجعل الملائكه قبره روضه من رياض الجنه، لا حفره من حفر النار.

قال الإمام الصادق عليه السلام

«إِنَّ لِلْقَبْرِ كَلَاماً فِي كُلِّ يَوْمٍ يَقُولُ: أَنَا بَيْتُ الْغُرْبَةِ، أَنَا بَيْتُ الْوَحْشَةِ، أَنَا بَيْتُ الدُّوْدِ، أَنَا الْقَبْرِ، أَنَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّارِ» (١).

وأخيراً ما أن يفرغ الإمام عليه السلام من بيان الموت والقبر حتى يتجه صوب القيامه ومحكمه العدل الإلهى ليحذر الجميع قائلاً:

«وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ، وَالسَّاعَةَ قَدْ غَشَّيْتُمْ، وَبَرَزْتُمْ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ، قَدْ زَاخَتْ عَنْكُمْ الْأَبْطِيلُ، وَاضْمَحَلَّتْ عَنْكُمْ الْعِلْمُ، وَاسْتَحَقَّتْ بِكُمْ الْحَقَائِقُ، وَصَدَرَتْ بِكُمْ الْأُمُورُ مَصَادِرَهَا».

«وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ»، فى العبارة، إشاره إلى صيحه القيامه التى توقظ جميع الموتى وتنشرهم من قبورهم وتدفعهم إلى الحساب. يستفاد من الآيات والروايات أن العالم ينتهى بصيحه عظيمه يقال لها نفخه الصور الأولى، ثم تتبعها صيحه عظيمه أخرى تدعى نفخه الصور الثانية، وما ورد فى الخطبه بقرينه ما بعدها من عبارات، إشاره إلى النفخه الثانية. والتعبير بالساعه، إشاره إلى القيامه، لأن الساعه تعنى فى الأصل، برهه من الزمان أو لحظه عابره، ولما كان قيام الساعه سريعاً والحساب أيضاً سريعاً لاستناده لله سريع الحساب فقد عبّر عن القيامه بالساعه.

«لِفَضْلِ الْقَضَاءِ»، القضاء الذى يفصل الحق من الباطل وزوال الأباطيل واضمحلال العلل، إشاره إلى خلو القيامه من الكذب والاعذار الواهيه والحجج الجوفاء وكل ما هنالك هو الحق والحقيقه. والعبارة

«وَصَدَرَتْ بِكُمْ الْأُمُورُ

ص: ١٢٤

مَصَادِرَهِا»، إشاره إلى أن كل شخص يرى نتيجة عمله وكل يحل في مكانه الأصلي هنالك. والإمام عليه السلام يرى القيامه قريبه إلى الحد الذى جعله يقول بأن كل شىء كأنه قد وقع ونفخ فى الصور وقامت القيامه وخرج الموتى للحشر من قبورهم ونصبت موازين العدل وحصلت نتيجة الأعمال، وكل ذلك يشير إلى مدى قصر عمر الدنيا بالنسبه للآخره.

وقد عبّر القرآن الكريم عن القيامه فقال:

«يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ» (١) كما عبّر عنها بيوم الفصل الذى يفصل الحق عن الباطل وعبّر عنها بسرعه الحساب، وقال فى موضع آخر:

«وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدُونَ» (٢) و

«يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ» (٣) و

«يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ» (٤).

واختتمها بالقول:

«فَاتَّعِظُوا بِالْعَبْرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغَيْرِ، وَأَنْتَفِعُوا بِالنُّذْرِ». و

«عبر» جمع عبره، إشاره إلى الحوادث الجديده بالاعتبار والتي عاده ما يحفل بها تاريخ الإنسان وسيشهداها فى حياته، و

«غَيْر» جمع غيره بمعنى التغيير، إشاره تغيير النعم ونزول البلاء وتقلب الدهر، و

«نذر» جمع نذير، والتي تشمل الأنبياء والأوصياء والآيات والروايات وحوادث الدهر.

تأملان

١. الشهود على الأعمال

رغم أن الله شاهد وناظر لأعمالنا فى كل حال وزمان ومكان وعلمه الذى أحاط بكل شىء الكافى فى عدم شروء أدنى صغيره وكبيره، إلآأنه وللمبالغه فى الحججه ولفت أنظار المحسنين والمسيئين إلى مراقبه أعمالهم، فقد وكل بنا إضافه لذلك،

ص: ١٢٧

١- (١) . سورة ق، الآيه ٤٢

٢- (٢) . سورة المرسلات، الآيه ٣٦

٣- (٣) سورة المؤمن، الآيه ١٦

٤- (٤) سورة الطارق، الآيه ٩

العديد من الشهود ومنها:

١. أعضاء البدن وجوارحه حتى الجلود على ضوء ما ورد في الآيات. والغريب فى الأمر اتضح هذه الحقيقه بعد طرح قضيه الإنسان الشبه من أنّ كل ذره من ذرات بدن الإنسان استبطنت إنساناً كاملاً والأغرب، الاستفادة من جلد الإنسان فى هذا الموضوع.

٢.

«الحفظه» و

«الكتاب» أى الملائكه الموكله بثبت الأعمال.

٣. الأرض التى نعيش عليها هى الشاهد الآخر، جاء فى القرآن: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا» (١).

٤. الزمان الذى نعيش فيه من الشهود علينا يوم القيامة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَا مِنْ يَوْمٍ يَمُرُّ عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ الْيَوْمُ: يَا بَنَ آدَمَ أَنَا يَوْمٌ جَدِيدٌ وَأَنَا عَلَيْكَ شَهِيدٌ فَقُلْ فِي خَيْرٍ وَأَعْمَلْ فِي خَيْرٍ أَشْهَدُ لَكَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٢).

٥. شهاده الأنبياء أعظم من كل ذلك، لنص القرآن الكريم فى شهاده كل نبى على أعمال أمته يوم القيامة وشهاده النبى الأكرم صلى الله عليه وآله على الجميع: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً» (٣) هكذا يخضع الإنسان طيله عمره لهؤلاء الشهود ومن الجهات الست، وحق لمن آمن بحقيقه هؤلاء الشهود أن يراقب أعماله ويتحفظ عن الأخطاء.

٢. ثلاث عبارات عميقه المعنى

العباره

«فَمَا تَعْظُوا بِالْعَبْرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغَيْرِ، وَانْتَفِعُوا بِالنُّذْرِ»، تنطوى على ثلاثه مفاهيم تكفى لايقاظ الإنسان من نوم الغفله حيث تشير كل واحده إلى حقيقه

ص: ١٢٨

١- (١) سورة الزلزال، الآيه ٤-٥

٢- (٢) بحار الانوار، ج ٧٤، ص ٣٧٩

٣- (٣) . سورة النساء، الآيه ٤١

مستقله. فالعبارة الأولى ترى كفايه العبر في الموعظه، وتشمل هذه المفردة كافة الحوادث الخطيره في الماضي والحاضر، بل حتى الحوادث الطبيعيه. من قبيل الذهاب والإياب والليل والنهار يمكنها أن تكون عبره لمن اعتبر: «يُقَلَّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ» (١). والعبارة الثانيه تشير إلى الوعظ في التغييرات التي تطال حياه الإنسان والعالم. فأعزّه الأمس أذله اليوم، وأذله الأمس أعزّه اليوم، ما أسرع ما يحكم الحاكم ويعتلى المحكوم سده الحكم، والشباب آيل الكهوله والعجز، والطفل الضعيف سرعان ما يشب ويهرم، ما كان غضاً بالأمس أصبح اليوم تحت التراب في المقابر المهجوره، وهذا الضجيج المرتفع اليوم سيخمد بعد سنوات، يالها من دروس وعبر؟! العبارة الثالثه أن السن الأنبياء والأوصياء والأولياء والعلماء والآيات كلها مشرعه بالتحذير وهي تنادى الحذر الحذر والعمل العمل.

ص: ١٢٩

يُنَبِّهُ فِيهَا عَلَى فَضْلِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَفَضْلِ الْقُرْآنِ، ثُمَّ حَالَ دَوْلَهُ بَنَى أُمِّيَّةً (١)

نظرة إلى الخطبه

تتكون هذه الخطبه من قسمين: يؤكد الإمام عليه السلام في القسم الأول على رسم صورته عن عصر البعثه وأهميه القرآن وعظمته وأنه الدواء لكل داء والعلم المتعلق بالماضى والحاضر والمستقبل. أما في القسم الثاني فيشير إلى فتنه بنى أميه ومدى ظلمهم وطغيانهم وسعه حجمه، إلا أنه يواصل كلامه بأن هذه الحكومه لن تدوم طويلاً وستولى إلى غير رجعه.

ص: ١٣١

١- (١) سند الخطبه: بدايه هذه الخطبه كبدايه الخطبه ٨٩ التي مرّت علينا في الجزء الثالث، ومن هنا ذهب البعض إلى أنها خطبه واحده وقد جمعها الشريف الرضى، والحال، ليس الأمر كذلك، فهاتان الخطبتان لا تتشابهان إلا في جملتين. على كل حال المصدر فالوحيد غير نهج البلاغه الذى ذكر أن ابن الأثير خاض فى تفسير بعض مفردات هذه الخطبه فى كتابه (النهايه) وما ذكره من عبارات تختلف عما جاء فى هذه الخطبه، وهذا يفيد أن ابن الأثير أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٣٦٤، كما أورد الكليني فى كتاب الكافى جانباً من هذه الخطبه بالاختلاف، راجع اصول الكافى، ج ١، ص ١٦٠ كذلك تفسير القمى، ج ١، ص ٢)

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعِهِ مِنَ الْأُمَمِ، وَأَنْتِقَاضِ مِنَ الْمُبْرَمِ؛ فَجَاءَهُمْ بِتَضْيِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَى بِهِ. ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يُنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرْكُمْ عَنْهُ: أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ.

الشرح والتفسير: الكتاب الذي استوعب كل شيء

أشار الإمام عليه السلام في مطلع الخطبه إلى الوضع على عهد الجاهليه والذي تزامن مع بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعِهِ (١) مِنَ الْأُمَمِ، وَأَنْتِقَاضِ مِنَ الْمُبْرَمِ (٢)». ومضمون هذه العبارات من قبيل العله والمعلول.

فالفتره التي توسطت عصر ظهور الأنبياء السابقين وخاتمهم كان سبب نوم الغفله الذي غطت فيه الأمم وهذه الغفله أدت إلى ذلك الانتقاض المبرم، بمعنى تقطع وشائج الحقائق ونظام الحياه البشريه التي وقعت في وحل المعصيه والظلمه. ثم تطرق عليه السلام إلى بعثه النبي الخاتم والكتاب الذي جاء به مصداقاً لما بين يديه من الكتب السماويه:

«فَجَاءَهُمْ بِتَضْيِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَى بِهِ». فقد قام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بمهمتين؛ إته بين للناس المعارف والأحكام التي تنسجم مع الأصول الكليه لمعارف وأحكام من مضى من الأنبياء، والأخرى حملة لمشعل الهدايه الذي

ص: ١٣٣

١- (١). «هجعته» من ماده (هجوع) النوم ليلاً، ولما كان هذا النوم أعمق فقد شبه به أوضاع أقوام الجاهليه

٢- (٢). «مبرم» من ماده (ابرام) المحكم، من ابرام الحبل إذا أحكم فتله ثم اطلق على مطلق الأعمال المحكمه

أضواء ظلمات الجهل والضلال. ثم خاض عليه السلام في بيان هذا النور المتمثل بالقرآن:

«ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسِيَّتُنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرْكُمْ عَنْهُ». لقد شبهت أغلب الآيات القرآن بالنور، ومنها ما ورد في سورة المائدة: «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ» (١)، وسورة الاعراف: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (٢)، وكما يضيئ النور أجواء الحياه ويحول دون تعثر الإنسان في الظلمه والضلال وينمى النباتات ويرعى جميع الكائنات الحيه، فللقرآن مثل هذه المهام في حياه الإنسان الماديه والمعنويه.

المراد من

«بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» وبالنظر إلى أن بين يديه تعنى هنا ما قبل ليس تصديق التوراه والانجيل الذين طالهما التحريف، بل هي إشاره إلى تلك الكتب السماويه التي نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام كما لا يعنى هذا التصديق أن الإسلام يتفق مع هاتين الديانتين في جميع التفاصيل، بل المراد الأصول الكليه التي تشكل المحور المشترك لكافه الأديان السماويه، وإن طبقها الإسلام على مستوى أرفع وأوسع.

والعبارة

«وَلَنْ يَنْطِقَ» لا تعنى أن القرآن لا يفتح على أى شخص (سوى الأئمه المعصومين عليهم السلام)، وذلك لأن القرآن نزل بلسان عربى مبين ومنطق واضح جلى وقد أمر الجميع بالتدبر فيه والاصغاء إلى مواعظه ليعيشوا الرجاء من خلال آيات البشاره والخوف من خلال آيات الوعيد والانذار. وعليه فالمراد من

«وَلَنْ يَنْطِقَ» فيما يتعلق ببطون القرآن والأسرار الكامنه فيها، فهذه البطون من اختصاص النبى الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمه المعصومين عليهم السلام.

ومن هنا قال:

«أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنُظْمَ مَا بَيْنَكُمْ». فالعبارة

«عِلْمَ مَا يَأْتِي» كما أوردها بعض شراح نهج البلاغه

ص: ١٣٤

١- (١). سورة المائدة، الآية ١٥

٢- (٢). سورة الاعراف، الآية ١٥٧

إشاره إلى المسائل المرتبطه بالآخره من قبيل الحساب والكتاب والصراط والجنّه والنار، ولكن يبدو أنّها إشاره إلى الحوادث المستقبلية لهذا العالم والكامنه فى بطون هذا القرآن والتي يعلم بها المعصومين عليهم السلام بقرينه العبارة القادمه

«وَالْحَدِيثُ عَنِ الْمَاضِي» التي تشير إلى الأمم السابقه وشرح سيرتها، كما قيل: هي إشاره إلى بدايه الخليقه والعصور الأولى لخلق هذا العالم. والعبارة

«وَدَوَاءَ دَائِكُمْ» إشاره إلى التعاليم والمفاهيم التي تعالج كافة أنواع الأمراض الأخلاقية والاجتماعية «وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ» (١).

والعبارة الأخيره:

«وَنُظِّمَ مَا بَيْنَكُمْ»، إشاره إلى جميع القوانين التي تنظم شؤون المجتمع البشرى وتزيل العوائق وتنشر الأمن والاستقرار وبسط العدل والقسط فى ربوع البلاد.

ص: ١٣٥

ومنها: فَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا وَأَدْخَلَهُ الظَّلْمَةُ تَرْحَهُ، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً. فَيَوْمئِذٍ لَا يَبْقَى لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ، وَلَا فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ. أَصِيفِيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرِ أَهْلِهِ، وَأُورِدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ، وَسَيِّئْتُمُ اللَّهَ مِمَّنْ ظَلَمَ، مَا كَلَّا بِمَا كَلَّ، وَمَشْرَبًا بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلَقَمِ، وَمَشَارِبِ الصَّبْرِ وَالْمَقْرِ، وَلِيَّاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ، وَدِشَارِ السَّيْفِ. وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ وَزَوَامِلُ الْآثَامِ. فَأُقْسِمُ، ثُمَّ أُقْسِمُ، لَتَنَحْمَنَهَا أُمَّيْهُ مِنْ بَعْدِي كَمَا تُلْفِظُ النَّخَامَهُ، ثُمَّ لَا تَذُوقُهَا وَلَا تَطْعَمُ بِطَعْمِهَا أَبَدًا مَا كَرَّرَ الْجَدِيدَانِ!

الشرح والتفسير: حكمه الظلم ودوله الطغيان

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى فتنه بنى أميه الشامله والتي تلقى بظلامها على جميع المسلمين دون أن تغادر مسلماً إلا وجرعته غصص ظلمها وطغيانها، إلى جانب تعذر الفرار من تلك الفتنه، وهي ليست سوى نتيجته طبيعياً لأعمال الناس، فقال:

«فَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مَدْرٍ (١) وَلَا وَبَرٍ (٢) إِلَّا وَأَدْخَلَهُ الظَّلْمَةُ تَرْحَهُ (٣)، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً» يمكن أن يرد الهم والغم بيتاً دون أن يرده الظلم، أما ظلم بنى أميه فقد بلغ درجه بحيث عم الهم والغم كل مكان، إلى جانب البلاء والمصائب، وذلك لأن ولاءه

ص: ١٣٧

١- (١). «مدر» ورد في اللغه بمعنى الزهور المتداخله، أحياناً والحجر والطابوق، أحياناً أخرى، وبيت المدر عاده ما يطلق على بيوت الحضر

٢- (٢) «وبر» وبيت (الوبر) عاده ما يطلق على بيوت الباديه

٣- (٣) «ترحه» الغم والحزن

بنى أميه كانوا جميعاً من بطانتهم الذين سادتهم روح الظلم والانتقام بغيه الاحتفاظ بسلطتهم لأقصى مدّه ممكنه.

ثم قال عليه السلام:

«فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفِقِي لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ، وَلَا فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ.

أَصِفِيئْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرِ أَهْلِهِ، وَأُورِدْتُمُوهُ غَيْرِ مَوْرِدِهِ» ونفهم من هذه العبارة أنّها تخاطب أولئك الذين صمتوا إزاء الظلم والطغيان بعد أن قصروا في أداء مسؤولياتهم، والدليل على ذلك العبارة

«أَصِفِيئْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرِ أَهْلِهِ، وَأُورِدْتُمُوهُ غَيْرِ مَوْرِدِهِ»؟ وجاء مثل هذا المعنى في الخطبه ١٩٢ التي قال فيها:

«وَإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ حَارِبِكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ ثُمَّ لَأَجْبِرَائِلُ وَلَا مِيكَائِيلُ وَلَا مُهَاجِرُونَ وَلَا أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَكُمْ» وليس من الصواب ما ذهب إليه بعض شراح نهج البلاغه من أنّ المخاطب بالعبارة المذكوره هم الحكام الظلمه والذي يتابع فيه كل صغيره وكبيره من أعمالهم السيئه:

«وَسَيَبْتَغِيكُمْ اللَّهُ مَمَّنْ ظَلَمَ، مَا كَلَّا- بِمَا كَلَّ، وَمَشْرَبًا بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلَقَمِ (١)، وَمَشَارِبِ الصَّبْرِ (٢) وَالْمَقْرِ (٣)، وَلِبَاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ، وَدَثَارِ السَّيْفِ.

وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا (٤) الْخَطِيئَاتِ وَزَوَامِلُ (٥) الْأَثَامِ». إشاره إلى أنّ الله سيجرعهم كل بلاء يصبوه على الناس وسيذيقهم مراره الذله إزاء كل لذه حصلوا عليها من مناصبهم، وقد شهروا سيوفهم على رقاب الناس، وسيسلط الله عليهم من يضع السيف في أعناقهم. وقد ثبت وقوع كل هذه الأحداث كما أخبر عنها الإمام عليه السلام وقد انتقم الله من بنى أميه شر انتقام بحيث دبّ الرعب والهلع في صفوف من تبقى منهم حتى فروا إلى المناطق النائية ولم يخلفوا لأنفسهم سوى الفضيحه والعار واللعنه الأبدية.

والعبارة:

وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ تشبيه لطيف ورائع. فقد شبههم بالحيوانات

ص: ١٣٨

١- (١). «علقم» شجره ثمرتها شديده المراره، والتي يطلق عليها أيضاً الحنظل

٢- (٢) «صبر» بكسر الباء، على وزن فقر، عصاره شجر مر، والتي صار يضرب بها المثل، كما يطلق على نفس الشجره

٣- (٣) «المقر» نبات سام، كما يطلق على كل سم

٤- (٤). «مطايا» جمع (مطيه) المركب الهنيء السريع

٥- (٥) «زوامل» جمع (زامله) دابه الحمل

حيث باءوا بخطايا الناس إثر جهلهم وافتقارهم للعقل والشعور، على غرار ما وصف به القرآن الكريم تلك الطائفة من الكفار: «وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» (١).

ثم اختتم الخطبه بنبوءه حاسمه أخرى بشأن مصير بنى أميه فقال:

«فَأُقْسِمُ، ثُمَّ أُقْسِمُ، لَتَنْخَمَنَّهَا (٢) أُمِّيَّةٌ مِنْ بَعِيدِي كَمَا تُلْفِظُ النُّخَامَةَ، ثُمَّ لَا تَذُوقُهَا وَلَا تَطْعَمُ بِطَعْمِهَا أَبَدًا مَا كَرَّرَ الْجَدِيدَانِ!». فقد أورد الإمام عليه السلام عبارته عجيبة بشأن دوله بنى أميه على أنهم شابوا الحكومه الإسلاميه بالارجاس والأدناس والقذاره والظلم والفساد فأصبحت كالمواد المخاطيه التي يدفعها الصدر والرأس، بحيث سينتهى الأمر إلى ما لا يظنون أنه أنفسهم على غرار ذلك الذى يهيم بطرح تلك المواد، فسيفقدون تلك السلطه ولا يظفرون سوى بلعنات الناس.

تأملان

١. وظيفه الحاكم والرعيه

أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبه إلى مسألتين مهمتين تتعلقان بحوادث التاريخ المريره؛ الأولى، وظيفه ومسؤوليه الحاكم، والأخرى، مسؤوليه الرعيه.

فالإمام عليه السلام لا يقتصر بإلقاء المسؤوليه على الحاكم فى ممارساته الظالمه، بل يحمل الأُمَّه المستسلمه والراضيه بهذا الظلم جزءاً من تلك المسؤوليه. فالحكّام ومرتزقتهم إنّما يمثلون فئه معينه، ولو مارست الأُمَّه وظيفتها فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعدم الرضا والسكوت إزاء الظلم لما سهل على مثل هؤلاء الأفراد الأخذ بزمام الأمور ليعيشوا فى الأرض الفساد ويهلكوا البلاد والعباد.

فالإمام عليه السلام يحمل الأُمَّه وأعمالها ماصب عليها من البلاء على أيدي حكومه بنى

ص: ١٣٩

١- (١) سورة العنكبوت، الآية ١٣

٢- (٢). «تنخمنّها» من ماده (نخامه) وبمعنى الاخلاط التى تجتمع على الرأس والصدر ويرمى بها خارجاً

أمية الظالمه، فأنتم الذين أسهمتم فى توطيد دعائم هذه الحكومه، وأنتم الذين سلمتم مقاليد الدوله لغير أصحابها، وأنتم الذين تصمتون اليوم إزاء هذه الجرائم، ولعل هذا من الألفاف الإلهيه بغيه العوده إلى أنفسكم وسلوك طريق الحق «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (١). طبعاً تحميل الأُمه مسؤوليه تجاوز الحكام الظلمه لا- يعنى سلب تلك المسؤوليه عن أولئك الحكام، ومن هنا تطرق الإمام عليه السلام العذاب الشديد الذى ينتظرهم، فبين عبارات قصيره عميقه المعنى مصيرهم الأسود ونهايتهم الأليمه.

٢. فاجعه نهايه دوله بنى اميه

نعلم أنّ دوله بنى أميه استغرقت أكثر من ثمانين سنه لتحكم من قبل ١٤ حاكماً من حكام بنى أميه وقد حكم البعض منهم لأقل من شهرين، إلّا أنّ التاريخ لم يشهد مثيلاً لظلمهم الذى طال الناس عامه ولا سيّما أهل بيت النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وبنى هاشم. وبالطبع فإنّ بنى أميه لم يشهدوا الأمان والراحه طيله مدّه حكمهم حيث كانت تتوالى عليهم الثورات والنهضات، فكانوا يقيمونها بقوّه الحديد والنار وسفك المزيّد من الدماء، حتى قامت عليهم الأُمه بأسرها دفاعاً عن آل محمد إثر الشعار الذى رفع آنذاك

«الرضا لآل محمد» (٢) والذى لم تكن نتيجه سوى مجى بنى العباس. أصدر الخليفه العباسى أوامره بقتل جميع بنى أميه فوقه فيهم القتل بما لا يحصى، حتى نبشوا القبور وأحرقوا من كان فيها منهم (من أراد المزيّد فليراجع آخر الخطبه ١٠٦ الجزء الرابع والخطبه ٩٣ الجزء الأول والجزء الثالث). وذكر المرحوم العلّامه التستري فى الجزء السادس من شرحه لنهج البلاغه أنّه حين قتل مروان

ص: ١٤٠

١- (١). سوره الروم، الآيه ٤١

٢- (٢). تكرر رفع هذا الشعار فى التاريخ كثيراً، حيث ورد بشأن أبى مسلم الخراسانى (وقد قام يدعو إلى الرضا من آل محمد). كتاب شرح الأخبار للنعمان بن محمد، ج ٣، ص ٤١٨

آخر خلفاء بنى أميه مروان، هجم عامر بن إسماعيل على داره وكان فيها ونسائه.

فغلقوا الأبواب وتعالت الصرخات. فأمسك عامر برجلٍ وسأله عن عائله مروان.

قال أمرنى مروان إن قتلت فاقتل جميع بناتى (حتى لا يقعن فى أيدى الآخرين) لكنى لم أفعل. وهنا احضروا له اثنتين من بناته، فأمر بوضع رأس مروان فى حجر بنته البكر وقال لها: معذره، هذا ما فعلتموه برأس يحيى بن زيد حين وضعتم رأسه فى حجر أمه، وكنتم أول من فعل ذلك والبادىء أظلم، ثم أمر بقتلهم جميعاً(١).

ص: ١٤١

١- (١) شرح نهج البلاغه للعلامة التستري، ج ٦، ص ١١٦

يُبَيِّنُ فِيهَا حُسْنَ مُعَامَلَتِهِ لِرِعِيَّتِهِ (١)

نظرة إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى قضيه لطيفه في أنه عاملهم قدر المستطاع بالرفق والاحسان على ما بدر منهم من حسن التصرف والسلوك رغم قلته وكثره إساءه التصرف فعفى عن كثير ظلمهم وما يكون من العدااء والبغضاء.

ص: ١٤٣

١- (١) سند الخطبه: لم يرد في مصادر نهج البلاغه سند خاص غير ماورد في نهج البلاغه، إلا أن سائر الكتب التي ألفت بعد النهج أخذتها منه، ومن ذلك ما ذكره العلامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٣٤

وَلَقَدْ أَحْسَيْنَتْ جَوَارِكُمْ، وَأَحْطَتْ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ. وَأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رَبِّ الدَّلِّ، وَحَلَقِ الضَّيْمِ، شُكْرًا مَنِي لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ وَإِطْرَاقًا عَمَّا
أَذْرَكَهُ الْبَصْرُ، وَشَهَدَهُ الْبَدَنُ، مِنْ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ.

الشرح والتفسير

الدعم المطلق

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة القصيره إلى أياديه الكريمة وخدماته للمسلمين والتابعين لحكومته وأوجزها في أربع عبارات فقال:

«وَلَقَدْ أَحْسَيْنَتْ جَوَارِكُمْ» المراد من حسن الجوار أن يعتمد الإنسان حاله التعايش السلمى المقرون بالأدب والاحترام وحسن التصرف تجاه الوسط الآخر من الأصدقاء وتحمل مساوئهم بحيث بشعرون بالارتياح لتواجده بينهم. وسيره الإمام عليه السلام لاسيما إبان عهد حكومته تفيد أنه كان يعامل الآخرين بالعطف والمحبه، حتى كان يتفقد اليتامى والأرامل ليلاً ويحمل لهم الطعام ويلبى حاجاتهم، كما كان يداعب الأطفال ويسهر على راحتهم، ويواسى المهمومين ويدارى المخالفين ويسعى جهده للترويح عن الموالين والمحبين. على العكس تماماً من عهد حكومه عثمان الذى بالغ وولاته فى إيذاء الناس، ولم يسلم منهم حتى كبار الصحابه كأبى ذر وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود، فكان أن نفى الصحابى الجليل أبا ذر إلى تلك الأرض القاحله الجرداء حتى مات فيها، كما اندفعت بطانته لتنال من عمار بذلك الأسلوب الهمجى البشع لمجرد اعتراضه على بعض الممارسات، فكسرت أسنانه وأشبعوه ركلاً ورفساً، كما شددوا على عبد الله بن مسعود حتى قيل إنه فارق الحياه إثر التعذيب. وإن ساوى على عليه السلام

بين عقيل وسائر المسلمين في العطاء من بيت المال، فإن قرابه عثمان تهافتت على بيت المال حتى عدت العراق بستان قريش وبنى أميه (١).

ثم قال:

«وَأَخْطُتُ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ». أي أنني حفظتكم من وساوس شياطين الجن والانس في مسيره طاعه الله وعبوديته، ودفعت عنكم شر الأعداء. وأشار إلى دوره في عتقهم من قيود الذل والظلم والأسر فقال:

«وَأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رَبِّقِ (٢) الذُّلِّ، وَحَلَقِ (٣) الضَّيْمِ (٤)». وذلك لأن عهد عثمان وحكومته بنى أميه وبنى مروان وسيطرتهم على مقدرات المسلمين شهدت اتساع رقعه الظلم والجور الذي وصل إلى كل مكان، ولم يكن هنالك من اعتبار سوى لأولئك الأفراد المتعاونين مع السلطه والمستبدين؛ وقد أنقذهم أمير المؤمنين على عليه السلام من هذه الحكومه القبلية وحررهم من أيدي شرار بنى أميه وبنى مروان.

ثم اختتم خطبته بالإشاره إلى دوافعه من تلك الأعمال الحسنه تجاههم والتي لا تنبعث من اقرارهم بحقه وفضله بل:

«شُكْرًا مِّنِّي لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ وَإِطْرَاقًا (٥) عَمَّا أَذْرَكَهُ الْبَصِيرُ، وَشَهَادَةً الْبَدَنُ، مِنَ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ». فالواقع مراد الإمام عليه السلام أنكم لم تسدوا إليّ معروفًا لأكافئكم عليه، بل ما أكثر الخطوب والمحن التي خلفتموها عليّ، فإن أسديت لكم معروفًا ففى سبيل الله وأداء الوظيفة الشرعيه. وعلى ضوء هذا التفسير فإنّ

«الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ» فى هذه العبارة إشاره إلى تمرد الناس وغدرهم بالإمام عليه السلام، بينما فسّر بها البعض من الشراح بالمنكرات بهذا الحجم على عهد الإمام عليه السلام ولم ينهاهم ويردعهم عنها؟ فأجابوا: لم يكن بوسع الإمام عليه السلام الحيلولة دون بعض

ص: ١٤٦

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٢، ص ١٢٩. قول سعيد بن العاص والى عثمان على الكوفه

٢- (٢) . «ربق» جمع ربقه، على وزن فتنه، الجبل الذى يربط به الشخص، كما فسّره البعض بالجبل الذى يشتمل على عدّه عقد

٣- (٣) . «حلق» جمع حلقه، معروف

٤- (٤) «الضيم» الظلم والحيف

٥- (٥) . «إطراق» بمعنى السكوت والاعماض عن مطلب معين

المنكرات المتجذره، أو لو أراد منعها لآل الأمر إلى مفسده أعظم. لكن كما ذكرنا فإنّ المراد من المنكر ليس ما ذهب إليه أولئك الشّراح ليرد ذلك الإشكال وضروره دفعه. والمراد المساوىء التي مارسوها بحق الإمام عليه السلام والدليل على ذلك العبارة السابقه:

«لِبَرِّ الْقَلِيلِ».

هذا، وقد ورد مثل هذا المعنى فى سائر خطب نهج البلاغه كالخطبه ٩٧ التي قال فيها:

«وَلَقَدْ أَصْبَحَتْ الْأُمَّمُ تَخَافُ ظُلْمَ رِعَاتِهَا وَأَصْبَحَتْ أَخَافُ ظُلْمَ رِعِيَّتِي».

ص: ١٤٧

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى مطالب متعددة تشكل بعض التعاليم القيمه بشأن تهذيب النفس ومعرفة الله حيث يمكن خصرها في خمسة أقسام:

القسم الأول: تحدث فيه عن عظمه الله وحمده والثناء عليه بذكر أسمائه وصفاته.

القسم الثاني: جرى الكلام فيه عن حقيقة الرجاء بصفته أحد أركان السعادة الإنسانية.

القسم الثالث: تطرق فيه الإمام عليه السلام إلى جانب من صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأفعاله وأقواله التي ينبغي التأسي بها من قبل الجميع إلى جانب سائر صفات الأنبياء كموسى وداود وعيس عليه السلام.

القسم الرابع: عوده إلى صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وهى الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الجميع.

ص: ١٤٩

١- (١) سند الخطبة: قيل في سند هذه الخطبة: ذكر الزمخشري المتوفى عام ٥٣٨ هـ والذي عاش بعد قرن من وفاه الشريف الرضى رحمه الله بعض هذه الخطبة باختلاف في كتابه (ربيع الابرار) وهذا يفيد أنه أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٣٧٣)

القسم الخامس: أشار فيه الإمام عليه السلام إلى تواضعه واختتمه بالمثل الرائع

«فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يُحَمَدُ الْقَوْمُ الشُّرَى».

ص: ١٥٠

أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ، وَرِضَاؤُهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ، يَقْضِي بِعِلْمٍ، وَيَعْفُو بِحِلْمٍ.

اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي، وَعَلَى مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي؛ حَمْدًا يَكُونُ أَرْضَى الْحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ، وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ. حَمْدًا يَمَلَأُ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ. حَمْدًا لَا يُحْجِبُ عَنْكَ، وَلَا يُقْصِرُ دُونَكَ.

حَمْدًا لَا يَنْقَطِعُ عَدْدُهُ، وَلَا يَفْنَى مَدْدُهُ، فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ إِلَّا أَنَا نَعْلَمُ أَنَّكَ «حَيٌّ قَيُّومٌ، لَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ». لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظْرٌ، وَلَمْ يَدْرِكْكَ بَصَرٌ.

أَدْرَكَتِ الْأَبْصَارُ، وَأَحْصَيْتِ الْأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ «بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ». وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعَجِبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِبُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصَّيْرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتِ سِتُورُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمَ. فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَيِّمَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيرًا، وَعَقْلُهُ مَبْهُورًا، وَسَمْعُهُ وَالْهَاءُ، وَفِكْرُهُ حَائِرًا.

الشرح والتفسير: عجز العقول امام عظمه الله

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى أربعة مواضع فقال:

«أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ» أى يستند أمره إلى الحكمة رغم قاطعيته على العكس من المستبددين والمقتدرين الذين يصدرون الأوامر الصارمه دون أدنى حكمه. ولمفرده (أمره) فى

العباره معنى واسع يشمل الأوامر التكوينية: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (١) والأوامر التشريعية: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى» (٢).

والحكمة واضحة في كلا الأمرين تتضمن مصالح العباد والبلاد.

ثم قال:

«وَرِضَاءُ أَمِيَانٍ وَرَحْمَةٌ» يمكن أن يرضى الناس عن فرد ويأمنوه، إلّا أنّ أمانهم مشوب بالخوف والرهبه، بينما لا ينطوى أمان الله سوى على الرحمة، كما تحدث في العباره التاليه عن قضاء الله، فقال:

«يَقْضَى بِعِلْمٍ» خلافاً لقضاء الإنسان الذي يمتزج عادة الجهل وعدم العلم.

ثم قال في المقطع الرابع:

«وَيَعْفُو بِحِلْمٍ». نعم، عفوه بحلم ومن يعفو عنه لا- يؤاخذه ولا- يعاقبه، بخلاف البعض الذين يسعون لعقاب الآخرين حين يعفون عنهم لإطفاء غضبهم، كما هنالك من يعفو عن الآخرين لطفاً ورحمه. ثم أتجه الإمام عليه السلام صوب حمد الله والثناء عليه وقد تكرر هذا الحمد ثمان مرات في هذا الجانب من الخطبه حيث أورد صفه خاصه لكل مرحله، ثم خاض في هذا الحمد والثناء بأسلوب بليغ وفصيح فقال:

«اللَّهُمَّ لِمَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي، وَعَلَى مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي» أى أحمداً وأثنى عليك فى كل الاحوال، ذلك لأنّ الخير والسعاده منك، فإن أفضت نعمه فتلك كرامه وإن سلبتها كان ذلك عن عناية. وإن منحت الصحه والعافيه فتلك سعاده وإن أمرضت وابتليت فعن مصلحه، فلا تفعل إلّا الحكمة وكل ما يأتى منك رحمه.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى صفات هذا الحمد ليوجزها فى سته أوصاف ليجمعه حمداً جامعاً شاملاً من جميع النواحي فقال:

«حَمْدًا يَكُونُ أَرْضَى الْحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ، وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ. حَمْدًا يَمَلَأُ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ.

حَمْدًا لَا يُحْجِبُ عَنْكَ، وَلَا يُفْضِرُ دُونَكَ. حَمْدًا لَا يَنْقَطِعُ عَدُّهُ، وَلَا يَفْنَى مَدَدُهُ».

ص: ١٥٢

١- (١). سورة يس، الآية ٨٢

٢- (٢) سورة النحل، الآية ٩٠

فهذا الحمد جامع شامل يتجاوز الزمان والمكان والعدد والقصور والحجاب.

أضف إلى ذلك فهو حمد على العافيه والبلاء والأخذ والعطاء فهو حمد على كل شيء وفي كل زمان ومكان وعلى كل حال. ثم خاض عليه السلام في صفات الجلال والجمال ليورد أوصافاً بليغه أعرب فيها عن العجز عن إدراك عظمه الله، فقال:

«فَلَسَيْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ» ذلك لأن الله وجود مطلق ولا متناه من جميع الجهات، وهل من نصيب للإنسان المحدود مهما كان هذا الإنسان سوى العجز عن إدراك غير المحدود. إلا أن الإمام عليه السلام وبغية دفع التصور الخاطيء من أن هذا الكلام ربّما يعنى عدم إمكان معرفه الله وتعطيل صفاته تطرق مباشرة إلى المعرفه الإجماليه من خلال بيان ثمان صفات من صفاته الثبوتيه والسلبيه على أننا وإن عجزنا عن إدراك كنه ذاتك المقدسه

«إِلَّا أَنَا نَعْلَمُ أَنَّكَ «حَتَّى قِيَوْمٍ، لَاتَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ».

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً:

«لَمْ يَنْتَهَ إِلَيْكَ نَظْرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصِيرٌ. أَدْرَكَتِ الْأَبْصَارَ، وَأَخْصَيْتِ الْأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ «بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ»». طبعاً وصف الله بالحياه ليس المراد منه الحياه الواقعيه بمعنى العلم المطلق والقدره التامه على جميع الوجود. والقيوم القائم بذاته والذي يقوم به غيره، لأنه واجب الوجود، وواجب الوجود غنى عن الغير ولكل محتاج إليه. والعباره

«لَمَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ» إشاره إلى أن علمه ولطفه دائم على العباد، لا- أنه يلتفت أحياناً ويحف عباده بالعنايه وأخرى ينام فينساهم. والعباره

«لَمْ يَنْتَهَ إِلَيْكَ نَظْرٌ...» إشاره إلى أن علم الإنسان لا يسعه الاحاطه بذاته المقدسه - لأن ذاته مطلقه - كما لا يسع البصر الظاهر رؤيته، لأنه ليس بجسم وليس له جهه ولا لون، بينما يدرك سبحانه حركات العيون ويحاسب على أدنى الأعمال. والمراد من

«بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ» - بالنظر إلى أن النواصي جمع ناصيه بمعنى شعر مقدمه الرأس والأقدام جمع قدم - قدره الله وغلبته لكل شيء، ذلك أن الإنسان متى أخذ منه ناصيته أو قيدت رجلاه سلب القدره تماماً.

ثم خاض الإمام عليه السلام في عالم الخلقه وعظمته لإثبات تلك الصفات الجماليه والجلاليه من خلال عبارات عميقه وورصينه تفيد أنّ العالم الذي نراه وندركه رغم عظمته لا يشكل بالنسبه لما لا نراه وندركه سوى قطره إلى بحر فقال:

«وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعَجِبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَعَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصِيرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سُبُورُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ». نعم، ما نراه اليوم رغم اتساع العلوم والمعارف بشكل مذهل بشأن عالم الخلقه - لغيض من فيض ما لا نراه وندركه. والعلماء المعاصرون يتحدثون اليوم عن عوالم لا تكون كرتنا الأرضيه بالنسبه لها سوى نقطه في كتاب ضخم!! كما يتكلمون عن كرات عظيمه في هذا الكون تفوق كرتنا الأرضيه بثلاثين ملياراً! وأجرام سماويه عملاقه تفوق الشمس بثلاثه مليارات مره (وهي الأجرام التي تجذب كل شيء من حولها حتى النور الذي ينعكس حين اصطدامه ببعض الأجسام)، ومن هنا لا نراها سوى قطع سوداء متناثره هنا وهناك في السماء، وتضم كرتنا الأرضيه رغم صغرها ملايين النباتات والحيوانات التي تغوص في أعماق البحار والغابات والتي لم يتعرف عليها العلماء لحد الآن ولا يمكن رؤيتها بالعيون المجرده. أجل، فعالم الملك والملكوت على قدر من السعه بما تعجز العقول عن إدراكه وتحير الأفكار في عظمته فضلاً عن عظمه الله في خلقه، وهذا بدوره أعظم درس في التوحيد ومعرفة الله.

ورد في الروايه عن الإمام السجاد على بن الحسين عليه السلام أنّه قال:

«لَوْ اجْتَمَعَ أَهْلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَصِفُوا اللَّهَ بِعَظَمَتِهِ لَمْ يَقْدِرُوا» (١).

ثم قال عليه السلام مواصلاً خطبته:

«فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ (٢) خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ

ص: ١٥٤

١- (١) اصول الكافي، ج ١، ص ١٠٢

٢- (٢). «ذرات» من ماده (ذراء) على وزن زرع، الخلق والايجاد

عَلَى مَوْرٍ (١) الْمَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرْفُهُ (٢) حَسِيرًا (٣) ، وَعَقَلَهُ مَبْهُورًا (٤) ، وَسَمِعَهُ وَالِهًا، وَفَكَرَهُ حَائِرًا. فقد ركز الإمام عليه السلام بهذه العبارات اللطيفة العميقة المعنى على أربعة أمور بشأن عظمه الخلق؛ إقامة العرش، وبدايه الخلق، وتعليق الكرات في السماء، وظهور الأرض من تحت الماء، وكل واحد أعجب من الآخر، ثم أشار عقبها إلى آثار هذه الحيره من قبيل تعب العين وعجزها، وبهت العقول، ووله السمع، وحيره الفكر. أمّا بشأن تفسير العرش فهناك كلام كثير، والمستفاد من آية الكرسي أنّ العرش عالم فوق السماء والأرض، حيث ورد في القرآن بشأنه: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ». جدير ذكره أنّ الملوك القدماء كان لهم عرشان؛ عرش صغير يطلق عليه الكرسي يستعملونه في الأيام الاعتيادية، وآخر مرتفع يسمى العرش يعتلونه في الأعياد والمناسبات الرسميه، ثم أصبح هذان التعبير أنّ كناية عن مختلف درجات العظمه، والقرآن يعد السماوات والأرض التي نراها كرسي الله، وعليه فعرشه أرفع من ذلك. ومن هنا ربّما يكون العرش إشارة إلى عالم ماوراء الطبيعه، أى عالم الملائكه والكرويين (٥) أو عالم ماده الذي ليس لدينا من سبيل إليه.

والعبارة

«وَكَيْفَ مَيَّدَتْ عَلَى مَوْرِ الْمِيَاءِ أَرْضَكَ» يمكن أن يكون إشاره إلى دحو الأرض وظهور اليابسه من المياه؛ لأنّ المياه عمت بادية الأمر الكره الأرضيه برمتها، ثم تخللت فجوات الأرض وشقوقها بالتدرّج حتى ظهرت اليابسه. أجل لا يمتلك الإنسان سوى الحيره والذهول أن فكر بشأن عالم الخليقه وما ينطوى عليه

ص: ١٥٥

١- (١) . «مور» على وزن قول، لها معان مختلفه في اللغه، منها التيار السريع أو أمواج الماء

٢- (٢) «طرف» على وزن حرف، أهداب العين

٣- (٣) «حسير» من ماده (حسر) على وزن قصر، التعب والضعف

٤- (٤) «مبهور» من ماده (بهر) على وزن قهر، الغلبه والحيره

٥- (٥) . أشرنا إلى هذا المطلب في شرح آية الكرسي في التفسير الأمثل

من عجائب وغرائب وأسرار، وهي الحيره التي تلفت نظرنا إلى عظمه الخالق وضروره معرفته وتنزيهه عن سواه.

ص: ١٥٦

منها: يَدْعِي بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يُرْجُو اللَّهَ، كَذَبَ وَالْعَظِيمِ! مَا بَالُهُ لَا يَتَّبِعُنُ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ؟ فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرْفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ. وَكُلُّ رَجَاءٍ - إِلَّا رَجَاءَ اللَّهِ تَعَالَى - فَإِنَّهُ مِيدْحُولٌ وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ، إِلَّا خَوْفَ اللَّهِ فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ يُرْجُو اللَّهَ فِي الْكَبِيرِ، وَيُرْجُو الْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ، فَيُعْطِي الْعَبْدَ مَا لَمَّا يُعْطَى الرَّبُّ! فَمَا يَبَالُ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقَصِّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ؟ أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِبًا؟ أَوْ تَكُونَ لَأَتْرَاهُ لِلرَّجَاءِ مُؤْضِعًا؟ وَكَذَلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْدًا مِنْ عِبِيدِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لَمَّا يُعْطَى رَبُّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْدًا، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِعْمًا مَرَارًا وَوَعِيدًا. وَكَذَلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ، آثَرَهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْدًا لَهَا.

الشرح والتفسير

عبيد الدنيا

بعد أن أشار الإمام عليه السلام إلى عظمه الله وحمده وأثنى عليه وتطرق إلى علامات ذاته المقدسه في عالم الوجود، خاض في وعظ الغافلين وإرشادهم وركز على مسألة من أهم المسائل وهي الخوف حيث كشف حقيقته وشرح تفاصيله وفضح الكاذبين في دعواهم إياه فقال:

«يَدْعِي بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يُرْجُو اللَّهَ، كَذَبَ وَالْعَظِيمِ! (١)». ثم خاض في ذكر الدليل فقال:

«مَا بَالُهُ لَا يَتَّبِعُنُ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ؟ فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرْفَ

ص: ١٥٧

١- (١). التعبير بالعظيم بدل والله العظيم، لأنه حذف الموصوف والتركيز على الصفه يكشف عن مدى التاكيد، يعني أن هذه الصفه للعظمه لذاته تعالى إلى درجه من الثبات وكأنها اسم من أسمائه

رَحِيَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ». فهذا دليل واضح للفلاح الذي يرجو جنى ثمار مزرعته ينهمك في سقيها ودفع الآفات عنها وتوفر كآفه مقدمات الانبات والأثمار، فإن ادعى مزارع الرجاء لكنه جلس في بيته ولم يقدم على أى عمل فسوف يتفق الجميع على أنّ رجاءه كاذب فهو يتخيل الرجاء دون واقعه لذلك الخيال، فالرجاء الصادق المقرون بطاعه الله والسير على سبيله والفوز برضاه. قيل للإمام الصادق عليه السلام أنّ جماعه يرتكبون الذنوب ويرجون عفو الله ورحمته فقال:

«كَذَّبُوا لَيْسُوا بِرَاجِينَ أَنْ مَنْ رَجَا شَيْئاً طَلَبَهُ وَمَنْ خَافَ شَيْئاً هَرَبَ مِنْهُ»^(١).

ثم خاض عليه السلام فى تفاصيل ذلك الخوف والرجاء فقال:

«وَكُلُّ رَجَاءٍ - إِلَّا رَجَاءَ اللَّهِ تَعَالَى - فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ^(٢) وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ^(٣) إِلَّا خَوْفَ اللَّهِ».

يبدو دليل ذلك واضحاً فليس هنالك من مبدأ للخير سوى الله وكل من قدر على الإتيان بالخير فبمعاونته (لا مؤثر فى الوجود إلا الله). وعليه فلا ينبغى التعلق سوى بالله والرجاء لما عنده، فالذى ينفع ويضر ويثيب ويعاقب هو الله وحده وليس للآخرين من ذلك شىء كما ورد فى القرآن الكريم: «وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ»^(٤). صحيح أنّ الله ترك للعبد قدره الإتيان بالأعمال، إلا أنّ ذلك لا يعنى سلب قدره عن ذاته المقدسه. ولذلك لا بدّ من حصر الرجاء فى تلك الذات والخوف من مخالفتها.

ص: ١٥٨

١- (١) اصول الكافى، ج ٢، ص ٦٨

٢- (٢) «مدخول» من ماده (دخل) على وزن أجل، بمعنى الفساد، وعليه فالمدخول، هو المغشوش غير الخالص

٣- (٣) «محقق» معلوم وقطعى وثابت، وورد فى العبارة المذكوره صفه لخوف - ولا بدّ أن يكون مجروراً إشاره إلى أنّ خوفهم من الله ثابت لا غبار عليه، ذلك لأنّه هو الذى يؤاخذ العباد وعليه إن خفنا الله ولم نعص أوامره فسوف لن نخاف أى أحد. إلا أنّ بعض الشراح ذهبوا إلى أنّ محقق خبر كل خوف فتكلفوا مرجع الضمير فى «فأنّه» وكذلك الاستثناء ومفهوم العبارة، بينما لو اعتبروا محقق صفه لخوف لوضح معنى العبارة تماماً، ولعل العبارة السابقه بشأن الرجاء قرينه جيده على هذا المعنى، بعبارة أخرى أنّ الإمام عليه السلام قال ببطلان كل رجاء سوى رجاء الله وكل خوف سوى خوف الله

٤- (٤) . سورة البقره، الآية ١٠٢

ثم إشار عليه السلام إلى قضيه مهمه تكمن في تضاد أعمال الناس بخصوص موضوع الخوف والرجاء. فلو أمل شخص شخصاً آخر في مسأله لابد له من الخضوع والخشوع، وإن خاف شيئاً أيضاً حسب له ألف حساب، بينما لا يبدى مثل هذه الحساسيه تجاه الله تبارك وتعالى سواء على مستوى الرجاء والأمل أو الخوف وحتى في القضايا المهمه، فهناك تواضع يديه لسائر العباد يفوق نظيره لله تعالى:

«فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ يَرْجُو اللَّهَ فِي الْكَبِيرِ، وَيَرْجُو الْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ، فَيُعْطِي الْعَبْدَ مَا لَا يُعْطِي الرَّبَّ!».

ثم واصل كلامه عليه السلام بالإشاره إلى سبب ذلك فقال:

«فَمَا يَأَلُ اللَّهُ حَيْلَ ثَنَائِهِ يُقَصِّرُ بِهِ عَمَّا يُضَيِّعُ بِهِ لِعِبَادِهِ؟ أَتَخَافُ أَنْ تُكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِبًا؟ أَوْ تُكُونَ لَأْتِرَاهُ لِلرَّجَاءِ مُؤْضِعًا؟»
حقاً أن الإنسان الذي يؤمن بالله وأنه قادر على كل شيء ويؤمن برحمانيته ورحيميته وفضله وكرمه، لا يمكن أن يكون أمله بالله كاذباً، أو أن لا يراه أهلاً للأمل. لو تأملنا قليلاً هذه الأفكار لأدركنا بما لا يقبل الشك أصل الانحراف عن التوحيد ومعرفة الله. فالحقيقه أن عصاره كلام الإمام عليه السلام هي أننا نرى أن بعض الأفراد يتجهون البعض الآخر لحاجه صغيره فيبدون لهم صنوف الاحترام والاجلال، بينما لا تشاهد منهم هذه الأمور حين يقصدون الله لحاجاتهم الكبرى، وليس هنالك من تفسير لهذه القضيه سوى ضعف مثل هؤلاء الأفراد وعجزهم عن معرفه الله والوقوف على صفاته الجلاليه والجماليه.

ثم انتقل الإمام عليه السلام من الرجاء إلي الخوف وقارن بين خوف الله وخوف العبد، فقال:

«وَكَمَا ذَكَرْتُكَ إِذَا هُوَ خَافَ عَبْدًا مِنْ عِبِيدِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لَا يُعْطِي رَبَّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْدًا، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِعْمًا (١)»
وَوَعْدًا».

قطعاً أن سبب هذا الازدواج يعزى إلى ضعف الإيمان، ذلك لأن قدره العباد هشه مقارنه بقدره الله، فلو فرضنا جميع قدراتهم، ومضه، لكانت قدره الله بحاراً من

ص: ١٥٩

النيران بالنسبه لتلك الومضه، فكيف يتعرف الإنسان على هذين الميدانين للخوف فيخاف الومضه ولا يخاف بحار النار؟! طبعاً يمكن أن يكون منشأ هذا التفاوت، الأمل المفرط بلطف الله وكرمه والذى تفرزه بالطبع الغفله، لأنه أرحم الراحمين فى موضع العفو والرحمه وأشد المعاقبين فى موضع النكال والنقمه. ولما كان هذا التعامل الازدواجى تجاه الله والعباد ناشىء من ضعف المعرفه وضيق الافق، فقد خاض الإمام عليه السلام فى اختتامه لهذا الكلام فى هذا التعامل الازدواجى للإنسان حيال الدنيا والآخره، فقال:

«وَكَذَلِكَ مَنْ عَظَمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَبُرَ مَوْجِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ، آثَرَهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْدًا لَهَا».

أجل، أن عبيد الدنيا عديمو المعرفه لا يرون سوى متاع الدنيا الزائل وحطامها الفانى ويغفلون عن نعيم الآخره الدائم، وهذا ما يدعوهم لا يشار الدنيا على الآخره وتقديم رضا المخلوق على الخالق. على العكس من عباد الله من أهل الورع والتقوى الذين وصفهم الإمام عليه السلام فى خطبه المتقين:

«عَظَّمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ».

العباره

«فَمَا انْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْدًا لَهَا» إشارة إلى حقيقه هى أن طلاب الدنيا عاده ما ينتهى بهم الأمر إلى الخروج عن عبوديه الله والاشتغال بعبوديه الدنيا وطاعه النفس والهوى والشيطان، وبالتالي الخروج من معسكر التوحيد وعبوديه الله إلى معسكر الشرك وعبوديه الدنيا. أجل عاقبه أمرهم ما آل إليه أمر عمر بن سعد حيث لم ير شيئاً سوى الدنيا متمثله بملك الرى وغفل عن عذاب جهنم ونعيم الجنه فاختر ذلك الموقف:

ألا إنما الدنيا لخيئر معجل

فَمَا عَاقِلٌ بَاعَ الْوُجُودَ بِدَيْنِ (١)

تأمل

الخوف والرجاء

إن أقوى دافع نحو الحركة باتجاه الورع والتقوى يتمثل بالخوف من عقاب الله والرجاء لرحمته وعفوه. وليس لأحد أن يخلق فى سماء الحق ويقترّب من ساحه القدس الربانى دون العنصرين المذكورين. فعلى غرار التلميذ الذى يأمل تذوق طعم النجاح من خلال رجائه الموفقيه والحصول على الدرجات العاليه إلى جانب الخوف من الرسوب فى الامتحان، فيجد ويجتهد ويجند طاقاته من أجل العلوم والمعارف، يبدو لابد من هذا الرجاء والخوف فى الجانب المعنوى أيضاً.

ورد فى الحديث الشريف أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قال:

«أَعْلَى النَّاسِ مَنْزِلَهُ عِنْدَ اللَّهِ أَحْوَفُهُمْ مِنْهُ» ١.

وقال الصادق عليه السلام:

«لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِنًا حَتَّى يَكُونَ خَائِفًا رَاجِيًا، وَلَا يَكُونُ خَائِفًا رَاجِيًا حَتَّى يَكُونَ عَامِلًا لِمَا يَخَافُ وَيَرْجُو» (٢). والإنسان لا يمكنه الاستفادة من هذين المفهومين، الخوف والرجاء أنّ زعمهما كذباً، والتأكيد من عدم الكذب بهذا الشأن يكمن في الموازنه والعمل على أساسهما، إلّا أنّ المؤسف له هو أنّ أغلب الناس صادقون في رجائهم وخوفهم بالنسبه لأمر الدنيا، لكنهم ليسوا كذلك بالنسبه للآخرة. لقد ظهر الآن مرض شديد هو مرض ذات الرئه: «والذى يطلق عليه الالتهاب الرئوى اللانمطى» القاتل حيث بلغ عدد الوفيات سته بالمئه بالنسبه للمصابين بهذا المرض، ويبد وأن طرق الوقايه التى اتخذت بهذا الشأن تفوق التصور، فقد عمدوا إلى رش السموم فى المناطق الملوثة، والجميع يرتدى الأقنعه الواقيه، وإن عثروا على من يظن أنه مصاب يعزلونه عن الآخرين، كما هنالك تفتيش دقيق لكافه المسافرين حين يهبطون فى المطارات. حقاً هذا هو الخوف الصادق.

ص: ١٦٠

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٨٠

٢- (٢). اصول الكافى، ج ٢، ص ٧١

والسؤال الذى يرد هنا: هل يبدى المؤمنون مثل هذا الخوف من عذاب الله يوم القيامة الذى يفوق هذا الأمر بما لا يحصى؟! يتعجب الإمام عليه السلام فى الخطبه المذكوره من كيفيه شعور الإنسان بذلك الخوف من بعض الحوادث الطفيفه بينما لا يعيش مثله من الله! والأمر كذلك بالنسبه للرجاء؛ نعم، أولياء الله كانوا يرتعشون خوفاً من الله فى محراب عبادتهم، وكان يسمع من بعضهم أنين وتأوه. الكلام بهذا الشأن كثير والهدف هنا إشاره سريعه لاتمام المباحث، ونختتم البحث بهذا الحديث. قال الإمام الصادق عليه السلام: كان أبى يقول:

«إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَفَى قَلْبِهِ نُورَانِ، نُورٌ خِيفَهُ، وَنُورٌ رَجَاءٍ لَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا وَلَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا» (١).

ص: ١٦٢

١- (١) اصول الكافى، ج ٢، ص ٦٧

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَافٍ لِمَكَ فِي الْأُسُوهِ، وَدَلِيلٌ لِمَكَ عَلَى ذَمِّ الدُّنْيَا وَعَيْبِهَا، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا وَمَسَاوِيهَا، إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا، وَفُطِمَ عَنْ رِضَاعِهَا، وَزُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا.

الشرح والتفسير: التأسى بالنبي صلى الله عليه وآله

تحدث الإمام عليه السلام في العبارات الأخيره من المقطع السابق عن أولئك الأفراد الذين ذاعوا في الدنيا فأصبحوا عبيدها الأذلاء بعد أن ولّوا ظهورهم لكل شيء وأخلدوا إلى الدنيا. وقد سعى الإمام عليه السلام لإيقاظ هذه الفئة المتهافتة على الدنيا من خلال الاقتداء بجوانب من سيره النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن سبقه من الأنبياء، وقد ركز بادئ الأمر على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَافٍ لِمَكَ فِي الْأُسُوهِ، وَدَلِيلٌ لِمَكَ عَلَى ذَمِّ الدُّنْيَا وَعَيْبِهَا، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا(١) وَمَسَاوِيهَا» جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام يرى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هنا اسوه ودليل. والواقع هو أنّ العبارتين تنتهيان إلى نتيجة واحده وهى اقتناء آثار ذلك النبي الأعظم وتكييف الحياه على ضوء حياته، لكن هنالك تفاوتاً لطيفاً فى المعنى؛ فالأسوه إشاره إلى أننا نكيف حياتنا طبق حياه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أما الدليل، فإشاره إلى أنه يدعونا إلى الآخره.

ثم ذكر عليه السلام توجيه ذلك التأسى فقال:

«إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ

ص: ١٤٣

أَكْنَفُهَا، وَفُطِمَ (١) عَنْ رِضَاعِهَا، وَزُؤِيَ (٢) عَنْ زَخَارِفِهَا (٣)».

فقد عاش رسول الله صلى الله عليه وآله حين كان القياصره والأكاسره يرتعون في الجزيره العربيه، وقد واصل تلك الحياه البسيطة المتواضعه حتى حين تزعم الدوله الإسلاميه وحاز على الغنائم العظيمه، وكان يفخر صلى الله عليه وآله بتلك المعيشه فيقول:

«الْفَقْرُ فَخْرِي» (٤) فالعباره لا تعنى أنه لم يكن بوسع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الحصول على تلك الحياه وأسلوب العيش، بل لم يكن شخصياً يرغب فى مثل تلك المعيشه، ومن هنا ورد فى الروايه أنه هبط عليه أحد الملائكه ويده مفتاح خزائن الدنيا فقال:

«يَا مُحَمَّدُ هَيْدِهِ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِ الْأَرْضِ يَقُولُ لَكَ رَبُّكَ إِفْتَحْ وَخُذْ مِنْهَا مَا شِئْتَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَنْقُصُ شَيْئاً عِنْدِي»، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله

:الدُّنْيَا دَارٌ مَنْ لَادَارَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَاعَقَلَ لَهُ. فقال الملك:

أُقْسِمُ بِاللَّهِ الَّذِي بَعَثَكَ نَبِيًّا بِالْحَقِّ، إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعِ حِينَ تَسَلَّمْتُ هَذِهِ الْمَفَاتِيحَ (٥).

والعباره

«إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا» إشاره أن حكومه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلطته لم تكن كحكومه القياصره والأكاسره، والعباره

«وَفُطِمَ عَنْ رِضَاعِهَا» إشاره إلى عدم تناوله الأطمعه اللذيذه المتنوعه، والعباره

«وَزُؤِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا» أنه لم يستفد من القصور الفارهه والمراكب الهنيئه والثياب الفاخره. على كل حال فقد استعان الإمام عليه السلام بأعظم أسوه وركز على حياه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إزاء أولئك الذين إنقادوا للدنيا وقصروا همتهم عليها. النبي الذى كان يجلس على التراب ويعيش كأضعف الأفراد ولم يكن لديه أحياناً سوى ثوب واحد وقد اعترض على ابنته فاطمه

ص: ١٦٤

١- (١) «فطم» من ماده (فطم) منع الطفل من اللبن

٢- (٢) «زوى» من ماده (زى) على وزن حى، الجمع والابعاد

٣- (٣) «زخارف» جمع زخرف، على وزن هرمز، تعنى فى الأصل كل زينه مكتوبه، واطلاق الزخرف على الكلام الفارغ لما ينطوى على تزويق وتجميل

٤- (٤) . مستدرک الوسائل، ج ١، ص ١٧٣

٥- (٥) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٩

الزهاء عليها السلام حين وضعت ستاراً جديداً على باب دارها وقد لبست بعض الحلى من الفضة لا الذهب، وسنخوض فى
المزيد بهذا الشأن فى ختام هذه الخطبه.

ص: ١٦٥

وَإِنْ شِئْتَ ثَبِّتْ بِمُوسَى كَلِيمَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَيْثُ يَقُولُ:

«رَبِّ إِنِّي لَمِمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ». وَاللَّهِ، مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْرًا يَأْكُلُهُ، لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَهُ الْأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَهُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ، لَهُزَالِهِ وَتَشْدُبِ لَحْمِهِ.

وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتَ بِمَدَاوُودَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ، وَقَارِيءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَيِّفَاتِيفَ الْخُوصِ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْنَهُمَا! وَيَأْكُلُ فُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا.

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ، وَيَلْبَسُ الْخَشِنَ، وَيَأْكُلُ الْجَشِبَ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ، وَسِرَّاجُهُ بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ، وَظِلْمَالُهُ فِي الشَّتْيَاءِ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا، وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَا تَنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ، وَلَا وَلَدٌ يَحْزُنُهُ، وَلَا مَالٌ يَلْفِتُهُ، وَلَا طَمَعٌ يُدْلُهُ، دَابَّتُهُ رِجَالُهُ، وَخَادِمُهُ يَدَاؤُهُ!

الشرح والتفسير: زهد الأنبياء

أشار الإمام عليه السلام في البحث السابق إلى جانب من حياه النبي صلى الله عليه وآله كأسوه بالمؤمنين في الزهد، ثم تطرق هنا إلى هذا الجانب في حياه ثلاثه من سائر الأنبياء ليتضح من خلال ذلك أنّ هذا الأمر كان محوراً في حياه الأنبياء فكانوا أسوه لأممهم، فقال:

«وَإِنْ شِئْتَ ثَبِّتْ بِمُوسَى كَلِيمَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَيْثُ

يَقُولُ: «رَبِّ إِنِّي لَمِياً أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» . ثم خاض عليه السلام في تفسير العبارة المذكورة وهي آية من آيات سورة القصص على لسان موسى عليه السلام حين وروده إلى مدين فقال:

«وَاللَّهِ، مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْرًا يَأْكُلُهُ، لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَهُ الْأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرُهُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ (١) صِفَاقٍ (٢) بَطْنِهِ، لِهَزَالِهِ (٣) وَتَشْدُبِ (٤) لَحْمِهِ». فرَّ موسى عليه السلام إلى الشام ثم مدين إثر دفاعه عن أحد أفراد بني اسرائيل وقتله لأحد اتباع فرعون ومطاردته من قبل الأجهزه الفرعونييه والبحث عنه في مصر، ولم يكن يحمل في سفره متاعه وحيث لم يكن يستجدي أحداً من الناس فقد اضطر لأكل نبات الأرض فهزل بدن موسى عليه السلام وضعف خلال هذه المده بفعل المسافه الطويله التي قطعها ماشياً من بلد إلى بلد آخر وقد بلغ الضعف مده بحيث كانت تبدو خضره البقول من بطنه. وقد سأل الله سبحانه طعاماً يسد رمقه ويزيل جوعه، بينما كان باستطاعته سؤال الله عيشه هائنه وسفراً مريحاً. صحيح أنّ موسى عليه السلام كان يمر بظروف عصيبه اضطرته إلى تلك الأزمه العنيفه، إلّا أنّ المهم أنّه لم يسأل الله سوى مقدار الضروره، وهذا دليل واضح على الزهد الذي كان محور حياته.

ثم عرج على زهد داود عليه السلام فقال:

«وَإِنْ شِئْتُمْ ثَلُثْتُ بِدَاوُودَ - صَيَّلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صَاحِبِ الْمَرَامِيرِ، وَقَارِيءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ (٥) الْخُوصِ (٦) بِيَدِهِ، وَيَقُولُ لِجَلَسَائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْنَعَهَا! وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا». نعلم أنّ داود عليه السلام وإلى جانب النبوه كان من ملوك بني اسرائيل وكانت حكومته قويه شامله على ضوء الآيه الشريفه: «شَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلَ الْخِطَابِ» (٧). فهل ما

ص: ١٤٨

١- (١). «شفيف» من ماده (شفوف) رقه الشىء، بحيث يستشف ما وراءه

٢- (٢) «صفاق» الجلد الباطن الذى فوقه جلد البطن الظاهر

٣- (٣) «هزال» ضعف

٤- (٤) «تشذب» بمعنى تفرق، وأريد بها هنا، تفرق لحم البدن

٥- (٥). «سفائف» جمع سفيفه، ما ينسج من سعف النخيل

٦- (٦) «خوص» سعف النخيل

٧- (٧). سورة ص، الآيه ٢٠

قيل يتعلق بعهد حكومته أم بعدها؟ كيف ما كان الأمر فهناك دليل دامغ على زهده ولاسيما ما ورد في بعض الروايات أنه لم يكن يقات من بيت المال، بل كان يعمل الدروع ويأكل من عرق جبينه. العبارة

«صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ، وَقَارِيءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ» إشاره إلى مقاماته المعنوية الرفيعة في الدنيا والآخرة. وقد أفاض الله عليه من العلوم المعنوية بحيث كان ينشئ المزامير (المزامير كما سيأتي بمبحث التأمّلات مجموعته من الأدعية والمناجاة والمواظب والإرشادات التي كان يتلوها داود عليه السلام وترنم بها بصوت عذب فكان يشد إليه الناس، بل حتى الطيور والحيوانات حسب الرواية). وقارِيء (أهل الجنة) إشاره إلى مقامه الأخرى حيث يتذوق أولياء الله هناك لذّة القرب الإلهي وعشق ذاته المقدّسه من ترانيمه المعنوية لذلك الصوت العذب ومناجاته الروحية.

والعبارة

«أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا» ربّما تكون إشاره إلى هذه النقطة وهي أنه أراد شخصاً يبيعها ويستفيد مقداراً من ثمنها، وإن كان هذا الأمر على عهد قضائه فهو إشاره إلى أنّ القضاء لا يتعامل في مثل هذه الأمور مباشرة مع الآخرين حذراً من معرفته واعطائه الكثير بغيه استمالته في إصدار الأحكام.

ثم تطرق عليه السلام إلى زهد عيسى عليه السلام حيث أوجز حياته المتواضعة في ثلاث عشرة عبارة قصيرة، يصعب علينا حقاً تصور تلك الحياه العجيبه لهذا النبي الزاهد فضلاً عن العمل بها فقال:

«وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ (١) الْحَجَرَ، وَيَلْبَسُ الْخَشِنَ، وَيَأْكُلُ الْجَشِبَ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ، وَسِرَّاجُهُ بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ، وَظِلْمَالُهُ فِي الشَّيْءِ مَسَارِقُ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا، وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ، وَلَا وَلَدٌ يَحْزَنُهُ، وَلَا مَالٌ يَلْفِتُهُ، وَلَا طَمَعٌ يُذِلُّهُ، دَابَّتْهُ رِجَالُهُ، وَخَادِمُهُ يَدَاهُ!». المراد من العبارة

«وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ» أنه

ص: ١٦٩

١- (١). «يتوسد» من ماده (وسد) جعل الشيء كالوساده تحت الرأس

كان يكتفى من الطعام بالخبز. وتشير العبارة

«وَزَلَّلَهُ فِي الشَّتَاءِ...» أنه كان يستعين بدفء حراره الشمس على بروده الشتاء. جدير بالذكر أنّ المسيح عليه السلام ظهر في فتره كان يتنعم بها عبيد الدنيا من بنى اسرائيل فى القصور الفخمه والمراكب الهائئه والثياب الفاخره وتنقل إليهم مختلف الأَطعمه ممّا لذّ وطاب. وقد اختار عليه السلام هذا النوع من الحياه لتحذيرهم من مغبه التكالب على الدنيا المحفوفه بالقيود والاغلال والتي تذل فى خاتمه المطاف كل من ركن إليها، وقد قاطع بعض المحاور المهمه التى من شأنها فتنه الإنسان من قبيل الدور الفارهه والزوجات الجميله الفاتنه والمال والولد والمركب، فقد ولى عليه السلام ظهره لكل هذه الأمور بهدف ايقاظ المجتمع من غفلته والسعى إلى دار الآخره.

تأملات

١. مزامير داود

مزامير جمع مزمور بمعنى الترانيم التى تنشء بنغمه معينه، ومزامير داود عليه السلام اشعار روحيه مناجاه ومواعظ وعبر، كان يتلوها داود عليه السلام بصوته العذب لتؤثر فى القلوب (١) وتتكون هذه المزامير التى تعد الآن من كتب أهل العتيق من خمسه كتب تكرر لفظ آمين آخر كل قسم منها، ويعتقد الأغلب من المفكرين أنّ هذا اللفظ من إضافات جامعى الكتب (لابدّ من الالتفات إلى أنّ المزامير الفعلية الموجوده فى الكتب المقدسه تخلو من هذا اللفظ.

على كل حال يضم الكتاب الأول ٤١ والثانى ٣١ والثالث والرابع ٧١ والخامس ٤٤ مزموره. ويمكن ايجاز مفاهيم المزامير بصوره عامه فى العناوين الآتيه:

١. مزامير الحمد والتسبيح التى تشمل عدّه مزامير.

٢. مزامير الشكر التى يطلقها الأشخاص إزاء أطفاف الله.

٣. المزامير المتعلقة بالتوبه.

ص: ١٧٠

١- (١). وأحياناً جمع مزمارة، المعروف

٤. المزامير السياحيه (بشأن قصه الأفراد الذين خصتهم عنايه الله أو غضبه).

٥. المزامير التاريخيه بشأن رحمه الله وفضله على بنى اسرائيل.

٦. مزامير النبوه على أساس وعد الله لداود عليه السلام وأبنائه.

المزامير التعليميه التي كان يوصى داود عليه السلام فيها ببعض الأمور.

(أ) خصائص العادلين ومميزات الشريرين.

(ب) قدسيه وطهاره؟ الشريفة الإلهية.

(ج) هوان قيمه الحياه الدنيا.

(د) الوظائف الواجبه على الحكام.

٧. مزامير دعاء للمذنبين (يجدر الإشاره إلى أن أغلب هذه المزامير لا جميعها تنسب إلى داود عليه السلام)^(١).

٢. الصوت الداودي

يستفاد من الآيات والروايات أن لداود عليه السلام صوتاً شجياً، إلى درجه أنه لا يقتصر على جذب الناس فحسب، بل كانت تجتمع إليه الطيور وتحط إلى جانبه أو على بدنه حين يناجى الحق في محراب عبادته. ولما كانت الجنه الموضع الأفضل فقد ورد في الخطبه أن داود عليه السلام قارىء أهل الجنه، كما أشار ابن أبي الحديد إلى روايه تحمل هذا المعنى فقال: ورد في الخبر، داود قارىء أهل الجنه.

٣. زهد الأنبياء

ستعرض في نهايه الخطبه عقب الحديث عن زهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى عليه تشدد أنبياء الله على أنفسهم في الحياه، بما نعجز عن تحمله.

ص: ١٧١

١- (١) اقتباس من قاموس الكتاب المقدس امستر هاكس

فَتَأْسَىٰ بِنَبِيِّكَ الْأَطْيَبِ الْأَطْهَرِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأْسَى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَى. وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ الْمُتَأْسَى بِنَبِيِّهِ، وَالْمُقْتَضَى لِأَثَرِهِ. فَصَمَّ الدُّنْيَا قَضَمًا، وَلَمْ يُعِزَّهَا طَرْفًا. أَهْضَمَ أَهْلَ الدُّنْيَا كَشْحًا، وَأَخْمَصُوهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بَطْنًا، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئًا فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئًا فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئًا فَصَغَّرَهُ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقًا لِلَّهِ، وَمُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ اللَّهِ.

الشرح والتفسير: سيره النبي صلى الله عليه وآله إزاء عبده الدنيا

إنَّ الله جعل أنبياءه من البشر ليكونوا أسوة للآخرين من جميع النواحي؛ ولو كانوا من جنس الملائكة لتعذر التأسي بهم ولأصاب الشلل أهم مفاصل حركتهم الرسالية المتمثلة بالتحاليم العملية. والواقع مهما كان الخطيب متمكنًا وبلغيًا والكاتب فصيحًا ومتعمقًا فإن تأثير مواعظه ونصائحه لا يرقى إلى الأسوة العملية، ولا يمكن مقارنه ما يستفيده الآخرون من السير العملية لأولياء الله مع تلك التي تحصل عند سماع الوعاظ؛ ومن هنا ركز الإمام عليه السلام بعد ذكره لبعض الأنبياء على سيره الرسول الله صلى الله عليه وآله في إطار مواجهته لأصحاب الدنيا الذين تكالبوا عليها في ذلك الزمان وفي كل زمان، فأشار قبل الخوض في الجوانب العملية لسيره النبي صلى الله عليه وآله إلى رؤيته للدنيا فقال:

«فَتَأْسَىٰ بِنَبِيِّكَ الْأَطْيَبِ الْأَطْهَرِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ

تَأْسَى، وَعَزَاءٌ لِمَنْ تَعَزَى. وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ الْمُتَأْسَى بِنَبِيِّهِ، وَالْمُقْتَصُّ (١) لِأَثَرِهِ».

وتطرق إلى نظرتة صلى الله عليه وآله إلى الدنيا، فقال:

«قَضَمَ الدُّنْيَا قَضَمًا (٢)، وَلَمْ يُعْرِزْهَا طَرْفًا».

أَهْضَمُ (٣) أَهْلُ الدُّنْيَا كَشْحًا (٤)، وَأَخْمَصُهُمْ (٥) مِنَ الدُّنْيَا بَطْنًا، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئًا فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئًا فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئًا فَصَغَّرَهُ (٦). إشارة إلى أنه كان مسلم لله بكل كيانه، يحب ما أحب الله ويعادى من يعاديه الله، وكل هذه العبارات إشارة إلى زخرف الدنيا الزائفة في أن الدنيا مبعوضه وحقيره وصغيره وتافهه. القضية المهمة أن حب الدنيا أساس الظلم والحروب وسفك الدماء، والذي ينظر إلى زخارفها نظره حقيره لن يحبها ويفتن بها وقلما يتلوث بآثامها.

ثم يخلص إلى نتیجه واضحه فيقول:

«وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَيَّرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقًا لِلَّهِ، وَمُحَادَّةً عَنِ أَمْرِ اللَّهِ». نعم فسعادتنا في الدارين وصدقنا في ادعاء الإيمان بالله ورسوله في أن نعظم ما عظّمه ونستصغر ما صغّره. فقد وقف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله موقفاً مخالفاً لزخارف الدنيا ومظاهرها الزائفة، فكيف نزع الإيمان به ونحن نعظم هذه التوافه الدنيوية ونضحى من أجلها بالغالى والنفيس؟! يمكن أن يرد هنا هذا السؤال: إذا كان

ص: ١٧٤

١- (١) «مقتص» من ماده (قص) على وزن نص، قطع الشيء وقصه، كما وردت بمعنى متابعه الشيء، قصه أيضاً بمعنى متابعه حادثه، ومنه القصاص أيضاً

٢- (٢). «اقضم» تعنى فى الأصل لوك الأشياء الجافه مقابل الخضم للأشياء الرطبه وابتلاعها، وأريد بها هنا قلّه الاستفاده من الدنيا

٣- (٣). «اهضم» من ماده (هضم) على وزن قدم، بمعنى الضعف للبدن، ومنه هضم الطعام حيث تضمر البطن بعد الهضم، ومنه ضمور الخاصره والبطن

٤- (٤) «كشح» الخاصره

٥- (٥) «اخمص» من ماده (خمص) على وزن شمس، خلو البطن اثر الجوع

٦- (٦). الفارق بين التصغير والتحقير، أن التحقير يطلق عاده بشأن الكيفيه؛ مثلاً- يعتبر الإنسان المحروم من العلم والمعرفه والصفات الحميده حقيراً، أما الصغير فيطلق على الشيء القليل من حيث الكمية كالإنسان الصغير العمر وما شابه ذلك، إشارة إلى عدم قيمه الدنيا وقتلها

النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بجانب الطعام إلى هذه الدرجه وكان أخلى بطناً من عامه الناس، فكيف كان يصمد أمام العدو فى المعركه حتى وصفه على عليه السلام بقوله:

«كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبُ إِلَى الْعَيْدِ مِنْهُ»^(١). فقد ورد مثل هذا السؤال بشأن على عليه السلام كيف وقف تلك المواقف الصعبه على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله فى معركة بدر واحد والأحزاب وخيبر وحنين وإبان حكومته فى الجمل وصفين والنهروان ولم يكن طعامه سوى الشعير. وقد أجاب الإمام عليه السلام عن السؤال فى كتابه إلى عثمان بن حنيف^(٢) فقال:

«أَلَمْ إِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَضْيَلَبَ عُودًا وَالرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ أَرْقُ جُلُودًا وَالنَّابِتَاتِ الْعِذِيَّةَ أَقْوَى وَفُودًا وَأَبْطَأَ حُمُودًا» وعليه، فالنهم فى الطعام ليس بدليل على القوه والقدرة. ولعل أولئك الأعراب الذين كانوا يقتاتون على الأطمعه العاديه قد ابلوا بلاءاً حسناً فى الحرب التى نشبت بين ايران والروم على العكس من أولئك الجنود الذين كانوا يطعمون مختلف الأطمعه، فقاوموا وصمدوا بالشكل الذى أذهل الجميع. القضية الأخرى هى أن معنويات المقاتل هى التى ترسم صورته واضحه عن مصيره فى جبهه القتال لا الطعام وانواعه، وكانت معنويات النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام فى القمه بما أهلها لتلك الشجاعه الفائقه. جدير ذكره أن ما ورد بشأن طعام النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام لا يعنى أنهما كانا يتناولان مثل ذلك الطعام طيله حياتهما، بل المراد أنهما لم يتعلقوا بطعام معين قط.

ص: ١٧٥

١- (١). نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٢٢٦

٢- (٢). نهج البلاغه، الرساله ٥٣

وَلَقَدْ كَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَزْفَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَرَبِيَّ، وَيُزِدُ خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السُّتْرُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ: «يَا فَلَانَهُ - لِأَخِي دِي أَرْوَاجِهِ - غَيْبِي عَنْي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَارِفَهَا». فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلًا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشًا، وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَارًا، وَلَا يَرْجُو فِيهَا مُقَامًا، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ، وَعَظَّمَهَا عَنِ الْبَصْرِ. وَكَذَلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئًا أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُذَكَّرَ عِنْدَهُ.

الشرح والتفسير

زهد النبي صلى الله عليه وآله

تطرق الإمام عليه السلام في المقطع السابق من الخطبه بصوره عامه إلى زهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و ضروره الاقتداء والتأسي به، إلآ أنه بين هنا مصاديق ذلك الزهد والتواضع في حياته اليوميه فأشار إلى سبعة مواضع تكشف بجلاء عن مدى زهده وتواضعه (١)، فقال:

«وَلَقَدْ كَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ،

ص: ١٧٧

١- (١). استفاد من المطالعات التاريخيه أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان عاده ما يركب أحداً خلفه، أحياناً اسامه وأخرى الفضل بن العباس وسائر الأفراد من الصحابه حتى بلغ عددهم حسب ما أورده المؤرخون ٣٣ شخصاً (انظر شرح العلامة التستري لنهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٣٧) كما ورد في الحديث أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يستقبله الأطفال حين يعود من المدينه فكان يأمر ياركابهم خلفه وأمامه، وكان يوصى أصحابه ياركابهم، فكانوا يفخرون بركوبهم على مركب رسول الله صلى الله عليه وآله (المحجبه البيضاء، ج ٣، ص ٣٦٦)

وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيُخْصِفُ (١) بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَزِقُّ (٢) بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَزَكُّبُ الْحِمَارَ الْعَارِيَّ، وَيُزِدُّ (٣) خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السُّتْرَ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ:

«يَا فَلَانَهُ - لِإِحْدَى أَرْوَاجِهِ - غَيْبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَّارِفَهَا».

العبارة

«يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ» إشارة إلى عدم امتلاك المحتاجين للمفروشات آنذاك ليجلسوا عليها فكانوا يضطرون للجلوس على الأرض فكان النبي صلى الله عليه وآله يواسيهم في الجلوس على الأرض. والعبارة

«وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ» تشير إلى مدى تواضعه في جلوسه، لا على غرار المتكبرين الذين يضعون رجلاً على أخرى بكل غرور. والمعروف عن النبي صلى الله عليه وآله أنه كان يجثو على ركبتيه على غرار العبيد؛ فهي جلسه متواضعه إلى جانب كونها سهله في النهوض. ورد في الحديث أنّ امرأه سيئه اللسان مرّت بالنبي صلى الله عليه وآله وهو جالس فقالت له: يا محمد إنك لتجلس كالعبيد؟ فقال صلى الله عليه وآله:

«وَأَيُّ عَبْدٍ أَعْبَدُ مِنِّي» (٤).

والعبارة

«وَيَكُونُ السُّتْرَ...» إشارة إلى عائشه حين وضعت ستراً مزيناً فيه صور لذي أرواح، فامتعض رسول الله صلى الله عليه وآله من رؤيته لأنه مزين فقال:

«غَيْبِيهِ عَنِّي فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَّارِفَهَا، وَأَمَرَ بِرَفْعِهِ فَوْرًا» (٥).

ثم قال عليه السلام مواصلاً كلامه:

«فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ،

ص: ١٧٨

١- (١). «يُخْصِفُ» من ماده (خصف) على وزن وصف، رقع الشيء وخیاطه القطع. وتعنى هذه المفردة فى الأصل ضم الشيء

إلى آخر ومن هنا تطلق على خیاطه الحذاء والثوب

٢- (٢) «يرقع» من ماده (رقع) على وزن رفع، بمعنى وصل الشيء

٣- (٣). «يردّف» من ماده (ردف) على وزن حرف الكون خلف شيء، ومن هنا يقال لمن يركب خلف غيره رديف

٤- (٤) اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٧١ بتلخيص

٥- (٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ج ٢، ص ٢٩٣ ولكن ورد فى هذا الحديث كلمه النمرقه بدل الستر

وَأَحَبُّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتَهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَمَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشًا (١)، وَلَمَّا يَعْتَقِدَهَا قَرَارًا، وَلَمَّا يَرْجُو فِيهَا مُقَامًا. إشاره إلى أَنَّ حَبِينَ لَا يَجْتَمَعَانِ فِي قَلْبِ إِنْسَانٍ. فَإِنْ افْتَنَّ بِالدُّنْيَا وَأَحْبَبَهَا رَحَلَ عَنْ قَلْبِهِ حَبُّ اللَّهِ وَنَعِيمَ الْآخِرَةِ، فَمَا لَمْ يَطْرُدْ مِنْ قَلْبِهِ حَبُّ الدُّنْيَا لَنْ يَحَبَّ اللَّهُ. وَيَصْدُقُ هَذَا الْمَعْنَى عَلَى جَمِيعِ الْأَفْرَادِ، وَأَبْرَزَ نَمُودَجٍ لِذَلِكَ تَمَثَّلَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الَّذِي قَالَ:

«مَا لِي وَلِلدُّنْيَا إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُهَا كَمَثَلِ الرَّكَّابِ رُفِعَتْ لَهُ الشَّجْرَةُ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَقَالَ تَحْتَهَا ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» (٢).

ثم خُصَّصَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى نَتِيجَةٍ وَاضِحَةٍ أَنَّهُ طَالَمَا كَانَتِ الدُّنْيَا بِهَذَا الشَّكْلِ فَمَا كَانَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَّا أَنْ قَاطَعَهَا:

«فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا (٣) عَنِ الْقَلْبِ، وَعَيَّبَهَا عَنِ الْبَصْرِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئًا أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُذَكَّرَ عِنْدَهُ». وَهَذَا يَطْرُقُ هَذَا السُّؤَالُ نَفْسَهُ: لِمَاذَا كُلُّ هَذَا الدَّمِ وَالتَّحْقِيرِ لِلدُّنْيَا مِنْ قَبْلِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ سَنَرُدُّ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ بِالتَّفْصِيلِ فِي آخِرِ الْخُطْبَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

ص: ١٧٩

١- (١). «رياش» جمع ريش، تعني في الأصل، ريش الطيور، ولما كان ذلك الريش ثوبه الطبيعي الجميل فإنها تطلق أحياناً على كل ثوب جميل كما تطلق على كل زينه، والمعنيان محتملان في العبارة المذكوره

٢- (٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٣٤ (لابد من الالتفات هنا إلى أن العبارة (قال تحتها) من القيلولة، بمعنى الاستراحة والنوم عند منتصف النهار)

٣- (٣). «أشخصها» من ماده (شخوص) على وزن خلوص، تعني في الأصل التركيز في النظر على نقطه، ويفيد عادة الخوف ثم اطلقت على اخراج شخص من مكانه فجأه

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِيءِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا: إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ، وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ.

فَلْيَنْظُرْ نَاطِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ اللَّهُ مُحَمَّدًا بِذَلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: أَهَانَهُ، فَقَدْ كَذَبَ - وَاللَّهِ الْعَظِيمِ - بِالْإِفْكِ الْعَظِيمِ، وَإِنْ قَالَ: أَكْرَمَهُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ، وَزَوَّاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ. فَتَأْسَى مُتَأَسِّ بَنِيهِ، وَاقْتَصَّ أَثْرَهُ، وَوَلَّجَ مَوْلَجَهُ، وَإِلَّا فَلَمَّا يَأْمَنُ الْهَلَكَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - عَلَمًا لِلْسَّاعَةِ، وَمُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ، وَمُنْذِرًا بِالْعُقُوبَةِ. خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا حَمِيصًا، وَوَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيمًا. لَمْ يَضَعِ حَجْرًا عَلَى حَجْرٍ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ. فَمَا أَعْظَمَ مِنْهُ اللَّهُ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفًا تَتَّبِعُهُ، وَقَائِدًا نَطَأَ عَقْبَهُ! وَاللَّهِ لَقَدْ رَفَعْتُ مِذْرَعَتِي هَذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا. وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ:

اغْرُبْ عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ الشَّرِي!

الشرح والتفسير: لم التأسي بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله

عاود الإمام عليه السلام تأكيده لما أورده في المقطع السابق من الخطبه في ذم الدنيا والمتعلقين بها فقال بادية الأمر على نحو الاستدلال المنطقي:

«وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِيءِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا: إِذْ جَاعَ

فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ (١)، وَزُوَيْتٍ (٢) عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ (٣). وَعَلَى ضَوْءِ هَذِهِ الْمَقْدَمَةِ خَاضَ فِي بَرَهَانِهِ الْمُنْطَقِي فَقَالَ:

«فَلْيَنْظُرْ نَاطِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ اللَّهُ مُحَمَّدًا بِذَلِكَ أَمْ أَهْرَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: أَهْرَانُهُ، فَقَدْ كَذَبَ - وَاللَّهِ الْعَظِيمِ - بِالْإِفْكِ الْعَظِيمِ، وَإِنْ قَالَ: أَكْرَمَهُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْرَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ، وَزَوَّاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ». لَا يَنْبَغِي أَنْ نَنْسِيَ هُنَا أَنَّ فَتْنَهُ مِنَ الْأَثْرِيَاءِ أَنْذَاكَ كَانَتْ تَرَى ثَرَوَتَهَا دَلِيلًا عَلَى عِنَايَةِ اللَّهِ بِهَا، وَبِالتَّالِي فَإِنَّ الْفُقَرَاءَ وَالضَّعْفَاءَ مَبْعُدُونَ عَنْ عِنَايَةِ اللَّهِ، وَهَذَا التَّفَكِيرُ دَفَعَ بِهِمْ لِحَثِّ الْآخِرِينَ عَلَى جَمْعِ الثَّرْوَةِ عَنْ أَى طَرِيقٍ وَبَايَهُ وَسِيلَهُ. وَمِنْ هُنَا «وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِيِّينَ الْعَظِيمِ» (٤) فَرَدَّ عَلَيْهِمُ الْحَقُّ تَعَالَى «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِيُوتِيَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ * وَزَخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ» (٥).

وَالْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَفْنِدَ بِالْبَرَهَانِ الْقَاطِعِ هَذِهِ الْفِكْرَةَ الْمَرِيضَةَ السَّائِدَةَ فِي الْأَذْهَانِ.

فَالْحَقُّ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْلَى رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عِنَايَةً فَائِقَةً، فِي حِينٍ كَانَ مَحْرُومًا مِنْ زَخَارِفِ الدُّنْيَا وَزَبْرَجِهَا، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَزْعُمَ أَنَّ اللَّهَ أَهَانَ نَبِيَّهُ، وَعَلَيْهِ نَخْلَصُ إِلَى نَتِيجَةِ مَفَادِهَا أَنَّ الْإِمْكَانَاتِ الْمَادِيَةَ وَالثَّرْوَةَ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى الشَّخْصِيَّةِ وَلِذَلِكَ خَلَصَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى هَذِهِ النَّتِيجَةِ:

«فَتَأْسَى (٦) مُتَأَسِّ بِنَبِيِّهِ، وَاقْتَصَّ أَثَرَهُ، وَوَلَجَ مَوْلِجَهُ، وَإِلَّا فَلَا يَأْمَنُ الْهَلَكَةَ».

ص: ١٨٢

- ١- (١). «خاصه» بمعنى (قرايه الإنسان)، شَرَّاحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ فَشَرَّحُوا (خاصه) اسْمَ الْفَاعِلِ بِالْمَعْنَى الْمَصْدَرِيَّ وَالْمَفْهُومَ أَنَّهُ جَاعَ رَغْمَ خُصُوصِيَّتِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، لَكِنَّهُ لَا يَبْدُو مُسْتَقِيمًا
- ٢- (٢) «زويت» من ماده (زى) على وزن حى، قبض الشيء وأبعاده
- ٣- (٣) «زلفه» بمعنى المقام والمنزله
- ٤- (٤). سورة الزخرف، الآية ٣١
- ٥- (٥) سورة الزخرف، الآيات ٣٣-٣٥
- ٦- (٦). «فتأسى» وردت فى أغلب نسخ نهج البلاغه (تأس) كفعل ماض، لكن يستفاد منها معنى الأمر بقريته العباره (وإلا فلا يأمن الهلكه)، لكنّها وردت بصيغه فعل الأمر فى بعض النسخ «فتأسى»

ثم واصل عليه السلام حديثه بالقول:

«فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - عَلَمًا لِلسَّاعَةِ، وَمُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ، وَمُنذِرًا بِالْعُقُوبَةِ. خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا حَمِيصًا، وَوَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيمًا. لَمْ يَضَعْ حَجْرًا عَلَى حَجْرٍ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَحْبَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ». إشارته إلى أن النبي صلى الله عليه وآله ورغم عظمتها وكونه علماً للساعة وبصفتها البشير والناذير فقد عاش تلك الحياة البسيطة المتواضعة إلى درجة أنه رحل عن الدنيا ولم يملأ بطنه أو يبني له بيتاً مشيداً (طبعاً بنى النبي صلى الله عليه وآله حجرات لأزواجه عند المسجد من الطين وسعف النخيل والعبارة

«لَمْ يَضَعْ حَجْرًا عَلَى حَجْرٍ» تشير إلى بيوت الأثرياء الذين كانوا يبنون بيوتهم من الحجر).

وأخيراً خلص إلى هذه العبرة:

«فَمَا أَكْبَرَتْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْنَا بِه سَلَفًا تَتَّبِعُهُ، وَقَائِدًا نَطَأَ عَقِبَهُ!». أجل، فأحدى نعم الله العظمى على البشر وجود هؤلاء الزعماء العظام الذين حفلت جميع حركاتهم وسكناتهم بالدروس والعبر، ولم تنتفع أي أمه كالمسلمين من النعمة الفضيلة، فالأمم وإن كانت لها عظماء، إلا أن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله كان أعظم الجميع، وليت شعري أي كفران للنعمة أعظم من ضلالتنا وحيرتنا رغم نعمه الله علينا بهذا القائد العظيم. وأخيراً وليثبت الإمام عليه السلام أنه أول من يتمثل عملاً بما يقول وأنه يحذو حذو رسول الله صلى الله عليه وآله فقد قال:

«وَاللَّهِ لَقَدْ رَقَعْتُ (١) مِدْرَعَتِي (٢) هَذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا. وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ: اغْرُبْ (٣) عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمِيْدُ الْقَوْمُ السُّرَى!». يستفاد من هذه العبارة بوضوح أن الإمام عليه السلام كان يعطى ثوبه بين الحين والآخر ليرقعوه (وإن قام أحياناً بهذا العمل شخصياً) وقد كثرت رقعات ثوبه حتى شعر الإمام عليه السلام بالخجل من رقعته، مع ذلك لم يكن مستعداً لطرحة. شتان بين سيره الإمام عليه السلام وبعض الأفراد الذين

ص: ١٨٣

١- (١). «رقت» من مادة (ترقيع) معروفه، وتستعمل اليوم بخصوص تطعيم الأعضاء

٢- (٢). «مدرعه» ثوب الصوف

٣- (٣). «اغرب» من مادة (غروب) اذهب وابتعد

ينتقون ثياب كل فصل وزمان ومكان بما يناسبه، فهناك ثوب لمجالس السرور وآخر لمجالس العزاء، وهكذا للسفر والحضر والنوم، بل الأسوأ من كل ذلك طرح بعض الملابس كونها لا تناسب الموضه. العبارة

«فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى!»، مثل معروف عند العرب، معناه، أن من يصبر على النوائب ويتحمل الشدائد حين يبلغ هدفه يُسَرُّ بصبره ويحمد الله ويحمده الآخرون أيضاً(١).

تأمل

لعلنا نتعرف بصورة عميقة على حديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال

«حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ» كلما أمعنا النظر في حجم الذنوب والمعاصي والنزاعات الاجتماعية العنيفة وتأملنا الملفات الحقوقية والجزائية التي تضحج بها المحاكم.

والجدير بالذكر أن هذا الحديث لم يقتصر على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بل أكدته سائر الأئمة المعصومين عليهم السلام كالإمام الصادق والإمام السجاد عليهما السلام إلى جانب تأكيده من الأنبياء السابقين عليهم السلام(٢).

ولو توقفنا قليلاً وتأملنا لأمكننا إيجاز عمده مظاهر حبّ الدنيا في ثلاثة أشياء هي: حبّ المال وحبّ الجاه وحبّ الشهوه. فليس هنالك من حرب وقعت في العالم ولا فساد انتشر في صفوف المجتمع إلا كان معلولاً لأحد هذه المحاور الثلاثة. وبناءً على هذا فإن أردنا ممارسه عمليه الإصلاح في المجتمعات الإسلاميه كان لا بد لنا

ص: ١٨٤

١- (١) كتب أغلب شراح نهج البلاغه كلمه «يحمد» على شكل فعل معلوم، لأنهم اعتبروا لكلمه (سرى) معنىً مصدرياً، يعنى (السير في الليل) وفي هذه الصوره يكون مفهوم الجملة: يحمد السير في الليل والسائرون يحمدون الله تعالى عندما يصلون إلى مقاصدهم، ولكن في بعض النسخ «يحمد» جاءت بشكل فعل مجهول، عندئذ تكون كلمه (سرى) بمعنى الوصف، يعنى (السائرين في الليل)، وفي هذه الصوره يكون مفهوم الجملة: عند الصباح يحمد السائرين في الليل، البته النتيجة في المفهومين واحده

٢- (٢) روى المرحوم الكليني في أصول الكافي، ج ٢، ص ٣١٧ حديثاً في باب حبّ الدنيا عن الإمام السجاد عليه السلام شرح فيه المصادر السبعة للذنب حتى ورد في آخره: «فقال الأنبياء والعلماء بعد معرفه ذلك: حب الدنيا رأس كل خطيئه»

من مواجهه التعلق بالدنيا. ولعل هذا الموضوع يبدو بارزاً في المجتمعات الفقيره التي تنتقل فجأه إلى الغنى، كالمجتمع الإسلامى فى صدر الإسلام؛ ذلك أن الفقر كان قد عمّ المجتمع قبل بعثه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، إلّا أنّ الفتوحات وما انطوت عليها من غنائم بصوره مفاجئه قد غيرت الأوضاع فأخذ أصحاب الدنيا يتهافتون على اللذات والغرق فى المعاصى. وعليه فلا يبدو من المستغرب على ذلك الإمام الهمام على عليه السلام وبغيه تغيير تلك الأوضاع أن يورد تلك الخطبه ويكرسها لذم الدنيا ومن تعلق بها؛ فيأخذ بأيدي الناس ويغوص بهم فى أعماق تاريخ الأنبياء الماضين ويكشف لهم عن عمق زهد النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وحياته البسيطة المتواضعة بهدف إيقاظهم من غفلتهم وإعادتهم إلى المسار الصحيح.

على سبيل المثال كان على عهد عثمان - حين إزدادت الأموال فى بيت مال المسلمين وكان ينبغى أن تصرف فى العمران وبناء الدوله الإسلاميه و انقاذ المحرومين - أن سيطرت قرابته و بطانته على الأموال، فجنى كل منهم ثروه عظيمه أفرد لها العلامه الأمينى رحمه الله فى الجزء الثامن من الغدير باباً أسماه (الكنوز المكنزه بركة الخليفه) وقد عرض فيه بعض تلك الكنوز من مصادر العامه. وذكر بعض الأفراد من قبيل: مروان وطلحه والزبير وسعد بن أبى وقاص ويعلى بن أميه وعبدالرحمن بن عوف وزيد بن ثابت وسائر الأفراد، وقد حصل كل منهم على آلاف الدينانير من بيت المال، حتى ذكر أنّ ورثه زيد بن ثابت كانت تتقاسم ارثه من الذهب والفضه عن طريق كسرها بالفؤوس، كما ترك يعلى بن أميه مبلغ خمسمائه ألف دينار إلى جانب المزارع والبساتين والدور والديون التى له بدمه الناس والتى تبلغ مائه ألف دينار (كل دينار مثقال من الذهب المسكوك).

وأما عبدالرحمن بن عوف فقد ترك ألف ناقه وثلاثه آلاف شاه ومائه فرس إلى جانب الأراضى الزراعيه، ومن أراد المزيد فليراجع الغدير وما ذكره من مصادر

وعلى هذا الضوء ألا يتوجب على زعيم عظيم كعلى عليه السلام أن يكون كالطبيب الحاذق فيشمر عن ساعديه ويعالج ذلك المجتمع المريض بوباء حب الدنيا من خلال ذمها واستصغار شأنها؟ وعليه ينتفى السؤال الذى يطرح نفسه أنه لم عرض على عليه السلام بكل هذا الذم للدنيا وهو إمام الإسلام هذا الدين الذى يعنى بالدنيا والآخرة والحضاره والمدنيه. واليوم أيضاً إن أردنا أن نحول دون هذه النزاعات الداميه وسفك الدماء وتجار السلاح الذين يصدرون الموت والدمار للشعوب والوقوف بوجه مراكز الفساد والدعاره والانحراف، فليس أماننا من سبيل سوى تحقير هذه الدنيا ومن تعلق بها واستصغارها حتى تصبح فضيحه ليقتنع الآخرون بالحياه البسيطة المتواضعه على حد الكفاف.

ونختتم الكلام بالحديث الذى ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال

«جَعَلَ الْخَيْرَ كُلَّهُ فِي بَيْتٍ وَجَعَلَ مِفْتَاحَهُ الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا»(٢).

ص: ١٨٦

١- (١) الغدير، ج ٨، ص ٢٨٢

٢- (٢) أصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٨

فِي صِفَةِ النَّبِيِّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَأَتْبَاعِ دِينِهِ وَفِيهَا يَعِظُ بِالتَّقْوَى (١)

نظرة إلى الخطبه

تشتمل هذه الخطبه على ثلاثه أقسام، أشار في المقطع الأول إلى بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وصفاته الحميده وخصائص أهل بيته، ويذكر آثار دعوته في إظهار الحق ودحر الباطل، ويخلص إلى نتيجة مفادها أنّ شقاء الدنيا والآخرة في عدم الإيمان بالإسلام الحنيف.

وتطرق الإمام عليه السلام في المقطع الثاني من الخطبه إلى التوكل على الله وسؤاله الهدى. ثم اختتم الخطبه بدعوه الجميع إلى الورع والتقوى وطاعة الله والحذر من التعلق بالدنيا بعبارات عظيمه المعانى إلى جانب ضروره الاعتبار بالوقائع والأحداث التي يشهدها العالم.

ص: ١٨٧

١- (١) سند الخطبه: يبدو أنّ لهذه الخطبه سنداً غير نهج البلاغه، كما لم يعثر صاحب مصادر نهج البلاغه على سند آخر، مع ذلك رواها بعض الأعلام ممّن عاش بعد المرحوم السيد الرضى كالعلامة المجلسي وآخرين (نحن أيضاً بحثنا في الحاسوب ولم نعثر على مصادر أخرى لهذه الخطبه)

ابْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيِّ، وَالْبُرْهَانَ الْجَلِيَّ، وَالْمِنْهَاجَ الْبَادِي وَالْكِتَابَ الْهَادِيَ. أُسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرِهِ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرِهِ؛ أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثِمَارُهَا مُتَهَيِّدَةٌ. مَوْلَاتُهُ بِمَكَّةَ، وَهَجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ عَلَا بِهَا ذِكْرُهُ وَامْتَدَّتْ مِنْهَا صَوْتُهُ. أَرْسَلَهُ بِحُجَّهِ كَافِيَةٍ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ، وَدَعْوَةٍ مُتَلَفِّفِيَةٍ. أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمَدْخُولَةَ، وَبَيَّنَ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ.

«فَمَنْ يَبْنِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا تَتَحَقَّقُ شِقْوَتُهُ، وَتَنْفَصِمَ عُرْوَتُهُ، وَتَعْظُمَ كِبْوَتُهُ، وَيَكُنْ مَابُهُ إِلَى الْحُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَيْلِ. وَأَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلَ الْإِنَانِيَّةِ إِلَيْهِ. وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ، الْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ.

الشرح والتفسير: صفات النبي صلى الله عليه وآله

استهل الإمام عليه السلام الخطبه بالحديث عن خصائص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ورسالته فقال:

«ابْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيِّ، وَالْبُرْهَانَ الْجَلِيَّ، وَالْمِنْهَاجَ الْبَادِيَ (١) وَالْكِتَابَ الْهَادِيَ».

المراد من النور المضىء نور نبوته صلى الله عليه وآله الذى أضاء كل شىء،

«وَالْبُرْهَانَ الْجَلِيَّ» إشاره إلى معجزاته الواضحه، كما تبين العبارة

«وَالْمِنْهَاجَ الْبَادِيَ» شريعته الغراء،

«وَالْكِتَابَ الْهَادِيَ» القرآن الذى يهدى عامه الخلق إلى الله حتى قيام الساعة. هذا

ص: ١٨٩

١- (١). «البادى» على وزن (النادى)، بمعنى الواضح والجلى بصوره تامه، ووصف شريعته النبى بالباديه إشاره إلى أنأوامره وتعاليمه تحظى بقبول العقلاء

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ العبارات الأربع المذكوره تشير إلى القرآن الذى نظر إليه الإمام عليه السلام من عدّه جوانب؛ إلّا أنّ الأنسب ما ذكرناه من أنّ كل عبارته تشير إلى جانب معين؛ الأمر الذى استحسنته سائر الشراح. على كل حال فإنّ كلام الإمام عليه السلام إشاره إلى أركان الدعوه الكامله الشامله والى تستند إلى نور الوحي، والى بينت بمختلف المعجزات والأدله والبراهين وكتاب الهدايه القرآنيه بأحكامه الجليه الواضحه.

ثم خاض عليه السلام بثمان عبارات قصيره فى التعريف بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«أَشْرَتْهُ خَيْرُ أُسْرِهِ، وَشَجَرَتْهُ خَيْرُ شَجَرِهِ؛ أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ. مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهَجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ (١) عَلَا بِهَا ذِكْرُهُ وَاقْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ». متهدل، بمعنى متدلٍ وهنا تعنى الفاكهه القريبه من الجميع. ولعل موفقيه الإنسان وسعادته تتحقق فى ظل أمور مختلفه ولكل من نجابه الأسره وكرامه الحسب والنسب ورفع شخصيه الأهل والقرايه وأهميه مسقط الرأس والبيئه والنشاط فى أجوائها، دور مهم فى تلك السعاده. ولو أمعنا النظر فى حياه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله نجد أنّه صلى الله عليه وآله إلى جانب سموه الذاتى قد توفرت له سائر العوامل اللازمه للتوفيق والنجاح ليتمكن على ضوئها من ممارسه دوره فى هدايه الناس، فنسبه الشريف يمتد إلى إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام حيث ورث منهما الشجاعه والتضحيه. قبيلته بنى هاشم من أشرف القبائل العربيه. أبوه عبدالله، وجدّه عبدالمطلب، وعمّه حمزه وأبوطالب، وابن عمّه على وجعفر عليهما السلام، وبنته فاطمه الزهراء عليها السلام أم المعصومين عليهم السلام. وولادته فى مكه الحرم الإلهى الآمن، وهجرته إلى المدينه الطيبه مركز الإيثار والفداء والتضحيه. ومن هناك وسع رقعته دعوته وأسمع صوته العالم بأسره، والأسره من ماده أسر على وزن عصر، بمعنى القوه والقدرة إشاره إلى أسره بنى هاشم وقرايه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ص: ١٩٠

١- (١). «طيبه» بمعنى الطاهره، ويستفاد من لسان العرب أنّ النبي صلى الله عليه وآله دعاها بهذا الاسم (بمناخها المعتدل وكثره اشجارها وإيثار أهلها) ونهى عن بقاء اسم يثرب لأنّه يعنى فى الأصل الفساد

وتشير الشجرة إلى أصل هذه الأسره التي تنتمى إلى إبراهيم عليه السلام، والأغصان المعتدله إشاره إلى فروع كعبدالمطلب وأبى طالب وحمزه وجعفر وأمير المؤمنين عليه السلام وأئمه الهدى عليهم السلام وهم بمثابة الفروع المتداخله للشجره فى فضلهم وعلمهم وكمالهم وعدم اختلافهم ومعارفهم التي يتغذى على ثمارها جميع الناس على مرّ العصور والدهور.

ثم أتجه الإمام عليه السلام صوب سيرته العمليه فقال:

«أَرْسَلَهُ بِحُجَّتِهِ كَدَافِيهِ، وَمَوْعِظَتِهِ شَافِيَهُ، وَدَعْوَتِهِ مُتَلَفِيَهُ (١)». نعم، فقد كانت له مختلف الأدله العقليه والفطريه والمعاجز الحسيه، فيعالج أمراض الناس والمجتمعات بكلماته الحكيمه ويصلح الخراب الذى لحق بالناس إبان الجاهليه فى كافه مجالاتهم الاجتماعيه. فقد اقترنت دعوه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بالدليل والبرهان من حيث جذورها وانطلاقها، كما تضمّنت على مستوى المضمون الخطط العمليه الهاديه، وكل ذلك يقود إلى نتيجته مرجوه تتمثل فى إصلاح الفساد وإعادة بنيه الأصول الفكرية والأخلاقية والاجتماعية.

ثم خاض عليه السلام فى الأعمال المهمه التي أتى بها رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمَدْخُولَةَ (٢)، وَبَيَّنَّ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ (٣)».

فالواقع هو أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه وآله مارس ثلاثه أعمال مهمه: أعلن العقائد الحقه، وأزال البدع والخرافات، وبيّن الأحكام الشرعيه بوضوح لجميع الناس، حصل كل منها بسعى متواصل وجهد عظيم. ثم خلص إلى هذه النتيجة التي صرح بها القرآن الكريم: «فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا»

تَتَحَقَّقُ شِقْوَتُهُ، وَتَنْفَصِمَ عُرْوَتُهُ، وَتَعْظُمَ كِبَوْتُهُ، وَيَكُنْ مَأْتَبُهُ إِلَى الْخُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَيْلِ». فمن الطبيعى أن لا تكون

ص: ١٩١

-
- ١- (١). «متلافي» من ماده (تلافي) بمعنى تدارك، وتأتى بمعنى معالجه الفساد، وهذا هو المعنى المراد بها فى هذه العبارة
 - ٢- (٢). «مدخوله» من ماده (دخول) إشاره هنا إلى البدع التي كانت تنسبها الجاهليه إلى الله. أو من ماده دخل، على وزن دغل، بمعنى الفساد، لأنّ هذه البدع مصدر فساد الفرد والمجتمع
 - ٣- (٣) «المفصولة» من ماده (فصل) واطلقت على الكلام والقضاء الذى يميز الحق من الباطل ويمكن أن يكون المراد بها المعنيان معاً؛ الأول إنّ أحكام الشريعة بيّنت بصوره منفصله والآخر، فصل الحق عن الباطل، (تكون الجملة فى الأول اسم المفعول وفى الثانى اسم الفاعل)

نتيجة مخالفه الدين الذى يتسم داعيته بكل تلك المكارم ودينه الجامع والشامل، سوى الشقاء والضلال والهلكه. ويتضح من هذه العبارات مدى زيف الشعارات الجوفاء التى يرفعها البعض اليوم فى الأوساط الإسلاميه انفعالاً بكتّاب الغرب فيتبنون كفايه اعتناق أى من الأديان؛ الأمر الذى لا ينسجم ومنطق القرآن ولا كلمات أئمه الهدى كعلى عليه السلام.

وأخيراً يعرب الإمام عليه السلام عن توكله على الله وإنابته إليه فيقول:

«وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلَ الْإِنْبَاءِ إِلَيْهِ. وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُوَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ، الْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ». ربّما تكون هذه العبارة إشارة إلى أن أسباب سعادته البشريه توفرت ببيعه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله والدين العظيم الذى بعث به، ولم يبق لتحقيق هذه السعاده سوى أن نسير على الدرب وبالتوكل على الله وطلب الهدايه منه والإرشاد إلى الحق. ومن هنا اختتم الإمام عليه السلام هذا الجانب من الخطبه بالتوكل على الله واسترشده الطريق إلى الجنّه.

تأمل

من قال أم ما قال ؟

يبدو أن هذه العبارة المعروفه:

«أَنْظُرْ إِلَى مَا قَالَ وَلَا تَنْظُرْ إِلَى مَنْ قَالَ» (١) صادقه فى القضايا الواضحه والمنطقيه، أمّا فى القضايا المهمّه والمعقدّه والمدارس الفكرية المطروحه فلا بدّ من النظر والتركيز على من قال، حتى يتسنى الوثوق به والتأسى بسيرته، ولذلك خاض القرآن فى أكثر من موقع فى خصائص النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ» (٢) وقال فى موقع اخر: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ

ص: ١٩٢

١- (١). وردت هذه الكلمه فى غرر الحكم، ح ١٠١٨٩ لعلى عليه السلام أنّه قال: «لَا تَنْظُرْ إِلَى مَنْ قَالَ وَأَنْظُرْ إِلَى مَا قَال»

٢- (٢). سوره التوبه، الآيه ١٢٨

لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»(١). ومن هنا أشار الإمام عليه السلام في بدايه الخطبه إلى شخصيه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من حيث النسب والأسره والأصل وصفاته الكماليه وأثنى على شجرته وفروعها المثمره، ثم تطرق إلى شريعته السمحاء من مختلف الجوانب ليلفت انتباه الآخرين إلى ضروره الوثوق به ويقطع اعذار المغرضين.

ص: ١٩٣

١- (١). سورة الأعراف، الآية ١٥٧

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، فَإِنَّهَا النَّجَاهُ عَدَاءً، وَالْمَنْجَاهُ أَبَدًا. رَهَبٌ فَأَبْلَغُ، وَرَغَبٌ فَأَسْبَغُ؛ وَوَصَفَ لَكُمْ الدُّنْيَا وَأَنْقَطَاعَهَا، وَزَوَالَهَا وَانْتِقَالَهَا. فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقَلِّهِ مَا يَصِيحُ بِكُمْ مِنْهَا. أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَيِّئِ خَطِّ اللَّهِ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ! فَغُضُّوا عَنْكُمْ - عِبَادَ اللَّهِ - غُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا، لِمَا قَدْ أُتِقْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا وَتَصَرُّفِ حَالَاتِهَا. فَأَحْذَرُوا حَيْذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ وَالْمُجِدِّ الْكَادِحِ. وَاعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ: قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصِيَهُمُ، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَأَنْقَطَعَ سُرُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ؛ فَيَدُلُّوا بِقُرْبِ الْأَوْلَادِ فَقَدَهَا، وَبِصِيحِ الْمَأْرُوحِ مُفَارَقَتَهَا. لَا يَتَفَاخِرُونَ، وَلَمَّا يَتَنَاسِلُونَ، وَلَا يَتَرَاوِرُونَ، وَلَمَّا يَتَحَيَّرُوا، عِبَادَ اللَّهِ، حَيْذَرَ الْغَالِبِ لِنَفْسِهِ، الْمَيَانِعِ لِشَهْوَتِهِ، النَّاطِرِ بِعَقْلِهِ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ، وَالْعَلَمَ قَائِمٌ، وَالطَّرِيقَ جَدُّهُ وَالسَّبِيلَ قَصْدٌ.

الشرح والتفسير: الاعتبار بالامم السابقه

خاض الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبه باسداء النصح والموعظه التى توقظ الغافلين بعد أن أكد فى الموضوع السابق على تقوية روح الإيمان لدى المخاطبين ليؤكد هنا على بعض الجوانب العلميه، ذلك لأن عمل ثمره الشجره الإيمان فقال:

«أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، فَإِنَّهَا النَّجَاهُ عَدَاءً، وَالْمَنْجَاهُ (١) أَبَدًا».

ص: ١٩٥

١- (١) «منجاه» من ماده (نجاه) اسم مكان بمعنى موضع النجاه، ولها معنى مصدرى، ونجاه، بمعنى الخلاص

ربّما أمكن عوده الطاعه والتقوى إلى مفهوم واحد، كما يمكن اعتبار التقوى أساس الطاعه، ذلك لأنّ طاعه الله إنّما تنبعث من التقوى والورع، كما يحتمل أن تكون التقوى إشاره إلى ترك الذنب، والطاعه إلى امتثال الأحكام الشرعيه، فهما لا يفترقان كيفما كان الأمر (ولعل ذلك هو سبب الإتيان بالضمير مفرداً في أنّها والحال، ينبغى أن يكون مرجع الضمير مثني). واطلاق النجاه على التقوى من قبيل اطلاق المسبب على السبب، لأنّ التقوى سبب النجاه في الآخره.

ثم قال:

«رَهَبَ (١) فَأَبْلَغَ، وَرَعَّغَبَ فَأَسْبَغَ (٢)». إننا لنعلم أنّ الضمان الفعلي لجميع الأحكام الشرعيه هو البشاره والإنذار. وقد شحنت الكتب السماويه بالوعد والوعيد والإنذار والبشاره ترغيباً للناس في الطاعه وحياشه لهم عن المعصيه. ولما كان التعلق بالدنيا والخداع بمظاهرها رأس المعاصي والذنوب فإنّ الإمام عليه السلام عاد ليؤكد هذا الأمر فقال:

«وَوَصَفَ لَكُمْ الدُّنْيَا وَأَنْقَطَاعَهَا، وَزَوَالَهَا وَانْتِقَالَهَا. فَمَا عَرَضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقَلِّهِ مَا يَصِيحِبُكُمْ مِنْهَا». فالذي يستفاد من هذه العبارة القصيره والعميقه المعاني أنّ الله بين أربعة أمور بشأن الدنيا؛ الأول أصل الحياه الدنيا وكما يبدو من أسمها حياه دينيه وتافهه لا- قيمه لها، والثاني، أنّها ليست مستقره وذات يوم يحل الموت بالإنسان ويقضى على دنياه، والثالث، ما أن ينغمس الإنسان في متع الحياه الدنيا حتى يشعر بزوالها التدريجي، حيث تأخذ قواه البدنيه بالضعف وتختل صحته ويثكل بفقد الأعره والأصدقاء، الواحد تلو الآخر، وينظر إليهم وهم يتوسدون التراب، والرابع، أنّ الدنيا دائمه الانتقال من قوم إلى قوم: «اعْلَمُوا أَنَّ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَاهُ مُضِيغاً فَفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» (٣).

ص: ١٩٦

١- (١) «رهب» من ماده (ترهيب) بمعنى التخويف.

٢- (٢) «أسبغ» من ماده (اسباغ) بمعنى الإتيان بالعمل بصوره تامه، و اطلقت على النعمه التامه و الوضوء التام.

٣- (٣) سورة الحديد، الآيه ٢٠

فقد رسمت الآيه القرآنيه الشريفه صورته واضحه عن تفاهه الدنيا وانقطاع نعيمها وزوالها فى إطار واضح، كما ورد هذا الانتقال فى آيه أخرى: «وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ» (١).

ثم قال مواصلاً وصف الدنيا:

«أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَيِّحِطِ اللَّهِ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ!». ودليل ذلك واضح هو أنّ الدنيا هوى وهوس يقذف بالإنسان فى مستنقع الذنب من كل جانب وهذا ما يوجب غضب الله وعدم رضاه. طبعاً، المراد من الدنيا هنا، الدنيا الماديه التى يجعلها الإنسان هدفاً ويعتمد كل الوسائل للحصول عليها وإن قارف الذنوب، وإلّا فالدنيا وسيله على الاقتدار للطاعه وشكر النعمه وبلوغ السعاده.

ثم خلس عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَعُضُّوا (٢) عَنْكُمْ - عِبَادَ اللَّهِ - غُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا، لِمَا قَدْ أَيَقَنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا وَتَصَيَّرُفِ حَالَاتِهَا. فَاحْذَرُوا حَيْدَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ وَالْمُجِدِّ الْكَادِحِ (٣)». إشاره إلى تصاعد آلام الدنيا وتزايد همها، فكلما اقترب الإنسان منها زاد غناؤه حتى يسيطر الهم على جميع كيانه.

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«مَثَلُ الْحَرِيصِ عَلَى الدُّنْيَا مَثَلُ دُودِ الْقَرِّ كُلَّمَا إِزْدَادَتْ مِنَ الْقَرِّ عَلَى نَفْسِهَا لَفَأَ كَانَ أَبْعَدُ لَهَا مِنَ الْخُرُوجِ حَتَّى تَمُوتَ غَمًّا» (٤). وقد تمثل الشاعر العربى فانشد (٥).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَرْءَ طُولَ حَيَاتِهِ

حَرِيصٌ عَلَى مَا لَا يَزَالُ يَنَاسِجُهُ

كَدُودٌ كَدُودِ الْقَرِّ يَنْسِجُ دَائِمًا

فَيَهْلِكُ غَمًّا وَسَطَ مَا هُوَ نَاسِجٌ

ص: ١٩٧

١- (١) سورة آل عمران، الآيه ١٤٠

٢- (٢). «غضوا» من ماده (غض) على وزن حظ، بمعنى الحد والتقليل، وغض البصر، بمعنى عدم تركيز الإنسان على الشئ فى النظر إليه، بل يخفض عينيه إلى الأسفل

٣- (٣). «كادح» من ماده (كدح) على وزن مدح، السعى المصحوب بالمشقه

٤- (٤). اصول الكافى، ج ٢، ص ٣١٦

٥- (٥) حاشيه الكافى، ج ٢، ص ٣١٦، كدود فى البيت الثانى صيغه مبالغه من ماده (كد) يعنى الجهد

ثم أخذ الإمام عليه السلام بيد مخاطبيه إلى العهود الماضية ليشرح عاقبه الحياه الدنيا لمن تعلق بها ضمن عشر عبارات قصيره بما يهز ضمير الإنسان فقال:

«واعتبروا بما قد رأيتم من مصارع (١) القرون قبلكم: قد ترائلت أوصيهم (٢)، وزالت أبصارهم وأشيماعهم، وذهب شرفهم وعزهم، وانقطع سرورهم ونعيمهم».

وتشير العبارة

«ترائلت أوصيهم» إلى تأكل الجسد تحت التراب، كما يمكن أن تكون العبارة إشارة إلى تأكل الشوائج الاجتماعيه في حياه الإنسان والتي تزول بعد وفاه الإنسان، كما يمكن أن تكون الأسماع والأبصار إشارة إلى الأذن والعين الظاهريه لقدره الرؤيه والسمع الحسى. ولا- تزول حواس الإنسان الظاهريه وأعضائه البدنيه فحسب، بل تزول كل امتيازاته الاجتماعيه من قبيل الترف المادى والعزه وكافه النعم والمتع. ثم أشار عليه السلام إلى جانب آخر من النعم التي يفارقها الإنسان بالموت فقال:

«فبدلوا بقرب الأولاد فقدها، وبصحبته الأزواج مفارقتها. لا يتفاحرون، ولا يتناسلون، ولا يتزاورون، ولا يتحاورون».

بل وصفهم الشاعر (٣):

وَحَلُّوا بِدَارٍ لَا تَزَاوُرَ بَيْنَهُمْ

وَأَنَّى لِسُكَّانِ الْقُبُورِ التَّرَاوُرُ

طبعاً هذا الكلام فى جسم الإنسان ولا مانع من اجتماع أرواح المؤمنين وتزاورها وتحاورها.

واختتم الإمام عليه السلام الخطبه محذراً الجميع:

«فاحذروا، عباد الله، حذر الغالب لنفسه، المانع لشهوته، الناظر بعقله؛ فإن الأمر واضح، والعلم قائم، والطريق حديد (٤) والسبيل قصد». العبارة

«فاحذروا... الناظر بعقله» إشارة إلى أن الإنسان يمكنه

ص: ١٩٨

١- (١). «مصارع» جمع مصرع، موضع الوقوع على الأرض ويطلق أيضاً على المقتل

٢- (٢) «أوصال» جمع وصل، على وزن قفل، العظام وانسجه الأعصاب التي تربط الأعضاء

٣- (٣) منهاج البراعه، ج ٩، ص ٤١٢

٤- (٤). «جدد» من ماده (جد) على وزن خط، القطع وطى الطريق المستوى، ويقال للطريق المحكم والمستوى، الجاده

اجتياز الأخطار الواردة في العبارات السابقة للإمام من خلال: غلبته لنفسه ليتمكن بعد ذلك من كبح جماح شهواته ومن ثم النظر إلى الأمور ببصيره العقل لا الشهوه المضله، والعبارات الأربع الأخيره فى الخطبه تشير كل واحده منها إلى قضيه مستقله، قال فى الاولى: إنَّ سبيل السعاده قد اتضح بواسطه القرآن وأولياء الله وقد نصبت الأعلام الواضحه على طول طريق السير إلى الله، كما أنَّ الجاده محكمه ومستويه وخاليه من العوائق والمطبات والانحراف، ولا يبقى شىء سوى العزم والإرادته للسالكين على الدرب واجتيازه بصوره سريعه. وهنيئاً لأولئك الذين عزموا وساروا على الدرب كما قال الشاعر:

فَطُوبَى لِعَبْدٍ آثَرَ اللَّهَ رَبَّهُ

وَجَادَ بَدُنْيَاهُ لِمَا يَتَوَقَّعُ (١)

ص: ١٩٩

١- (١) منهاج البراعه، ج ٩، ص ٤١٢

لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ وَقَدْ سَأَلَهُ: كَيْفَ دَفَعْتُمْ قَوْمَكُمْ عَنْ هَذَا الْمَقَامِ

وَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ؟ فَقَالَ: (١)

نظره إلى الخطبه

كما ورد آنفاً فإنَّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام كجواب لأحد أصحابه وقد سأله عن كيفية دفعه عن حقه في الولاية وجدارته بها. فأشار الإمام عليه السلام إلى أمرين تدور حولهما الخطبه:

الأول: أنَّ السبب الرئيسي هو البخل والاستبداد والتعلق بالدنيا.

والثاني: الذي قال فيه إنَّك إن تعجب من قضيه بدايه الخلافه، فانظر اليوم وقد تصدى معاويه وتبعه الناس، دون أدنى جداره بهذا المنصب ولا يمكن المقارنه بينى وبينه.

ص: ٢٠١

١- (١) سند الخطبه: ذكر هذا لعلى عليه السلام قبل السيد الرضى، المرحوم الشيخ الصدوق فى كتابه الامالى فى سبب ترك الناس لعلى عليه السلام والطبرى فى المسترشد والمرحوم الشيخ المفيد فى الإرشاد، كما ذكروا أنَّ السائل هو (ابن دودان).

(مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٣٧٧)

فقال: يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ، إِنَّكَ لَقَلْبُ الْوَضِيِّينَ تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ، وَلَكَ بَعْدَ ذِمَامِهِ الصَّهْرُ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ، وَقَدْ اسْتَعْلَمْتَ فَأَعْلَمَ: أَمَّا الْإِسْمُ بِنِدَاءِ عَلَيْنَا بِهَذَا الْمَقَامِ وَنَحْنُ الْأَعْلَوْنَ نَسَبًا، وَالْأَشْدُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - نَوْطًا، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَهُ شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَّتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ؛ وَالْحَكَمُ اللَّهُ، وَالْمَعْوَدُ إِلَيْهِ الْقِيَامَةُ.

وَدَعَّ عَنْكَ نَهْبًا صِيحٌ فِي حَجْرَاتِهِ وَلَكِنْ حَدِيثًا مَا حَدِيثُ الرَّوَاحِلِ

الشرح والتفسير: عله غصب الخلافة العلوية

أورد الإمام علي عليه السلام هذا الكلام في رده على السائل الذي يبدو أنه طرح السؤال في موقع لم يكن مناسباً، مع ذلك أجاب عليه السلام عن السؤال فقال:

«يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ، إِنَّكَ لَقَلْبُ الْوَضِيِّينَ تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ (١)، وَلَكَ بَعْدَ ذِمَامِهِ (٢) الصَّهْرُ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ، وَقَدْ اسْتَعْلَمْتَ فَأَعْلَمَ». أما لماذا خاطبه الإمام عليه السلام

«يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ» وأشار ضمن كلامه بالقول لك علينا ذمامه الصهر؟ هناك خلاف بين شراح نهج البلاغة بهذا الشأن؛ فالبعض كابن أبي الحديد ومغنيه يقولان إن ذلك يعود إلى أن إحدى أزواج النبي الأكرم صلى الله عليه وآله زينب بنت جحش من طائفه بنى أسد (٣). بينما يرى البعض الآخر أن

ص: ٢٠٣

١- (١). «سدد» بمعنى الاستقامه

٢- (٢) «ذمامه» الحق والحرمة

٣- (٣). «بنو أسد» قبيله معروفه بالقتال بالجاهليه والإسلام. عاشت هذه القبيله قرب نجد واعتنقت الإسلام وقاتلت إلى جانب سعد بن أبي وقاص في القادسيه وقدمت العديد من القتلى. وتاريخ بنى أسد ملئ بالأحداث وقد سارعت فئه من بنى أسد لدفن أجساد شهداء كربلاء، كما كانت فئه منهم في جيش عبيد الله بن زياد

علياً عليه السلام تزوج امرأه من بنى أسد، وإن لم تذكر كتب التاريخ ذلك، ولا مانع من الجمع بين الاحتمالين. العبارة

«لَقَلِقُ الْوَضِينَ» بالنظر إلى أنّ

(الوضين) بطان يشد به الرحل على البعير كالحزام للسرّج، و

(قلق)، بمعنى الضعيف فإنّ من الطبيعي أن اضطرب ذلك الحزام تململ الجمل وتحرك هنا وهناك ومن هنا يطلق على المضطرب: الوضين. والعبارة

«وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ» تعبير حى رائع يفيد أنّ لكل شخص الحق فى سؤال الإمام، كما يستفاد ضمناً التزام الإمام بالاجابه ما لم يكن هنالك محذور معين.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه السابق ليتطرق إلى الأسباب التى وقفت وراء دفعه عن حقّه فقال:

«أَمَّا الْإِسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهَذَا الْمَقَامِ وَنَحْنُ الْأَعْلَوْنَ نَسَبًا، وَالْأَشْدُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - نَوْطًا (١)، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثْرَةً (٢) شَحَّتْ (٣) عَلَيْنَا نَفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَّتْ (٤) عَنْهَا نَفُوسُ آخَرِينَ؛ وَالْحَكْمُ لِلَّهِ، وَالْمَعْوَدُ (٥) إِلَيْهِ الْقِيَامَةُ».

المراد من الإستبداد، من ماله

(بدد)، بمعنى الابعاد والتفريق، بحيث يستولى الإنسان على شىء ويبعد الآخرين عنه. فقد عزى الإمام عليه السلام فى هذا الموضوع من كلامه الدليل الأصلى لغضب الخلافه رغم أولويته بها إلى الإستبداد والبخل الذى أعمى أعين البعض عن الواقع فسارع عزل الآخرين واعتلى موقع النبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

من الواضح أنّ المراد من هؤلاء الأفراد أولئك الذين اجتمعوا فى سقيفه بنى ساعده لاختيار الخليفه، وإن دفع التعصب ابن أبى الحديد لينسب المقصود إلى الشورى

ص: ٢٠٤

١- (١). «نوط» بمعنى التعلق والالتصاق

٢- (٢) «أثره» بمعنى الاختصاص بالشىء (الاحتكار) دون الغير المستحق على العكس من الإيثار الذى يعنى تقديم الغير على الذات

٣- (٣) «شحت» من ماله (شح) بمعنى البخل

٤- (٤) «سخت» من ماله (السخاء)

٥- (٥) «معود» اسم مكان، موضع العوده

التي نصبها عمر ومعارضه عبدالرحمن بن عوف لخلافه على عليه السلام والذي يعد في الواقع من قبيل انكار البديهيّات؛ ذلك لأنّ سؤال السائل كان بشأن أصل الخلافه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وجواب الإمام عليه السلام أيضاً عالج هذه القضية والذي يشبه ما أورده الإمام عليه السلام بهذا الخصوص في خطبه أخرى. والمراد من العبارة

«وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسٌ آخِرِينَ» إننا بنى هاشم حين رأينا الإصرار العجيب لتلك الفئه على مصادر الخلافه ولا تعود المقاومه سوى إلى تصدع كيان المجتمع الإسلامى غضضنا الطرف عنها بكل سخاء ولم نمارس أيّه مقاومه.

ثم تمثل الإمام عليه السلام بذلك الشعر الذى ينسب إلى

امرؤ القيس الذى قال فيه دع عنك الحديث بشأن الغارات التى وقعت فى الزمان الماضى وحدثنى عن غارات اليوم (حيث آلت فيه الخلافه الإسلاميه إلى معاويه الذى أصبح الخطر العظيم الذى يهدد الإسلام).

ودع عنك نهباً صيح في حجراته(١) ولكن حديثاً ما حديث الرواحل.

يذكر أنّ امرؤ القيس أنشد هذا البيت بعد قتل أبيه الذى لجأ إلى

خالد بن سدوس فهجمت عليه طائفه من قبيله

بنى جديله ونهبوا الأموال والجمال. فأخبر

امرؤ القيس خالد الخبر فقال له: أعطنى جمالك حتى استعيد تلك الجمال فقبل. فاتّجه

خالد إلى قبيله

بنى جديله فطالبهم باعاده الجمال. فأنزله من ناقته وأخذوا منه البقيه. فلما اطلع

امرؤ القيس على هذا الخبر أنشد ذلك البيت، ومضمونه: دع عنك نهب تلك الجمال وحدثنى عن هذه التى سلمها

خالد لهذه القبيله(٢). ينطوى هذا القسم على موضوعين مهمين سنتطرق إليهما فى ختام الخطبه.

ص: ٢٠٥

١- (١). «حجرات» جمع حجره، على وزن ضربه، بمعنى الناحيه

٢- (٢). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٦، ص ٢٤٤

وَهَلَّمَ الْخَطْبَ فِي ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكَائِهِ؛ وَلَا غَزَوْا اللَّهَ، فَيَا لَهُ خَطْبًا يَسْتَفْرِغُ الْعَجَبَ، وَيُكْتِرُ الْأَوْدَ! حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ، وَسَدَّ فَوَّارِهِ مِنْ يَتْبُوعِهِ، وَحَدَّحُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شَرِبًا وَبَيْشًا، فَإِنْ تَزْتَفِعَ عَنَّا وَعَنْهُمْ مِحْنُ الْبُلُوى، أَحْمِلُهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى مَخْضِهِ؛ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى، «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ».

الشرح والتفسير

هذا المقطع من الخطبه شرح لما ذكره الإمام عليه السلام على نحو الإشاره فى البيت الذى تمثل به والذى أنشده امرؤ القيس، فقد صرح الإمام عليه السلام بترك الماضى رغم عيوبه وإشكالاته والنظر إلى الطامه التى تحدث اليوم:

«وَهَلَّمَ (١) الْخَطْبَ (٢) فِي ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكَائِهِ».

إنك تسألنى لم أبعدوك عن الخلافه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فى حين لا يرقى إليك أحد؟ تعال اليوم وانظر إلى ابن أبى سفيان عدو الإسلام اللدود الذى يطالبنى بالخلافه. يا له من أمر مبك ومضحك، أما أنه مبك فذلك لأن الإسلام بلغ مرحله يريد فيها ابن أعدى الأعداء الدين زعامه الدوله الإسلاميه والدفاع عن حمى الإسلام

ص: ٢٠٧

١- (١). «هلم» تركيب من هاء التنبيه ولم، بمعنى اجمع، وتستعمل هذه المفرده كلمه واحده بمعنى تعال إلينا وإلى جانبنا

٢- (٢) «خطب» على وزن ختم، بمعنى الأمر العظيم، ومنه الخطاب والمخاطبه حيث الحوار المهم

والمسلمين، وأما أنه مضحك فذلك لأنه ليست هنالك من نسبه للمقارنه بينى وبينه، ولذا لا يقاس معاويه أبداً بى بل أنا وهو طرفى التضاد، نعم ربّما لا يعود هذا البكاء والضحك لزمان واحد، فالبكاء لهضم حقوق الإسلام والمسلمين فى كيفية رضاهم بحكومته بنى أميه حثاله عصر الجاهليه.

ثم قال عليه السلام

:«وَلَا غَرْوَ (١) وَاللَّهِ، فَيَا لَهُ حَظْبًا يَسْتَفْرِغُ (٢) الْعَجَبَ، وَيُكْثِرُ الْأَوْدَ (٣)!».

لعل صدر وذيل العبارة يبدو فى الوهلة الأولى متناقضاً، إلّا أنه فى الواقع نوع من البلاغه والفصاحه التى أوردها الشاعر حين أنشد:

قَدْ صرُوتُ فِي الْمِيدَانِ يَوْمَ طَرَادِهِمْ

فَعَجِبْتُ حَتَّى كِدْتُ أَنْ لَأَعْجَبًا (٤)

أى، تعجبت إلى الحد الذى لم يبق لى من مجال للتعجب فقد وطأت الميدان فعجبت من الوضع إلى درجه أتى كدت أن لا اتعجب، ولعل ذلك من باب المثل المعروف، «أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا تَجَاوَزَ حَدَّهُ انْقَلَبَ ضِدُّهُ». والعبارة

«وَيُكْثِرُ الْأَوْدَ!» إشاره إلى أَنَّ المجتمع الإسلامى بفعل حكومه يتزعمها ابن أبى سفيان سينحرف تماماً عن الصراط ويعيش الاعوجاج فى كل شىء.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى تفاصيل هذا الأمر فقال:

«حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ، وَسَدَّ فَوَارِهِ (٥) مِنْ يَبْتُوعِهِ، وَجَدَحُوا (٦) بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شَرْبًا وَبَيْتًا (٧)». فالعبارة

«حَاوَلَ الْقَوْمُ...» إشاره إلى أَنَّ بنى أميه لا- يسعون إلى الحكومه وزعامه الأئمه فحسب، بل هدفهم إطفاء نور الإسلام والقرآن، والهدف إعاده الأئمه إلى الجاهليه

ص: ٢٠٨

١- (١) «غرو» بمعنى، التعجب

٢- (٢) «يستفرغ» من ماده (فراغ) تعنى هنا، الاخراج ومعنى العبارة، يستفرغ العجب أنه يزيل أى عجب ولا يترك له من مكان

٣- (٣) «أود» من ماده (أود) على وزن قول، بمعنى العوج، وأود على وزن سند، بمعنى الاعوجاج

٤- (٤) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٢٤٧

٥- (٥) . «فوار» صيغه مبالغه بمعنى كثير الفوران، كما تعنى عين الماء والثقب الذى يخرج منه الماء بشده

٦- (٦) «جدحوا» من ماده (جدح) على وزن مدح، بمعنى، الخلط والمزج

٧- (٧) «وبيتاً» الشىء الذى يكثر فيه الوباء، طبعاً يطلق الوباء أحياناً على مرض خاص، وأخرى، على كل مرض، والمعنى الثانى

هو المراد في الخطبه

وعصرها المظلم وأعمالهم خير شاهده على ذلك.

والعبارة

«وَسَدَّ قَوَارِهِ...» بينت نفس المعنى بتعبير آخر، حيث شبه الإسلام والقرآن بعين فياضه انفجرت في صحراء جاهليه العرب وروت بمائها العذب ما تصحو من قلوبهم واثمرت تلك النبتة، ويسعى بنى أميه لغلق هذه العين وسوق الأمة إلى تلك الصحراء.

والعبارة

«وَجَدَحُوا...» تعبير رائع آخر للمعنى المذكور. فقد خلط هؤلاء القوم ماء الشريعة العذب الفرات بالسموم الفتاكة ليسموا أفكار الأمة ويلوثوا أخلاقها، فمثل هذه الأمة لن تنقاد إلى بنى أميه وآل أبى سفيان إن عاشت السلامه فى فكرها والطهر فى أخلاقها. نعم، فهؤلاء لم يسعوا لإطفاء نور الولايه فحسب، بل وعلى غرار المشركين الذين قال فيهم القرآن: «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ» (١) سعوا إلى إطفاء نور الإسلام والقرآن والحيلولة دون نشر الإسلام والمعارف الدينيه وقد وضعوا العديد من الأحاديث لتلويث هذا الماء العذب.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبه بالإشاره إلى عزمه الذى اتخذه بهذا الشأن فقال:

«فَإِنْ تَرْتَفِعَ عَنَّا وَعَنَّهُمْ مِحْنُ الْبُلُوَى، أَحْمَلُهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ؛ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسِيرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ». أى، إن زالت الموانع فأتى على استعداد تام لإعاده الأمة الإسلاميه إلى سابق عزها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسأبذل جهدى بهذا الخصوص، ولكن إن لم تسمح الظروف فلا إشكال، ذلك أتى أعمل بوظيفتى وسيدوق هؤلاء وبال أعمالهم.

تأملات

١. حق السؤال

عاده ما يواجه الإنسان من حوله سيلاً من المجاهيل التى ترتبط أحياناً بالأمر

ص: ٢٠٩

١- (١). سورة الصف، الآية ٨.

الماديه وأخرى المعنويه وسؤال العلماء والمختصين، مفاتيح حل تلك المجاهيل.

ولذلك فتح الله تعالى على الإنسان أبواب السؤال بشأن عالم التشريع والتكوين.

وتمتاز الشريعة الإسلاميه الغراء بأنّها لم تأذن بفتح باب السؤال لكل شخص وفي أى مجال فحسب، بل أمرت بذلك. القرآن الكريم من جانبه أكد على هذا الأمر فى آيتين: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدُّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ» (١). كما قال أمير المؤمنين على عليه السلام فى بعض كلماته القصار فى نهج البلاغه:

«وَلَا يَسْتَحْيِينَ أَحَدًا إِذَا لَمْ يَعْلَمِ الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ» (٢). نعم، فالسؤال ليس عيباً، بل العيب أن لا يسأل الإنسان ويبقى فى الجهل.

الجدير بالذكر أنّ الخطبه المذكوره إشاره إلى أنّ السؤال حق لكل شخص، ويبدو هذا الأمر أكثر أهميه لدى الشباب وذلك لكثرتهم مجهولاً-تهم. فمن حيث التكوين والخلقه فإنّ الله خلق فى ذات الإنسان حبّ الاستطلاع والبحث. فالإنسان يميل بطبعه لمعرفة الأشياء التى لا يعلمها، وتبدو هذه الرغبه أعمق لدى الشباب، بسبب تلك الحاجه، فهم يطرحون أحياناً على الوالدين بعض الأسئلة التى تنتهى عادة بارتفاع أصواتهم، والحال، واجبهم يتطلب منهم تلبية هذه الحاجه الروحيه بكل عطف ورقه، فيعلمونهم ما لا- يعلمون وإن عجزوا عن الجواب أرشدوهم إلى من يجيبهم. والبعض يعتقد أنّ السؤال عن القضايا الأصيليه والعقائديه من دواعى الكفر والإلحاد، بينما تسهم مثل هذه الأسئلة فى ترسيخ الإيمان وشد الجانب العقائدى لدى الإنسان. لا شك أنّ وظيفه العلماء تقتضى تأهيبهم للإجاباه عن الأسئلة فى كافه الظروف والتعامل مع السائل بكل أدب واحترام، ولا ينبغى لهم نسيان ضروره قيامهم بهذا الدور، لما قاله أمير المؤمنين عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ يَأْخُذُ عَلَى الْجُهَّالِ عَهْدًا بِطَلَبِ الْعِلْمِ حَتَّى أَخَذَ عَلَى الْعُلَمَاءِ عَهْدًا بِبَدْلِ الْعِلْمِ لِلْجُهَّالِ» (٣).

ص: ٢١٠

١- (١). سورة النحل، الآية ٤٣؛ سورة الأنبياء، الآية ٧

٢- (٢). نهج البلاغه، القصار الكلمات، الكلمه ٨٢

٣- (٣) الكافى، ج ١، ص ٤١

ونختتم البحث ببعض الأحاديث الواردة بهذا الشأن: أولاً: ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام في حثه أحد أصحابه وهو حمران بن أعين على السؤال أنه قال:

«إِنَّمَا يَهْلِكُ النَّاسَ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْأَلُونَ»^(١).

وثانياً: قال علي عليه السلام:

«الْقُلُوبُ أَقْفَالُ مَفَاتِحِهَا السُّؤَالُ»^(٢).

وثالثاً: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«الْعِلْمُ خَزَائِنٌ وَمَفَاتِيحُهَا السُّؤَالُ فَاسْأَلُوا يَرْحَمَكُمُ اللَّهُ فَإِنَّهُ يُؤَجِّرُ فِيهِ أَرْبَعَةَ: السَّائِلِ وَالْمُعَلِّمِ وَالْمُسْتَمِعِ وَالْمُحِبِّ لَهُمْ»^(٣). التفت أعرأبى يوم الجمل إلى أمير المؤمنين وقال: يا أمير المؤمنين، تقول أن الله واحد؟ ما المراد بهذه الوحده. فهجم عليه الناس من كل جانب وقالوا له ألا ترى انشغال أمير المؤمنين بالقتال؟ (فلكل حادث حديث) فأشار عليهم الإمام عليه السلام دعوه فما يسأل عنه الأعرأبى هو ما نريده من القوم (إننا ندعوهم إلى التوحيد والقتال لمعرفة هذه التعاليم المقدسه) ثم قسم الإمام عليه السلام التوحيد إلى أربعة أقسام اثنان مرفوضان واثنان مطلوبان^(٤).

٢. الهدف الاصلى من السؤال والجواب فى الخطبه

مراد الرجل الاسدى من السؤال بشأن الخلافه واجابه الإمام عليه السلام واضحه تماماً أنها بخصوص السقيفه وتغيير محور الخلافه عن أهل بيت النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بعد وفاته، إلّا أن تعصب ابن أبى الحديد لمذهبه جعله يفسر العبارة ومرادها على أساس احتمال ضعيف من قبيل أن المراد معارضة عبدالرحمن بن عوف لخلافه على عليه السلام ودفعها لعثمان. والغريب فى الأمر أن ابن أبى الحديد نقل هنا قصه عن

ص: ٢١١

١- (١) الكافى، ج ١، ص ٤٠

٢- (٢) ميزان الحكمه، ج ٤، ح ٨٠٣٩

٣- (٣) . المصدر السابق، ح ٨٠٤١

٤- (٤) راجع كتاب توحيد الصدوق، ص ٨٣ باب «معنى الواحد والتوحيد»

استأذنه أبي جعفر النقيب تؤيد تماماً ما قلناه، وهي منطقيه تماماً، مع ذلك لم يستطع هذا الرجل المفكر ابن أبي الحديد من التسامى على بعض تعصبه، إذ يروى عن أستاذه الذي يصفه بأنه رجل منصف علوى المذهب وله حظ وافر من العقل أنه يسأله ماذا عنى ذلك السائل بسؤاله الإمام على عليه السلام عن أبعده عن حقه؟ أكان مراده يوم السقيفه أم يوم الشورى؟ أجاب: السقيفه. قلت: لا أجزى لنفسى أن أقول إن أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله خالفوه ولم يلتزموا بمعنى الخلافه. قال: إنا أيضاً لا أجزى لنفسى أن أنسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من ينصب من يقوم مقامه إن سافر إلى المدينة، فكيف لا ينصب شخصاً للخلافه بعد وفاته فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله من ينصب من يقوم مقامه إن سافر إلى المدينة، فكيف لا ينصب شخصاً للخلافه بعد وفاته وأضاف الأستاذ أن الجميع يعتقدون أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان قمة الكمال العقلى، كما يعتقد اليهود والنصارى والفلاسفه والحكماء أنه رجل حكيم وله نظره صائبه وقد أتى بقوانين منطقيه وعقليه، وبغض النظر عن مقام النبوه فإن تعاليمه تستند إلى الوحي، وهذا الإنسان كان عارفاً بالعرب ويعرف طباعهم وأحقادهم وإن قُتل شخص لقبيله ثأروا له، فإن عجزوا فمن أهله وقرابته، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يحب بنته فاطمه وولديها الحسن والحسين وبعلمها علماً عليهم السلام، ولا شك في أنه لو لم يستند إلى الوحي فلن يتركهم دون إمام، أتظن أنه أراد أن تكون إحدى ضعفاء المدينة. وفي وسط قوم أراق على عليه السلام دماء قرابتهم، والواقع هو أن رسول الله صلى الله عليه وآله سفك دماءهم لا على عليه السلام.

خلاصه القول أن هذا الرجل العاقل كان لا بد له من تنصيب أحد للخلافه من أهل بيته لكي لا تموت رسالته. قال: فقلت له: هذا صحيح، لكن كلام الإمام عليه السلام لا يدل على النص في الخلافه، أجاب: صحيح، إلا أن السائل لم يسأل عن النص في الخلافه بل سأل كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم الأعلى نسباً وقرابه من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فأجابه الإمام عليه السلام عن هذا السؤال (١).

ص: ٢١٢

يستفاد من عبارات الإمام عليه السلام فى الخطبه المذكوره ولاسيما قوله:

«حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ...» أَنَّ هَدَفَ بَنِي أُمِيَّةٍ لَمْ يَقتَصِرْ عَلَى الإِسْتِيلاءِ عَلَى الخِلافَةِ الإِسْلامِيَّةِ فَحَسَبَ، بَلْ إِنَّهُمْ سَعَوْا جَاهِدِينَ لِمَحْوِ آثارِ الإِسْلامِ، كَوْنَهُمْ حِثَالِي عَصْرِ الجَاهِلِيَّةِ، وَلَوْلَا تَضَحِيَّاتُ تِلْكَ الثَّلَاةِ المَخْلَصَةِ فِي كَرْبَلَاءِ وَالتَّى كَشَفَتْ عَن كَوَامِنِ بَنِي أُمِيَّةٍ لَمَا بَقِيَ اليَوْمُ مِنَ الإِسْلامِ إِلاَّ اسْمُهُ، وَالشَّواهِدُ التَّارِيخِيَّةُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ مِنْهَا:

١. إِنَّ المُؤرِخَ المَعْرُوفَ المَسْعُودِيَّ قَدْ رَوَى فِي كِتابِهِ (مَروِجُ الذَّهَبِ) قِصَّةَ عَن المَأْمُونِ، الخَلِيفَةِ العَبَّاسِيِّ أَنَّهُ أَصْدَرَ أَمراً سَنَهُ ٢١٢ هـ وَبَعَثَ بِمِنَادٍ ينادِي أَن لَيْسَ لِأَحَدٍ أَن يَذْكَرَ مَعَاوِيَةَ بِخَيْرٍ أَوْ يَقدِمَهُ عَلَى أَيِّ مَن صَحَابِهِ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَحِينَ حَاوَلَ البَعْضُ مَعْرِفَةَ دافعِ المَأْمُونِ، اتَّضَحَ أَنَّ السَّببَ ما ذَكَرَهُ لَهُ ابنُ المَغِيرَةِ بنِ شَعْبَةَ، قالَ: دَخَلْتُ الشَّامَ مَعَ أَبِي وَكانَ كُلُّ يَوْمٍ يَقْصِدُ مَعَاوِيَةَ وَيَمْدَحُهُ حَتَّى رَجَعَ يَوْمًا حَزِينًا فَسألْتُهُ الخَبَرَ. قالَ: رَجَعْتُ مِنَ أخبَثِ النِّاسِ. قلتَ: لِمَ؟ قالَ: كُنْتُ عِنْدَ مَعَاوِيَةَ فَأَشْرَتُ عَلَيْهِ بِالْعَدْلِ وَالخَيْرِ تَجاهِ بَنِي هاشِمٍ وَصَلَّهُ الرِّحْمَ فَقَالَ غاضِبًا: - هَيْهاتَ هَيْهاتَ أُخوتِ تَيْمِ (أَبو بَكْرٍ) وَلِيَّ الخِلافَةِ وَفَعَلَ ما فَعَلَ، فَلَمَّا ماتَ انْقَطَعَ ذَكَرُهُ، ثُمَّ وَلاها أَخو عَدِي (عَمْرٌ) فَلَمَّا ماتَ انْقَطَعَ ذَكَرُهُ، وَكَذلِكَ عُثْمَانُ إِلاَّ أَخو هاشِمٍ ينادِي بِاسْمِهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ

«أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسولَ اللَّهِ» فَمَا الَّذِي يَبْقَى لَنَا تُكَلِّتُكَ أُمَّكَ.

ثم قال:

«وَاللَّهِ إِلاَّ دَفَنًا دَفَنًا» (١). فَلَمَّا سَمِعَ المَأْمُونُ ذَلِكَ أَصْدَرَ أَمْرَهُ المَذْكَورَ بِحَقِّ مَعَاوِيَةَ (٢) فَهَذَا الخَبَرُ الَّذِي تَنَاقَلَتْهُ كُتُبُ التَّارِيخِ يَكْشِفُ الكَثِيرَ مِنَ الأُمُورِ وَيَتَضَمَّنُ

ص: ٢١٣

١- (١). وَرَدَ فِي شَرْحِ ابنِ أَبِي الحَدِيدِ أَنَّهُ قالَ: لا وَاللَّهِ إِلاَّ دَفَنًا دَفَنًا

٢- (٢). مَروِجُ الذَّهَبِ، ج ٣، ص ٤٥٤؛ شَرْحُ نَهْجِ البِلاغَةِ، ج ٥، ص ١٢٩

الأجوبه عن الكثير من الأسئلة التي تطرح بشأن مؤامرات بنى أميه.

والشاهد الآخر على ما ذكرناه الشعر الذي تمثل به يزيد بن معاويه حين سمع بمصرع الحسين فأنشد:

لَعِبْتُ هَاشِمًا بِالْمَلِكِ فَلَا

خَبْرٌ جَاءَ وَلَا وَحْيٌ نَزَلَ

ولا غرو فهو ابن معاويه بن أبى سفيان. قال الطبرى: حين ولى عثمان الخلفه خاطب أبوسفيان بنى أميه: هل فيكم غيركم؟ قالوا: لا، قال:

«تَلَقَّفُوهَا تَلَقَّفَ الْكُرْهَ فَمَا هُنَاكَ جَنَّةٌ وَلَا نَارٌ»^(١).

وروى المسعودى (فى مروج الذهب) أنه قال

«يَا بَنِي أُمِيَّةَ تَلَقَّفُوهَا تَلَقَّفَ الْكُرْهَ فَوَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ أَبُو سَفِيَانَ مَا زِلْتُ أَرْجُوهَا لَكُمْ وَلَتَصِيرَنَّ إِلَى صِبْيَانِكُمْ وَرَائَهُ»^(٢).

كما روى هذا المعنى ابن عبد البر فى الاستيعاب، وقال: كان هذا فى مجلس عثمان، فلما سمع انكاره للجنه والنار قال:

«قُمْ وَانصِرْف عَنِّي»^(٣).

ص: ٢١٤

١- (١) تاريخ الطبرى، ج ٨، ص ١٨٥ حوادث عام ٢٨٤ هجرية لرساله كتبت للمعتضد العباسى فى فضائح معاويه

٢- (٢). مروج الذهب، ج ١، ص ٤٠٣

٣- (٣) الاستيعاب، ج ٢، ص ٦٩

إنها خطبة بليغة وفصيحة تتكون من قسمين:

القسم الأول: يتحدث عن صفات الله الجمالية والجلالية، وقد شرح الإمام عليه السلام تسع عشره صفة من صفات الله بعبارات غاية في الروعة حسبما ذكره المرحوم المحقق البحراني.

أما القسم الثاني: فخطب فيه الإمام عليه السلام الإنسان وقد بين آيات القدره الإلهيه في خلقه رغم ضعفه وعجزه، ليربط صدر الخطبة بذيلها ويرسم صورته جميله عن توحيد الله ومعرفته.

ص: ٢١٥

١- (١) سند الخطبة: ذكر أبو نعيم الإصفهاني في حليه الأولياء والواسطى في عيون الحكم والمواعظ والزمخشري في ربيع الأبرار جوانب من هذه الخطبة

الْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الْعِبَادِ، وَسَاطِحِ الْمَهَادِ، وَمُسَدِّبِ الْوَهَادِ، وَمُخْصِبِ النَّجَادِ. لَيْسَ لِأَوْلِيَّتِهِ ائْتِدَاءٌ، وَلَا لِأَزَلِّيَّتِهِ انْقِضَاءٌ. هُوَ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَزَلْ، وَالْبَاقِي بِمَا أَحْيَلِ. خَرَّتْ لَمَهُ الْجِيَاهُ، وَوَحَّدَتْهُ الشَّفَاهُ. حَيْدَ الْأَشْيَاءِ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِيَانَةٌ لَهُ مِنْ شَبَّهَاتِهَا. لَاتَقَدَّرُهُ الْأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ وَالْحَرَكَاتِ، وَلَمَّا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَدْوَاتِ. لَأَيُّقَالَ لَهُ: «مَتَى؟» وَلَا يُضْرَبُ لَهُ أَمِيدٌ «بِحَتَّى». الظَّاهِرُ لَأَيُّقَالَ: «مِمَّ؟» وَالْبَاطِنُ لَأَيُّقَالَ: «فِيمَ؟» لَأَشْبَحَ فَيَتَقَصَّى، وَلَمَّا مَحْجُوبٌ فَيُحْوَى. لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالتِّصَاقِ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِالفِتْرَاقِ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصٌ لِحُظِّهِ، وَلَا كُرُورٌ لَفِظِهِ، وَلَا ازْدِلْعَافٌ رَبْوِهِ، وَلَا انبِسَاطٌ خُطْوِهِ، فِي لَيْلٍ دَاجٍ، وَلَا غَسَقٍ سَاجٍ، يَتَفَيَّأُ عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ، وَتَعْقُبُهُ الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِي الْأُفُولِ وَالْكُرُورِ، وَتَقْلُبُ الْأَزْمِنَةَ وَالِدُهُورِ، مِنْ إِقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَإِدْبَارِ نَهَارٍ مُدْبِرٍ. قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ، وَكُلِّ إِحْصَاءٍ وَعَدَّةٍ، تَعَالَى عَمَّا يَنْحَلُّهُ الْمُحَدِّثُونَ مِنْ صِفَاتِ الْأَقْدَارِ، وَنَهَايَاتِ الْأَقْطَارِ، وَتَأْتِلِ الْمَسَاكِينِ، وَتَمَكِّنِ الْأَمَاكِينِ. فَالْحَدُّ لِخَلْقِهِ مَضْرُوبٌ، وَإِلَى غَيْرِهِ مَشْرُوبٌ.

الشرح والتفسير: حادته مهمه

يبين المقطع الأول من الخطبه كما ذكرنا جانباً من صفات الله، والمهم أنه يستهل الخطبه بصفات الأفعال، يعنى خلق عالم الوجود وما ينطوى عليه من عجائب

وغرائب، ذلك لأن هذه الصفات تدرك من قبل الجميع، حيث قال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الْعِبَادِ، وَسَاطِحِ (١) الْمَهَادِ (٢)، وَمُسِيلِ الْوَهَادِ (٣)، وَمُخْصِبِ (٤) النَّجَادِ (٥)». فقد أشار الإمام عليه السلام بادية الأمر إلى خلق الناس بصفته، أروع خلق الله، ثم أشار إلى ثلاثه محاور مهمه (موضع السكن والماء، ماده الحياه، والمواد الغذائيه) ليشير لدى الآخرين الشعور بالإمتنان والشكر ويعدّهم للتعرف على صفات الله الجماليه والجلاليه.

(والعباد) الوارده بقرينه العبارات القادمه تعود إلى الناس وأن تشمل أحياناً الملائكه والجن. وتشير

«وَسَاطِحِ الْمَهَادِ» إلى ما ورد في الآيه الشريفه: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا» (٦). والعباره

«وَمُسَيْلِ الْوَهَادِ» بالنظر إلى أنّ الوهاد تعنى الوديان والمنخفضات إشاره إلى أنّ الله تعالى جعل بعض مناطق الأرض منخفضة لتتخلها المياه دون غيرها. والعباره

«وَمُخْصِبِ النَّجَادِ» إشاره إلى قدره الله فى إحياء الأراضى المرتفعه بالنباتات رغم عدم وصول المياه إليها.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى جانب مهم من صفاته تعالى الأزليه والأبديه وواجب الوجود فقال:

«لَيْسَ لِبَدَايَتِهِ أَيْدَاءٌ، وَلَمَّا لِبُتَيْتِهِ انْقِصَاءٌ. هُوَ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَزَلْ، وَالْبَاقِي بِلَا أَجَلٍ». أثبتت الأدله العقليه أنّ الله واجب الوجود ليس له بدايه ولا نهايه، كان دائماً ولا يزال، فوجوده عين ذاته وذاته مطلقه، وعليه فالعباره «هُوَ الْأَوَّلُ...»

وَالْبَاقِي...» نتيجته للعباره

«لَيْسَ لِبُتَيْتِهِ... وَلَمَّا لِبُتَيْتِهِ...» لأنه حين لا تكون لأزليته وأبديته بدايه ولا نهايه، فهو الأول والآخر، وهاتان الصفتان فى الواقع أساس أغلب صفات الله، وصفاته الجماليه والجلاليه إنّما تعود إلى هاتين الصفتين.

ص: ٢١٨

١- (١). «ساطح» من ماده (سطح) بمعنى معروف، ويقال ساطح، لمن يجعل الشئ مسطحاً

٢- (٢) «مهاد» و «مهد» بمعنى الفراش، وتطلق على الأرض موضع السكن والاستراحه، وهذا هو المعنى المراد

٣- (٣) «وهاد» جمع وهده، بمعنى الأراضى المنخفضه

٤- (٤) «مخصب» من ماده (خصب) على وزن غضب، بمعنى كثره النبات، وعليه فالمخصب تطلق على الشخص الذى يملأ الأرض نباتاً وبركه

٥- (٥) «نجد» جمع نجد، وهو ما ارتفع من الأرض، ومصدرها نجد

٦- (٦). سورة النبأ، الآيه ٦

قال القرآن الكريم: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (١).

ثم قال عليه السلام:

«خَرَّتْ لَهُ الْجِيَاهُ، وَوَحَدَتْهُ الشُّفَاةُ». ومن المسلّم به أنّ خالق جميع الأشياء والمخلوقات والنعم والذى يستمد الوجود بأسره، الوجود منه فهو أهل للعباده والسجود والحمد وليس لأحد غيره هذا المقام. وبالطبع فإنّ ذلك السجود والحمد يختص بالعارفين بالله لا الكفار والمشركين الذين لا يستحقون الذكر.

ثم واصل كلامه بالإشارة إلى بعض الصفات السلبية المنزهه من كل نقص فقال:

«حَدَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةٌ لَهُ مِنْ شَبْهِهَا». إشاره إلى أنّ جميع المخلوقات محدوده وذاته المقدسه فقط لا تعرف الحدود، ومن هنا ليست هنالك من صعوبه فى تمييز الخالق من المخلوق والإبتعاد عن السقوط فى مستنقع الشرك. وهنا يرد هذا السؤال: أيمكن أن يخلق الله شيئاً غير محدود أو بعبارة أخرى، واجب الوجود؟ أنّ ذات كل مخلوق تقتضى كونه محدوداً، ومن هنا كيف يقال إنّ الله خلق الأشياء المحدوده حتى لا تشبه ذاته؟

والجواب عن هذا السؤال: إنّ المراد من

«حَدَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا...» تمييزه عن المخلوقات؛ بعبارة أخرى، فإنّ

«إِبَانَةٌ لَهُ» ليست مفعولاً لأجله، بل نتيجه وغايه الفعل. والمسأله الأخرى الجديره بالإلتفات أنّ أغلب نسخ نهج البلاغه نقلت العبارة

«ابانه لها» وفى هذه الحاله لا يرد أى غموض وإبهام؛ حيث مفهوم العبارة أنّ الله حدّ الأشياء عند خلقها أى جعل لكل موجود حدود معينه تميزه من الأخرى، من قبيل ما ورد فى الآيه ١٣ من سوره الحجرات: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا» (٢).

ثم أسهب عليه السلام فى شرح مطلقه ذات الله المقدسه ليكشف عمق هذه الحقيقه

ص: ٢١٩

١- (١) سوره الحديد، الآيه ٣

٢- (٢) وردت هذه العبارة ضمن خطبه أخرى وبصيغه أخرى فى أصول الكافى والذى تدعم التفسير الأول وهى «حَدَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةٌ لَهُ مِنْ شَبْهِهِ، وَإِبَانَةٌ لَهُ مِنْ شَبْهِهَا» (أصول الكافى، ج ١، ص ١٣٥)

بعبارات مختلفه تسلط الضوء على كل جوانب غناه عن الحدود فقال:

«لَا تُقَدَّرُهُ الْأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ وَالْحَرَكَاتِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَدْوَاتِ». ليست له أعضاء كأعضاء الإنسان ولا يعتمد الوسائل والأدوات لتحقيق مايشاء، كما لا- يحتاج الحركة والانتقال من مكان إلى آخر، ذلك لأن كل هذه الأمور من علامات المحدوديه ولا تعرف ذاته الطاهره أیه حدود وقيود، ومن هنا تعذر على سكان العالم المحدود المعروف بالنقص والحاجه، الوقوف على كنه تلك الذات المقدسه، فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«كُلُّ مَا مَيَّزَتْهُ بِأَوْهَامِكُمْ فِي أَدْقِ مَعَانِيهِ مَخْلُوقٌ مَصْنُوعٌ مِثْلُكُمْ مَرْدُودٌ إِلَيْكُمْ» (١).

ثم وضع مقاله سابقاً:

«لَا يُقَالُ لَهُ: «مَتَى؟» وَلَا يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ «بِحَتَّى». الظاهر لا يُقَالُ: «مِمَّ؟» وَالْبَاطِنُ لَا يُقَالُ: «فِيمَ؟» وعلى هذا الضوء ليست له من بدايه ولا- نهايه، لا- ظاهر كظهور الشمس والقمر، ولا باطن كالمعادن الخفيه في باطن الأرض، وفي ذات الوقت فذاته أظهر من كل شيء وأخفى من كل شيء، بعبارة أخرى، فإن ظهوره ظهور ذاتي وخفاءه من كنه ذاته.

ثم خاض عليه السلام بصوره أعمق ليقول:

«لَا شَبْحَ (٢) فَيَتَقَصَّى (٣)، وَلَا مَحْجُوبٌ فَيَحْوَى (٤)».

لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالتَّصَاقِ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِالتَّبَرُّاقِ». فقد نفى الإمام عليه السلام في هذه العبارات بادية الأمر، الجسميه عن الله، ذلك لأن الجسم إما ظاهر له حدّ وحدود أو مخفى ومحتجب في شيء آخر وله حدّ وحدود في كلا الحالتين، والحال ليس لواجب الوجود من حدود، كما يلاحظ في العبارتين الأخيرتين تجلّى آخر لغنى الذات المقدسه عن الحدود. فهو أقرب لكل شيء، لكن ليس بمعنى الالتصاق أو الحلول والاتحاد، بل بمعنى الحضور في كل مكان والاحاطه بكل شيء، كما هو

ص: ٢٢٠

١- (١) بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٢٩٢

٢- (٢). «شبح» بمعنى الشخص، وتطلق أحياناً على الشخص الذي لا يبدو واضحاً من بعيد

٣- (٣) «يتقصى» من ماده (قصو) على وزن قصد، بمعنى الإبتعاد، وتعنى أيضاً، البحث والتحرى عن الشيء

٤- (٤) «يحوى» من ماده (حوايه)، الاستيلاء على الشيء

بعيد عن كل شيء ليس بمعنى المسافه والانفصال عن الأشياء، بل بمعنى سمو ورفعه وجوده وصفاته بالنسبه لسائر الأشياء. وهذا يشبه ما ورد في الخطبه الأولى من نهج البلاغه:

«مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَابْتِمَارِيهِ وَعَظِيمُ كُلِّ شَيْءٍ لَابْتِمَارِيهِ». لا شك أنه يستحيل جمع هذه الصفات في الممكنات؛ ذلك أن الشيء إن بعد فلا يسعه الاقتراب، وإن اقترب فلا يمكنه الابتعاد، ولكن ليس هنالك من معنى لتضاد القرب والبعد وأمثال ذلك في ذات واجب الوجود المطلق.

ثم تطرق عليه السلام إلى موضوع علم الله تعالى بكل شيء وفي كل زمان ومكان من خلال عبارات رائعة عميقه المعنى فقال:

«وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شَخْصٌ (١) لِحِظِهِ، وَلَمَا كُرُورٌ لَفِظِهِ، وَلَا اِزْدِلَافٌ (٢) رَبْوَةٍ (٣)، وَلَا اِنْبِسَاطٌ خُطْوَةٍ، فِي لَيْلٍ دَاجٍ (٤)، وَلَا غَسَقٍ (٥) سَاجٍ (٦)». فالإمام عليه السلام بغيه تشخيص عدم خروج أخفى الأشياء عن علم الله يفترض مسافراً مرّ في ليله ظلماء بصحراء وقد صوب بصره إلى الصحراء وينبس ببعض الكلمات، يقترب من التلال والمرتفعات ويتسلقها بسرعه ليبلغ غايته وهو يشق طريقه في تلك الظلمه المعتمه، فالله تعالى الذي لا يخفى عليه شيء من حركات عيون وشفاه وأقدام هذا المسافر لهو أعلم بأعمال عباده وهم يأتون بها في وضح النهار وفي المدن والبلدان.

ثم قال في وصف هذه اليه الظلماء:

«يَتَفَيَّأُ (٧) عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ، وَتَعْقُبُهُ الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِي الْأَفُولِ وَالْكُرُورِ (٨)». إشاره إلى أن علم الله بالموجودات وأعمال

ص: ٢٢١

١- (١). «شخص» بمعنى التركيز في النظر على الشيء

٢- (٢). «ازدلاف» بمعنى الاقتراب والصعود من نقطه مرتفعه، ويقال (المزدلفه) للمشعر الحرام لاقتراب الناس هناك من منى أو اقترابهم من الله بهذه العباده

٣- (٣) «ربوه» الموضع المرتفع

٤- (٤) «داج» من ماده (دجو) على وزن علو، المظلم، وليل داج، اليه المظلمه الخاليه من القمر

٥- (٥). «غسق» شدة الظلمه، وتطلق هذه المفرده على منتصف الليل لشده ظلمته

٦- (٦) «ساج» الساكن، والمراد من الغسق الساج، الظلام الطويل والمستمر

٧- (٧). «يتفياً» من ماده (فيئ) على وزن غيب، العوده، وتفياً بمعنى، الإنتقال والذهاب والإياب

٨- (٨). «كرور» له معنى مصدرى، الرجوع

الإنسان لا يقتصر على اليالى المظلمه، بل يشمل اليالى المقمره والنهار الواضح، بالتالى ليس هنالك من مكان خارج عن علم الله كالذى ورد فى ما بعد:

«عِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى».

ثم قال مواصلاً كلامه:

«وَتَقَلَّبِ الْأَزْمَنَةَ وَالذُّهُورَ، مِنْ إِقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَإِدْبَارِ نَهَارٍ مُدْبِرٍ». هذه العبارة كتلك التى وردت فى العبارات القادمه:

«عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِيَةِ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِيَةِ» وكل هذه العبارات تشير إلى سعه علم الله الذى لا يحده الزمان والمكان. وهنا يرد هذا السؤال: لماذا استند إلى إقبال الليل والنهار مع أن لكل من الليل والنهار إقبال وإدبار؟ لعل هذه العبارة تأكيد لما مرّ فى العبارات السابقه بشأن نفوذ علم الله إلى أعماق الظلمات وليس فقط وضح النهار. وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن تركيز الإمام على إقبال الليل وإدبار النهار ربّما إشاره إلى أن أمور الدنيا غالباً ما تجرى على خلاف رغبة الإنسان(١).

ثم قال عليه السلام:

«قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ، وَكُلِّ إِحْصَاءٍ وَعَدَّةٍ». الواقع أن العبارة

(لا يخفى عليه من عباده...) التى تحدّث فيها عن علم الله بالزمان والمكان وكل إنسان وشيء تشمل هذا المعنى أيضاً أنه عليم بنهايه عمر كل إنسان وكل موجود قبل أن ينتهى عمره كما يعلم عدد الموجودات قبل أن تعد وتحصى(٢).

ثم قال فى نتيجته كليه:

«تَعَالَى عَمَّا يَنْحَلُهُ الْمُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ الْأَقْدَارِ، وَنَهَايَاتِ الْأَقْطَارِ، وَتَأْتُلُ (٣) الْمَسَاكِينِ، وَتَمَكِّنُ الْأَمَّاكِينِ». نعم؛ فكل طائفه ضاله

ص: ٢٢٢

١- (١) شرح نهج البلاغه للعلامة التستري، ج ١، ص ٢٧٣

٢- (٢) إعتبر أغلب شراح نهج البلاغه أن هذه العبارة مستقلة تشير إلى عدم حدود الذات المقدسه، إلّا أن هذا التفسير لا يبدو صحيحاً، لأنّه لو كان كذلك لقال (بعد كل غايه ومدّه) أى أنّ ذاته موجوده بعد كل نهايه كما هى موجوده قبل كل بدايه. أمّا من فسّرها كما أوردنا فهو العالم المعروف محمد عبده فى شرحه لنهج البلاغه حيث ربط هذه العبارة بعبارة (لا يخفى) وهذا ما عليه ظاهر عبارة العلامة الجعفرى

٣- (٣). «تأتل» بمعنى عمران المسكن، ومن ماده ائل على وزن أمل، شجره معروفه

تفتقر إلى المعرفة من قبيل المشبّهه والمجسّمه إنّما شبّهت الله بمخلوقاته وجعلت له جسماً وأعضاءاً، وأنّ له مكاناً وينتقل من مكان إلى آخر فيحضر هنا ويغيب هناك، والحال أنّه لأرفع من الزمان والمكان والقياس والوهم؛ أرفع ممّا نرى ونقرأ ونكتب، فليس له جسم ولا مكان ولا صفة من صفات المخلوقات. والعبارة المذكورة إشاره إلى أربعة أنواع من الحدود يتنزه الله عنها جميعاً: الحدود من حيث القامه كالصغر والكبر ومن حيث النهايه كمقدار العمر ومن حيث اختيار السكن وأخيراً من حيث المكان. فهو وجود مطلق لا متناهٍ غنى عن أى من الحدود، ذلك لأنّ كل هذه الأمور من صفات المخلوقات. ومن هنا اختتم الخطبه بالقول:

«فَالْحَرُّ دُ لِحَلَقَتِهِ مَضْرُوبٌ، وَإِلَى غَيْرِهِ مَنْشُوبٌ». فهذه العبارة هي عصاره الأبحاث السابقه فى أنّ كل محدوديه هي إنّما تعود للمخلوقات ومن شأن الممكنات، وليس لهذه الصفة من سبيل إلى ذاته المطلقة.

تأمل: الله حقيقة مطلقة

إنّ أول وأهم مطلب ينبغي إثباته فى باب صفات الله ليتضح مفهوم التوحيد وكذلك سائر الصفات كالعلم والقدرة وماشابه ذلك يتمثل فى كون ذاته مطلقه لا متناهيه، وذلك لأنّه إن ثبت هذا المطلب فقد تمهد السبيل أمام إدراك جميع صفاته الجماليه والجلاليه (الصفات الثبوتيه والسلبيه). ولإثبات ذلك لابدّ من الألتفات إلى الأمور التاليه:

١. إنّ محدوديه الوجود تعنى طروء العدم، ذلك لأنّه إن لم يرد العدم فلا معنى للحدود. فلو قلنا إنّ عمر فلان محدود، فذلك يعنى أنّ عمره سينتهى يوماً إلى العدم، وهكذا بشأن العلم والقدرة وماشابه ذلك.
٢. إنّ الوجود ضد العدم فإن اقتضى شىء بذاته الوجود فلا يمكنه اقتضاء العدم.
٣. ثبت فى برهان العله والمعلول أنّ سلسله العله والمعلول لهذا العالم يجب أن

تنتهى إلى نقطه ثابتة وأزليه يصطلح عليها (واجب الوجود) أى أن وجوده من ذاته لا من خارجها، وعليه فإن العله الأولى للعالم تقتضى الوجود بذاتها فهي لا تمتزج بالعدم. وعلى ضوء هذه المقدمات الثلاث يتضح أن طرأت حدود على الذات الواجبه الوجود فلا بد أن تكون من خارجها، ذلك لأن المحدوديه استناداً إلى المقدمات المذكوره بمعنى الامتزاج بالعدم، والشىء الذى تقتضى ذاته الوجود فإنها لا تقتضى العدم اطلاقاً. وبناءً على هذا فإن اعترته محدوديه فلا بد أن يحده عامل خارجى ويلزم من ذلك أنه ليس بواجب الوجود، لأنه معلول لذات أخرى ومخلوق آخر فى حد وجوده. بعبارة أخرى، ممّا لا شك فيه أن العالم ينتهى إلى واجب الوجود، فإن كان واجب الوجود غير محدود فليست هنالك من مشكله، أمّا إن كان محدوداً فذلك ليس من مقتضيات ذاته، لأن ذاته تقتضى الوجود لا العدم، إذن لا بد أن تطرأ عليه من الخارج. ومفهوم هذا الكلام أن هنالك عله خارج وجوده وهو معلول لتلك العله وفى هذه الحاله سوف لن يكون واجب الوجود.

وقد تعرضت الروايه الوارده عن الإمام السجاد عليه السلام إلى وجوده المطلق على ضوء البرهان المذكور، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يُوصَفُ بِمَخْرُودِيَّةٍ عَظْمٍ رَبُّنَا عَنِ الصِّفَةِ فَكَيْفَ يُوصَفُ بِمَحْدُودِيَّةٍ مَنْ لَا يُحَدُّ» (١). وورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال:

«هُوَ أَجَلٌ مِنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الْأَبْصَارُ أَوْ يُحِيطَ بِهِ وَهُمْ أَوْ يَضْبِطَهُ عَقْلٌ» قال السائل: حده لى؟ قال عليه السلام:

«إِنَّهُ لَا يُحَدُّ قَالَ: لِمَ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لِأَنَّ كُلَّ مَحْدُودٍ مُتَّنَاهٍ إِلَى حَدٍّ فَإِذَا احْتَمَلَ التَّحْدِيدَ احْتَمَلَ الزِّيَادَةَ وَإِذَا احْتَمَلَ الزِّيَادَةَ احْتَمَلَ النُّقْصَانَ فَهُوَ غَيْرُ مَحْدُودٍ وَلَا مُتَزَائِدٍ وَلَا مُتَجَزِّئٍ وَلَا مُتَوَهِّمٍ» (٢).

ص: ٢٢٤

١- (١). اصول الكافى، ج ١، ص ١٠٠ باب النهى عن الصفه

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٥ للوقوف على المزيد راجع نفحات القرآن، ج ٣، ص ١٤٩

لَمْ يَخْلُقِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أَصُولِ أَزْلِيَّتِهِ، وَلَا مِنْ أَوَائِلِ أَبَدِيَّتِهِ، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ حَدَّهُ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ. لَيْسَ لَشَيْءٍ مِنْهُ امْتِنَاعٌ، وَلَا لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ انْتِفَاعٌ. عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِيَةِ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِيَةِ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى.

الشرح والتفسير: العلم الإلهي المطلق

واصل الإمام عليه السلام ما طرحه سابقاً بشأن قدره الله التامه وعلمه المطلق فقال:

«لَمْ يَخْلُقِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أَصُولِ أَزْلِيَّتِهِ، وَلَا مِنْ أَوَائِلِ أَبَدِيَّتِهِ، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ حَدَّهُ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ» فالعبارة إشارة إلى الابداع في الخلق، أى خلق الأشياء دون سابقه، فلم تكن هناك مواد أزليه استعان بها الله لخلق الأشياء، كما لم تكن هنالك إشكال وصور احتذاها في تصويره الأشياء، خلافاً لما اعتقده الفلاسفة من أزليه المادة، فلا أبدية وأزلية سوى للذات المقدسه، وهذا ما بيناه في برهان التوحيد من امتناع وجود الأبدى والأزلى فى عالم الممكنات. والعجيب أن الإمام عليه السلام كشف النقاب عن هذه الحقيقه فى عصر وبيئه لم ترق لهذه الأفكار ولم تشهد معرفه الله مثل هذا المنطق الرصين.

ثم أشار عليه السلام إلى قدره الله المطلقه من زاويه أخرى فقال:

«لَيْسَ لَشَيْءٍ مِنْهُ امْتِنَاعٌ، وَلَا لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ انْتِفَاعٌ». بل الجميع مستسلم لإرادته التكوينية، فيوجد ما يشاء متى شاء ويعدم ما يشاء كيفما شاء، مع ذلك فاستسلام الموجودات وطاعه

المطيعين وعباده العابدين لا تزيد في عظمته شيئاً، لأنَّ وجوده مطلق ومصدر جميع الخيرات والبركات. هذا من حيث قدره، أما بشأن العلم المطلق فقال:

«عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِيْنَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِيْنَ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِيْنَ السُّفْلَى». فما ذكره الإمام عليه السلام في هذه العبارات البليغه الرائعه العميقه المدى اقتباس من بعض الآيات القرآنيه من قبيل: «وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصِغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَٰ مَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» (١) «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا» (٢) والإيه: «وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْدِ تَقْدِيمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْدِ تَأْخِرِينَ» (٣). وزبده الكلام:

تتعذر معرفه الله دون الوقوف على علمه المطلق وقدرته اللامتناهيه وأزليته وأبديته الغنيه عن الحدود.

تأمل: دور الإيمان بعلم الله على العمل

الموضوع المهم هنا أنّ مثل هذا الإيمان بعلم الله وقدرته وأزليته وأبديته لا يقتصر دوره على البعد الذهني والفكري فحسب، بل له تأثير عميق وشامل على أعمالنا وأفعالنا، لأننا حين نوقن بأنّه معنا أين ما كنّا وكان قبلنا وسيكون بعدنا ولا يخفى عليه ظاهرنا وباطننا بل حتى تفاصيل دوافعنا وجزئيات تياتنا، فإنّ هذا الإيمان سيربيّننا ويضطرنا إلى مراقبه أنفسنا وأعمالنا ويسوقنا إلى محاسبه أنفسنا، إلى جانب إبعادنا عن الشعور باليأس والإحباط ويبعث فينا روح الرجاء والأمن.

وعلى هذا الأساس فإنّ إيماننا بالله على ضوء الصفات المذكوره لا يقتصر دوره

ص: ٢٢٤

١- (١). سوره يونس، الآيه ٦١

٢- (٢). سوره فاطر، الآيه ٤٤

٣- (٣). سوره الحجر، الآيه ٢٤

على يوم الجزاء فحسب، بل من شأنه إصلاح حياتنا الدنيويه والأخذ بأيدينا إلى الورع والتقوى والشعور بالأمن والاستقرار، وعليه فما نراه اليوم من تهتك لحجاب التقوى من جانب وحاله الاضطراب من جانب آخر إنما يُعزى أحد أسبابها الرئيسيّه إلى الإبتعاد عن العقائد الدينيه الصحيحه.

ص: ٢٢٧

أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ، وَالْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ، فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَمُضَاعَفَاتِ الْأَسْتِثَارِ. بُدِئْتَ «مِنْ سَيْلَالِهِ مِنْ طِينٍ»، وَوُضِعْتَ «فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ» وَأَجَلَ مَقْسُومٍ. تَمُورُ فِي بَطْنِ أُمَّكَ جَنِينًا لِاتُّجِيرَ دُعَاءً، وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً؛ ثُمَّ أُخْرِجَتْ مِنْ مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا. فَمَنْ هَدَاكَ لِاجْتِرَارِ الْغَدَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمَّكَ، وَعَرَّفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلْبِكَ وَإِرَادَتِكَ! هَيْهَاتَ، إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ وَالْأَدَوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجِزُ، وَمَنْ تَنَاوَلَهُ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ!

الشرح والتفسير: الأرفع من الخيال والوهم

هذا المقطع الذى يمثل القسم الأخير من الخطبه هو جواب عن سؤال من الأسئلة التى تفرزها الأقسام السابقه، وهو تعذر معرفه الله بهذه الصفات من قبيل كونه الأول والأخر والظاهر والباطن والقريب من الأشياء والبعيد عنها والمطلق العلم واللامتناهى القدره. صحيح، لدينا علم إجمالى بكل هذه الصفات ولكن ليس لدينا من سبيل إلى العلم التفصيلى الذى نعبر عنه بالعلم بكنه الذات والصفات. يشير الإمام عليه السلام هنا إلى جانب من خلق الإنسان والأسرار المعقده التى تكتنف فتره كونه جنيناً إلى جانب الأسرار العظيمه لولادته وما بعدها، ثم يخلص إلى نتيجة فى أنك إن عجزت عن التوصل إلى أسرار خلقتك كيف يسعك العلم بكنه صفات خالقك؟

فقال:

«أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ (١)، وَالْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ (٢)، فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَمُضَاعَفَاتِ الْأَسْتَارِ». نعم؛ مرحلة الجنين من أعجب مراحل الخلقه التي تنطوي على العديد من الأسرار. فنطفه الإنسان تطوى مراحلها التكاملية بصوره متتاليه فى وسط مغلق ومظلم ومحاط بالأستار بحيث يطاء كل يوم مرحله جديده فى إطار خلقه موزونه ومنظمه، ورغم أنها تجرى فى وسط رقيق وشفاف إلا أنها بعيده كل البعد من المخاطر.

ثم خاض فى شرح هذا المطلب فقال:

«بُدِئْتُ «مِنْ سَلَالِهِ (٣) مِنْ طِينٍ»

،وَوُضِعْتُ «فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٤) * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ»

وَأَجَلَ مَقْسُومٍ». إشاره إلى أن عمليه توقف الإنسان فى الرحم خاضعه لحساب دقيق. من حيث كميته البدن وكيفيته من حيث المده والزمان وقد أشار الإمام عليه السلام إلى أحدهما بالعباره

«إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ» والأخرى بالعباره

«وَأَجَلَ مَقْسُومٍ».

ثم تطرق إلى المرحله الأخرى التي تعقب الرحم فقال:

«تَمُورُ (٥) فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِينًا لَا تُحِيرُ (٦) دُعَاءً، وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً». فهذه العباره إشاره لطيفه إلى الحركه المتتابعه للجنين فى بطن أمه والتي تتم من خلال السباحه فى ماء معين حوله. وأنه ليتلقى بوازع من فطرته وبحكم طبيعته الأمر بالحركه، دون أن يسأل أو يجيب أحداً، ذلك لأنه ليس له من سمع ولا لسان، لكن الله وفر له كل حاجاته مسبقاً حين كان فى ذلك الوسط المظلم والمغلق.

ص: ٢٣٠

١- (١). «سوى» من ماده (تسويه) التنظيم والرعايه لتناسب أجزاء الشىء

٢- (٢) «مرعى» على وزن منفى، بمعنى الشىء الذى يرمى ويحافظ عليه

٣- (٣). «سلاله» من ماده (سل) على وزن حل، عصاره الشىء وخلاصته، ومنه معنى الإختيار أيضاً

٤- (٤). «مكين» من ماده (مكانه) بمعنى المنزله وبمعنى الشخص أو الشىء الذى له منزله واستقرار وثبات وتحت تصرفه جميع

وسائل العمل

٥- (٥). «تمور» من ماده (مور) على وزن قول، بمعنى الحركه السريعه، كما وردت بمعنى الذهاب والإياب. وورد هذا التعبير

بشأن الجنين بسبب كونه دائم الحركه داخل الرحم

٦- (٦) . «تحير» من ماده (حور) على وزن غور، بمعنى الذهاب والإياب، وكذلك وردت هذه المادة بمعنى الحوار في الكلام، فعليه (لا تحير) في العبارة المذكوره بمعنى أنّ الجنين لا يرّد على أى كلام ولا يقدر على بيان حاجاته

ثم أشار عليه السلام إلى مرحلة الولاده والرضاعه فى احضان الأم فقال:

«ثُمَّ أُخْرِجَتْ مِنْ مَقْرَكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا». نعم، يرد من ذلك القرار المكين والمكان الآمن إلى الدنيا لا يعرف منها شيئاً، فلا يعرف الغذاء اللازم ولا الإرادة للحصول عليه ولا كيفية تناوله، لا يعرف وسائل النمو، ولا معوقاته، ولا يعرف أسلوب التعايش ولا التعامل مع الآخرين، فإن لم يأخذ اللطف الإلهى بيده وتشمله الهدايه التكوينية لعجز قطعاً عن مواصلة الحياه، غير أن الله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هداه يحفه بعنايته فيتجاوز الطرق الوعره بحكم الغريزه التى أودعها الله إياه.

لذلك واصل الكلام عليه السلام قائلاً:

«فَمَنْ هَذَاكَ لِاجْتِرَارِ (١) الْعِذَاءِ مِنْ ثُدَى أُمِّكَ، وَعَرَفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ!». حقاً من علم الوليد أن غذاءه فى ثدى أمه؟ عليك أن تضغط بأصابع يدك الصغيره وتمتص ما فى الثدى من اللبن بفمك الصغير؟! من علمه ذلك البكاء بالصوت الحزين ليعلن من خلاله عن حاجاته كافه؟! العطش والجوع والحر والبرد والمرض والحاجه إلى النوم؟! والغريب أن فراخ الطيور والدواب وسائر الحيوانات يندفع كل منها بطريق عجيب نحو حاجته.

ثم اختتم الخطبه بهذه النتيجة:

«هِيَ هَاتَ (٢)، إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ وَالْأَدْوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجِزٌ، وَمَنْ تَنَاوَلَهُ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ!».

أجل، لا يمكن حقاً الوقوف على عجائب وغرائب عالم الخلق وسبر غور أسرارهِ.

فإن عجزنا عن إدراك بعض ما يتعلق بمخلوقات الله فأئى لنا بالوقوف على كنه الذات والصفات الغنيه عن الحدود من جميع الجهات. البنيه المعقده للأعصاب والقلب والعروق والخلايا والجينات ومختلف الغرائز التى أودعها الله أجسامنا لمن المسائل التى شغلت أذهان العلماء لقرون وما زالوا يعترفون بكثره المجاهيل التى

ص: ٢٣١

١- (١). «اجترار» من ماده (جر) بمعنى الجر الشىء وسحبه

٢- (٢). «هيات» اسم فعل يفيد البعد

تعتبرى خلقه الإنسان حتى أَلَفَ ذلك العالم الفرنسى المعروف، كتابه الشهير (الإنسان ذلك المجهول).

تأمل

الدوره الجينيه المذهله

ما ورد فى هذا الجانب من الخطبه بشأن الأسرار الغريبه لخلق الإنسان فى الدوره الجينيه ومن ثم الولاده والرضاع ينسجم تماماً والعديد من الآيات القرآنيه التى أكدت على التفكير فى هذه الأسرار، ومنها سوره الزمر: «يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ» (١) وسوره المؤمنون:

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» (٢). وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى هذه المرحله فى توحيد المفضل كآيه من آيات الله فى التوحيد والقدرة، وأوصى المفضل وقال: «نبتدىء يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به، فأول ذلك ما يدبّر به الجنين فى الرحم، وهو محجوب فى ظلمات ثلاث: ظلم البطن، وظلم الرحم، وظلم المشيمه، حيث لا حيله عنده فى طلب غذاء ولا دفع أذى، ولا استجلال منفعه ولا دفع مضره، فإنه يجرى إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذوا الماء النبات فلا يزال ذلك غذاؤه حتى إذا كمل خلقه واستحكم بدنه، وقوى أديمه على مباشره الهواء، وبصره على ملاقيه الضياء حاج الطلق بأمه فأزعجه أشدّ إزعاج، وأعنفه حتى يولد، وإذا ولد صرف ذك الدم الذى كان يغذوه من دم أمه إلى ثديها فانقلب الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغذاء...» (٣).

ص: ٢٣٢

١- (١) . سوره الزمر، الآيه ٦

٢- (٢) . سوره المؤمنون، الآيات ١٢-١٤

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٦٢

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح تكامل المولود في مختلف المراحل وهو يعرض لعجائب الخلقه الواحده تلو الأخرى(١). (طبعاً لا- يسع البحث الاستغراق في القضايا المذهله التي تم اكتشافها في عصرنا الراهن بشأن تكامل النطفه من خلال مرورها بتلك المراحل، وكل الذي يسعنا قوله إن مثل هذا البحث ينطوي على آلاف الأسرار والعجائب: «خَلَقًا مِّنْ بَعِيدٍ خَلْقٍ». ومن الضروري أن نشير هنا إلى سر من تلك الأسرار وهو أن الجنين طيله هذه المدّه يسبح في كيس صغير مملوء بماء غليظ، ولا يتأثر هذا الكيس بالضربات حتى وإن سقطت المرأه على الأرض أو قامت بحركات سريعة وعنيفه، فليس هنالك أدنى أذى على الجنين، هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإنه يمتاز بتعديله للحراره والبروده بالشكل الذي يحول دون تأثيرهما على الجميع. أضف إلى ذلك فإنّ سباحه الجنين في ذلك السائل يبعد الضغط عن أعضائه الرقيقه، وأخيراً يحفظ هذا الكيس الجنين من الأمواج الصوتيه العاليه ويحافظ على نعومه الجلد، كما يلعب دوراً مهماً في التغذية: «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ».

ص: ٢٣٣

لَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَشَكُوا مَا نَقَمُوهُ عَلَى عُثْمَانَ وَسَأَلُوهُ مُخَاطَبَتَهُ لَهُمْ وَاسْتِغْنَابَهُ لَهُمْ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: (١)

نظره إلى الخطبه

المراد الأصلي من هذه الخطبه كما ذكرنا سابقاً أنها تعرض بالنصح لعثمان وتحذيره بمنتهى الأدب والحرص للحيلولة دون تجاوز أجهزه حكومته للحدود، وهي تتألف من ثلاثه أقسام:

القسم الأول: خطاب لشخص عثمان، خطاب الناصح المشفق الذى يرى مقابله على شفا حفره خطيره، وقد ركز الإمام عليه السلام على علم عثمان بالأحكام الإسلاميه وسوابقه مع النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ليصده عن الزلل والانحراف.

أما القسم الثانى: فيعرض فيه الإمام عليه السلام بحثاً جامعاً و كلياً بشأن أئمه العدل

ص: ٢٣٥

١- (١) سند الخطبه: كما ورد سابقاً حين إزداد حجم المخالفات فى أجهزه حكومه عثمان وظهرت للقاصى والدانى، اجتمع الناس إلى أمير المؤمنين عليه السلام وطلبوا منه أن يكون سفيرهم إلى عثمان فيعظه وينصحه. وقد نقل هذا الكلام قبل السيد الرضى، البلاذرى فى (أنساب الأشراف) والطبرى المؤرّخ المعروف (فى حوادث سنه ٣٤ هجرية)، وابن عبد ربّه فى (العقد الفريد) والمرحوم الشيخ المفيد فى (الجمال). (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٣٨٧)

والظلم وخصائص كل منهما، وبما يجعل كل إمام منهما اسوه للآخرين في سيرته وفي كل زمان ومكان، ومن ثم حذر عثمان من أن يصبح العوبه بيد بطانته كمروان وأمثاله.

والقسم الثالث: نقل جواباً عن عثمان وما أن سمع الإمام عليه السلام ذلك الجواب حتى عرض عليه كيفية الخروج من المأزق، والمؤسف أنّ هذه النصائح لم تجد أذاناً صاغية من عثمان ف وقعت تلك الحوادث العنيفه والمريره.

ص: ٢٣٦

إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَقَدْ اسْتَسَفَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئًا تَجْهَلُهُ، وَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لَا تَعْرِفُهُ. إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعَلَمُ. مَا سَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَخَبِرَكَ عَنْهُ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَتَبَلَّغَكَهُ. وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَدِّقَتْ رِسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَمَا صَدِّقْنَا. وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَيْفَةَ وَلَا ابْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَبِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَشَيْجَهَ رَجِمَ مِنْهُمَا؛ وَقَدْ نَلْتِ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالَا. فَاللَّهُ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ - وَاللَّهِ - مَا تُبْصِرُ مِنْ عَمِّي، وَلَا تُعْلَمُ مِنْ جَهْلِي، وَإِنَّ الطَّرِيقَ لَوَاضِحُهُ، وَإِنَّ أَعْلَامَ الدِّينِ لِقَائِمَةٌ.

الشرح والتفسير: إتمام الحجة على عثمان

ينبغي لاتضاح مضمون هذه الخطبة الإشارة إلى الأحداث والأوضاع التي أدت إلى هذا الحوار بين الإمام عليه السلام وعثمان. حيث ذكر المؤرخ المعروف الطبري أنّ الناس حين رأوا أعمال عثمان - من قبيل سلب ونهب بيت المال وتسليط الظلمه والفسقه على المناصب الحساسه فى الحكومه الإسلاميه - كتب عدد من صحابه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله كتبهم إلى أمراء الجيش على الثغور ودعوههم إلى الجهاد فى سبيل الله ونشر دين محمد صلى الله عليه وآله والقدم إلى هنا وإنقاذ من يقوم بهدم هذا الدين. وتقاطر الجنود من كل مكان على المدينه - سيما أولئك الذين أتوا من مصر والذين عاشوا

ظلم الولاة وعمال الخليفة - حتى قتلوا عثمان (١). آنذاك تعالت الأصوات التي ضجت من ظلم عثمان، فقدم جماعه من الناس إلى الإمام عليه السلام وسألوه وضع حد لتلك الأوضاع بطريقه سلميه، فيكون عليه السلام سفيرهم إلى عثمان ويتم الحجه عليه. فأورد الإمام عليه السلام ذلك الكلام بما يجعله وبطانته يكفون عن الظلم. وكلام الإمام عليه السلام في هذه الخطبه يتضمن براعه البلاغه والفصاحه والقضايا النفسيه الدقيقه أملاً في عوده الطرف المقابل إلى رشده ولعله يلتفت إلى الأخطار المحدقه بالإسلام والعالم الإسلامى. وقد تحدث الإمام عليه السلام بادية الأمر عن علم عثمان ومعرفته بالأحكام الإسلاميه بشأن رعايه حقوق الناس والإبتعاد عن الظلم والجور فقال:

«إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَقَدْ اسْتَسْفَرُونِي (٢) بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا أَقُولُ لِمَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لَمَّا تَعْرِفُهُ. إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ. مَا سَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَخَبَّرَكَ عَنْهُ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَتَبَلَّغَكَ». من الواضح أنّ عبارات الإمام عليه السلام لا تعنى أنّ عثمان بمصاف الإمام على عليه السلام فى العلم والمعرفه، بل مراده أنّ عثمان كان يعلم بالأحداث التى وقعت وسوء الظلم والجور وضروره رعايه حقوق الناس، وهى الأمور العاديه التى يتساوى فيها عثمان مع عامه الناس الذين كانوا يعرفون تلك الأمور، بل حتى الأطفال - فضلاً عن العقلاء والكبار - كانوا يعلمون صحيحها من سقيمها كما ذكر ذلك ابن أبى الحديد (٣). وبناءً على هذا فإنه يخطئ كل من يتصور بأنّ عبارات المذكوره دليلاً على أنّ عثمان بمنزله الإمام على عليه السلام فى العلم والمعرفه. فعلى عليه السلام كما قال النبى الأكرم صلى الله عليه وآله باب علم مدينه النبى صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام حسب الروايات الإسلاميه من عنده علم الكتاب وهو الملاذ العلمى للأمه فى حل جميع مشاكلها حتى صرح بعض الخلفاء

«اللَّهُمَّ لَا تَبْقِنِي لِمُعْضَلِهِ لَيْسَ لَهَا ابْنٌ

ص: ٢٣٨

١- (١). تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ٤٠٠ و ٤٠١، فى بيان حوادث سنه ٣٥

٢- (٢). «استسفرونى» من ماده (سفاره) والسفير، يقال لشخص يقوم بالوساطه بين شخصين أو بلدين

٣- (٣). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٢٦٣

ثم واصل كلامه مشيراً إلى سوابق عثمان في الإسلام فقال:

«وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَمَا صَحَبْنَا».

إشاره إلى أنك كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله لسنوات عديدة وقد سمعت منه تعاليم الإسلام وأحكامه الشرعية، وعليه فكيف تخفى عليك هذه المسائل الواضحة بشأن حق الناس وبيت المال والعدالة الاجتماعية. آنذاك طرق السبيل الثالث بغية التأثير على أفكار عثمان فقارنه بأبي بكر وعمر، ذلك لأنهما لم يرتكبا ما ارتكبه عثمان قط، وإن كانت لهم زلتهم الأخرى فقال:

«وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَيْفَةَ وَلَا ابْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَبِي (٢) رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَشَيْجَةَ رَحِمَ مِنْهُمْ؛ وَقَدْ نَلَّتْ مِنْ صِهْرِهِ مَرَّةً لَمْ يَنَالَ». بالنظر إلى أن الوشيجه بمعنى جذور الشجره أو الألياف التي تصنع من النخيل وثم اطلقت على اشتباك القرابه، فإن الإمام عليه السلام أراد أن يذكره بقرابته من النبي صلى الله عليه وآله حيث يقرب للنبي صلى الله عليه وآله من جده عبد مناف. فقد اعتمد الإمام عليه السلام مختلف الطرق بغية التأثير عليه وإعداده لقبول الحق والكف عن ممارسه الباطل. إلا أن المؤسف أن الخليفة الثالث لم يعد يسمع قول الحق وقد انغمس في الفساد الذي دب في كآفه مرافق الحكومه. على كل حال عاد الإمام عليه السلام ليؤكد على الخليفة ضروره الأنصياح إلى الحق والشفقه على نفسه فقال:

«فَاللَّهُ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ - وَاللَّهِ - مَا تُبْصِرُ مِنْ عَمِي، وَلَا تُعَلِّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ، وَإِنَّ أَعْلَامَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ». فالإمام عليه السلام لم يتخل عن أى أسلوب من شأنه التأثير على الخليفة، فأحياناً يحدثه بحسن وقبح مثل هذه الأمور، وأخرى يقول له

ص: ٢٣٩

١- (١) الغدير، ج ٦، ص ٢٦٣

٢- (٢). الغريب أن كلمه «أبى» التى وردت فى نسخه صبحى الصالح لم ترد فى أى من سائر النسخ. فلم ينقلها هنا المرحوم الشارح البحرانى والخوئى والعلامة الجعفرى ومحمد عبده وابن أبى الحديد ومغنيه والتستري وصاحب مصادر نهج البلاغه، ويبدو أنها من زلات صبحى الصالح، سيما بالنظر إلى أن مثل هذه التعبيرات لم ترد فى كلمات على عليه السلام بالنسبه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله

إنَّكَ سمعت من النبي صلى الله عليه وآله ما ينبغي سماعه، وتاره يقول له على الأقل سر بسيره من سبقك من الخلفاء فهما ليسا أولى منك بالعمل بالحق. وأخيراً يبيِّن له أنَّ طريق الحق واضح فلماذا تعرض نفسك لكل هذه الأخطار وتسلك السبيل غير القويم، لكن لم يستجب عثمان حتى حدث ما لا ينبغي أن يحدث بعد أن ولى ظهره لكل تلك المواعظ والإرشادات القيِّمه.

تأمل

سبل نفوذ الكلام فى الآخريين

إذا قام شخص ببعض المخالفات وكان يبدو مدركاً لبعض الأعمال الخطيره وأراد عاقل أن يوقظه من نوم الغفله، فإنَّ أفضل أسلوب يمكن اعتماده بادية الأمر أن يستقطب قلبه ويذكره بإيجابياته، فيقول مثلاً: إنَّكَ من أسره عريقه ولديك تحصيلات علميه قيمه وسمعتك حسنه بين الناس لعله يشعر بشخصيته ويثق بالمقابل فيقبل منه. ومن ثم مقارنته بأمثاله وأقرانه بهدف إعادته إلى الصواب والإبتعاد عن الخطر.

الإمام عليه السلام بصفته سيد الفصحاء والبلغاء والعالم بالقضايا التربويه والنفسيه، فقد ذكّر عثمان بكل هذه الأمور، فقال له إنَّكَ لصهر رسول الله صلى الله عليه وآله (١) وأقرب إليه من الخليفه الأول والثانى ولك سابقه فى الإسلام وقد لازمت النبي صلى الله عليه وآله وليس هنالك من شىء غائب عنك لأذكرك به، فهنالك ظلم وجور وتناول على بيت مال المسلمين وهضم لحقوق الناس. إلما أنَّ الخليفه الثالث قد انغمس فى شباك بطانته - تلك البطانه التى يمثل اغلبها حثالات الجاهليه - ولم يعد يتحمل نصح ذلك الناصح الأمين وينقذ نفسه من تلك الورطه. ويتضح ممَّا مر معنا أن ليس هنالك من فضيله لعثمان تضمنتها عبارات هذه الخطبه.

ص: ٢٤٠

١- (١). كان عثمان زوج رقيه بعد أم كلثوم بنتى النبي صلى الله عليه وآله

فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدَى وَهَدَى، فَأَقَامَ سُنَّةَ مَعْلُومَةٍ، وَأَمَاتَ بَدْعَهُ مَجْهُولَةً. وَإِنَّ السُّنَنَ لَكَثِيرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ الْبِدْعَ لظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ. وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضَلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةَ مَأْخُودَةٍ، وَأَحْيَا بَدْعَهُ مَثْرُوكَةً. وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - يَقُولُ: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى، ثُمَّ يَرْتَبُطُ فِي قَعْرِهَا». وَإِنِّي أَنْشُدُكَ اللَّهُ أَلَّا تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ:

يُقْتَلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَلْبَسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبْثُ الْفِتْنَ فِيهَا، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ؛ يَمْوِجُونَ فِيهَا مَوْجًا، وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجًا.

فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيْقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ السُّنَنِ وَتَقْضَى الْعُمْرَ.

فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: كَلَّمَ النَّاسَ فِي أَنْ يُوجِّلُونِي، حَتَّى أَخْرَجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وَصُورُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ.

الشرح والتفسير: خصائص الحاكم العادل والظالم

تضمن المقطع الأول من هذه الخطبة، خطاب الإمام عليه السلام بصورة خاصة لعثمان

وبذل له النصيح والإرشاد لإنقاذه من خطوره الموقف الذى كان فيه وليطفىء عنه غضب الأمة، والأهم من كل ذلك رضى الله تبارك وتعالى. أما هنا فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى الضوابط الكليه والعامه للحاكم العادل ومن ثم صفات الحاكم الظالم ليتبين الخليفه من ذلك، الطريق الصحيح فيسلكه فقال عليه السلام:

«فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدًى وَهَدًى، فَأَقَامَ سُنَّتَهُ مَعْلُومَةً، وَأَمَاتَ بَدْعَهُ مَجْهُولَةً. وَإِنَّ السُّنْنَ لَكَثِيرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ الْبِدْعَ لظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ». فقد ركز الإمام عليه السلام بادية الأمر على هذا الموضوع المهم فى أن أفضل عباد الله هو الإمام العادل، كيف لا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«عَدْلٌ سَاعَهُ خَيْرٌ مِنْ عِبَادِهِ سِتِّينَ سَنَةً قِيَامَ لَيْلِهَا وَصِيَامَ نَهَارِهَا» (١) ثم تطرق إلى خصائص الإمام العادل، ومنها أن تلمس الهدى عن طريق القرآن والوحي والعقل السليم ثم هدى الناس إلى الصراط المستقيم، ذلك لأن البرامج الثقافيه البناء من وظائف الحاكم العادل لأنها تتمثل فى إقامة السنن المعلومه وإماتة البدع المجهوله؛ لأنه لا بد للحاكم العادل من رؤيه دقيقه بحيث لا تطمس السنن الحسنه وتنسى وتسود المجتمع خصال الخير والفضيله والتقوى والعلم والمعرفه والتعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى جانب عدم السماح لظهور البدع السيئه والخرافات والاختلافات والنزاعات وكل ما جهد الأنبياء من أجل تنقيه الأمة من شوائبه، خاصه أن الإمام عليه السلام صرح بأن للسنن والبدع علامات. فعلامات السنن الأمن والاستقرار وتطور البلاد ومسارعه الأفراد إلى المعنويات، على العكس من علامات البدع المتمثله بالاضطراب والإرباك والركود والتخلف والخرافات. وبالطبع فإن مميزات الحاكم الظالم (الإمام الجائر) بالضبط على العكس من سابقته فى الحاكم العادل، فهو ضال مضل لغيره، يطمس سنن الله ويحيى البدع، وللأسف كلنا نعلم أن الخليفه الثالث كان مصداقاً للإمام الجائر بتسليطه لبطانته على رقاب المسلمين ونهبهم لبيت المال.

ص: ٢٤٢

ثم قال عليه السلام:

«وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ حَيَّائِرٌ ضَلَّ وَضَلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سَيِّئَةً مَأْخُودَةً، وَأَحْيَا بِدَعَاةٍ مَثْرُوكَةً». فمن البديهي أنّ دعائم العدالة وركائزها في المجتمع إنّما تستحکم في ظل إحياء السنن الإلهية التي تضمن خير البشرية وسعادتها، وتهجر البدع التي تسوق الناس إلى الفساد والظلم. والحاكم الذي يقوم بهذه الأعمال إنّما يفصح عن ظلمه وفساده، بالتالي فهو شر الناس، ذلك لأنّه يسوق المجتمع إلى البؤس والشقاء، بغض النظر عن ظلمه لنفسه وسوقها للشقاء الأبدى.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه مستشهداً بحديث خطير عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - يَقُولُ: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى، ثُمَّ يَرْتَبُطُ فِي قَعْرِهَا» (١). فقولته عليه السلام:

«وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ» إشارته إلى أنّه كان له في الدنيا فئة من الناس يقفون إلى جانبه في الشدائد والمشاكل التي تعرض عليه ويجدون له المبررات في ممارسته الظلم والجور، ومن جانبه كان يصدق عليهم الإمتيازات بغية الإحتفاظ بهم. أمّا في ذلك اليوم فهو وحيد فريد في محكمه العدل الإلهي وليس له سوى النار جزاء لأعماله الشنعاء. ولعل العبارة

«فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى» إشارته إلى أنّ دورانه في نار جهنم يوجب مزيداً من الألم والأحراق أولاً ويجلب انتباه الآخرين ثانياً فتبدو فضيحتة علانية.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة مهمّة تتعلق بمصير عثمان تحذره من مغبه سوء فعالة فقال:

«وَإِنِّي أَنْشُدُكَ (٢) اللَّهُ أَلَّا تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». فالإمام عليه السلام وإن لم يشر إلى من قال هذا الكلام، لكن من الواضح أنّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد وقع عين ما أخبر به حيث كان الظلم سبب قتل عثمان وأثر ذلك - وبحجه دم عثمان - حصل كل ذلك

ص: ٢٤٣

١- (١). روى الطبري هذه الخطبة مع الحديث في (تاريخه)، ج ٣، ص ٣٧٦ حوادث سنة ٣٤

٢- (٢). «أنشد» بصوره ثلاثي مجرّد على وزن أقتل من ماده (نشد)، على وزن قتل، بمعنى التذكير والطلب وإنشادضاله، بمعنى كسب الإطلاع من الناس بشأن الضاله

القتال وسفك الدماء ومازلنا نشهد حتى العصر الراهن بعض التبعات والاختلافات التي تحدث بين المسلمين. والشاهد على ذلك الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله والذي ورد في سنن أبي داود أنه قال:

«وَأِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَيْمَةَ الْمُضِلِّينَ وَإِذَا وَضَعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي لَمْ يُرْفَعْ عَنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (١).

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«وَيَلْبَسُ أُمُورَهَا عَلَيْهِا، وَيَبُتُّ الْفِتْنَ فِيهَا، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ؛ يَمُوجُونَ (٢) فِيهَا مَوْجًا، وَيَمْرُجُونَ (٣) فِيهَا مَرْجًا». وتشير العبارة

«وَيَلْبَسُ أُمُورَهَا عَلَيْهِا» إلى أنّ الساسه المحترفين يحاولون تضليل الرأي العام فهم ينطلقون في الظاهر على أساس المطالبة بدم الخليفة المقتول، لكنهم يزيّفون الحقائق باطناً بهدف الوصول إلى الخلافة، فهم يصورون الظالم مظلوماً والمظلوم ظالماً (٤). والعبارة

«وَيَبُتُّ الْفِتْنَ فِيهَا» وهي إشاره إلى اتساع الفتنة في صفوف الأئمة نتيجة ذلك، والعبارة القادمة بمثابة نتيجة، فمن جانب يصعب تمييز الحق من الباطل ومن جانب آخر فإنّ الناس سيعومون في بحر من الفتنة. والفارق بين يموجون ويمرجون أنّ الأولى إشاره إلى اقتتال الأئمة في تلك الفتنة، والثانية إشاره إلى اختلاط الحق والباطل في المجتمع بحيث يصعب تمييز الحق من الباطل. جدير بالذكر أنّ كل ما تتبّأ به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في الروايه وأخبر به أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام وقع دون أدنى زياده أو نقصان.

فقد ألب عثمان وبطانته الأئمة عليهم لظلمهم حتى قتل عثمان واندفعت عقب ذلك فنه من بنى أميه لتستغل الأحداث السياسيّه لصالحها وارتفعت حده الخلافات بين

ص: ٢٤٤

١- (١) سنن أبي داود، ج ٤، ح ٤٢٥٢

٢- (٢). «يموجون» من ماده (موج) بمعنى الحركة، كما تستعمل بمعنى الاضطراب والحيره والكنايه

٣- (٣). «يمرجون» من ماده (ورج) على وزن فلج، بمعنى الاختلاط أو البعث والترك، ولما كان الاختلاط وترك الشئ يؤدي إلى الفساد، فإنّ هذه المفردة تستعمل بمعنى الفساد

٤- (٤). يفهم من بعض كلمات شراح نهج البلاغه أنّ هذه العبارة جزء من حديث النبي صلى الله عليه وآله لكن بالنظر إلى أنّ الحديث المذكور ورد في بعض المصادر المعروفه (كسنن أبي داود) دون ذيلها، فالذي يستفاد أنّ حديث النبي صلى الله عليه وآله ينتهي بالعبارة (إلى يوم القيامة)

الناس حتى تعذر تمييز الحق من الباطل وسفكت تلك الدماء الغزيره، ثم امتدت تلك الاضطرابات لقرون. راجع المزيد بشأن عوامل القيام ضد عثمان الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب (١).

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى أهم عنصر يقف وراء انحراف عثمان - والذي جرّ عليه كل تلك الويلات - والمقصود من طاعته العمياء لمروان، فقال عليه السلام:

«فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيْفَهُ (٢) يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ (٣) السِّنِّ وَتَقْضَى الْعُمْرِ».

ورد في التاريخ أنّ عمر عثمان كان آنذاك ٨٢ سنة (٤). لا شك أنّه كان لمروان الدور الأساسي في حكمه عثمان بحيث كان سير الأمور حسب رغباته، وحتى حين استمع عثمان لنصائح الإمام عليه السلام وعزم على الاعتذار من الأمّة، اعترضه مروان بشده وحال دون إصلاحه لأخطائه، والواقع أنّه صب الزيت على فتيل النار التي أوقدها الناس حتى طال حياه عثمان، وربّما كان ذلك يستند إلى خطه تمكنه أو تمكن معاويه من استلام زمام الأمور بعد عثمان.

فلما بلغ الإمام عليه السلام هذا الموضوع من كلامه استجاب له عثمان وتأثر شديداً:

«فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: كَلِمَ النَّاسِ فِي أَنْ يُؤَجِّلُونِي، حَتَّى أَخْرَجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ».

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وَصُورُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ». إشاره إلى أنّ المهله في هذه الحالات الحاده قد تقود إلى ثوره عارمه فلا معنى لهذه المهله، إضافه إلى أنّ المهله إنّما تهدف إلى إعداد المقدمات، وإعادة حقوق الناس لا تحتاج إلى أى مقدمات، فما كان في المدينة لابدّ من إصدار الأوامر بشأنه فوراً

ص: ٢٤٥

١- (١) نفحات الولاية، ج ١، ص ٢٤٤ علل القيام ضد عثمان، ج ٢، ص ١٥٢ عوامل قتل عثمان وكذلك الجزء الثاني بعنوان الأعمال التي مارسها عثمان ودعت إلى الغضب العارم

٢- (٢) «سيقه» على وزن (سيده) صفة مشبهه من ماده سوق، على وزن فوق، بمعنى ما يستاق من الدواب إلى هذا الجانب أو ذاك، وتعنى أحياناً ما يستاقه العدو من الحيوانات

٣- (٣) «جلال» بمعنى الكبير، وجلال السن، بمعنى السن الرفيعه

٤- (٤) . تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ٤٤١ وهنالک أقوال أخرى فى سن عثمان آنذاك وأغلبها ترى أنّ عمره كان ٨٢ سنة

فيؤخذ من الظلمه ويسلم إلى المظلومين، وما كان في المناطق البعيده فلا بد من الإسراع في انتزاعه. ولعل العبارة المذكوره إشاره إلى هذه النقطة في أنّ الساسه حين يواجهون أزمة إنّما يلجأون إلى التسوية بغية الهروب من المسؤوليه ويطلبون من الطرف المقابل مهله زمنيّه على أمل امتصاص نغمه الغضب وتوجيه ضربه مهلكه إلى الطرف الآخر، فما كان من الإمام عليه السلام إلّا أنّ سد عليه الأبواب كافه واختلاق الذرائع. صرّحت كتب التاريخ بأنّ عثمان استجاب للإمام عليه السلام لكنه استمهّل الإمام عليه السلام ثلاثه أيام بالنسبه للمدينه. فوافق الإمام عليه السلام وخرج من عند عثمان وأخير الناس وكتب العهد على عثمان ومهله الثلاثه أيام لإعاده الحقوق المهضومه وعزل الولاه الظلمه الذين نغم منهم الناس. وقد أشهد على العهد طائفه من المهاجرين والأنصار، فانسحب الناس على أمل وفاء عثمان بالعهد بينما أراد عثمان خلال الأيام الثلاثه جمع العده والعدد وتجهيز الجيش، فلما مضت المهله شعر الناس بعدم الوفاء بالعهد فثاروا على عثمان، حتى انتهى الأمر إلى قتل عثمان، جدير بالذكر أنّ كل ما ذكرناه أوردته الطبري في تاريخه (١).

أضواء على حادثه قتل عثمان

أشرنا في الأجزاء السابقه من هذا الكتاب إلى الأحداث التي رافقت مقتل عثمان، ونود هنا أن نشير إلى بعض الأمور، ومنها:

١. لا شك في أنّ قتل عثمان حادثه مفجعه، ذلك لأنّها انعكست سلباً على المسلمين، وكما ورد في الروايه الوارده عن رسول الله صلى الله عليه وآله فإنّ قتل عثمان أدّى إلى تصاعد الخلافات بين المسلمين وسفك المزيد من الدماء، رغم أنّ المقصر الأصلي في هذه الحادثه شخص عثمان وبطانته وقرابته الذين أخرجوا الحكومه من إطارها المتعارف وأشاعوا في المجتمع معاني الظلم والجور إلى جانب الفساد والانحراف.

ص: ٢٤٤

٢. جدير ذكره أنّ هذه الحادثة وقعت في المدينة أمام الصحابه من المهاجرين والأنصار ولم يهبوا للدفاع عن عثمان، وكانّهم راضون عن حركة الناس ضد عثمان، بل حسبما ورد في تاريخ الطبرى أنّ جماعه من الصحابه كتبوا لبعضهم إنّ الجهاد حقاً في المدينة لا في الروم (لأنّ الحكومه الإسلاميه اندفعت نحو الفساد وإصلاحها مقدم على كل شىء). أمّا الشخص الوحيد الذى وقف إلى جانب عثمان وحال دونه فهو أمير المؤمنين عليه السلام والذى أمر ولديه بالدفاع عنه، لأنّه كان يعلم بالآثار السلبيه التى تترتب على قتل عثمان وإن كانت حركة الأممه عنيفه ولم تنجح تدابير الإمام عليه السلام فى الحيلولة دون وقوعها.

٣. تقدم الإمام عليه السلام فى الخطبه المذكوره وقبل تصاعد حده الاعتراض بإسداء النصيح والإرشاد المشفق لعثمان وحذره بشدّه بضروره الكفّ عن مواصله ذلك الأسلوب وتلافى ما فرط منه، ووعد هو من جانبه بالعمل بذلك، لكنه إمّا أن يكون رفض أو منعتة حاشيته من الإستجابه. والذى يستفاد من بعض المصادر التاريخيه أنّه لم يكن مستعداً بفعل تعصبه الشديد لقرابته أن يعترف صراحه بما فرط منه، حيث قال بعد نصيح الإمام: لم أرتكب خلافاً، فقد وصلت رحمى (فالأموال التى أنفقتها على قرابتي من باب صله الرحم) وأغنيت الفقراء وآويت المحتاجين واستعملت مثل من استعمل عمر وولاه. فرد الإمام عليه السلام إنّ عمر كان يعاقب بشدّه من يرتكب الخلاف ممّن ولاه من عمّاله، لكنك ضعيف، أمّا قرابتك وولاتك فلا تكثرث لما يرتكبون من أخطاء(١).

والعجيب أنّ عثمان صعد المنبر بعد هذه الأحداث ليحدث الناس بأنّ لكل شىء آفه وآفه هذه الأممه أهل الغيبه الذين يتكلّمون بما لا يعلمون والأمّمه تلهث خلفهم، وإنّكم لتعيون علىّ بعض الأمور التى كنتم ترضونها لعمر، لغضتته عليكم، على العكس من مداراتى لكم وإن شئت لأشرت على رجالى، فلا تفعلوا ما يدعونى إلى

ص: ٢٤٧

النقمة عليكم، فاسكتوا ولا- تطعنوا في ولايتي. وهنا انبرى مروان ليصرخ: أيها الناس إن شئتم جعلنا السيف حكماً بينا وبينكم. فغضب عثمان وأسكته وقال له دعني اكلم أصحابي، ألم أوصيك بعدم الكلام؟ فصمت مروان ونزل عثمان من المنبر(١).

وهذه العبارات تفيد أنّ عثمان إمّا كان جاهلاً بالأوضاع! أو أنّه كان يثق بقرابته وبطائته بحيث كان يرى ظلمهم وجورهم عين العدالة والقسط! فكان أسيراً بيدهم بحيث لم يستطع تغيير مسار الأحداث(٢).

ص: ٢٤٨

-
- ١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٦٥
 - ٢- (٢) راجع بشأن قتل عثمان وأسباب القيام عليه وأعماله التي جعلت العامه تنقم عليه الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب في الصفحات التي ذكرتها سابقاً

يذكر فيها عجيب خلقه الطاووس (١)

نظرة إلى الخطبه

يمكن تقسيم هذه الخطبه إلى أربعة أقسام:

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول إلى العجائب والغرائب التي تكتنف المخلوقات ولا سيما الطيور ليستدل عن هذا الطريق على وجود الله والإيمان به. ويركز في القسم الثاني على خلق الطاووس من بين الطيور وأسرار خلقته ليشير إلى تفاصيل لطيفه ودقيقه عن هذا المخلوق، كما يرد على بعض الخرافات والأوهام الواردة بشأنه.

ويختتم هذا الكلام بالإشارة إلى نقطه وتتمثل بعجز العقول عن وصف مخلوقات

ص: ٢٤٩

١- (١) سند الخطبه: روى الزمخشري من أعلام القرن السادس بعض هذه الخطبه في كتابه «ربيع الأبرار» حيث نقل أغلب كلمات الإمام عليه السلام باختلاف بحيث يفهم أنه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغه، ورغم أنه عاش بعد الشريف الرضى لكن من المستبعد أن يستند إلى كتب الشيعة لموقفه المعادي لهم، وفسر ابن اثير بعض مفردات هذه الخطبه في كتابه (النهايه)، ويفهم من عباراته أنه اقتبسها من مصدر آخر، ذلك لأنه ذكر كلمات لم ترد في الخطبه التي رواها السيد الرضى (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٠٠)

اللّٰه فأنّى لها بوصف الخالق العظيم؟ كما تطرق فى القسم الثالث إلى عجائب خلق الديدان الصغیره وكشف عن عجائب خلق النمل ليستدل من خلال ذلك على توحيد اللّٰه تعالى. أمّا القسم الرابع والأخير فقد خاض فى جانب من أوصاف الجنّه بما يجعل السامع يعيش لهفه الشوق إليها، وعلى هذا الأساس يربط بين المبدأ والمعاد ليعرض صورته واضحة متكامله فى بحث العقائد.

ص: ٢٥٠

ابْتَدَعَهُمْ خَلْقًا عَجِيبًا مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ، وَسَاكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ؛ وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صِدْقِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ فِي أَسْمَاعِنَا دَلَالُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَمَا ذَرَأَ مِنْ مُخْتَلِفِ صُورِ الْأَطْيَارِ الَّتِي أَسْكَنَهَا أَخَادِيدَ الْأَرْضِ، وَخُرُوقَ فِجَاجِهَا وَرَوَاسِي أَعْلَامِهَا، مِنْ ذَاتِ أَجْنَحِهِ مُخْتَلِفِهِ، وَهَيْئَاتِ مُتَبَايِنِهِ، مُصَيِّرَفِهِ فِي زَمَامِ التَّسْخِيرِ، وَمُرْفَرَفِهِ بِأَجْنَحَتَيْهَا فِي مَخَارِقِ الْجَوِّ الْمُنْفَسِحِ، وَالْفَضَاءِ الْمُنْفَرِجِ. كَوْنَهَا بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجَائِبِ صُورِ ظَاهِرِهِ، وَرَكِّبَهَا فِي حِقَاقِ مَفَاصِلِ مُخْتَجِبِهِ، وَمَنَعَ بَعْضَهَا بَعْضًا بِخَلْقِهِ أَنْ يَسْمُوَ فِي الْهَوَاءِ خُفُوفًا، وَجَعَلَهُ يَدْفُ دَفِينًا وَنَسَقَهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي الْأَصَابِعِ بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ، وَدَقِيقِ صِدْقِهِ. فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي قَالِبٍ لَوْنٍ لَا يَشُوبُهُ غَيْرٌ لَوْنٍ مَا غُمِسَ فِيهِ؛ وَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي لَوْنٍ صَبِغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلَافِ مَا صَبِغَ بِهِ.

الشرح والتفسير: خلق الطيور

إن معرفة الله من أهم أصولنا العقائديه والتي يستند جانب كبير منها إلى القرآن الكريم، وهذا هو الهدف من الخطبه. ومما لا شك فيه أن أعمال الإنسان وسلوكه إنما يتوقف على تلك المعرفة ومدى رسوخ دعائمتها. فقد بين الإمام عليه السلام في هذه الخطبه عجائب الخلقه التي تعكس وجود الله وعلمه المطلق وقدرته التامه، سيما أن الإمام عليه السلام يصطحبنا إلى عالم الطيور ويكشف لنا النقاب عن أسرار تلك الخلقه. ومن

ثم يتطرق إلى الطاووس ليكشف عجب صنعه بما يحير العقول ويسوق الإنسان إلى حمد الله والثناء عليه وتسيحه وتقديسه، فقال:

«ابْتَدَعَهُمْ خَلْقًا عَجِيبًا مِنْ حَيَوَانَ وَمَيَوَاتٍ، وَسَيَاكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ». المراد من الموات، الجوامد كالأرض والسماء والنجوم والشمس والقمر، وبعضها ساكنه والأخرى متحركة (وإن كان هنالك رأى بحركتها جميعاً). والمراد من الابداع، الخلق من غير مثال مسبق، وهذا موضوع في غاية الأهمية، ذلك لأن جميع ما سوى الله إنما يحتذى الأمثلة المسبقة في تصويره وصنعه وابداعه. ثم خاض في شرح هذا الكلام فقال:

«وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صِنْعَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ (١) فِي أَسْمَاعِنَا دَلَالَتُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ». حقاً أن الإنسان لو تعرّف على العلوم الطبيعيه وخاض في دراسته عجائب خلقه موجودات العالم لانطلق نحو الله تبارك وتعالى.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى جانب خاص من غرائب وعجائب العالم - الملى بالأسرار واللطائف - ليتحدث عن عالم الطيور ويشرح أسرارها، فقال:

«وَمَا ذَرَأَ (٢) مِنْ مُخْتَلِفِ صُورِ الْأَطْيَارِ الَّتِي أَشْكَنَهَا أَخَادِيدَ (٣) الْأَرْضِ، وَخُرُوقَ (٤) فِجَاجِهَا (٥) وَرَوَاسِي (٦) أَعْلَامِهَا (٧)» (٨).

ص: ٢٥٢

١- (١). «نعقت» من ماده (نعق) على وزن برق، تعنى فى الأصل صوت الغراب، ثم أطلقت على الأصوات التى تقال لأمر الحيوانات ونهيتها عن الحركة

٢- (٢). «ذراً» من ماده (ذراً) على وزن زرع، الخلق والإيجاد

٣- (٣). «أخاديد» جمع (أخدود) الشق الواسع والعميق فى الأرض ويطلق على الوادى

٤- (٤) «خروق» جمع (خرق) على وزن زرع، الصحراء الواسعه، كما تعنى الشقوق

٥- (٥) «فجاجها» جمع (فج) على وزن حجج، الطريق الواسع، وتعنى فى الأصل الوديان الواسعه بين الجبال التى كانت تجتازها القوافل

٦- (٦) «رواسى» جمع (راسيه) تعنى الثابت والراسخ، ولذلك تطلق على الجبل

٧- (٧) «أعلام» جمع (علم) على وزن قلم، بمعنى العلامه وتطلق على القمم والجبال

٨- (٨) احتمال البعض بشأن إعراب ما ذراً أنها عطف على (ما انقادت)، كما قالوا إنها معطوفه على الضمير فى دلالة أو كلمه دلالة، ولا يبدو هذا الاحتمال مستبعداً أنها مبتدأ لخبر محذوف وتقدير الجملة وما ذراً... من آثار صنعه وعظمته

هذا أول تنوع لخلق الطيور من حيث موضع سكنها، فبعضها كالبوم تلجأ إلى شقوق الأرض وتخرج عند الظلام، كما يسكن البعض في الوديان كالفاخته والبعض الآخر في سفوح الجبال كالنسر والعقاب، وقد أمد الله تعالى كلاً منها بما يتطلبه في حياته. طبعاً ما ذكره الإمام عليه السلام في العبارات المذكورة يقتصر على نماذج من الحيوانات البحرية والأهليه الأليفه من قبيل الطيور التي تعيش في الغابات والأعشاش والصحارى ولكل عجائبه وغرائبه التي تحير عقل الإنسان. فما ذكره الإمام عليه السلام تصنيف للطيور على أساس سكنها.

ثم أشار إلى تصنيف آخر - على أساس نوع الطيران والأجنحه - فقال:

«مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلَفَةٍ، وَهَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، مُصَيَّرَفَةٍ (١) فِي زِمَامِ التَّشْخِيرِ، وَمُرْفَرَفَةٍ (٢) بِأَجْنِحَتَيْهَا فِي مَخَارِقِ (٣) الْجَوِّ الْمُتَفْسِحِ (٤)، وَالْفَضَاءِ الْمُتَفَرِّجِ». وهو ما أشير إليه في القرآن بعده آيات مثل: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَيَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (٥).

ثم خاض الإمام عليه السلام في تصنيف ثالث ورابع للطيور فمنها ما لها أشكال مختلفه وطيور ثقيله الوزن تعجز عن الطيران وأخرى خفيفه تحلق إلى عنان السماء فقال:

«كَوْنَهَا بَعِيدٍ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجَائِبِ صُورِ ظَاهِرِهِ، وَرَكْبَتَيْهَا فِي حِقَاقِ (٦) مَفَاصِلَ مُحْتَجِبِهِ، وَمَنْعَ بَعْضَهَا بَعْبالِهِ (٧) خَلْقِهِ أَنْ يَشْمُوَ فِي الْهُوَاءِ خُفُوفًا (٨)، وَجَعَلَهُ يَدْفُ

ص: ٢٥٣

- ١- (١). «مصرفه» من ماده (صرف) على وزن حرف، بمعنى التغيير وتأتى معرفه بمعنى الأشكال المختلفه
- ٢- (٢) «مرفرفه» من ماده (ررفه) بمعنى الجناح، وبسطه، كما وردت بمعنى القماش الجميل والملون، والمعنى الأول هو المراد فى العبارة
- ٣- (٣). «مخارق» جمع (مخرق) على وزن مشرب، الفلاه والصحراء الشاسعه
- ٤- (٤) «منفسح» من ماده (فسح) على وزن مسح، بمعنى الوسيع
- ٥- (٥) سورة النحل، الآية ٧٩
- ٦- (٦). «حقاق» جمع (حق) على وزن، حب، مجتمع المفصلين
- ٧- (٧). «عباله» بمعنى الثقل والضخامه
- ٨- (٨) «خفوف» السرعة والخفه التي تكون غالباً لازماً وملزوماً

دَفِيْفًا(١)». نعم؛ فأشكال الطيور على درجه من الاختلاف بما يذهل تنوعها عقل الإنسان، فبعضها غايه فى الجمال بما لا تشيع العين من رؤيته، والبعض الآخر له شكل مخيف غالباً ما يفرع الإنسان من مشاهدته، وبعضها ذات أقدام طويله وكأن أجسامها حملت على عمودين (كالنعامة والقلق) والأخرى قصيره لا ترى إلّا بصعوبه، ومنها الطيور ذات الجثه الضخمه والأخرى النحيفه، كما تختلف مع بعضها فى الطيران فبعضها لا تستطيع الطيران لكنها تبسط جناحيها وتنطلق بسرعه، وتحلق الأخرى إلى ارتفاعات منخفضة فتنهض من الأرض كنهوض الطائر، أما البعض الآخر فيرتفع سريعاً من الأرض ويحلق فى عنان السماء مستفيداً من دفع أقدامه بالإضافة إلى الإستعانه بأجنحته (كحركه المروحيات)، وتبقى بعض الطيور محلقة فى السماء لأسابيع دون أن تشعر بالتعب والملل، كالطيور المهاجره التى تقطع أحياناً نصف الكره الأرضيه وتتغذى على ما تدخره من مواد غذائيه. جدير بالذكر أن بعض الطيور ذات الأجنحه المنبسطة والبدن الخفيف تستغنى عن بسط جناحيها حين تبلغ ذروه التحليق وعلى العكس من ذلك الطيور ذات الجثه الثقيله والتى لا- غنى لها عن الأجنحه مهما حلقت. حقاً أن الإنسان كلما تأمل هذه الأنواع تعرّف أكثر على عظمه الخالق وعلمه المطلق وإرادته التامه.

وأشار عليه السلام فى المرحله الرابعه إلى تنوع ألوان الطيور والذى يكشف أيضاً عن جانب من العجائب فقال:

«وَنَسَقَهَا (٢) عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي الْأَصَابِغِ (٣) بِلطيفِ قُدْرَتِهِ، وَدَقِيقِ صِنْعَتِهِ. فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ (٤) فِي قَالِبٍ (٥) لَوْنٍ لَمَّا يَشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنٍ مَا غُمِسَ فِيهِ؛

ص: ٢٥٤

١- (١) «دفيف» بسط الجناح و لما كانت الطيور تبسط اجنحتها قرب سطح الأرض فإنّ هذه المفرده تطلق على مرور الطائر فوق الأرض.

٢- (٢) «نسقتها» من ماده (نسق) على وزن غسق، الترتيب سواء فى الصفوف أو العبارات و الكلمات و غيرها.

٣- (٣) «أصايغ» جمع اصباغ، و اصباغ جمع صبغ، على وزن فعل اللون.

٤- (٤) «مغموس» من ماده (غمس) على وزن لمس، غمر الشىء فى الماء، و قد شبّه الإمام لون الطيور و كأنّها مرتبه فى قالب من اللون فأخرجت بهذا الشكل.

٥- (٥) «قالب» على وزن فالج، ما يصب فيه الفلز ليظهر بالشكل المطلوب

وَمِنْهَا مَعْمُوسٌ فِي لَوْنٍ صَبِغٌ قَدْ طُوِّقَ بِخِلَافٍ مَا صُبِغَ بِهِ». فتنوع ألوان الطيور هو الآخر من العجائب. وقد قام البعض بإنشاء حديقة كبيرة في بعض المناطق تدعى حديقة الطيور فضمت مختلف أنواع الطيور وتعيش ظروفًا كالظروف الطبيعيه للحياه مع فارق بسيط هي أنها أحيطت بسياج كبير بغيه المحافظه عليها، والحق أن كل من يتأمل ألوانها المتنوعه ليسحره منظرها الخلاب فيخيل إليه أن رساماً ماهراً جلس لأيام يخط هذه الألوان، فلا يملك الناظر سوى التوجه إلى الله بالحمد والثناء والتسبيح والتقديس.

تأمل: عجائب عالم الطيور

إنّ النظر إلى طائر جميل والإبداع في بنيه جناحه وبالتالي خلقه يجعل الإنسان مستغرقاً في التوحيد، فما ظنك لو قطعنا هذه الرحله الطويله في عالم الطيور والتي تتطلب سنوات عديده. لقد ألف العلماء العديد من الكتب بشأن الأسرار المودعه في الطيور ومختلف أنواعها وأقسامها بما فيها الطيور البريه والبحريه والمهاجره وغير المهاجره، ولا يسع البحث لاستيعاب زاويه منها ولذلك نقتصر على الإشاره إلى جانب منها، فمما قاله العلماء:

١. هنالك حوالي أربعه عشر ألف نوع من الطيور في الكره الأرضيه وقد دفع اختلافها العلماء إلى تصنيفها إلى عدّه فصائل، وبالطبع فإنّ لكل فصيله آلاف المصاديق في الخارج، ولا يخفى أنّ هنالك الآلاف المؤلفه أيضاً من الطيور في الغابات والوديان التي لم يقف عليها الإنسان لحد الآن.

٢. إنّ بعض الطيور كالنعامه التي تزن حوالي ١٠٠ كيلوغرام وتستطيع بأرجلها الطويله أن تسير بسرعه ٩٥ كيلومتر بالساعه، وهنالك الطيور الخفيفه الصغيره التي لا يتجاوز وزنها بضعه كيلو غرامات، وربّما لا تقل سرعه طيرانها عن سرعه سير النعامه.

٣. إنَّ خلقه كل طير متناسب مع بيئته وظروفه المحيطه وأوضاعه المعاشيه، فلبعضها منقار طويل وحاد يتمكن من صيد الأسماك، ولبعضها منقار قصير ومخروطى يستطيع كسر البذور النباتيه، كما هنالك المنقار النحيف والحاد الذى يمتص رحيق الأزهار، وأخيراً المنقار الذى يشبه السله ويتمكن من صيد عدد من الأسماك والاحتفاظ بها.

٤. ليس لأى من الطيور أسنان لكنها تطحن الطعام وتمتصه فى أوعيتها الصلبه.

٥. الطيور بيوضه عاده تنام على بيضها لأنيام لتفقس عن أفراخ، طبعاً الأنثى هى التى تنام عليها، كما يتناوب معها الذكر أحياناً، وأحياناً يحبس الذكر انثاه فى عش ولا يسمح لها بالخروج ولا يدع سوى فتحه صغيره فى العش ليوصل إليها ما تحتاج من غذاء.

٦. بدن الطيور خفيف للغاية مستعد للطيران وهو ملئ بالغضاريف والغدد التى تساعدها على الطيران.

٧. لطيور الماء ويقصد بها الطيور العائمه فى المياه وسواحل البحار برامج عجيبه فأحياناً تستهدف طعامها تحت الماء من خلال اكتشافه بجهاز يشبه الرادار فتغوص فى الماء لتحصل عليه وبالطبع فإنَّ جسمها دهنى لا يسمح بنفوذ الماء إلى داخلها.

٨. ألوان الطيور من عجائب الخلقه، فهناك بعض الطيور الجميله التى تخطف الأبصار وتشرح القلوب حتى يظن الناظر أنها رسمت بريشه فان عبقرى (وهذا من أبداع أمور الخليقه التى ركز عليها الإمام عليه السلام فى الخطبه المذكوره) ولا يدرك الإنسان هذه العظمه دون النظر والتأمل.

٩. أعشاش الطيور هى الأخرى متنوعه وعجيبه، ورغم أنها لا تمتلك الأيدي إلا أنها تصنع أعشاشها وتبنيها بدقه متناهيه، فهناك طائر يسمى (الخياط) يقوم بصنع عشه من خلال خياطته لأوراق الأشجار حيث يستعين بمنقاره كأبره وخيوطه ألياف النباتات.

١٠. طيور الصيد لها أرجل وأجنحة قوية كالعقاب والغراب ولها رؤيه حاده وقويه بحيث ترى حتى الحشرات الصغيره فى الأرض وهى على ارتفاعات فى السماء، وبعضها على درجه من الضخامه بحيث يمكنها التقاط شاه وحملها معها.

١١. وللطيور المهاجره عالم غريب وعجيب فهى تنطلق أحياناً من خط الإستواء نحو المناطق القطبيه وبالعكس فتقطع أكثر من عشره آلاف كيلومتر دون أن تضل طريقها، فهى تحلق لأيام وليالٍ دون تعب وتعكف قبل الهجره غريزتهاً على جمع المواد الغذائيه لتستفيد منها طيله مدّه الهجره.

١٢. للطيور مقاومه شديده لدرجات الحراره والبروده فهى صامده حتى فى درجه تحت الصفر، وحراره جسمها أعلى من درجه حراره جسم الإنسان وتصل إلى ٤٥ درجه فوق الصفر(١).

١٣. خدمات الطيور للإنسان كثيره، فطعام أغلب هذه الطيور من الحشرات، وطيور الصيد تحول دون مضاعفه نسل الطيور الأخرى، وهنالك الطيور التى تتغذى على الميتة فتطهر سواحل البحار وسطح الأرض كما تلعب دوراً فى القضاء على الآفات.

١٤. نقل شارح نهج البلاغه عن كتاب روبرت لمن

«كل شىء عن الطيور» والذى ترجمه الدكتور بدران، أنّ البعض يعتقد أنّ على وجه الأرض أكثر من مئه مليار طير أكبرها النعامه التى يبلغ طولها مترين ونصف... وأصغرها الطنان وطوله خمسه سانتى مترات، وتحلق بسرعه حيث تبلغ سرعتها أكثر من تسعين كيلومتر بالساعه وتستطيع الوقوف مدّه طويله فى الجوى، وتبلغ خطوه بعض الطيور أكثر من سته أمتار. وتحلق بعض الطيور إلى سته آلاف متر فى الهواء بينما تغطس بعضها إلى

ص: ٢٥٧

١- (١) القاموس الثقافى وكتب أخرى

عمق ١٨ متر(١). وزبده الكلام فإنا لإنسان لا يملك إن تأمل هذا الخلق العجيب سوى الركون لله والإستسلام لقدرته المطلقة
وصنعه العجيب.

ص: ٢٥٨

١- (١). فى ضلال نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٦٧

وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلَقًا الطَّائِفُ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ، وَنَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصِيْبُهُ، وَذَنْبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ.

إِذَا دَرَجَ إِلَى الْأُنْتَى نَشَرَهُ مِنْ طِيَّهِ، وَسَمَّا بِهِ مُطَلًّا عَلَى رَأْسِهِ كَأَنَّهُ قَلْعٌ دَارِيٌّ عَنَجَهُ نُوثِيَّةٌ.

يَخْتَالُ بِالْوَانِهِ، وَيَمِيْسُ بِرَيْفَانِهِ. يُفْضِي كَأَفْضَاءِ الدِّيَكَةِ، وَيُوْرُ بِمَلَاقِحِهِ أَرَّ الْفُحُولِ الْمُعْتَلِمَةِ لِلضَّرَابِ. أُحْيَلِكُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُعَايَنَتِهِ، لَأَكْمَنُ يُحْيِلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْنَادُهُ. وَلَوْ كَانَ كَزَعَمٍ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعِهِ تَشْفِيْفَحَهَا مَدَامِعُهُ، فَتَقِفُ فِي ضَفَّتِي جُفُونِهِ، وَأَنَّ أَنْثَاهُ تَطْعَمُ ذَلِكَ، ثُمَّ تَبِيْضُ لَامِنَ لِقَاحٍ فَخَلَّ سَوَى الدَّمْعِ الْمُتَبَجِّسِ، لَمَا كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ الْغُرَابِ.

الشرح والتفسير: أعجب طير في العالم

بعد أن تطرق الإمام عليه السلام في المقطع السابق من الخطبه إلى عجائب عالم الطيور أشار هنا بالخصوص إلى أعجب وأجمل طيور الدنيا ألا وهو (الطاووس) الذي يضرب به المثل في الجمال حتى يستفاد من ريشه الجميل كعلامة للوصول إلى آيه معينه في القرآن وصنع المكناس لنكت الغبار عن الأضرحة المقدسه، حيث أشار الإمام عليه السلام الى بعض خصائص هذا الطائر فقال:

«وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلَقًا الطَّائِفُ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ، وَنَضَّدَ (١) أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ، بِجَنَاحٍ

ص: ٢٥٩

١- (١). «نضد» من ماده (تنضيد) بمعنى نظم الأشياء وترتيبها مع بعضها

أَشْرَجَ (١) قَصْبَهُ (٢) ، وَذَنَبٌ أَطَالَ مَسْحَبَهُ (٣) .

الشيء الأول الذى يلفت الانتباه فى الطاووس، الألوان الرائعة العجيبه لأجنحته وذيله الطويل نسبياً حيث يخط وراءه عندما يمشى ويتبختر كأنه العروس الجميله فى ليله زفافها. حقاً لا- يمكن وصف ألوان الطاووس بأى شكل من الأشكال، سوى أن يقف الإنسان مذهولاً أمام عظمه الخالق ويشاهد ويتمتع بهذا الطائر اللطيف. ما يجدر ذكره فى عالم الحيوانات أن الذكر يستغل مختلف الطرق بغيه جلب انتباه الأنثى له، فأحياناً عن طريق الصوت العذب وأخرى، الحركات الموزونه وبعض الحركات الأخرى، كما أشار الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة المهمه فقال:

«إِذَا دَرَجَ (٤) إِلَى الْبَأْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيْهِ (٥) ، وَسَيَّمَا بِهِ مُطَلًّا (٦) عَلَى رَأْسِهِ». حقا أن بسط الطاووس لجناحه لمن أروع المناظر ويعكس حاله من النسق والنظام الرائع.

ثم أورد الإمام عليه السلام تشبيها لذلك فقال:

«كَأَنَّهُ قَلْعٌ (٧) دَارِيٌّ (٨) عَنَجُهُ (٩) نُوتِيَّةٌ (١٠)». ربّما

ص: ٢٤٠

-
- ١- (١) «أشرج» من ماده (أشراج) بمعنى خلط الأشياء مع بعضها أو إدخال الجبال والخيوط بكيس أو صندوق مع بعضها وإحكام غلقها
 - ٢- (٢) «قصب» بمعنى ساق النبات الأجوف
 - ٣- (٣) «مسحب» من ماده (سحب) على وزن (سهو) السحب على الأرض، وله هنا معنى المصدر أو اسم المصدر
 - ٤- (٤) «درج» من ماده (درج) على وزن خرج، المشى إلى موضع معين أو صعود السلم، والمعنى الأول هو المراد فى عبارته الخطبه، كما يطلق على حركة الطفل البطينه
 - ٥- (٥) «طى» بمعنى اللوى من طيه، وفى الخطبه بمعنى بعد طيه، إشاره إلى أن الطاووس يفتح جناحيه المركبين
 - ٦- (٦) «مطل» من ماده (طل) على وزن حل، بمعنى المشرف والنظر من الأعلى والمعنى الأول هو المراد فى العبارة
 - ٧- (٧) «قلع» شراع السفينه
 - ٨- (٨) «دارى» ينسب إلى (دارين) فى البحرين مركز تجاره المسك ومفهوم العبارة أن الطاووس ينشر مظلته كأنه شراع السفينه التى تجلب العطر من دارين
 - ٩- (٩) «عنج» من ماده (عنج) على وزن رنج، السحب والغلق
 - ١٠- (١٠) «نوتى» ربان السفينه من ماده (نوت) على وزن فوت الحركه هنا وهناك واطلاق هذه المفرده على الربان لأنه يحرك السفينه كيفما يشاء

كان هذا التشبيه لأنَّ حركة الشراع نحو المقصد تمنح السفينه جمالاً خاصاً، الطاووس أيضاً عند حركته وفتحته لمطلته يجلب انتباه الآخرين لجماله وروعته.

ثم قال عليه السلام:

«يَخْتَالُ (١) بِالْوَانِهِ، وَيَمِيسُ (٢) بَرِيفَانِهِ (٣). يُفْضَى (٤) كَافْضَاءِ الدِّيَكَةِ، وَيُؤْرُ (٥) بِمَلَاقِحِهِ (٦) أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ (٧) لِلضَّرَابِ (٨)». الواقع أنَّ هذا الكلام مقدمه لابطال بعض خرافات عامه الناس بشأن هذا الطائر (ويالها من خرافات كثيره يحيكها العوام بشأن عجائب الحيوانات) لذلك قال:

«أَحِيلُكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُعَايِنَتِهِ، لَا كَمَنْ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْنَادُهُ».

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً:

«وَلَوْ كَانَ كَرَعَمٌ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعِهِ تَشْفِيحَهَا (٩) مَدَامِعُهُ (١٠)، فَتَقِفُ فِي ضَفَّتِي (١١) جُفُونِهِ (١٢)، وَأَنَّ أَنْشَاءَ تَطْعَمُ ذَلِكَ، ثُمَّ تَبِيضُ لَأَمِنْ لِقَاحٍ فَحَلٍ سِوَى الدَّمْعِ الْمُتَبَجِّسِ (١٣)، لَمَا كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ (١٤) الْغَرَابِ». إشاره إلى عدم التعجب من هذه الخرافه التي قيلت بشأن الطاووس، فقد قيل الأعبج من ذلك بشأن الغراب، أنه ليس هنالك من جماع لدى الغراب بل إنَّ أراد لأنشاء الحمل يضع منقاره في منقارها وينقل إليها مقداراً من الماء من القامصه الذكريه فتحمل، وهو كلام باطل ولقد شوهد الجماع كراراً لدى الغراب، وإن سعى إلى الإبتعاد عن

ص: ٢٤١

١- (١). «يختال» من ماده (اختيال) بمعنى التكبر والغرور الذى يظهر عاده من الخيال الفارغ

٢- (٢) «يميس» من ماده (ميس) على وزن حيث الحركة والغرور

٣- (٣) «زيفان» المشى المتبختر تأكيد لعباره يميس

٤- (٤) «يفضى» من ماده (افضاء) كناية عن اللقاح وتعنى فى الأصل التوسعه

٥- (٥). «يؤر» من ماده (أر) على وزن شر، الجماع واللقاح

٦- (٦) «ملاقح» جمع ملقحه، من ماده (اللقاح)، الآله التناسليه وتعنى الحمل

٧- (٧) «مغتمه» من ماده (غلمه) على وزن لقمه، شده الشهوه، وفحول مغتمله بعض الحيوانات التى تندفع من شبقية الشهوه

٨- (٨) «الضراب» لقاح الفحل لأنشاء

٩- (٩). «تسفع» من ماده (سفع) على وزن محو، نبع الدموع والسفاح، سفك الدم

١٠- (١٠). «مدامع» جمع مدمع، على وزن منبر، مجرى الدمع

١١- (١١) «ضفه» ساحل النهر أو البحر، حيث شبه الأجفان بجانبى النهر

١٢- (١٢) «جفون» جمع جفن، معروفه فى العين

١٣- (١٣). «منبجس» من ماده (انبجاس) وأصله بجس على وزن نحس، نبع الماء بصوره رقيقه وشفافه

١٤- (١٤) «مطاعمه» من ماده (طعم) بمعنى تناول الطعام مع الآخرين، ومن ثم أطلق على عمل الطيور التي تضع مناقيرها في مناقير الأخرى وكأنّ كل واحد يطعم الآخر

أنظار الناس، وعليه فعملية الجماع لديه خفيه حتى ضرب المثل به لدى العرب ف قيل:

«أخفى من سفاد الغراب» ولعل سبب هذه الخرافة أنّ أغلب الطيور تضع مناقيرها أمام مناقير الطيور الأخرى قبل الجماع وهذا ما جعل البعض يلتبس عليه الأمر. وشبيه ذلك ما قيل في الطاووس من أنّ الأنثى تمتص دمع الذكر قبل الجماع(1).

سؤال: وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: ترى من الذى جعل الإمام عليه السلام يتعرض لهذه الخرافة بشأن الطاووس أو الغراب، والحال لو كان الأمر كذلك لكان من عجائب الخلقه وغرائبها؟

والجواب: أنّ الناس لو اتجهوا صوب الخرافات لإثبات العجائب والغرائب لاضطربت الواقعيات وسلبت نتائجها المطلوبه. والسؤال الآخر الذى يرد هنا لم يكن فى الحجاز طاووس ليرى الإمام عليه السلام عملية التلقيح فكيف ورد هذا الكلام؟

أجاب ابن أبى الحديد فى شرحه لهذه الخطبه من نهج البلاغه أنّ المدينه وإن خلت من هذا الطائر غير أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبه فى الكوفه التى كان يجلب إليها كل شىء بما فيها هدايا وصفايا الملوك، وعليه فليس من العجيب أنّ الإمام عليه السلام شاهد الطاووس وحركاته(2).

ص: ٢٤٢

١- (١) وعليه فما ذكر جواب القضية الشرطيه «ولو كان...» جمله «لما كان ذلك بأعجب...»

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٢٧٠

تَخَالَ قَصَبُهُ مِدَارِي مِنْ فَضِّهِ، وَمَا أُنبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ، وَشُمُوسِهِ خَالِصِ الْعَقِيَانِ، وَفَلَدِ الزَّبْرِجِدِ. فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أُنبِتَتِ
الْمَارِضُ قُلْتُ: جَنَى جُنَى مِنْ زَهْرِهِ كُذِّلَ رَيْعٌ. وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ بِالْمَلَابِسِ فَهُوَ كَمُوشَى الْحَمَلِ، أَوْ كَمُونِقِ عَصَبِ الْيَمَنِ. وَإِنْ شَاكَلْتَهُ
بِالْحَلِيِّ فَهُوَ كَفَضِيٍّ وَصِ ذَاتِ الْوَانِ، قَدْ نُطِقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ. يَمَشِي مَشَى الْمَرْحِ الْمُخْتَالِ، وَيَتَصَفَّحُ ذَنْبَهُ وَجَنَاحَيْهِ، فَيَقَهْقَهُ
ضَاحِكًا لِحَمَالِ سَرِّبَالِهِ، وَأَصَابِيغِ وَشَاحِهِ؛ فَإِذَا رَمَى بَبَصَرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَا مُعْوَلًا بِصَوْتٍ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ اسْتِغَاثَتِهِ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ
تَوَجُّعِهِ، لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمُشٌ كَقَوَائِمِ الدَّيْكَهِ الْخِلَاسِيِّهِ. وَقَدْ نَجَمَتْ مِنْ طُثُبِ سَاقِهِ صِصِيهٌ خَفِيَّةٌ.

الشرح والتفسير: صورته رائعة لجناح الطاووس

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى عجب خلقه الطاووس من خلال وصف جناحه وريشه الملون الرائع
ليشرح ذلك بعبارات فصيحها بليغها وتشبيهات غايتها في الروعة فقال:

«تَخَالَ قَصَبُهُ (١) مِدَارِي (٢) مِنْ فَضِّهِ، وَمَا أُنبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ (٣)، وَشُمُوسِهِ خَالِصِ الْعَقِيَانِ (٤)، وَفَلَدِ (٥) الزَّبْرِجِدِ (٦)».

ص: ٢٤٣

١- (١). «قصب» بمعنى عمود الريش

٢- (٢) «مداري» جمع مدرى، على وزن املاء، بمعنى المشط

٣- (٣) «دارت» جمع داره، بمعنى الحلقة أو الهاله لطرف القمر

٤- (٤) «عقيان» بمعنى الذهب

٥- (٥) «فلد» جمع فلده، على وزن بدعه، بمعنى القطعه

٦- (٦) «زبرجد» حجر ثمين للزينة له عدده ألوان وأشهره الأخضر، و من هنا يُشَبَّه كل شيء أخضر اللون جميل بالزبرجد

يعلم كل من رأى ريش الطاووس أن ألوانه خارقه فى الجمال، إلّا أنّ هنا لك لونين يجليان الإنتباه أكثر من غيرهما، هما اللون الأصفر - الذى يلمع كالذهب الخالص، واللون الأخضر الذى يشبه قطعات الزبرجد (ذلك الحجر النفيس الأخضر اللون والذى يستخدم فى الزينه وتاج الملوك) ومن هنا ركز الإمام على هذين اللونين من بين سائر الألوان، والغريب أن جميع ريشه الجميل نبت على قصبه بيضاء شبهها الإمام عليه السلام بالفضه. ثم شبه الإمام عليه السلام جناحى الطاووس بغيه زياده التوضيح تارة بالأزهار الربيعه المتنوعه الألوان وأخرى، بالثياب النفيسه الملونه.

وأخيراً التيجان المرصعه بها، فقال:

«فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أُتْبِتَتِ الْأَرْضُ قُلْتَ: جُنَى (١) جُنَى مِنْ زَهْرِهِ كُلِّ رَيْعٍ». ذكر بعض شراح نهج البلاغه أنه يوجد فى بعض البلدان عشره آلاف نوع من البراعم والزهور ولكل جماله الخاص به.

ثم ذكر الإمام عليه السلام تشبيها آخر وعبارته رائعه فقال:

«وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ (٢) بِالْمَلَابِسِ فَهُوَ كَمَوْشَى (٣) الْحُلَلِ، أَوْ كَمُوتِقٍ (٤) عَصَبِ الْيَمَنِ» والتشبيه الثالث والأخير:

«وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ (٥) ذَاتِ أَلْوَانٍ، قَدْ نُطِقَتْ بِاللُّجَيْنِ (٦) الْمَكَلِّ (٧)». فقد كان لقدماء الملوك تيجان مفعمه بالنقوش والألوان ومليئه بالمجوهرات حيث يجعلون المجوهرات على شريط أو يخيطنونها عليه بخيوط رقيقه ليزينوا بها تيجانهم.

ص: ٢٦٤

١- (١) . «جنى» بمعنى الحصاد، وقيل باقه الزهور

٢- (٢) . «ظاهيته» من ماده (مظاهاه) بمعنى، التشبيه

٣- (٣) . «موشى» بمعنى المنقوش من ماده (وشى)، بمعنى النقش والنميمة أيضاً

٤- (٤) «موتق» بمعنى الجميل والعجيب من ماده انق

٥- (٥) . «فصوص» جمع فص على وزن نص، فص الخاتم

٦- (٦) «لجين» بمعنى الفضه

٧- (٧) «مكلل» ذواتاج من ماده (إكليل)، بمعنى التاج، كما يطلق على ما يزين بالمجوهرات

والقصبات التي تتوسط جناحي الطاووس - كما وردت سابقاً في عبارته الإمام عليه السلام - بيضاء كالفضه والريش على جانبيها كالمجوهرات. الواقع، أن النقوش الجميله والملونه لا تعدو عاده أحد هذه الأشياء الثلاثة: باقه الورد والملابس والجواهر. وقد استعان الإمام عليه السلام بالتشبيهاث الثلاثة بتلك العبارات الفصيحه البليغه ليجسد جماليه ريش الطاووس.

ثم واصل عليه السلام كلامه ليخوض في شرح الطاووس من خلال مشيه ونظرته لنفسه فقال:

«وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُضُوصِ ذَاتِ الْوَانِ، قَدْ نُطِقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ، يَمْشِي مَشْيَ الْمَرْحِ (١) الْمُخْتَالِ (٢)، وَيَتَصَفَّحُ ذَنْبَهُ وَجَنَاحَيْهِ، (٣) فَيَقْهَقُهُ ضَاحِكًا لِحِمَالِ سَرْبَالِهِ، وَأَصَابِيغِ (٤) وَشَاحِهِ (٥)؛ فَإِذَا رَمَى بِبَصِيرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَا (٦) مُعْوَلًا (٧) بِصَوْتٍ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ اسْتِعَاثَتِهِ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوْجِعِهِ، لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمَشٌ (٨) كَقَوَائِمِ الدَّيْكَهِ الْخِلَاسِيِّهِ (٩). وَقَدْ نَجَمَتْ (١٠) مِنْ طُنْبُوبِ (١١) سَاقِهِ صَيْصِيئَهُ (١٢) حَفِيئَةً». فقد أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه لطيفه وهى أن الله سبحانه جعل في هذا الطائر بعض نقاط الضعف رغم آيات الجمال، وإذا ما شعر حيناً بالغرور ودفعه ذلك للضحك بالقهقهه فإنه لا يكاد يخفى ألمه إن وقعت عينيه على نقصه. وبالطبع فإن هذا نموذج من عالم الخلق الذى حال فيه الحكيم دون الغرور والطغيان الناشئ من الشعور بالقوه حيث جعل قدرًا من الضعف والنقص بغيه التوازن والقضاء على الغرور والغفله. فهنالكَ الكسل والعجز الذى يطارده الشباب والنشاط، والمرض والسقم الذى يتبع الصحه والعافيه،

ص: ٢٤٥

- ١- (١). «مرح» بمعنى سكر النعمه والقدره، من ماده (مرح) على وزن فرح، بمعنى شدّه السرور
- ٢- (٢) «مختال» المتكبر والزاهى بنفسه، من ماده (خيال)
- ٣- (٣) قال الراغب فى المفردات: الثوب ويطلق على مطلق اللباس
- ٤- (٤). «أصايغ» جمع أصباغ، و «أصباغ» جمع صبغ، بمعنى اللون
- ٥- (٥) «وشاح» شريط عريض جميل يلقى على الكتف ويحمل
- ٦- (٦) «زقا» من ماده (زقو) على وزن ضعف، بمعنى الصيام
- ٧- (٧) «معول» بمعنى رفع صوته بالبكاء، وأصله عويل
- ٨- (٨). «حمش» جمع أحمش الشخص أو الشئ النحيف الرجل كما وردت بمعنى اللون الغامق
- ٩- (٩). «الخلاسى» الديك المتولد من دجاجتين هنديه وفارسيه
- ١٠- (١٠) «نجمت» من ماده (نجم) على وزن حجم، بمعنى نبتت
- ١١- (١١) «طنبوب» الإنحراف والإعوجاج
- ١٢- (١٢) «صيصيه» شوكة فى رجل الديك وتعنى أيضاً، المشط الذى يصفف به القماش قبل نسجه

والفقر الذى يجرى خلف الغنى، وإدبار الدنيا الذى يحثّ الخطى نحو إقبالها. نعم هذه إحدى فلسفات المرض والعجز وسائر المحن والويلات.

ص: ٢٦٦

وَلَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ قُنُزَعَةٌ خَضْرَاءُ مُوشَاءٌ. وَمَخْرُجُ عُنُقِهِ كَالْبُرَيْقِ، وَمَعْرُزُهَا إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصَبْغِ الْوَسْمَةِ الْيَمَانِيَّةِ، أَوْ كَحَرِيرِهِ مُلْبَسِهِ مِرْآةَ ذَاتِ صِقَالٍ، وَكَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ بِمِعْجَرٍ أَسِيحِمٍ؛ إِلَّا أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ، وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ، أَنَّ الْخَضِرَةَ النَّاصِرَةَ مُمْتَرِجَةً بِهِ. وَمَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ خَطُّ كَمْسِدِ تَدَقُّ الْقَلَمِ فِي لَوْنِ الْأَقْحُوَانِ، أَيْضُ يَقُقُّ، فَهُوَ بَيَاضُهُ فِي سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ. وَقَلَّ صَبْغُ إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بَقِيسُطٍ، وَعَلَاهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وَبَرِيقِهِ، وَبَصِيصِ دِيبَاجِهِ وَرَوْنِقِهِ، فَهُوَ كَالْأَزَاهِيرِ الْمَبْتُوثَةِ، لَمْ تُرَبِّهَا أَمْطَارُ رَبِيعٍ، وَلَا شُمُوسُ قَيْظٍ.

الشرح والتفسير: صورته دقيقة عن جمال الطاووس

خاض الإمام عليه السلام هنا بعبارات فصيحته بليغه في خمس خصائص أخرى تعكس جمال الطاووس ليذكر من خلالها هذه الجماليه على ضوء مظاهر جمال الله وجلاله، فقال:

«وَلَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ (١) قُنُزَعَةٌ (٢) خَضْرَاءُ مُوشَاءٌ (٣)». العرف عند العرب، شعيرات طويله تبدأ من أعلى الكتف والرقبه حتى خلف الرأس لتنتهي بين الأذنين فيكون كالتاج وحيث هذا التاج أخضر براق في الطاووس فإنه يمنحه جمالاً يسحر الأبصار ويلفت نظر الإنسان إلى مبدأ هذا الجمال الساحر.

ص: ٢٤٧

١- (١). «العرف» ما على الرأس من شعر

٢- (٢) «قنزعه» الخصله من الشعر

٣- (٣) «موشاه» بمعنى منقوشه

وقال فى الخاصيه الثانيه:

«وَمَخْرُجُ عُنُقِهِ كَالْبَرِيقِ (١) ، وَمَعْرُزُهَا (٢) إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصِنْعِ الْوَسْمِ (٣) الِئِمَائِيَّةِ، أَوْ كَحَرِيرِهِ مُلْبَسَهُ مِرْآةَ ذَاتِ صِقَالٍ (٤)».

وقال فى الثالثه:

«وَكَأَنَّهُ مُتَلَفَعٌ (٥) بِمَعْجَرٍ (٦) أَسْحَمٍ (٧) ؛ إِلَّا أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ، وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ، أَنَّ الْخُضْرَةَ النَّاصِرَةَ مُمْتَرِجَةٌ بِهِ».

وقال فى الخاصيه الرابعه:

«وَمَعَ فَتْحٍ سَمِعَهُ خَطُّ كَمُسْتَدَقٍّ (٨) الْقَلَمِ فِي لَوْنِ الْأَقْحَوَانِ (٩) ، أَيْضُ يُقَقُّ (١٠) ، فَهُوَ بِيَّاضِهِ فِي سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ (١١)».

وأخيراً قال فى الخاصيه الخامسه:

«وَقَلَّ صِبْغٌ إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ، وَعَلَاهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وَبَرِيقِهِ (١٢) ، وَبَصِيصٌ (١٣) دِيْبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ (١٤) ، فَهُوَ كَالْأَزَاهِيرِ الْمُبْثُوثَةِ، لَمْ تُرَبِّهَا أَمْطَارُ رَّبِيعٍ، وَلَا شُمُوسٌ قَيْظٍ (١٥)».

إنَّ التمعن فى هذه الخواص الخمس للطاوس إضافه لما ذكر فى مقاطع الخطبه السابقه يكشف من جانب، عن عظمه وقدره المصور الماهر الذى جمع كل هذا الحسن والجمال فى هذا المخلوق وجعله نموذجاً لأنواع الجمال، حيث أدنى وقفه

ص: ٢٤٨

- ١- (١) . «بريق» وقال البعض فيها أن أصلها فارسى (أبريز) الذى يستعمل لغسل اليد أو الفم قبل تناول الطعام أولرش الورد فى الضيافه وقد صنع أنبوبها بانحناء خاص وشكل جميل
- ٢- (٢) «معرز» بمعنى موضع الغرز
- ٣- (٣) «وسمه» لون خاص تخبب به اللحيه والحاجب
- ٤- (٤) «صقال» بمعنى الجلاء
- ٥- (٥) . «متلفع» بمعنى الملفوف، من ماده (لفع) على وزن نفع، الاحاطه وستر جميع الأشياء
- ٦- (٦) «معجر» بمعنى المقنعه والربطه
- ٧- (٧) «اسحم» بمعنى الأسود
- ٨- (٨) . «مستدق» بمعنى النحيف والرقيق، من ماده (دق)، على وزن حق
- ٩- (٩) «الاقحوان» بمعنى البابونج
- ١٠- (١٠) «يقق» بمعنى شديد البياض، من ماده (يقوقه)
- ١١- (١١) «يأتلق» بمعنى يلمع، من ماده (التق)، على وزن دلق
- ١٢- (١٢) . «بريق» بمعنى لمعان، من ماده (برق)

۱۳- (۱۳) «بصيص» بمعنى اللمعان

۱۴- (۱۴) «رونق» بمعنى الحسن، من ماده (رنق)، على وزن فتق

۱۵- (۱۵) «قيظ» بمعنى شده الحراره

عند هذا المخلوق دليل على وجود الخالق سوى لهذا المخلوق البديع لكفى في الوقوف على الخالق العظيم، وكلما أوغل الإنسان أكثر وتعمق أصبح أكثر خضوعاً لخالقه الحكيم ونطق بلسان حاله: يا لك من مخلوق رائع جميل، فما أجمل من خلقك ومنحك كل هذا الجمال. ومن جانب آخر، نقف على مدى عظمه هذا الإمام العظيم بطل التوحيد ومدى دقته في عرض عجائب وجمال عالم الخلق وإرشاده الخلق إلى الخالق، والحق أنّ أحداً لم يستطع أن يتحدث عن جمال هذا الطائر كما تحدث الإمام عليه السلام.

ص: ٢٦٩

وَقَدْ يَنْحَسِرُ مِنْ رِيْشِهِ، وَيَعْرَى مِنْ لِيَّاسِهِ، فَيَسِدُّ قُطُّ تَتْرَى، وَيَنْبُتُ تِبَاعاً، فَيَنْحَتُّ مِنْ قَصَبِهِ انْحِتَاتٍ أَوْزَاقِ الْأَغْصَانِ، ثُمَّ يَتَلَاخَقُ نَامِيّاً حَتَّى يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ، لَأِيْخَالَفَ سَالِفَ أَلْوَانِهِ، وَلَا يَقَعُ لَوْزٌ فِيْ غَيْرِ مَكَانِهِ! وَإِذَا تَصَيَّفَتْ شَعْرَةٌ مِنْ شَعْرَاتِ قَصَبِهِ أَرْتَكَ حُمْرَةً وَرَدِيَّةً، وَتَارَةً خُضْرَةً زَبْرَجِدِيَّةً، وَأَحْيَاناً صُفْرَةً عَسَجِدِيَّةً، فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفِهِ هَذَا عَمَائِقُ الْفِطَنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ الْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ!

وَأَقْلُ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الْأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ، وَاللَّسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ! فَسُدِّبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقِ جَلَاءِ اللَّعْيُونِ، فَأَذْرَكَتُهُ مَحْدُوداً مُكَوَّنًا، وَمُؤَلَّفًا مُلَوَّنًا؛ وَأَعْجَزَ الْأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ!

الشرح والتفسير: حيره العقول في الوصف

أشار الإمام في هذا المقطع والذي يمثل ختام الكلام في الطاووس إلى أمرين مهمين؛ الأول قال:

«وَقَدْ يَنْحَسِرُ (١) مِنْ رِيْشِهِ، وَيَعْرَى مِنْ لِيَّاسِهِ، فَيَسِدُّ قُطُّ تَتْرَى (٢)، وَيَنْبُتُ تِبَاعاً، فَيَنْحَتُّ (٣) مِنْ قَصَبِهِ انْحِتَاتٍ أَوْزَاقِ الْأَغْصَانِ، ثُمَّ يَتَلَاخَقُ نَامِيّاً حَتَّى يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ».

ص: ٢٧١

١- (١). «ينحسر» يعنى يعرى ويتكشف، من ماده (حسر)، على وزن حشر، بمعنى العرى

٢- (٢) «تترى» من ماده (وتر)، بمعنى الواحد، وتأتى بمعنى الواحد تلو الآخر

٣- (٣). «ينحت» يعنى يتقشر، من ماده (نحت)، على وزن تخت، التقشر

ثم قال:

«لَا يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ، وَلَا يَقَعُ لَوْنٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ!». لا شك في أنّ ريش الطاووس ورغم كل هذا الجمال لكنه قد يتعرض مع مرور الزمان إلى الإتساخ بالتراب والغبار، ومن هنا فإنّ الله تعالى ينزع عنه كل سنه لباسه القديم ويغطي جسمه بلباس جديد وجميل ليبقى غضاً جميلاً على الدوام. غالباً ما تسقط أوراق الأشجار في فصل الخريف ويسلب الطاووس نشاطه وحيويته، وحين تتفتح الأزهار في فصل الربيع تدب الحيويه في الطاووس ويكتسى حله الجديده ملونه تجعل قصبه الأبيض الفضى اللون يبدو كسيقان الأشجار.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه لطيفه فقال:

«وَإِذَا تَصَيَّفَتْ شَعْرَةٌ مِنْ شَعْرَاتِ قَصْبِهِ أَرْتَكَ حُمْرَهُ وَرُدِّيَّهُ، وَتَارَهُ خُضْرَهُ زَبْرَجِدِيَّهُ، وَأَخْيَانًا صُفْرَهُ عَسْجِدِيَّهُ (١)». لما كانت على ريش الطاووس دوائر جميله بألوان مختلفه، وكل لون يختص بخصله معينه لتبدو بصوره رائعه.

وأخيراً يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة فقال:

«فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفِهِ هَذَا عَمَائِقُ (٢) الْفُطْنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ (٣) الْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ! وَأَقْلُ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الْأَوْهِيَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ وَالْأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ!». نعم؛ إن عجز الإنسان العاقل والمفكر عن الوقوف على عجائب الطاووس وتعذر عليه وصفه وإدراكه فكيف بعالم الخلقه وأسراره؟! وإضافه إلى النتيجة السابقه الواضحه في موضوع معرفه الله وإدراك عظمه الخالق وسعه علمه وقدرته إنّما خلص إلى نتيجته أخرى، فإن عجزنا عن إدراك كائن من هذه الكائنات فكيف لنا بإدراك كنه الذات والصفات والتعرّف على الله كما هو (٤)، فقال:

«فَسُبْحَانَ الَّذِي

ص: ٢٧٢

١- (١). «عسجديه» من عسجد، الذهب

٢- (٢). «عمائق» جمع عميقه، الدقيق والعميق

٣- (٣) «قرائح» جمع قريحه، بمعنى الذهنيه والذكاء الذى أودعه الله فى الفطره

٤- (٤). على ضوء التفسير المذكور فإنّ جميع الضمائر تعود إلى الطاووس، وهذا ما فهمه أغلب شراح نهج البلاغه وإن مروا عليه بنوع من الإجمال والإبهام، كما يحتمل أن يعود الضمير فى العبارة (أعجز الألسن عن تلخيص صفته) وكذلك العبارة (عن تاديه نعته إلى الله تعالى). وعليه فمفهوم العبارة: أنّى للعقل بإدراك كنه الذات والصفات وهى عاجزه عن إدراك صفات المخلوق

بَهَرَ (١) الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقِ جَلَاءِ (٢) لِلْعُيُونِ، فَأَذْرَكَهُ مَخِيدُوا مُكُونًا، وَمَوْلَفًا مُلَوَّنًا؛ وَأَعْجَزَ الْأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ (٣) صِفَتِهِ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيهِ نَعْتِهِ!.

تأمل

غرائب الطاووس

إنَّ عالم الخليقة لعجيب كيفما نظرنا إليه، إلَّا أنَّ هنالك البعض الأعجب غيره ومن ذلك الطاووس. فهذا الطائر فريد في الجمال ومن هنا ضرب به المثل. لقد اصطبغ ريشه بعدّه ألوان جميلة، وإن نشر جناحيه بدأ أكثر جمالاً وروعاً ويفعل ذلك على وجه السرعة حين تلحظه أنشاه ليلفت نظرها إليه، فهو يبدو كالعروس التي ترتدى حلتها ليله الزفاف، ويشعر بالمتعة من هذا المنظر فيمشى باختيال وغرور ويختتم ذلك بقهقهة ضاحكاً.

يبلغ عمر الطاووس ٢٥-٢٠ سنة وتبيض الأنثى في الثالثة من العمر، تبيض الأنثى عادة مرّة في العام وتضع ١٢ بيضة، إلَّا أنَّ كثرة حرركاته تجعله لا- يحافظ على بيوضه، لذلك توضع البيضة تحت بطن آخر لتفقس، يعتبره اليونانيون والرومانيون طائراً مقدساً، بينما يراه الآخرون مشؤوماً أدى إلى دخول ابليس إلى الجنّة، يبلغ طوله من منقاره إلى انتهاء ذيله أكثر من مترين، والأنثى أقصر من الذكر.

وكما ذكر الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة فإنَّ هنالك خرافة سائده بين الناس بشأن حمل الطاووس وأنَّ الذكر حين يتهبج يضع قطره دمع في عين الانثى فتمتصها

ص: ٢٧٣

١- (١). «بهر» من ماده (بهر)، على وزن نهر، بمعنى الغلبه والقهر

٢- (٢) «جلاه» يعنى أظهره، من ماده (جلاء)

٣- (٣) «تلخيص» ورد بمعنى الشرح، وكذلك الخلاصه والمعنى الأول الأول هو المراد هنا

وتحمل، والواقع أنه يلقح انثاه على أساس الجماع كما لوحظ ذلك كثيراً. عادة ما يربى هذا الطائر الجميل الذي يستفاد منه في الزينه، وهنالك من يتناول لحمه، غير أن الشريعة الإسلاميه حرمت ذلك (1).

ص: ٢٧٤

١- (١) جواهر الكلام، ج ٣٦، ص ٣٠٩؛ راجع حياه الحيوان للدميري، وقاموس دهخدا، والزولوجى الحديث

وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوَائِمَ الذَّرَّةِ وَالْهَمَجِ إِلَى مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحَيْتَانِ وَالْفَيْلِ! وَوَأَى عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا يَضْطَرِبَ شَيْخٍ مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ، إِلَّا وَجَعَلَ الْحِمَامَ مَوْعِدَهُ، وَالْفَنَاءَ غَايَتَهُ.

الشرح والتفسير: الديدان والفيله والحيتان

أشار الإمام هنا بصورة عابرة إلى عجائب سائر الأحياء حتى لا يتصور أنّ العجائب تقتصر على الطاووس، فقال:

«وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ (١) قَوَائِمَ (٢) الذَّرَّةِ (٣) وَالْهَمَجِ (٤) إِلَى مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحَيْتَانِ (٥) وَالْفَيْلِ!». فقد أشار الإمام إلى حشرتين من أصغر الحشرات على الأرض صغار النمل والذباب وإلى أضخم وأكبر حيوانين هما الحوت في البحار والفيل في اليابسه، ولقد لفت الإنتباه إلى أيدي وأرجل صغار الحشرات، اليد والرجل التي تضاهي يد الفيل ورجله فتتحرك يميناً وشمالاً وتأخذ أوامرها من الدماغ وتشتمل على الأعصاب والعضلات والمفاصل وما شابه ذلك، والحق لو جعلنا رجل هذه الدوده الصغيره تحت المجهر وتأملنا بنيتها لتعرفنا على قدره الله تعالى وعلمه المطلق.

ص: ٢٧٥

١- (١) . «ادمج» من ماده «دموج»، بمعنى الاستحكام

٢- (٢) «قوائم» جمع قائمه، بمعنى العمود، وهنا إشاره إلى الأيدي والارجل التي تعتبر أعمده البدن

٣- (٣) «ذره» صغار النمل، وبمعنى الغبار، كما تطلق على الذره فى الكيمياء

٤- (٤) . «همجه» ذباب صغير، وجمعه همج

٥- (٥) «حيتان» جمع حوت معروفه

كذلك لو تأملنا الحيوانات الكبيره حيث إن زنه بعض الحيتان تبلغ طناً وترضع فراخها اللبن تحت الماء، حيث تسكب الأم اللبن في الماء ويمتصه الوليد فوراً، وتنطوى سائر عجائبها على الدروس البليغه في التوحيد ومعرفه الله، نعم؛ إن هذه الديدان - على سبيل المثال - كثيره من حولنا وقد اعتدنا على رؤيتها فلم نعد نلقت إلى أن بنيتها تفوق بنيه الطائر الضخمه. قال الله تعالى في كتابه العزيز: «وَكَأَيُّنْ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» (١).

وأشار الإمام عليه السلام أخيراً إلى مصير الأحياء كآفه، أي الموت والعدم، فقال:

«وَوَأَى (٢) عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا يَضْطَرِبَ شَيْخ (٣) مِّمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ، إِلَّا وَجَعَلَ الْحَيَاةَ مَوْعِدَهُ، وَالْفَنَاءَ غَايَتَهُ». أجل؛ إن الموت هو مصير كل ذى روح وهذا الكلام هو إشاره إلى أن الدنيا لا تدوم رغم كل ما فيها من جمال وعجائب ولا يمكن التعلق بها، ومن جانب آخر يمكن الوقوف على عظمه الله تعالى بصوره أفضل من خلال مقارنه موت هذه الموجودات بحياتها، لأن أهميته كل شيء تظهر حين فناءه.

تأمل: غيض من عجائب الحيتان والفيله

سنخوض في شرح الخطبه ١٨٥ التي أوردها الإمام عليه السلام بشأن النمل إن شاء الله، ونشير هنا إلى الحيتان والفيله بصوره مختصره:

الحيتان

يقول العلماء: إن هنالك خمس عشر ألف نوع من الحيتان في بحار ومحيطات العالم، بعضها صغيره جداً لا تتجاوز سانتيمترين وبعضها الآخر كالحوت الذى يبلغ

ص: ٢٧٦

١- (١) سورة يوسف، الآية ١٠٥

٢- (٢). «وأى» من ماده «وأى»، على وزن سعى، بمعنى الوعد

٣- (٣) «شبح» بمعنى الشخص، وكل شيء يترأى للإنسان ويدركه الحس

طوله ثلاثين متراً ويزن ثلاثين طناً تنطوى على العديد من العجائب. فمعدتها كبيرة جداً تستوعب الكثير من المواد الغذائية، ويبلغ طول ولدها ستة أمتار حين الولادة.

وتتغذى فراخها على لبنها الذى يخرج من بدنها بغزاره. تتحرك دائماً على سطح الماء للتنفس ولا تستطيع البقاء أكثر من ساعه تحت الماء، فهي أكبر الحيوانات على الأرض وتعتبر من الثدييات. أبدانها دهنية، يستفاد منها فى الصناعات المختلفه ولا تملك أسناناً بل لها شفرات عظيمه طويله وخطيره تشبه الأسنان ويستفيد الصيادون من هذه الشفرات والغدد الدهنيه.

الفيله

يعتبر الفيل فى الوقت الحاضر من أكبر الحيوانات، والفيله نوعان: الفيله الهنديه ويطلق عليها الفيله الآسيويه، والآخر، الفيله الأفريقيه. والفيله الآسيويه أكبر ومستعده للتربيه أكثر من نظيرتها الأفريقيه. والواقع هو أنّ خرطوم الفيل بمثابة أنفه وشفته العليا، غير أنّه يقوم بعمل اليد عاده، أى أنّ الفيل يحمل الطعام بيده إلى فمه ويقذف الماء على ظهره عند الحراره. يتغذى الفيل على العلف حيث يجمعه من الأرض بخرطومه ويضعه فى فمه، كما يستعين بعاجه القوى والحاد على اقتلاع الأشياء من الأرض. الفيل حيوان ذكى جداً يمكن ترويضه للقيام بعده أعمال، كما يقوم بالعديد من الحركات السريعه والعجيبه فى السيرك. تعيش الفيله بصوره جماعيه وهذا بدوره دليل على ذكائها. تعمر أحياناً مائه وخمسين سنه! تعرف أسنان الفيل (بالعاج) الذى يعتبر من الأشياء النفيسه والذى تصنع منه أشياء الزينه.

كان قدماء الملوك والسلاطين عاده ما يشكلون جيشاً من الفيله ويزينون فيلتهم وينصبون عليها الأعلام. نعم؛ عجائب الحيتان والفيله أكبر من أن تختصر فى هذا البحث، وغرض الإمام عليه السلام من التطرق إلى هذه الخصاص إلفات الإنتباه إلى آيات الخلقه العظيمه(1).

ص: ٢٧٧

فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصِيرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا لَعَرَفْتَ نَفْسَكَ عَنْ يَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَمَدَاتِهَا، وَزَخَارِفِ مَنَاطِرِهَا، وَلَمَدَهَلَّتْ بِبِالْفِكْرِ فِي اضْطِطْفَاقِ أَشْجَارِ عُيَيْتِ عُرُوقِهَا فِي كُثْبَانِ الْمَسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا، وَفِي تَغْلِيْقِ كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَالِيْجِهَا وَأَفْنَانِهَا، وَطُلُوعِ تَلْمَعِ الشَّمَارِ مُخْتَلِفَهٗ فِي غُلُفِ أَكْمَامِهَا، تُجَنِّي مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ فِتْيَاتِي عَلَى مُتَبِعِيهَا، وَبُطَافٍ عَلَى نَزَالِهَا فِي أَفْتِيهِ قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَيَّفَةِ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ. قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكَرَامَةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ، وَأَمْنُوا نُقْلَهُ الْأَسْفَارِ. فَلَوْ شَغَلَتْ قَلْبَكَ أَهْيَا الْمُسْتَمِعِ بِالْوُصُولِ إِلَى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاطِرِ الْمُؤَنِقَةِ، لَزَهَقَتْ نَفْسُكَ شَوْقًا إِلَيْهَا، وَلَتَحَمَلْتَ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى مَحَاوِرِهِ أَهْلِيلِ الْقُبُورِ اسْتِعْجَالًا بِهَا. جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَى بِقَلْبِهِ إِلَى مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ.

الشرح والتفسير: نعم الجنة ومفاتها

يشير هذا المقطع من الخطبة كما يفهم من مضمونه وصرح به السيد الرضى إلى صفات الجنة، وبالطبع فإن هنالك مطالب أخرى بين هذا المقطع وما سبقه إلا أن السيد اقتطف هذه الرياحين كعادته، لكن يبدو أن الإمام تحدث سابقاً عن التوحيد، بينما تطرق هنا إلى المعاد، ليتكامل مبحث المبدأ والمعاد، أو بعبارة أخرى يعرض لنعم الجنة بعد هذه الدنيا. فقال:

«فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصِيرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا

لَعَزَفَتْ (١) نَفْسُكَ عَنْ يَدَائِعِ مَا أَخْرَجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَهْدَاتِهَا، وَزَخَارِفِ مَنَاطِرِهَا، وَلَذَهَلَتْ (٢) بِالْفِكْرِ فِي اضْيَاطْفَاقِ (٣) أَشْجَارٍ عُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُتُبَانِ (٤) الْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا».

وما أن فرغ الإمام عليه السلام من وصف الأشجار في الجنه، حتى تطرق إلى ثمارها فقال:

«وَفِي تَغْلِيْقِ كَبَائِسِ (٥) اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَى الْجِبْهَاتِ (٦) وَأَفْنَانِهَا (٧)، وَطُلُوعِ تَلْحَكِ الثَّمَارِ مُخْتَلِفَهٗ فِي غُلْفِ (٨) أَكْمَامِهَا (٩)، تُجْنَى (١٠) مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ فَتَأْتِي عَلَى مُنْبِيهِ مُجْتَنِيَهَا».

إن أحد معضلات أشجار الفاكهه فى الدنيا يكمن فى جنيتها الذى ينطوى على متاعب جمه، إلى درجه أن البعض يتسلق الشجره لعملية الجنى، فيفقد حياته. هذه هى طبيعه الدنيا فى مزج اللذّه بالألم، أما فى الجنه حيث لا موضع للألم وكل شىء على ما يرام وطبق المراد فإن ثمار الأشجار فى تناول الجميع، وعلى كل حال، سوى الوقوف أو الجلوس، بل على أساس بعض الروايات أن غصون الشجره تحضر بشارها عند الشخص كلما اشتهاها: «قُطُوفُهَا دَائِيَةٌ» (١١)، وفى أية أخرى:

ص: ٢٨٠

- ١- (١). «عزفت» من ماده (عزف)، على وزن حذف، الترك والانصراف عن شىء، كما وردت بمعنى اللعب واللهم
- ٢- (٢). «ذهلت» من ماده (ذهل)، بمعنى غفله العقل وترك الشىء ونسيانه
- ٣- (٣) «اصطفاق» بمعنى اضطراب شىء بحيث يحدث صوتاً كالتصفيق أو تضارب أوراق الأشجار
- ٤- (٤) «كُتُبَانِ» جمع كُتَيْب، بمعنى التل، من ماده (كتب)، على وزن حرب، بمعنى الجمع
- ٥- (٥). «كَبَائِسِ» جمع كَبَاسِه، على وزن حمايه، بمعنى عنقود الفاكهه وما شابهه
- ٦- (٦) «عَسَالِيحِ» جمع عَسَلُوج، على وزن بهلول، بمعنى غصن الشجره
- ٧- (٧) «أَفْنَانِ» جمع فن وفنن، على وزن قلم، بمعنى الغصن الطرى الملىء بالأوراق، ويقال الفنون لمختلف فروع العلم والمعرفه والصناعه وما شاكل ذلك
- ٨- (٨). «غلف» جمع غلاف، من ماده (غلف)، على وزن قصر، بمعنى الغطاء
- ٩- (٩) «أَكْمَامِ» جمع كم، على وزن جن، بمعنى الوعاء الذى يغطى الفاكهه، وجمع كم على وزن أم بمعنى الردن التى تغطى اليد
- ١٠- (١٠) «تُجْنَى» من ماده (جنى) على وزن نُهَى، بمعنى قطف الثمار
- ١١- (١١). سورة الحاقه، الآيه ٢٣

ثم خاض الإمام عليه السلام فى النعمة الأخرى فى الجنة فقال:

«وَيَطَافُ عَلَى نُزَالِهَا فِي أَفْنِيهِ(٢) قُصُورُهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ(٣)». وقد أشار القرآن إلى الشراب الطهور اللذيذ فى الجنة الذى لا- يصيب الرأس بالصداع ولا- يذهب بعقل الإنسان، ومن ذلك ما ورد فى سورة الدهر التى أشارت إلى هذا الشراب اللذيذ وأربع صور وطبائع: «إِنَّ الْمَأْبُرَّارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا... * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا... وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا»(٤) وقال فى موضع آخر:

«لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنَزَفُونَ»(٥).

ثم أشار عليه السلام إلى أوصاف الجنة فقال:

«قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكِرَامَةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ، وَأَمِنُوا نُقْلَهُ(٦) الْأَسْفَارِ». ويستفاد من هذه العبارة أن أصحاب الجنة حفظوا قدسياتهم وطهارتهم وورعهم إلى آخر عمرهم ولم يخذشوا الكرامه الإنسانية التى أشارت إليها الآية القرآنية: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...»(٧) فلقوا ربهم على الإيمان والعمل الصالح الذى ملأ كيانههم، كما تفيد العبارة، التأكيد على حسن العاقبه وأن كل شىء يتوقف على خاتمه الأمور والأعمال. وأخيراً يشعل فى قلوب الآخرين شعله

ص: ٢٨١

١- (١) سورة الرحمن، الآية ٥٤

٢- (٢) . «افنيه» جمع فناء، على وزن غناء، بمعنى الساحة ومقدمه الدار

٣- (٣) «مروقه» بمعنى المصفاه، من ماده (روق)

٤- (٤) . سورة الدهر، ٥ و ٦ و ١٧ و ١٨ و ٢١

٥- (٥) سورة الواقعة، الآية ١٩

٦- (٦) . «نقله» من النقل وتأتى أحياناً بمعنى النميمه

٧- (٧) . سورة الاسراء، الآية ٧٠

الشوق إلى لقاء اللطف الإلهي ونعمه التي لا تحصى في ذلك العالم:

«فَلَوْ شَغَلَتْ قَلْبِيكَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُصُولِ إِلَى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاطِرِ الْمُؤَنِقَةِ (١) ، لَزَهَقَتْ (٢) نَفْسِيكَ شَوْقًا إِلَيْهَا، وَلَتَحَمَلْتِ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى مُجَاوِرَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ اسْتِعْجَالًا بِهَا». أراد الإمام عليه السلام أن يؤكد في هذا الكلام على حقيقته هي أنّ عظمه نعم الجَنَّة أكبر من أن يحيطها وصف الإنسان، ولو تأملها الإنسان لذاب شوقاً إليها وكأنه يروم التحليق إليها، كما ورد ذلك في خطبه المتقين:

«فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا» (٣).

وهكذا اختتم الإمام عليه السلام الخطبه بهذا الدعاء:

«جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مَمَّنْ يَسْعَى بِقَلْبِهِ إِلَى مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ». إشاره إلى أنّ الإنسان لا يبلغ شيئاً دون أن تشمله رحمه الله.

تفسير بعض الكلمات الصعبة في الخطبه (من جانب الشريف الرضى):

قال السيد الشريف الرضى في آخر هذه الخطبه:

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«يُؤَرُّ بِمَلَأِجِهِ» الأُرُّ: كِنَايَةٌ عَنِ النِّكَاحِ، يُقَالُ: أَرَّ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ يُؤَرُّهَا، إِذَا نَكَحَهَا. وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«كَأَنَّهُ قَلْعٌ دَارِيٌّ عَنَجَهُ نُوتِيَهُ» القَلْعُ: شِرَاعُ السَّفِينَةِ، وَدَارِيٌّ:

مَنْسُوبٌ إِلَى دَارِينَ، وَهِيَ بَلَدَةٌ عَلَى الْبَحْرِ يُجْلَبُ مِنْهَا الطَّيْبُ. وَعَنَجَهُ: أَيْ عَطَفَهُ.

يُقَالُ: عَنَجْتُ النَّاقَةَ - كَنَصَرْتُ - أَعْنَجْتُهَا عَنَجًا إِذَا عَطَفْتُهَا. وَالتُّوتَى: الْمَلَأُجُ.

وقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«ضَفَّتِي جُفُونِهِ» أَرَادَ جَانِبِي جُفُونِهِ. وَالضَّفَّتَانِ: الْجَانِبَانِ. وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«وَفَلَذَ الرَّبْزَجِدَ» الْفِلْدُ: جَمْعُ فَلَذَةٍ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ. وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«كَبَائِسِ اللُّوْلُو الرِّطْبِ» الْكِبَاسَةُ: الْعِدْقُ وَالْعَسَالِيحُ: الْعُصُونُ، وَاحِدُهَا عُسْلُوحٌ.

تأمل: أيها أجمل؟

١- (١) . «مونقه» بمعنى المعجبه، من ماده (أنق)، على وزن شفق، الإعجاب بالشىء

٢- (٢) . «زهقت» من ماده (زهوق) على وزن غروب، بمعنى الهلكه

٣- (٣) نهج البلاغه، الخطبه ١٩٣

تحدث الإمام عليه السلام بكل فصاحته وبلاغته المعهودة في هذه الخطبه عن جمال هذا العالم أحياناً، وأحياناً أخرى عن جماليه العالم الآخر، لكنه ما أن يبلغ شرح نعم الآخرة حتى يشير إلى هذه الحقيقه وهى أن ما يتعلق بذلك العالم يتعذر بيانه، بحيث لو يراه الإنسان لتمنى المسارعه إليه. حقاً أن آداب الحياه الدنيا لا يسعها شرح الحياه الآخرة، وذلك أشبه بأن يسجن الإنسان منذ ولادته في غرفه ولما اكتمل عقله أرادوا أن يشرحوا له المناظر الجميله المتناثره في الحدائق والبساتين والشلالات ومختلف الأماكن الطبيعيه الرائقه، يحدثوه عن الطاووس وألوانه الجميله وأصوات الطيور العذبه، والفاكهه الذيده وسائر المناظر الخلابه، فبالطبع لا تسعفه الآداب التى تعلمها فى تلك الغرفه المظلمه لأن يفهم ما يسمع. الجدير بالذكر أن الإمام ينظر إلى نعم الآخرة من زوايا مختلفه، فتاره من زاويه حظ البصر وأخرى من خلال الفواكه الذيده والثمار الطبيعيه، وأحياناً من خلال الضيافه المفعمه بالكرامه والاجلال، والأخرى عن الأمن والسكينه التى تسود الجنه. فليس هنالك من مرض ولا تعب ولا إرهاب ولا موت ولا سلطان ظالم ولا خيانه ولا مكر ولا غدر ولا حرب وخراب ودمار. بل الحاكم هو الإمن والأمان والسلام.

عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إِنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ لِمَا حَوَّطَ حَائِطَ الْجَنَّةِ لَبَنَةً مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبَنَةً مِنْ فِضَّةٍ وَعَرَسَ وَعَرَسَ بِهَا قَالَتْ لَهَا: تَكَلِّمِي فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، فَقَالَ: طُوبَى لَكَ مَنَزِلَ الْمُلُوكِ» (١).

وعن عبد الله بن جابر الأنصارى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ لَهُمْ رَبُّهُمْ تَعَالَى: أَتُحِبُّونَ أَنْ لَذِيذَكُمْ فَيَقُولُونَ: وَهَيْلُ خَيْرٍ مِمَّا أُعْطِينَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ رَضَوَانِي أَكْبَرُ» (٢).

ص: ٢٨٣

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٢٨٠

٢- (٢) المصدر السابق

تتألف هذه الخطبه من ثلاثه أقسام: حثّ الإمام عليه السلام في القسم الأول الناس على احترام بعضهم البعض الآخر ويتبع الصغير الكبير ويراف الكبير بالصغير ولا- يكونوا كجفاه الجاهليه. وأخبر في القسم الثاني عن مصير بني أميه الذين يستولون على كل شيء بفعل فرقه المسلمين وابتعادهم عن أصالتهم، وسيصلون إلى أقصى مناطق البلاد الإسلاميه، إلّا أنهم لا يلبثون كثيراً حتى يفقدون كل شيء.

وأخبر في القسم الثالث عن عوامل تخلف المسلمين في آخر الزمان وفي مقدمتها عدم نصره الحق والوقوف بجانب الإمام العادل.

ص: ٢٨٥

١- (١) سند الخطبه: نقل هذه الخطبه قبل المرحوم السيد الرضى، مسلم ابن قيس في كتابه، كما روى صاحب الكافي جوانب منها في الجزء الثامن. وقال صاحب مصادر نهج البلاغه يستفاد من روايه الكافي والشيخ المفيد في الإرشاد أنّ هذه الخطبه وما ورد في الخطبه ٨٦ (طبق نسخه صبحى الصالح ٨٨) خطبه واحده (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٠٣)

لِيَتَّأَسَّ صَـغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ، وَلِيُزَافَ كَبِيرُكُمْ بِصَـغِيرِكُمْ؛ وَلَمَّا تَكُونُوا كَجُفَاةِ الْحِـاهِلِيَّةِ: لَأَفَى السُّدَيْنِ يَتَفَقَّهُونَ، وَلَا عَنِ اللَّهِ يَعْقَلُونَ؛ كَقَيْضٍ بَيْضٍ فِي أَدَاخٍ يَكُونُ كَشْرَهَا وَزُرًّا، وَيُخْرِجُ حِضَانَهَا شَرًّا.

الشرح والتفسير: ثلاث وصايا أخلاقية

أورد الإمام في هذه العبارات القصيره العميقه المعنى ثلاث وصايا أخلاقية واجتماعيه مهمه يؤدى العمل بها إلى تماسك عرى المجتمع، فقال فى الأولى:

«لِيَتَّأَسَّ (١) صَـغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ». ذلك لأنَّ الكبير عاده سلسله من التجارب وقد ذاق حلاوه الدنيا ومرارتها ووقف على خيرها وشَرِّها، أضف إلى ذلك فقد اجتاز هذا الكبير عصر الفتوه بنشاطه وحيويته ويشعر الآن بنوع من الاستقرار الأخلاقى وقد تعرف على الآداب والأعراف الاجتماعيه، ولا يمكن التنكر لهذه الحقيقه، بالرغم من أنَّ هذه ليست قاعده كليه ولا تخلو من الاستثناء.

الوصيه الثانيه

«وَلِيُزَافَ (٢) كَبِيرُكُمْ بِصَـغِيرِكُمْ» فيتلافى ضعفهم وينقل إليهم تجاربه ويتغاضى قدر المستطاع عن أخطائهم ويقف فى كل الأحوال إلى جانبهم. ولو كان هناك التزام بهاتين الوصيتين لتوطدت العلاقات بين الجيل القديم والحديث بما يجعلهم يشكلون جبهه واحده رصينه الصفوف. وإلَّا فليس هنالك سوى احتدام

ص: ٢٨٧

١- (١). «ليتأس» من ماده (اسوه) على وزن عروه، بمعنى اتباع الغير والاقتداء به

٢- (٢). «ليزاف» من ماده (رأفه) بمعنى العطف والشفقه

النزاع بينهما بما يعكس صفو المجتمع.

أما الوصية الثالثة والتي تمثل في الواقع تأكيداً للوصايا السابقة:

«وَلَمَّا تَكُونُوا كَجَفَاهِ (١) الْجَاهِلِيَّةِ: لَمَّا فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ، وَلَمَّا عَنِ اللَّهِ يَغْلَبُونَ». نعم، فالجهال لم يفتحوا على التربيته الدينيه ولم يستعينوا بعقولهم، فهم زمره فضه متحلله تهد كيان المجتمع، لا ترحم الصغير ولا تعظ بنصائح الكبير.

ثم خاض عليه السلام في هذه الفئه فقال على سبيل التمثيل:

«كَفَيْضِ (٢) بَيْضٍ فِي أَدَاحِ (٣) يَكُونُ كَشِيرْهَا وَزُرًّا، وَيُخْرِجُ حِصًّا أَنْهَا (٤) شَرًّا». إشاره إلى الحذر من كون ظاهركم الإسلام وباطنكم كجفاه العصر الجاهلي بحيث يشك الصالحون بكم حين التعامل، فلو عاملوكم بصدق وأمانه خشوا من باطنكم الذي تشم منه رائحه النفاق، وإن عاملوكم كمنافقين خشوا أن يكون باطنكم طاهراً. من المعروف أن النعامه تحفر الرمل وتبيض هناك وهكذا تفعل الحيه والأفعى، ومن هنا فإن الإنسان حين يرى هذه البيضه لا يعلم هل هي للأفعى تعود أم النعامه؟ فيشك في التعامل معها! وبعبارة أخرى أن صورته الإنسان الجافي صورته إنسان إلا أن باطنه مملوء بالشر والفساد، كالبيضه التي صورتها بيضه الطيور وباطنها حيه قاتله. وعلى هذا الضوء فقد رسم الإمام عليه السلام بهذا التشبيه الرائع صورته واضحه للمشاكل التي تفرزها التعامل مع الفرد المنافق.

ص: ٢٨٨

-
- ١- (١). «جفاه» جمع جافٍ، من ماده (جفاء)، بمعنى الغلظه، ويقال للشخص العنيف، الجافي
 - ٢- (٢). «قيض» قشره البيضه، وتأتي بمعنى كسر البيضه أيضاً
 - ٣- (٣) «أداح» جمع دَحَى، على وزن نَهَى، بمعنى مبيض الانعام في الرمال، ومن ماده (دحو) على وزن سَهُو، بمعنى السعه
 - ٤- (٤). «حضان» بمعنى البيض تحت بطن الطائر ليفقس عن فرخ، ومن ماده (حضانه) بمعنى ما تحت الجناح والريش

أَفْتَرَقُوا بَعْدَ أَلْفَتِهِمْ، وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ. فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ أَيْنَمَا مَالَ، مَالٌ مَعَهُ. عَلَيَّ أَنْ اللَّهُ تَعَالَى سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِيَنِي أُمَّيَّهِ، كَمَا تَجْتَمِعُ فَرْعُ الْخَرِيفِ يُؤَلِّفُ اللَّهُ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكَّامًا كَرَّامٍ السَّحَابِ؛ ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابًا. سَيَسِيلُونَ مِنْ مُسَدِّتَارِهِمْ كَسَدِيلِ الْجَنَّتَيْنِ، حَيْثُ لَمْ تَسَلِمَ عَلَيْهِ قَارَةٌ، وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكْمَةٌ، وَلَمْ يَرُدَّ سَيَنُّهُ رِصٌّ طَوُودٍ، وَلَا حِدَابٌ أَرْضٍ. يُدْعِدُّهُمْ اللَّهُ فِي بَطُونِ أَوْدِيَّتِهِ، ثُمَّ يَسِيلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ قَوْمِ حُقُوقِ قَوْمٍ، وَيُمْكِّنُ لِقَوْمٍ فِي دِيَارِ قَوْمٍ. وَإِئِمَّ اللَّهُ، لِيَدُوبَنَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ وَالْتِمَكِينِ، كَمَا تَدُوبُ الْأَلْيَةُ عَلَى النَّارِ.

الشرح والتفسير: المصير الأسود لبنى أمية

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى المصير الباهر لأصحابه إلى جانب النهايه المفجعه فقال:

«أَفْتَرَقُوا بَعْدَ أَلْفَتِهِمْ، وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ» فمنهم من التحق بالخوارج وقف في وجه الإمام عليه السلام ومنهم من أصابه الشك واعتزل عن الجماعة، ومع ذلك فإنَّ هناك بعض أصحابه

«فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ أَيْنَمَا مَالَ، مَالٌ مَعَهُ». فهذه إشاره إلى طائفه ثبتت على الحق وتمسكت بالثقلين (الكتاب والعترة) وتعلقوا بغصن شجره النبوه المتمثل بأهل بيت العصمه والطهاره عليهم السلام فانطلقوا خلفهم لرضى الله. نعم؛ ذهب البعض إلى أن هذه العبارة إشاره إلى فئه منحرفه أيضاً، والحال تفيد العبارات القادمه أن المعنى الأول هو الصحيح. لأنَّ الإمام قال لاحقاً:

«عَلَيَّ أَنْ اللَّهُ

تَعَالَى سَيَجْمَعُهُمْ لَشَرِّ يَوْمٍ لِيْنِي أُمَّيَّةَ، كَمَا تَجْتَمِعُ قَزَعٌ (١) الْخَرِيفِ (٢). ثم قال:

«يُؤَلِّفُ اللَّهُ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكَّامًا (٣) كَرَّكَامِ السَّحَابِ؛ ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابًا.»

ثم واصل عليه السلام كلامه ليبين كيف سيواجه اتباع أهل البيت عليهم السلام ظلمه بنى أمية فقال:

«يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَنَارِهِمْ (٤) كَسَيْلِ الْجَنَّتَيْنِ، حَيْثُ لَمْ تَسْلَمْ عَلَيْهِ قَارَةٌ (٥)، وَلَمْ تَثْبِثْ عَلَيْهِ أَكْمَهُ (٦)، وَلَمْ يَرُدَّ سِنْتَهُ (٧) رَصًّا (٨) طَوْدٍ (٩)، وَلَا حِدَابٍ (١٠) أَرْضٍ». ما ورد في هذه العبارة إشارة إلى قوم سبأ الذين عاشوا في اليمن وبنوا سداً عظيماً بين جبلين يعرف بسد مارب منعوا السيول واستفادوا من ماء السد في بناء جنتين عظيمتين على جانبي نهر كان يجرى هناك، فعاشوا حياه مرفهه وادعه، إلَّا أنَّ جحودهم وبطر نعمتهم وغرورهم عزّضهم لأليم العقاب.

إنهار السد عند الليل فأتى السيل على جنتيهم وأحال أرضهم خراباً فاضطر من تبقى منهم للهجرة. وسيكون أتباع أهل البيت عليهم السلام بمثابة السيل الذي يدمر ظلمه بنى أمية ويخربون بيوتهم ويقضون عليهم ويهاجر من يبقى منهم.

ثم شبه الإمام عليه السلام هذه الجماعة المدافعه عن الحق فيما بعد زوال بنى أمية بالماء المطمور في الأرض والذي ينبع كعيون جاريه في البناء والعمران، فقال:

«يُدْعَدُهُمْ (١١) اللَّهُ فِي بُطُونِ أَوْدِيَّتِهِ (١٢)، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ»

ص: ٢٩٠

١- (١). «قزع» جمع قزعه، على وزن ثمره، بمعنى قطعه من السحاب، كما تطلق على الأشياء التي لها قطع متناثره

٢- (٢) «الخريف» هو أحد فصول السنه المعروفه

٣- (٣) «ركام» من ماده (ركم) على وزن مكر، بمعنى الأشياء المتراكمه

٤- (٤). «مستنار» بمعنى موضع الغليان والخروج، من ماده (ثور)، على وزن فور، بمعنى الهيجان

٥- (٥) قاره بمعنى الجبل الصغير

٦- (٦). «أكمه» بمعنى التل والهضبه

٧- (٧) «سنن الطرق» بمعنى المسير المادى والمعنوى

٨- (٨) «رص» من ماده (رصاص) بمعنى المحكم

٩- (٩) «طود» بمعنى الجبل العظيم

١٠- (١٠) «حداب» جمع حدب، على وزن هدف، بمعنى الأرض المرتفعه

١١- (١١). «يدعذع» من ماده (ذعذعه) بمعنى التفرق

١٢- (١٢) «اوديه» جمع وادٍ، معروف

قَوْمٌ حُقُوقٌ قَوْمٌ، وَيُمْكِنُ لِقَوْمٍ فِي دِيَارِ قَوْمٍ». ذكر بعض شراح نهج البلاغه احتمالاً آخر لتفسير العبارة المذكوره ومرجع الضمائر، ولا- نرى حاجه لذكره سيما لعدم انسجامه مع العبارات السابقه واللاحقه. نعم؛ فأتباع أهل البيت عليهم السلام ينطلقون بادیء الأمر كالسيل الذي يحطم قصور بنى أمیه كما حطم السيل عروش الظلمه فى سبأ، وسيطيحون بدولتهم، فيتفرقون فى كل مكان ويكونوا كعيون الماء فى إقامتهم للعدل والقسط.

وأخيراً أقسم الإمام عليه السلام قائلاً:

«وَإِيْمُ اللّٰهِ، لَيَدْوِبَنَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ وَالتَّمْكِينِ، كَمَا تَدُوْبُ الْأَلْيَةِ (١) عَلَى النَّارِ». والتشبيه المذكور إشاره إلى أنّ بنى أمیه وإن ترهلوا على عهد حكومتهم، إلّا أنّ أعداءهم سيكونون عليهم كالنار فيذيبون أجسادهم كما يذاب الشحم فى النار، يذوب أولاً ثم يحترق ولا تبقى له باقيه. وقد اختلف شراح نهج البلاغه بشأن من يسلط على بنى أمیه ويطيح بحكومتهم الظالمه وينتصر للمظلوم منهم؛ قيل المراد بهم بنو عباس، وقيل الشيعة الذين قاموا ضد بنى أمیه، والظاهر أنّ كلاهما يعود إلى معنى واحد، لأننا نعلم أنّ قيام بنى العباس انطلق باسم العلويين وإن انحرف عن مساره وجعلوه لبنى العباس خاصه فساروا على نهج بنى أمیه حتى قضى عليهم.

تأمل: ثورات دامیه ضد بنى أمیه

دوّت أصداء شهاده الإمام الحسين عليه السلام وصحبه فى كربلاء فى أرجاء العالم الإسلامى وألّبت العديد من المسلمين على بنى أمیه. وقد نال أغلبهم الشهاده بسبب

ص: ٢٩١

١- (١). «الأليه» بمعنى الشحم المعروف

سطوه بنى أميه، بينما انتصر البعض الآخر لمدّه قصيره. وقد ذكرنا هذه الثورات التي بلغ عددها خمسة عشر في الجزء الثالث من هذا الكتاب،(١) وكان آخرها قيام أبو مسلم الخراساني والذي أدى إلى سقوط دوله بنى أميه. وخلافاً لما يتصوره البعض فإنّ أبا مسلم وصحبه لم يثوروا لأجل بنى عباس، بل اجتمع بادىء الأمر عدد من زعماء الشيعة عند أبى مسلم - وكان رجلاً شجاعاً - فى خراسان وعزموا على مواجهه آخر خلفاء بنى أميه (مروان الحمار) وإقامه حكومه آل محمد وكان شعارهم

«الرضا لآل محمد» ولم تمض مدّه حتى سيطر أبو مسلم على خراسان وأغلب مناطق إيران. ورغم محاوله إبراهيم الإمام وهو من بنى العباس للتقرب منه وكذلك عبد الله بن محمد المعروف بالسفاح وأبو جعفر المنصور - وكلاهما أخ لإبراهيم الإمام - إلّا أنّه لم يرض بذلك. ومن هنا قام عامله على الكوفه أبو سلمه حين وصله الأخوه الثلاثة باخفائهم فى موضع لیتزعم المسلمین أحد أبناء على عليه السلام فبعث بثلاثه كتب إلى المدینه؛ إلى الإمام الصادق عليه السلام وعبد الله بن الحسن وعمر بن على بن الحسين وأوصى رسوله أن یتدیء بالصادق عليه السلام فإن وافق لا- یسلم الرسالتین. وحيث كان الإمام عليه السلام يعلم بالمؤامرات الخفيه حتى على أبى مسلم فلم يجب الدعوه، وهكذا عبد الله وعمر تبعاً للإمام الصادق عليه السلام. لكن قبل أن يعود رسول أبى سلمه إلى الكوفه علم جماعه من أهل خراسان بموضع السفاح وأخويه فبايعوه، فما كان من أبى مسلم إلّا أن إلتحق بهم، حتى وصلت الحكومه لبنى العباس بعد قتال شديد بينهم وبين أتباع عبد الله بن على عم المنصور، فوُلّى المنصور الخلافه بعد أبى العباس السفاح، فأحضر أبا مسلم إلى بغداد وقتله وفق خطه معده سلفاً، لعله كان يعلم بأنّ أبا مسلم من أتباع آل على عليه السلام لا بنى العباس، فكان يراه خطراً يهدد حكومتهم(٢). ذكر العلامه المجلسى روايه بهذا الخصوص عن الإمام على عليه السلام أنّ جيش الشام هجم يوماً فى صفيين على جند العراق ففرقهم عن

ص: ٢٩٢

١- (١). نفحات الولاية، ج ٣، ص ٣٥٨-٣٦٠

٢- (٢). راجع كتاب المعارف والمصارييف، ج ١، ص ٤٨١ والموسوعه الإسلاميه الكبرى، ج ٦، ص ٢٢٧

ميمنتهم وكان مالك الأشر (رضوان الله تعالى عليه) يدعوهم إلى الرجوع. فكان الإمام عليه السلام يصيح في وجه جيش الشام: خذهم يا أبا مسلم ويكرر ذلك ثلاثاً. فقال الأشر: أوليس أبو مسلم في جيش الشام؟ قال الإمام عليه السلام: لا أقصد أبا مسلم الخولاني، بل أبا مسلم رجل يظهر من مشرق الأرض يهلك الله الأميين على يده ويطيح بدولتهم (١). طبعاً شخصيه أبا مسلم وإن كانت تعيش نوعاً من التعقيد على ضوء النظرة التاريخيه، إلا أن هنالك من يراه من أتباع أهل البيت عليهم السلام ويكنون له الاحترام، وعلى العكس، هنالك من يراه من أعدائهم ويقول بجواز لعنه. والمسلم به أن قيامه كان في بادىء الأمر لنصره آل محمد وكان أنصاره من الشيعة.

ص: ٢٩٣

١- (١). بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٣١٠

أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَّخِذُوا عَنْ نَصِيرِ الْحَقِّ، وَلَمْ تَهْنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوَىٰ مِنْ قَوِيَّ عَالِيكُمْ. لَكِنَّكُمْ تَهْتُمُ مَتِيَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَعَمْرِي، لَيْضَ مَعَنَّ لَكُمْ التِّيَهُ مِنْ بَعِيدِي أَضْعَافًا بِمَا خَلَقْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمُ الْمَأْذَنِي، وَوَصَلْتُمُ الْأَبْعَدَ. وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ، سَيَلِكُ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ، وَكُفَيْتُمْ مَوْوَنَهُ الْإِعْتِسَافِ، وَنَبَذْتُمُ الثَّقَلَ الْفَادِحَ عَنِ الْأَعْنَاقِ.

الشرح والتفسير: عامل التخلف

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه - الذي هو آخرها - بعد بيانه لمصير بني أميه الأسود في بيان مصير فئه من أتباع الحق التي ضعفت عن نصرته فتسلط عليها عدوها فكانت عاقبتها كعاقبه بني إسرائيل، فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَّخِذُوا عَنْ نَصِيرِ الْحَقِّ، وَلَمْ تَهْنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوَىٰ مِنْ قَوِيَّ عَالِيكُمْ». هذا الكلام إشاره إلى حكومه معاويه وتسلطه وصحبه على أصحاب الإمام عليه السلام على عهده (بصوره محدوده) ومن بعده (دون حدود). وما ذكره الإمام عليه السلام في هذه العبارة لا يختص بزمان ومكان معين، بل هو أصل كلى للأعصار والأمصار كافة في أن تنامي الباطل معلول لضعف أتباع الحق.

ثم واصل عليه السلام كلامه بتشبيه تلك الفئه ببني إسرائيل أثر إبتعادهم عن الحق وتيههم

(في صحراء سيناء) فقال:

«لَكِنَّكُمْ تَهْتُمُ (١) مَتَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَعَمْرِي، لَيْضَ مَعَفَنَ لَكُمْ التِّيَهُ مِنْ بَعِيدِي أَضْعَافاً (٢) بِمَا خَلَفْتُمْ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمْ الْأَذْنَى، وَوَصَلْتُمْ الْأَبْعَدَ». ثم أوضح في الختام سبيل النجاه وذكرهم بأن باب العوده إلى الحق مفتوح على الدوام فقال:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ اتَّبَعْتُمْ الدَّاعِيَ لَكُمْ، سَيَلِكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ، وَكُفَيْتُمْ مَوْوَنَهُ الْإِعْتِسَافِ (٣)، وَنَيَّيْتُمْ الثَّقَلَ الْفَادِحَ (٤) عَنِ الْأَعْنَاقِ».

تأمل: بنو اسرائيل

...

شبه الإمام عليه السلام بالعبارة المذكوره طائفه من المسلمين الذين حادوا عن الحق واحتراروا كبنى اسرائيل الذين تاهوا في الصحراء أثر عنادهم وعدم استجابتهم لنيهم موسى عليه السلام، بجهاد غاصبي بيت المقدس. وقد نقل بعض شراح نهج البلاغه روايه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«التركب سنن من كان قبلكم حذو النعل النعل، والقده بالقده، حتى لو دخلوا حُجر صب صب لدخلتموه، فقيل: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن إذن» (٥). وبغض النظر عن الإشكال الذي يرد على اسناد الروايه، فإن تطبيقها على الواقع لا يخلو من إشكال أيضاً، وعلى فرض صحه الروايه فإنه يمكن حملها على الغالب. إشاره إلى أن أغلب الحوادث المريره التي شهدتها الأقسام السابقه سيشهدها المسلمون، ويعيد التاريخ نفسه، ذلك لأن الأسباب المتشابهه تتطلب مسببات متشابهه.

ص: ٢٩٦

١- (١). «تهتم ومتاه» كلاهما من ماده (تیه)، تعنى فى الأصل، الزهو والتكبر، ثم استعملت بمعنى الحيره والضلال عن الطريق

وهذا هو المراد بها فى العبارة، أى احترتم كحيره بنى اسرائيل (متاه مصدر ميمى)

٢- (٢). «أضعاف» جمع ضعف، على وزن فعل، معروف

٣- (٣) «اعتساف» من ماده (عسف) على وزن وصف، بمعنى الضلال

٤- (٤) «فادح» بمعنى ثقيل وشاق، وهى هنا تأكيد لكلمه ثقل

٥- (٥). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٢٨٦؛ منهاج البراعه، ج ١٠، ص ٨٣

في أوائل خِلاَفَتِهِ (١)

نظرة إلى الخطبه

تتضمن هذه الخطبه عدّه مواضع وإرشادات بحيث ربّما يُتصور عدم وجود الترابط بين أقسام الخطبه، ولعلّ المرحوم السيد الرضى اقتطف هذه الخطبه من خطبه أطول خطبها الإمام أوائل خلافته.

على كل حال فإنّ الخطبه تتكون من خمسة أقسام رئيسيه:

القسم الأول: يتحدث عن عظمه القرآن الكريم وهدايته والتأكيد على اتّباعه.

القسم الثاني: التأكيد على إتيان الفرائض والعمل بالواجبات وترك المحرمات.

القسم الثالث: أهميته حقوق المسلمين وحفظ كرامتهم وترك أذاهم.

القسم الرابع: يوصى فيه الإمام عليه السلام بالاستعداد للموت والقيامه والتزود للآخره.

القسم الخامس: التأكيد على التقوى وطاعه الله.

ص: ٢٩٧

١- (١) سند الخطبه: قال المرحوم عبد الزهراء الحسيني: لم أعثر في كتاب مصادر نهج البلاغه على سند قبل السيد الرضى للخطبه سوى ما ذكره المؤرخ الطبري في حوادث سنه ٣٥ هجريه (ج ٥، ص ١٥٧). وينبغي الالتفات إلى أنّ بعض هذه الخطبه مر سابقاً في الخطبه ٢١

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَابًا هَادِيًا بَيَّنَّ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ؛ فَخُذُوا نَهَجَ الْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَاصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا.

الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ! أَدُوهُمَا إِلَى اللَّهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ. إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ حَرَامًا غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلَالًا غَيْرَ مَدْخُولٍ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرْمِ كُلِّهَا، وَشَدَّ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاذِهَا، «فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَحِلُّ أَدَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ.

الشرح والتفسير: معرفه سبيل الحق

أكد الإمام على ضروره الالتزام بالقرآن والعمل بتعاليمه بصفته المصدر الرئيسي للتعاليم الإسلاميه وتبيان كل خير وإحسان، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَابًا هَادِيًا بَيَّنَّ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ؛ فَخُذُوا نَهَجَ (١) الْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَاصْدِفُوا (٢) عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا». فهذا الكلام يدل على أن جميع أصول الخير والشر والواجبات والمحرمات والفضائل والردائل والعقائد الصحيحه والمنحرفه إنما بُيِّنَتْ في القرآن الكريم، وهو في الواقع تعبير آخر عن

«تبيان كل شيء» الذي ورد في القرآن وإن فوض شرحه إلى سنه المعصومين عليهم السلام.

ص: ٢٩٩

١- (١). «النهج» بمعنى الطريق الواضح، من ماده (نهج)، على وزن خرج، الوضوح

٢- (٢) «اصدِفُوا» من ماده (صدف) على وزن صبر، بمعنى الإعراض

ثم أكد الإمام عليه السلام من بين كل الفضائل على الفرائض والواجبات، فقال:

«الْفَرَائِضُ الْفَرَائِضُ! أَدُوهُمَا إِلَى اللَّهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ». إشاره إلى إن الخيرات التي دعى إليها القرآن على نوعين، واجبه وغير واجبه (مستحبات وفضائل) وعليكم قبل كل شيء بأداء الواجبات فإن شعرتم بقوّه فأتوا بالمستحبات؛ ذلك لأنّ ما يأخذ بيد الإنسان قبل كل شيء إلى الجنّة، أداء الفرائض والواجبات. طبعاً الفرائض تشمل العبادات والواجبات الأخرى التي أوجبها الله على الإنسان فيما يتعلق بنفسه أو الآخرين.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه كأنّها دليل على عبارته السابقة، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ حَرَامًا غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلَالًا غَيْرَ مَدْخُولٍ (١)». إنّها عبارته لطيفه تشير إلى مصالح ومفاسد الأحكام الشرعيه التي اعتبرها الحكيم في الواجبات والمحرمات، بعبارته أخرى، رغم وجوب طاعه أوامر الله في الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، إلما أنّ هذه الطاعه ليست عمياء، ذلك لأنّ جميع الواجبات تشتمل على مصالح، بينما تنطوي المحرمات على مفاسد تعود على نفس العباد: «يُحَلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرَّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ» (٢) ولما كانت رعايه حقوق المسلمين وحفظ حرمتهم لا تقل أهميّة عن الفرائض والواجبات، فقد قال عليه السلام:

«وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرْمِ (٣) كُلِّهَا، وَشَدَّ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا (٤)».

إنّ أدنى نظره إجماليه على الكتب الفقهيه كافه - من العبادات إلى الحدود والديات - لتشهد على صدق هذا المعنى في أنّ الإسلام أولى أهميّة عظيمه لحرمة

ص: ٣٠٠

١- (١). «مدخول» بمعنى معيب، من ماده (دخل) على وزن نخل، بمعنى الفساد من الداخل. ولهذه المفردة معانٍ أخرى منها الدخول في المكان

٢- (٢). سورة الأعراف، الآية ١٥٧

٣- (٣). «حرم» بفتح الراء جمع حرمه بمعنى الاحترام، وحرم بضم الراء، جمع حرام بمعنى الممنوع، و«احرام» جمع حرم على وزن قلم، بمعنى الناحية الممنوعه

٤- (٤) «معاقد» جمع (معقد) على وزن مجلس، بمعنى موضع اغلاق الشيء، كالحزام الذي يربط الظهر، وفي العبارة إشاره إلى رابطة الإخلاص والتوحيد لحقوق المسلمين

المسلمين وحقوقهم، حتى وقف الإمام الكاظم عليه السلام أمام الكعبة، وقال:

«مَيَّا أَعْظَمَ حَقِّكَ يَا كَعْبُهُ وَاللَّهِ إِنَّ حَقَّ الْمُؤْمِنِ لَأَعْظَمُ مِنْ حَقِّكَ»^(١) وعبارته الإمام عليه السلام تشدّد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين يمكن أن تكون إشاره إلى أنّ الإنسان الموحد والمخلص من يراعى حقوق المسلمين، وهذا ما قال به أغلب شراح نهج البلاغه، كما يحتمل أن يكون المراد ضروره حرمة حقوق كل مسلم، لا إخلاصه وتوحيده (الإخلاص والتوحيد فى التفسير الأول صفه للمحافظين وصفه للمحفوظين فى التفسير الثانى). التفسير الثالث أن يكون احترام حقوق المسلمين فى مصاف الإخلاص والتوحيد.

ثم أضاف عليه السلام كنتيجة

«فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَحِلُّ أَدَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ». فاستنتاج الإمام عليه السلام هذا يفيد أنّ التفسير الأول هو الأنسب للعبارة السابقه من التفاسير الأخرى، لأننا إن اعتبرنا حفظ حقوق المسلمين علامه إخلاص وتوحيد الحافظين لهذه الحقوق فإنّ نتيجته ذلك ستكون:

المسلم من سلم الناس من لسانه ويده. جدير بالذكر أنّ العبارة

«إِلَّا بِالْحَقِّ» والأخرى

«إِلَّا بِمَا يَجِبُ» أن تكون الأولى: إشاره إلى عدم جواز أذى المسلمين ما لم يكن هنالك من مجوز من قبيل العقوبات والحدود الإسلاميه والتعزيرات، والثانيه: إشاره إلى الإكتفاء بالمقدار الذى أجازه الله من حيث الكمية والكيفيه على فرض الجواز. ورد فى بعض الروايات أنّ قبراً ورغماً مكانته عند الإمام عليه السلام غلط فى حدّ رجل فأضاف ثلاثاً، فأخذ الإمام عليه السلام بالقصاص منه:

«إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَرَ قَبْرًا أَنْ يَضْرَبَ رَجُلًا حَدًّا فَغَلِطَ قَبْرٌ فَزَادَهُ ثَلَاثَةَ أَشْوَاطٍ فَأَقَادَهُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَبْرِ بَثَلَانِهِ أَشْوَاطٍ»^(٢).

ص: ٣٠١

١- (١). بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٢٢٧

٢- (٢) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٣١٢ (الحديث الثالث من الباب الثالث من أبواب مقدمات الحدود)

بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحْيِدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ، تَخَفُّوْا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوْلِكُمْ آخِرُكُمْ.

اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ.

أَطِيعُوا اللَّهَ وَلَا تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ الشَّرَّ فَاعْرِضُوا عَنْهُ.

الشرح والتفسير: المسؤليه الشامله

واصل الإمام عليه السلام مواضعه السابقه بتذكير القوم بالموت والتأكيد على الورع والتقوى أفضل زاد إلى الآخره فقال:

«بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحْيِدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ» (١) مِنْ خَلْفِكُمْ». المراد من الأمر العام والخاص الموت، لأننا إذا نظرنا إلى عامه المجتمع البشرى نرى الموت مصير الجميع، وعليه فـلموت بعد عام، وإن نظرنا لأنفسنا فقط فإننا نرى الموت حاضراً آخر أعمارنا، فله على هذا الأساس بعد خاص. واستناداً إلى تفسير الإمام عليه السلام بقوله:

«وَهُوَ الْمَوْتُ» (٢) فلا يبقى مجال للشك في تفسيرنا، والعجيب ما ذهب إليه بعض شراح نهج البلاغه من تفسيرهم للعبارة

«بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ» بإصلاح شؤون

ص: ٣٠٣

١- (١). «تحدوا» من ماده (حدو) حدى، على وزن حدو، بمعنى طرد الشر أو الصوت الخاص للحادى ثم أطلق على كل سوق
٢- (٢). لا بد من الالتفات إلى أنّ الضمير «هو» مذكر يعود إلى أمر وعليه لا بد أن تكون خاصه مجروره لا مفتوحه كماورد فى

المجتمع. العبارات القادمة أيضاً تشير إلى أن ما ورد في هذه العبارة يتعلق بالموت ونهايه الحياه، لا إصلاح المجتمع البشرى والذى يعتبره مقوله أخرى. نعم؛ هنالك دليلا-ن على حقانيه الموت - على أنه قانون عام - أحدهما: إننا نرى بأم أعيننا الأفراد الذين كانوا سابقاً بيننا وقد التحقوا بهذه القافله ونحمل أجسادهم الخاليه من الروح على أكتافنا ونواريهم الثرى ونعود، فهل من فارق بيننا وبينهم أنهم يمضون ونبقى؟!

والآخر: إن علامات الحرکه باتجاه نهايه حياتنا الواحد بعد الآخر واضحه من قبيل الشيخوخه والعجز والمشيب وكسل الاعضاء. فهل يسع عاقل بعد هذين الدليلين أن يشعر باستثناء من هذا القانون؟

ثم خاض الإمام عليه السلام في هذه النتيجة بناءً على ما ورد في السابق وطالما كان الأمر كذلك قال:

«تَخَفَّفُوا تَلَحَّقُوا، فَإِنَّمَّا يُنْتَظَرُ بِأَوْلِيكُمْ آخِرُكُمْ». أجل، إن سفر الآخره سفر شاق ومتعب ولا يجتاز مطباته سوى المخفين، أولئك الذين قنعوا بالكفاف في الحياه الدنيا وعضوا الطرف عن جمع الثروه والعيش الرغيد الملىء بالكماليات، على غرار المسافر الذى يحمل معه ما يكفيه من الطعام للسفر فيمر بسهولة، بينما لا يسع المثقل إلا التخلف عن الركب والقافله. روى المرحوم السيد الرضى، العبارة الأخيره باختلاف طفيف في الخطبه ٢١ وقال: إن العبارة

«تَخَفَّفُوا تَلَحَّقُوا» ما سمع كلام أقل منه مسموعاً ولا أكثر منه محصولاً، وما أبعد غورها من كلمه. وقد قدمنا من جانبنا شرحاً وافياً بهذا الشأن(١). وحيث يتطلب سفر الآخره زاداً ومتاعاً وخيره التقوى على لسان القرآن: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»(٢).

فقد واصل الإمام عليه السلام كلامه داعياً الجميع إلى التقوى فقال:

«اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ (٣) وَالْبِهَائِمِ (٤)».

ص: ٣٠٤

١- (١). نفحات الولاية، ج ٢، ص ٥

٢- (٢) سورة البقره، الآيه ١٩٧

٣- (٣) «بقاع» جمع (بقعه) بمعنى مساحه من الأرض متميزه عنها، ووردت في العبارة بمعنى مطلق الأرض العامره

٤- (٤) «بهائم» جمع (بهيمه) بمعنى الحيوانات، ويشتمل السباع والطيور

ومفهوم التقوى فى العباد واضح يتمثل فى ترك آذاهم وحفظ حقوقهم ورعايه حرمتهم، أمّا تقوى البلاد فالسعى لإعمارها واجتناب تخريبها وعدم تلويث محيطها. وأمّا المسؤليه إزاء البهائم وعدم إيذاؤها عبثاً وتحميلها فوق طاقتها وتوفير متطلباتها من الغذاء والماء والدواء، وذهب بعض شراح نهج البلاغه فى تفسيرهم للمسؤليه فى البقاع فى عدم السكن فى بلدان الكفر التى يتعذر فيها القيام بالوظائف الدينيه وعدم تشييد القصور الضخمه للتناول على الآخرين وحب الظهور. إلّا أنّ الصحيح ما أوردناه من تفسير، والشاهد على ذلك، الروايات التى سنذكرها فى المبحث القادم. ولما كان مفهوم التقوى ربّما يبدو معقداً للبعض فقد كشف الإمام عليه السلام عن حقيقته بوضوح، فقال:

«أَطِيعُوا اللَّهَ وَلَا تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ». والجدير بالذكر أنّ بدايه ونهايه الخطبه تتحد فى خصوص الخير والشر، حيث أشار فى مستهل الخطبه إلى مصدر الخير الذى يكمن فى الرجوع إلى القرآن.

تأمل: سلامه البيئه وحمايه الحيوانات فى الإسلام

إنّ التطور الصناعى ورغم فوائده الجمه للبشرية، إلّا أنّه أخذ يهدد بالصميم سلامه البيئه وتلوثها، وهذا ما يهدد بدوره العديد من الكائنات ويعرضها إلى خطر الزوال، وإن استفيد من الأسلحه الفتاكه ولا سيما أسلحه الدمار الشامل فإنّ حجم الكارثه يبدو مفرجعاً، ومن هنا هبّ عالمنا المعاصر لأخذ التدابير اللازمه بغيه الحفاظ على سلامه البيئه والحيلوله دون انقطاع نسل الحيوانات، على الرغم من العراقيل التى يضعها أصحاب رؤوس الأموال الذين لا يفكرون سوى فى التنميه لثرواتهم فحدّوا من نشاطات الفرق القائمه على أساس تطهير البيئه ولا يعلم بعمق الفاجعه التى ستشهدها الأجيال القادمه. أمّا زعماء الإسلام وحماه الدين فقد أكدوا

على هذا الموضوع قبل ألف سنة، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام فى الخطبه المذكوره شاهد على ذلك، كما وردت عدّه روايات عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل بيته عليهم السلام بهذا الخصوص حيث أكدوا على هذه المسأله المهمه، ومن تلك الروايات أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله رأى ناقه نائمه وجهازها على ظهرها بينما قيدت رجلها (والحال يجب أن تستريح الدابه فلا يبقى شىء على ظهرها) فقال:

«أَيْنَ صَاحِبِهَا؟ مُرُوهُ فَلَيْسَتْ عَدَاً لِلْخُصُومَةِ»^(١).

وروى عنه صلى الله عليه و آله أنه قال:

«لَمَا تَتَوَرَّكُوا عَلَى الدَّوَابِّ وَلَا تَتَّخِذُوا ظُهُورَهَا مَجَالِسَ»^(٢) إشاره إلى أنكم إن رأيتم أصحابكم وأنتم على ظهر الدابه فأنزلوا لتتحدثوا معهم فإن تم حديثكم فاركبوا^(٣).

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لِلدَّابَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا سِتَّةٌ حُقُوقٍ لَا يُحْمَلُهَا فَوْقَ طَاقَتِهَا وَلَا يَتَّخِذُ ظَهْرَهَا مَجَالِسَ يَتَحَدَّثُ عَلَيْهَا وَيَبْدَأُ بَعْلَفِهَا إِذَا نَزَلَ وَلَا يَسْتَمُّهَا وَلَا يَضْرِبُهَا فِي وَجْهِهَا فَإِنَّمَا تُسَبِّحُ وَيَعْرِضُ عَلَيْهَا الْمَاءُ إِذَا مَرَّ بِهِ»^(٤). فهذه الروايات وغيرها تفيد مدى دقه الإسلام فى مجال حمايه الحيوانات ورعايه حقوقها، ولا نرى دينا كالإسلام أوصى بهذه التعاليم. أما بشأن عدم تلويث البيئه فقد ورد النهى عن تلويث مياه الأنهار وكذلك تحت الأشجار المثمره ومقابل أبواب الدور وموضع نزول القوافل وأطراف المساجد^(٥). كما ورد فى الوصايا الحريه عدم قطع الأشجار أو حرقها أو ردم عيون الماء والنهى عن تلويث مياه الأعداء^(٦).

ص: ٣٠٦

١- (١) وسائل الشيعه، ج ٨، ص ٣٩٤

٢- (٢). ورد فى بعض المصادر اللغويه أن التورك على الدابه، وضع الرجل على الأخرى فوق سرج الدابه

٣- (٣) اصول الكافى، ج ٦، ص ٥٣٩

٤- (٤). المصدر السابق، ص ٥٣٧، ح ١

٥- (٥). وسائل الشيعه، أحكام الخلوه، الباب ١٥

٦- (٦) المصدر السابق، كتاب الجهاد، الباب ١٦ و ١٥ باب جهاد العدو

بَعْدَمَا بُويعَ بِالْخِلافِهِ

وَقَدْ قَالَ لَهُ قَوْمٌ مِنَ الصَّحَابَةِ: لَوْ عَاقَبْتَ قَوْمًا مِمَّنْ أَجْلَبَ عَلَي عُثْمَانَ؟ فقال عليه السلام: (١)

نظره إلى الخطبه

كما ورد آنفأ فإن قوماً من الصحابه طلبوا من الإمام عليه السلام بعد أن بويع بالخلافه أن يعاقب أولئك الذين ثاروا على عثمان وقتلوه، فأقنعهم الإمام عليه السلام بأن ذلك ليس في أوانه، لأنهم متّحدون وخلفهم اناس كثيرون، يقفون بوجه كل من يقف ضدهم ولا يتخرجون من عمل.

ص: ٣٠٧

١- (١) سند الخطبه: المصدر الوحيد الذي ذكرها غير نهج البلاغه، تاريخ الطبرى فى حوادث سنه ٣٥ هـ (مصادر نهج البلاغه، ج

يَا إِخْوَتَاهُ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلَكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةِ وَالْقَوْمِ الْمُجْلِبُونَ عَلَى حَيْدِ شَوْكِيهِمْ، يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ! وَهَاهُمْ هَؤُلَاءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عَيْدَانُكُمْ، وَالتَّنَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ، وَهُمْ خِلَالَكُمْ يَسُومُونَكُمْ مَا شَاءُوا؛ وَهَلْ تَرُونَ مَوْضِعَ مَا لِقْدَرِهِ عَلَى شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ! إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَمْرٌ حَيْهَلِيهِ، وَإِنَّ لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَادَّةً. إِنَّ النَّاسَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ - إِذَا حُرِّكَ - عَلَى أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرُونَ، وَفِرْقَةٌ تَرَى مَا لَمَّا تَرُونَ، وَفِرْقَةٌ لَمَّا تَرَى هَذَا وَلَمَّا ذَاكَ، فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدِيَ النَّاسَ، وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا، وَتُوَخَّذَ الْحُقُوقُ مُسِمَحَةً؛ فَاهْبِطُوا عَنِّي، وَأَنْظُرُوا مِمَّاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي، وَلَمَّا تَفَعَّلُوا فَعَلَهُ تَضَعُ قُوَّةً، وَتَسْقِطُ مِنْهُ، وَتُورِثُ وَهْنًا وَذِلَّةً. وَسَأُؤَمِّسُكُمُ الْأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكْتُمْ. وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدًّا فَآخِزِ الدَّوَاءَ الْكَيَّ.

الشرح والتفسير: أسباب تأخير عقوبه قتله عثمان

هذه الخطبه، كما ذكر، ردّ على بعض أصحاب الإمام عليه السلام الذين طالبوه بالقصاص من قتله عثمان، حيث تطرق إلى هذا الموضوع على ضوء تحليل دقيق، فقال:

«يَا إِخْوَتَاهُ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلَكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةِ». عاده ما يتصور البعض أنه توصل إلى قضيه لو إهتم بها الحاكم لكانت لصالح المجتمع الإسلامي، والواقع أنهم يرون شيئاً دون ملاحظه ملابساته، فهناك حاله من الغموض فى القضيه يجهلونه. ومن هنا أردف الإمام عليه السلام عبارته السابقه بشرح للظروف الاجتماعيه

القائمة آنذاك ليتضح لهم عدم عمليه اقتراحهم، فقال:

«وَالْقَوْمُ الْمُجْلِبُونَ (١) عَلَى حَيْدٍ شَوْكِيهِمْ، يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ!». كيف يمكن الوقوف بوجه فئه متحده وغازبه أوائل الخلافه؟ وهل هناك سوى سفك المزيد من الدماء دون جدوى؟! والشاهد على ذلك ما رواه بعض شراح نهج البلاغه أنّ الإمام عليه السلام جمع الناس ووعظهم.

ثم قال:

«لتقم قلته عثمان» فقام الجميع سوى قله قليله (٢). ثم أشار عليه السلام إلى نقطه أخرى، فقال:

«وَهَاهُمْ هُوَلاءِ قَدْ تَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ، وَالتَّفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ، وَهُمْ خِلَالَكُمْ يَسُومُونَكُمْ (٣) مَا شَأُؤُوا». يستفاد من هذه العبارات أنّ الثوره ضد عثمان كانت متجذره وقد أسهم المحرومون فيها بصورة واضحه.

ثم قال عليه السلام

«وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعًا لِقُدْرِهِ عَلَى شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ!». إشاره إلى أنّكم لا تستطيعون القيام بعمل في ظل هذه الظروف ولا أنا. ومارس عليه السلام تحليلاً آخر للتأكيد على هذا الأمر، فقال:

«إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَمْرٌ جَاهِلِيٌّ، وَإِنَّ لَهُوْلَاءِ الْقَوْمِ مَادَّةً». إشاره إلى أنّه إن وجب مؤاخذه عثمان لسوء تصرفه في بيت مال المسلمين وتسليطه فساق القوم على رقاب المسلمين وإغداق المناصب عليهم، فلا بد أن تتم من خلال الطرق الشرعيه وقضاه العدل، ونتيجه العمل غير المدروس إنّما هو ضرب من ضروب الأنشطة الجاهليه، وقوله: إنّ لهؤلاء القوم ماده، تأكيد لتلك الحقيقه التي ذكرها في عبارته السابقه من أنّ تلك الفئه ليست وحيده في الساحه، بل يقف خلفها الأعراب وطائفه من الساسه المحترفين المتعطشين للمناصب، وعليه فليس من المصلحه الإصطدام بها.

ص: ٣١٠

-
- ١- (١). «مجلبون» من ماده (جلب) على وزن كلب، بمعنى السوق والطرده وتطلق على الأفراد الذين يغيرون مواقفهم بسهولة، وجلب، على وزن غضب، وإجلاب، بمعنى الجمع، ومجلبون، هنا إشاره إلى الثوار الذين جمعوا الناس ضد عثمان
- ٢- (٢). منهاج البراعه، ج ١٠، ص ١٠٢. روى الحديث المرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٣١، ص ٥٠٣
- ٣- (٣). «يسومونكم» من ماده (سوم) على وزن قوم، بمعنى البحث عن الشيء، كما وردت بمعنى تكليف الآخرين بعمل

كما واصل كلامه بأن الاشتباك مع قتله عثمان يؤدي إلى تفرقه صفوف المجتمع، فقال:

«إِنَّ النَّاسَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ - إِذَا حُرِّكَ - عَلَى أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرُونَ، وَفِرْقَةٌ تَرَى مَا لَاتَرُونَ، وَفِرْقَةٌ لَاتَرَى هَذَا وَلَا ذَاكَ، فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ (١) النَّاسُ، وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا، وَتُؤَخَذَ الْحُقُوقُ مُسَمَّحَةً (٢)».

ثم أورد تأكيداً آخر:

«فَاهْدُوا عَنِّي، وَأَنْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي، وَلَا تَفْعَلُوا فَعْلَهُ تَضَعُضِعُ (٣) قُوَّةً، وَتُسْقِطُ مِنْهُ (٤)، وَتُورِثُ وَهْنًا وَذِلَّةً». إشارة إلى أن عدم التآني في القضايا الاجتماعية ربما يعطى نتائج معكوسة، فلا ينبغي القيام بفعل دون توفر شروطه، ذلك لأن الخفاق فيه يؤدي الذله والهوان. كما ورد شبيه ذلك في الخطبه الخامسة:

«وَمُجْتَنِي الثَّمَرَ لِعَيْرٍ وَقْتِ إِينَاعِهَا كَالزَّرَارِعِ بَعَيْرِ أَرْضِهِ» (٥).

وأخيراً اختتم الخطبه بهاتين العبارتين:

«وَسَأْمَسِكَ الْأَمْرَ مَا اسْتَيْمَسَكَ. وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُيْدًا فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيْ (٦)». ربما تكون هذه العبارة بفعل ضغوط طلبه الثأر لدم عثمان، حيث قال عليه السلام: سأصمد ولن ألبأ إلى السيف، لكن إن شعرت بغلق أبواب السلام فسأضطر إلى القوه وأنهى التمرد. الاحتمال الآخر أن هذه العبارة إشارة إلى أولئك الذين تذرعوا بدم عثمان ليقفوا بوجه الإمام عليه السلام كطلحه والزبير. فصرح الإمام عليه السلام بأنه سيعاملهم بالطرق السلميه وإلا لبأ إلى القوه. طبعاً لا يبدو هذا الاحتمال منسجماً مع الخطبه، حيث لم ترد أدنى إشارة في الكلام إلى طلحه والزبير وأمثالهما، إلا أن يكون السيد الرضى قد حذف بعض الكلمات، وهذا أيضاً يبدو مستبعداً. أما العبارة

«فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيْ» فهو مثل معروف ورد في الأصل بشأن

ص: ٣١١

١- (١). «يهدأ» من ماده (هدوء)، معروفه

٢- (٢) «مسمحه» من ماده (سماح وسماحه) السهوله واليسر، وتعنى أحياناً السخاء والكرم أو الموافقه، والمعنى الأول هو المراد بها في العبارة

٣- (٣). «تضعضع» من ماده (ضعضعه) بمعنى الهدم والتخريب

٤- (٤) «منه» بمعنى القوه

٥- (٥) نفحات الولاية، ج ١، ص ٢٨٩

٦- (٦). «كى» على وزن حى، احراق بدن الإنسان أو الحيوان بحديده ساخنه وما شابه ذلك

الجروح الخطيره حيث كانوا يسلكون عدّه طرق لعلاجها فإن لم تنفع أحرقوا الجرح بحديد ساخن، ثم أصبحت هذه الجملة كناية عن القضايا المشابهه، وعليه تستعمل هذه العبارة حين تغلق الطرق السلميه كافه(١).

تأملان

١. معوقات العدالة

ما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبه مطلب جدى، لا- كما تصور البعض أنّه يهدف إلى إسكات المقابيل. حقّاً كان الثائرون على عثمان آنذاك أشداء، حتى لم يجرأ على مجابتهم حين قتلهم لعثمان بعض الصحابه الموالين له. والأهم من ذلك أنّ معاويه حين تسلّم الخلافه وعبء كل طاقاته للمطالبه بدم عثمان، لم يستطع مواجهه قتله عثمان فضلاً عن التعرف عليهم، بل لما ورد معاويه المدينه وسيطر على الأوضاع أتجه إلى دار عثمان، فصاحت بنته عائشه: أينك يا أبى؟ ومرادها الثأر من قتله عثمان. فرد عليها معاويه بأنّ الناس قد استسلموا لنا وأعطيناهم الأمان وقد حملناهم على الحلم وسيوفنا لم تغمد، فإن نقضنا عهدنا نقضوا عهدهم ولا- ندرى ينفعنا ذلك أم يضرنا (فالأولى أن نسكت ولا تضعف خلافتنا) وأنت بنت عمّ الخليفه خير لك أن تكونى من عوام النساء، أى إن زالت خلافتى فسوف لن تكونى أكثر من امرأه عاديه(٢).

٢. إشكال الثوار

لا- شك في أنّ الثوره التى قامت ضد عثمان كانت متجزره، ذلك لأنّ أنصار عثمان وبطانته لم يكونوا قلائل في المدينه. لم يتمكنوا من الوقوف بوجههم واكتفى

ص: ٣١٢

١- (١) قال المرحوم العلامه المجلسى في بحار الأنوار إنّها وردت في أغلب النسخ: آخر الداء الكى، بمعنى أن ختام الألام الصعبه الحرق، لكن هذا المعنى مستبعد (بحار الأنوار، ج ٣١، ص ٥٠٣)

٢- (٢) العقد الفريد، ج ٥، ص ١١٣

المهاجرون والأنصار بالنظر إلى الأحداث. وسبب ذلك واضح، فقل من كان راضياً بحكومته عثمان واقتصر هذا على قرابته ووطنته التي عثت بيت المال وتسلطت على رقاب الناس. وأن كل محقق منصف لا يرى من مبرر لما وقع من أعمال على عهد خلفه عثمان. فقد كان من الأجدد بكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار أن يقتادوه إلى القضاء، تجنباً لغضب الأمة ومباشرتها لوضع حد لأعمال عثمان. وعليه فالإشكال الرئيسي الذي يرد على الثوار أنهم تصرفوا بعيداً عن قوانين الإسلام القضائية، وقد لمسنا دور الإمام عليه السلام إبان محاصره عثمان وامتصاصه لنقمه غضب الناس وأمره الحسن والحسين بالدفاع عن عثمان. ونخلص مِمَّا سبق إلى أن جواب الإمام عليه السلام في هذه الخطبة كان دقيقاً ينسجم وروح الأحكام الشرعية والقضائية في الإسلام.

عِنْدَ مَسِيرِ أَصْحَابِ الْجَمَلِ إِلَى الْبُضْرَةِ

الْأُمُورُ الْجَامِعَةُ لِلْمُسْلِمِينَ (١)

نظرة إلى الخطبه

تألف هذه الخطبه من قسمين:

القسم الأول: دعوه الناس إلى طاعه الحكومه الإسلاميه عقب اتباع القرآن الكريم ونبذ البدع المضله، ويحذرهم من أن الله يسلبهم النعمه إن لم يطيعوه، وبالتالي يعدهم لمواجهة الناكثين.

القسم الثانى: أشار فيه إلى اتحاد أعداء الحق رغم اختلافهم وإجماعهم على الوقوف بوجه الإمام عليه السلام وأنه سيصبر فإن أصروا على غرضهم فى القضاء على النظام الإسلامى فسأقف بوجههم بكل حزم.

ص: ٣١٥

١- (١) سند الخطبه: لم يذكر هذه الخطبه، سوى الطبرى فى حوادث سنه ٣٦ فى تاريخه ج ٣، ص ٤٦٥ (ذكر الطبرى، القسم الأول من الخطبه فقط)

إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولًا هَادِيًا بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ، لِيَهْلِكَ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ.

وَإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ الْمَشَبَّهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ إِلَّا مَا حَفِظَ اللَّهُ مِنْهَا. وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ اللَّهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ، فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ وَلَا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا.

وَاللَّهُ لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللَّهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ لَيَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَدًا حَتَّى يَأْرِزَ الْأَمْرُ إِلَيَّ غَيْرِكُمْ.

الشرح والتفسير: القيام أو زوال الحكومه الإسلاميه

أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبه حين علم باتحاد الناكثين واقامتهم حكومه فى البصره مناوئه لحكومته العادله عليه السلام وقد انطلقوا إلى البصره. وهدف الإمام عليه السلام من هذه الخطبه تعبئه الناس لمواجهةهم. دعاهم بادية الأمر إلى التمسك بالقرآن، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولًا هَادِيًا بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ، لِيَهْلِكَ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ (١)». ثم حذرهم قائلاً:

«وَإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ (٢) الْمَشَبَّهَاتِ (٣) هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ إِلَّا مَا حَفِظَ اللَّهُ مِنْهَا».

إشاره إلى أن رؤوس الفتنه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله يسعون إلى تحقيق أهدافهم الخبيثه

ص: ٣١٧

١- (١). «هالك» من ماده (هلا-ك) تعنى فى الأصل الموت والفاء، لكنّها ترد أحياناً بمعنى الهلكه المعنويه وهى الضلال والبؤس والشقاء، والمراد بها فى العبارة الهلكه المعنويه، فمعنى لا- يهلك عنه إلّا الهالك أنّه لا- يضل ألّا من استعد للضلال والهلكه

٢- (٢) «مبتدعات» من ماده (بدع) على وزن بدر، ظهور الشىء دون سابقه، وتطلق فى الردّ على ما خالف الكتاب والسنة، وعليه فالمبتدعات الطرق المخالفه للكتاب والسنة

٣- (٣) «مشبهات» البدع التى تلبس ثوب الدين وتوجب الضلال

تحت غطاء الإسلام، كأن يغفلوا نكثهم البيعه بالمطالبه بدم عثمان. وعليه، ينبغي التحلى باليقظه وعدم الانخداع بالظواهر والتوكل على الله.

ثم دعاهم إلى الطاعه فقال:

«وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ اللَّهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ، فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ (١) وَلَمَّا مُسِيَّتْ كَرِهَ بِهَا. وَاللَّهُ لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللَّهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ لَيَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَدًا حَتَّى يَأْرَزَ (٢) الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِكُمْ».

نعم، إن هذه النعمه عقوبتها الزوال إن لم تُشكر، وهكذا شأن سائر النعم: «لَيَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَيَنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» (٣) وما يستفاد من العباده المذكوره (بناءً على أن «حتى» للغايه) أنكم إن لم تطيعوا إمام الحق، فإن الله يسلبكم نعمه الحكومه الإسلاميه ولا تعود إليكم، إلّا أن يسلط عليكم العدو وتزول حكومته ثم تعود إليكم. وقد حيرت هذه العبارة الشراح، ذلك لأنّ الحكومه غير الصالحه بعد الإمام كانت بيد بنى أميه ولم تعد الحكومه بعد بنى أميه لأهل البيت عليهم السلام. قال البعض عادت إلى بنى العباس وهم من بنى هاشم وعليه فقد عادت إلى أهل البيت، إلّا أنّ هذا التفسير غير مستقيم لأنّ ظلم بنى العباس لم يكن أقلّ من ظلم بنى أميه.

واحتمل البعض الآخر أنّ عوده الحكومه إلى أهل البيت عند ظهور ولى العصر أرواحنا فداه. نعم، ليست هنالك من مشكله إن كانت (حتى) عاطفه بمعنى الواو، لأنّ معنى العبارة سيكون: إن لم تطيعوا إمام الحق سيسلبكم الله الحكومه الإسلاميه ولا تعود إليكم وسيكون الأمر لغيركم (طبعاً المراد فى المستقبل القريب، وإلّا ليس من شك فى المستقبل البعيد لحكومته صاحب العصر والزمان عليه السلام والتي تمثل عوده الحكومه العالميه لأهل البيت عليهم السلام).

ص: ٣١٨

١- (١). «ملومه» من ماده (لوم) على وزن قوم، معروفه

٢- (٢) «يأرز» من ماده (أرز) على وزن فرض، بمعنى الجمع

٣- (٣). سوره إبراهيم، الآيه ٧

إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ تَمَالَّوْا عَلَيَّ سَخَطَهُ إِمَارَتِي، وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخْفَ عَلَيَّ جَمَاعَتِكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَمُّوا عَلَيَّ فَيَالِهِ هَذَا الرَّأْيِ انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَدًا لِمَنْ أَفَاءَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ، فَأَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَيَّ أَدْبَارَهَا. وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسِيرِهِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ، وَالنَّعْشُ لِسُنَّتِهِ.

الشرح والتفسير: الصبر على الفتنة

بالنظر إلى ورود الخطبه في أوائل خلافه الإمام عليه السلام وإبان السير إلى البصره لمواجهه أصحاب الجمل فقد حث الإمام عليه السلام أصحابه في القسم الأول، على الطاعة، وحذر هنا، العدو من مغبه مواصله الفتنة وإلا سيقف بوجههم بكل ما أوتى من قوه فقال:

«إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ تَمَالَّوْا (١) عَلَيَّ سَخَطَهُ (٢) إِمَارَتِي». إشاره إلى اختلافهم ففيهم المناق والحسود والضيق الافق (كطلحه والزبير) ولا يجمعهم سوى عدائهم لى.

ثم قال:

«وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخْفَ عَلَيَّ جَمَاعَتِكُمْ». فالعبارة تشير إلى تحمل الإمام عليه السلام لذلك العدو، ويرى عدم ضروره المبادره إلى السيف ما لم يكن هناك خطر يهدد الجماعه، وبالطبع، هذا لا يعنى أن الإمام عليه السلام كان يسكت تجاه كل أعمالهم.

ومن هنا قال عليه السلام

«فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَمُّوا عَلَيَّ فَيَالِهِ (٣) هَذَا الرَّأْيِ انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ». ثم

ص: ٣١٩

١- (١). «تمالؤوا» من ماده (ملأته) تعاونوا على أمر، وعليه فمفهوم تمالؤوا أنهم اتحدوا وتعاونوا

٢- (٢) «سخطه وسخط» بمعنى واحد الغضب

٣- (٣). «فِيَالِهِ» ضعف الفكر

قال:

«وَأَيْمًا طَلَبُوا هَذِهِ الدُّنْيَا حَسِدًا لِمَنْ أَفَاءَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ، فَأَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَىٰ أَدْبَارِهَا». فقد أخرج رسول الله صلى الله عليه وآله الحكومه من صورتها الدنيويه والماديه ومنحها صبغه ربانيه بجهود الأولياء والأصفياء، إلّا أنّ أصحاب الجمل يظنون أنّ الحكومه لقمه سائغه وطعمه هنيئه فيصرون على اقتناصها وتحقيق أغراضهم الدنيويه.

والعبارة

«حَسِدًا لِمَنْ أَفَاءَهَا» بالنظر إلى أنّ أفاء من ماضيه في بمعنى العوده فإنّها تشير إلى أنّ الحكومه على عهد النبي صلى الله عليه وآله كانت في بني هاشم وقد عادت إليهم الآن. وإن سعى الحساد لاستعادتها واحياء سنن الجاهليه.

واختتم الإمام عليه السلام الخطبه بالإشارة إلى حقوق الناس على الحكومه، فقال:

«وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَسِيَرِهِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ، وَالنَّعْشُ (١) لِسُنَّتِهِ». أي إن كان لى عليكم حق (وهو حق الطاعة والانقياد التام) فلكم على حق أيضاً هو إحياء كتاب الله وسننه رسوله صلى الله عليه وآله، ذلك لأنّ للحق طرفين، وليس هنالك من حق ذى طرف واحد. جدير ذكره أنّ الخطبه بدأت وانتهت بالتأكيد على أهميه القرآن.

ص: ٣٢٠

١- (١). «نعش» بمعنى الرفع والحمل، ويقال لجسد الميت، النعش، لرفعه على الأيدي وحمله إلى القبر

فِي وُجُوبِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ (١)

كَلَّمَ بِهِ بَعْضَ الْعَرَبِ وَقَدْ أُرْسِلَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ لَمَّا قَرَّبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهَا لِيُعَلِّمَ لَهُمْ مِنْهُ حَقِيقَةَ حَالِهِ مَعَ أَصْحَابِ الْجَمَلِ لِتَزُولَ الشُّبُهَةُ مِنْ نَفْسِهِمْ، فَبَيَّنَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَمْرِهِ مَعَهُمْ مَا عَلِمَ بِهِ أَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: بَايِعْ، فَقَالَ: إِنِّي رَسُولُ قَوْمٍ، وَلَا أُحَدِّثُ حَدَّثًا حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ:

نظرة إلى الخطبه

الخطبه، كما ورد، سابقاً، جواب واضح لرسول بعض قبائل أطراف الكوفه والبصره حين طالبه الإمام عليه السلام بالبيعه وحاول التهرب منها.

ص: ٣٢١

١- (١) سند الخطبه: أوردها العديد قبل السيد الرضى، ومنهم المرحوم الشيخ المفيد فى كتابه الجمل عن جمل الواقدى (كتاب الجمل للشيخ المفيد، ص ١٥٦) ورواها الطبرى فى تاريخه فى حوادث سنه ٣٦ هجرية، والزمخشرى فى ربيع الأبرار فى باب الجوابات المسكته

فقال: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِدًا تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْثِ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ عَنِ الْكَلَاءِ وَالْمَاءِ، فَخَالَفُوا إِلَى الْمَعَاطِشِ وَالْمَجَادِبِ، مَا كُنْتَ صَانِعًا؟ قَالَ: كُنْتُ تَارِكُهُمْ وَمُخَالَفُهُمْ إِلَى الْكَلَاءِ وَالْمَاءِ.

فَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: فَاْمُدُّ إِذَا يَدُكَ. فَقَالَ الرَّجُلُ: فَوَاللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنَعَ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيَّ، فَبَايَعْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَالرَّجُلُ يُعْرَفُ بِكَلْبِ الْجَرْمِيِّ.

الشرح والتفسير: لماذا لا تبايع

روى الواقدي في كتاب الجمل عن (كليب الجرمي) أنه لما قتل عثمان ولم تمضى مدّه حتى قدم طلحه والزبير إلى البصره (ليمهدوا السبيل أمام حكومتهم) وحين علم على عليه السلام قدم إلى منطقه ذى قار (لمنعهما). سألتنى شخصان من أهل البصره لأحملهما إلى على، لنعلم ما هدفه؟ فلما بلغنا ذى قار وجدنا علياً عليه السلام أعقل العرب، سألتنى من زعيم قبيله بنى راسب؟ قلت فلان. قال من زعيم قبيله بنى قدامه؟ قلت فلان. قال: هل لك أن تحمل كتابى لهما؟ قلت: بلى. قال: ألا تبايعنى؟ وهنا بايع الرجلان، بينما لم أبايع، فالتفت إلى عدد من الرجال الذين كان عليهم سيماء الصالحين فقالوا: بايع، بايع. قال على عليه السلام: دعوه. فقلت: أنا رائد القوم فأعود إليهم وأخبرهم فإن بايعوك أبايعك وإن لم يبايعوا، تبتعتهم، فأجبنى الإمام عليه السلام جواباً لم أجد بداً من البيعه. نعود الآن إلى النصّ لنرى ماذا قال له عليه السلام لقد قال:

«أَرَأَيْتَ لَوْ

أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِدًا (١) تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْثِ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ عَنِ الْكَلْبِ (٢) وَالْمَاءِ، فَخَالَفُوا إِلَى الْمَعَاطِشِ (٣) وَالْمَجَادِبِ (٤)، مَا كُنْتَ صَانِعًا؟ قَالَ: كُنْتُ تَارِكُهُمْ وَمُخَالَفَهُمْ إِلَى الْكَلْبِ وَالْمَاءِ.

فما كان هنا من الإمام عليه السلام إلَّا أن ابتدره:

«فَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : فَأَمُدُّ إِذَا يَدَكَ.

فَقَالَ الرَّجُلُ: فَوَاللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنَعَ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيَّ، فَبَايَعْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»

قال السيد الرضى:

«وَالرَّجُلُ يُعْرِفُ بِكَلْبِ الْجَزْمِيِّ».

فقد أشار الإمام عليه السلام فى جوابه المذكور إلى حقيقة مهمّة يحل الالتفات إليها الكثير من المشاكل. فكثيرون هم الأفراد الذين يفخرون بانصهارهم بالجماعة وتلونهم بلونها، فهم يفتقرون إلى الاستقلال الفكرى بحيث لا يطيقون الانفصال عن الجماعة - وإن كانت ضاله - وهذا ما يؤدى إلى انتقال الخرافات والمساوىء من جيل إلى آخر. فالإمام عليه السلام يفند هذا اللون من التفكير بمثال واضح حيث قال: لو كنت ضمن جماعه وبلغت موضعاً فى الصحراء حيث الماء والغذاء، بينما انحرفت الجماعة إلى موضع مجذب خالٍ من الماء والغذاء، فهل تبقى معهم أم ترجع إلى عقلك؟ فتفصل عنهم وتسلك سبيل العافيه والسلامه، هل من عاقل يبقى فى هذه الحاله مصرّاً على الجماعة؟! قطعاً لو كان الإنسان مستقلاً فكرياً فإنه يسلك الطريق المستقيم أن تعرف عليه وإن سلكه لوحده. وهذا من قبيل ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبه ٢٠١ حين قال

«أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلِّهِ أَهْلِهِ». نعم، مبايعه إمام كعلى بن أبى طالب عليه السلام مجادب، جمع مجذب، المكان الذى لم ينزل إليه المطر فهو جاف لا نبات فيه. وقبول ولايته تمثل ماء الحياه فى

ص: ٣٢٤

١- (١). «رائد» من ماده (رود) على وزن ذوب، بمعنى اللقاء، وتطلق عادة على من ينطلق أمام القافله أو الجيش ويستطلع المكان المناسب من حيث الماء والغذاء

٢- (٢). «كلاء» النباتات الطويل

٣- (٣) «معاطش» جمع (معطش) الموضع الذى يعطش فيه الإنسان

٤- (٤) «مجادب» جمع (مجدب) المكان الذى لم ينزل إليه المطر فهو جاف لا نبات فيه

ذلك المجتمع الذي شهد فساد عصر عثمان، ولم يكف هذا الرجل يسمع كلام علي عليه السلام حتى بايعه.

تأمل: عمق تأثير كلام الإمام عليه السلام

يفيد الكلام المذكور مدى عمق تأثير كلام الإمام عليه السلام في المستمع، والجدير بالذكر أنّ هذا الأمر حدث بالنسبة لرسول عائشه ورسول طلحه والزبير. ولما همّت عائشه ببعث رسولٍ إلى علي عليه السلام، سألت القوم أن يأتوها بأشد أعداء علي عليه السلام فأعطته عائشه كتابها وحذرتة من تناول طعامه وشرابه ففيه سحر. فأتى بكتاب عائشه إلى علي عليه السلام، فلما أعطاه الكتاب قرأه ودعاه إلى بيته ليتناول الطعام حتى يكتب له الجواب، فأقسم الرجل على عدم الذهاب. فقال له الإمام علي عليه السلام: هلا- تجيبي إن سألتك؟ قال: بلى. قال علي السلام: ناشدتك الله حين أرادت عائشه أن تبعث برسولها ألم تسأل القوم عن رجل شديد العداوة لعلي، فأتوا بك إليها وسألتك عن عدائي فأجبت كذا وكذا؟ قال: بلى. قال علي السلام: ألم تحذرك من تناول الطعام فإنّ فيه سحر؟ قال: بلى. قال علي السلام: أتكون رسولي؟ قال: بلى والله. لقد قدمت إليك وأنت أبغض الخلق إليّ والآن أنت أحبّ الخلق إليّ. قال علي السلام: إذهب بكتابي هذا إلى عائشه وقل لها: لقد عصيت الله وعصيت رسول الله صلى الله عليه وآله حيث خرجت من بيتك. وقل لطلحه والزبير: حفظتم نساءكم وأبرزتم زوج رسول الله صلى الله عليه وآله. فقدم الرجل وسلم عائشه الكتاب، وقال لها ما أوصاه الإمام عليه السلام، وقد قتل هذا الرجل في صفين مع علي عليه السلام.

قالت عائشه: ما أرسلنا من رجل إلى علي إلّا عصانا وتمرد علينا(١). وقد حصل مثل هذا الأمر لرجل يدعى خدّاش رسول طلحه والزبير، وقد ورد شرح ذلك في

ص: ٣٢٥

١- (١). شرح نهج البلاغه للخوئي، ج ١٠، ص ١١٥ بتلخيص طفيف

كتاب الكافي للمرحوم الكليني، (١) وخلاصته، أن هذا الرجل أتى بكتاب طلحه والزبير إلى أمير المؤمنين على عليه السلام وقد حذراه سابقاً من بيان على عليه السلام الذي يسحر العقول فلا ينبغي أن يجالسه ويتناول معه الطعام ولا يطيل النظر إلى وجهه وأن يقرأ عند رؤيته، آية السحرة: «إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مَسِيرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ» (٢).

ليأمن من سحره. فلما قدم إلى الإمام عليه السلام نظر إليه وضحك ثم قال: أجلس. قال:

لا. قال عليه السلام: نأتيك الطعام ثم قل ما عندك. قال: لا حاجة بي إلى ذلك. قال عليه السلام: تعال نتحدث في مجلس. قال ليس لى ما أخفيه. قال عليه السلام: قل الصدق، ألم يأمرك الزبير بذلك؟ قال: بلى. قال عليه السلام: أخبرك أن تقرأ آية السحرة إن رأيتنى؟ قال: بلى. فأخذ يقرأها والإمام عليه السلام يقرأ معه، ثم قال عليه السلام: كزرها، حتى كزرها سبعين مره. قال عليه السلام: قل ما عندك؟ فقال له ما أوصاه طلحه والزبير، فرد عليه السلام على تناقضاتهما وجعل (خداش) يصدقه حتى قال لنفسه: لقد جئت بكتاب يبطل بعضه بعضاً؟ إلهى أبراء إليك منهما؟ قال عليه السلام: قل لهما ما قلت لك، قال: خداش والله لا أبرح حتى تسأل الله أن يرجعنى إليك. ففعل الإمام عليه السلام فرجع إلى طلحه والزبير وأوصل كتاب الإمام عليه السلام إليهما ثم عاد مسرعاً إلى الإمام عليه السلام حتى قتل بين يديه فى الجمل.

ص: ٣٢٦

١- (١). اصول الكافي، ج ١، ص ٣٤٣

٢- (٢) سورة الأعراف، الآيات ٥٤-٥٦

لَمَّا عَزَمَ عَلَى لِقَاءِ الْقَوْمِ بِصَفِّينَ (١)

نظره إلى الخطبه

هذه الكلمات ليست خطبه وليست كلاماً عادياً، بل هي دعاء عظيم المعنى لهجج به الإمام عليه السلام حين عزم على مواجهه القاسطين في صفين معاويه ورهطه في شهر صفر سنة ٣٧ هـ واختتمه بدعوه صحبه إلى الجهاد. ويتضمن كلامه قسمين:

الأول: دعاء يثنى فيه على الله بما يرسخ الإيمان لدى الآخرين ويسأله تعالى التسديد إلى الحق والثبات إن انتصر على عدوه، وأن ينعم عليه بالشهادة والإبتعاد عن الفتنة إن كانت الغلبه للعدو.

أما القسم الثانى: فقد دعى فيه صحبه لجهاد معاويه ورهطه من خلال عبارات قصيره، لكنها تثير الحماس والقوه.

ص: ٣٢٧

١- (١) سند الخطبه: روى هذا الدعاء قبل السيد الرضى، كل من نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، وحسين بن سعيد الأهوازى فى كتاب الدعاء والذكر، حسب نقل السيد ابن طاووس رحمه الله فى منهج الدعوات، والطبرى فى تاريخه فى حوادث سنة ٣٧ هـ. (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤١١)

اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضًا لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرَى لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَمُخْتَلَفًا لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ؛ وَجَعَلْتَ سَيِّكَا نُهُ سَبِيطًا مِنْ مَلَائِكَتِكَ، لَا يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ؛ وَرَبِّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَارًا لِلْأَنَامِ، وَمَدْرَجًا لِلْهَوَامِّ وَالْأَنْعَامِ، وَمَا لَا يُحْصِي مِمَّا يُرَى وَمِمَّا لَا يُرَى؛ وَرَبِّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَادًا، وَلِلخَلْقِ اعْتِمَادًا، إِنَّ أَظْهَرَنَا عَلَى عِدُونَا، فَجَنَّبْنَا الْبُغْيَ وَسَدَّدْنَا لِلْحَقِّ؛ وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ، وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ.

أَيْنَ الْمَانِعِ لِلذَّمَارِ، وَالْعَائِزِّ عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ! الْعَارُ وَرَاءَ كُمْ وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!

الشرح والتفسير: الجنة أمامكم

كما ذكرنا سابقاً فإن الإمام عليه السلام استهل خطبه بدعاء روي عميق المعاني ليعد نفسه وصحبه للقاء العدو، وحيث يحمد الله في الدعاء بصفات تعد القلوب فإن الإمام عليه السلام حمد الله في هذا الدعاء باسم رب السموات والأرض وربّ الجبال فقال عليه السلام:

«اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْجَوِّ (١) الْمَكْفُوفِ (٢)، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضًا (٣)»

ص: ٣٢٩

١- (١). «جو» بمعنى السماء، وردت بمعنى الهواء

٢- (٢) «مكفوف» بمعنى المتراكم، كما جاء بمعنى المقيد، ومن ماله (كف)، بمعنى الجمع أو المنع

٣- (٣) «مغيض» بمعنى موضع نفوذ الماء، كأنّ الجو كالأرض يبتلع في صدره الليل والنهار، وهذه المفردة من ماله (مغيض) على وزن فيض، بمعنى استقرار الماء في عمق الأرض

لِللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَمُخْتَلَفًا لِلنُّجُومِ السِّيَّارَةِ؛ وَجَعَلَتْ سُبْحَانَهُ سِدًّا بِطَاءً (١) مِنْ مَلَائِكَتِكَ، لَا يَسْأَمُونَ (٢) مِنْ عِبَادَتِكَ». العباره

«السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ» إشاره إلى موضع النجوم التي تشاهد في السماء بصوره سقف - وقد سحبت من الشرق والغرب والشمال إلى الجنوب - أو إشاره إلى جو الأرض، أى طبقه الهواء التي تحيط بالأرض بقطر طوله مئتي كيلومتر ويحفظها كسقف من الأشعه الكونية القاتله والصخور السماويه التائهه (٣). إلّا أنّ التفسير الأول أنسب، وعليه فالسقف المرفوع محل نجوم العالم العلوى والتي تبدو لأهل الأرض كالسقف، ومفهوم مجرى الشمس والقمر... بهذا المعنى.

«وَالجَوِّ الْمَكْفُوفِ» طبقه الهواء المحيطه بالأرض موضع ظهور الليل والنهار (فالليل ظل الأرض ويظهر في هذا الجو المكفوف وكذلك النهار موضع شروق الشمس).

وربما تشير العباره مختلفا

«وَمُخْتَلَفًا لِلنُّجُومِ السِّيَّارَةِ» إلى جميع نجوم السماء السابحه في هذا الفضاء الواسع، حيث تطلع كل ليلة من أفق المشرق تغيب في أفق المغرب، أمّا إن كانت (النجوم السياره) إشاره إلى السيارات الخمس المعروفه للمنظومه الشمسيه فإنّ المفرده (مختلفاً) تشير إلى حركتها الخاصه في السماء، وكأنّها تتقدم قليلاً ثم تعود ثم تنطلق (وإن لم تكن كذلك في الواقع). ضمناً، فإنّ الكلمات المذكوره على غرار التعبيرات القرآنيه التي تنسجم وعلم الفلك المعاصر وتنفي نظريه بطليموس، وذلك لأنّ معنى مجرى الشمس والقمر، هاتين الكرتين مستقلتان في حركتهما في السماء، وكذلك النجوم، لا أنّها مشدوده إلى أفلاك بلوريه وتتحرك معها.

ثم أشار عليه السلام إلى الأرض وكائناتها الحيه فقال:

«وَرَبِّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا

ص: ٣٣٠

١- (١). «سبط» بمعنى القبيله والطائفه، وتعنى في الأصل، اتساع الشىء بسهولة، ولما كانت الطوائف تتسع فقد اطلقت عليها هذه المفرده

٢- (٢) «يسأمون» من ماده (سأمه) بمعنى التعب عن مواصله العمل

٣- (٣). راجع التفسير الامثل، ذيل الآيه ٣٢ من سوره سبأ

قَرَارًا لِلنَّامِ، وَمَدْرَجًا (١) لِلهُوَامِ (٢) وَالْأَنْعَامِ، وَمَا لِيُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمَا لَيُرَى».

إنّ هذه العبارات تفيد احاطه الإمام عليه السلام العلميه بجميع الكائنات على الأرض والتي تشمل الإنسان والحيوانات الأهلبيه وغير الأهلبيه حتى الديدان التي لا ترى بالعين المجرّده كأنواع الميكروبات والفيروسات. وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد من (ما لا- يرى) الأحياء المتناثره فى الصحراء والتي لا- يراها أحد، وقالوا: لو أوقدت نار فى الصحراء فى ليله مظلمه لا-جتمعت حولها ديدان لم يرها الإنسان، ولكن بالنظر إلى الاكتشافات الحديثه بشأن الأحياء المجهرية التي لا- ترى بالعين المجرّده لا تبدو هناك حاجه لمثل هذا التفسير، فهناك طائفة من الأحياء التي لا ترى بأى شكل من الأشكال، وهذا الكلام من كرامات الإمام عليه السلام التي أماطت اللثام عن حقيقه كانت خفيه على الجميع آنذاك. وعبر عن الإنسان بالقرار (موضع الإستقرار والإقامه) وعن الحيوانات بالمدرج (موضع السير البطئ والتدريجي) ولعل الفارق فى التعبيرين، يعزى إلى الحركة فى الحيوانات التي تفوق نظيرتها عند الإنسان.

ثم قال عليه السلام فى الصفه الثالثه للذات المقدّسه فى دعائه العظيم:

«وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي (٣) الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَادًا، وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَادًا». فالعبارة كون الجبال للأرض أوتاداً اقتباس من القرآن الكريم بشأن الجبال: «وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا (٤)» (٥). أحياناً يتصور أنّ حجم أضخم الجبال صغير بالنسبه للكره الأرضيه، بحيث لا يصح اطلاق الوتد عليه، لكن بالنظر إلى أنّ لهذه الجبال العظيمه جذور فى أعماق الأرض، وهذه الجذور متصله مع بعضها كدرع أحاط بالأرض يحول دون الضغوط الداخليه

ص: ٣٣١

١- (١) «مدرج» من ماده (دروج) بمعنى طى الطريق، ومدرج، يطلق على موضع طى الطريق

٢- (٢) «هوام» جمع (هامه) الحيوانات الصغيره كالفأره والحيه

٣- (٣) . «رواسي» جمع (راسيه) الثابت والراسخ

٤- (٤) . «أوتاد» جمع (وتد) على وزن نمد، المسمار، ومن ماده (وتد)، على وزن وقت، بمعنى تثبيت الشئ

٥- (٥) سورة النبأ، الآيه ٧

والخارجيه - والذي يفرزه جاذبيه القمر وجزره ومدته - فإنّ الجبال تعتبر بمثابة الأوتاد التي تحول دون تصدع الأرض. أمّا قوله: إنّ الله جعلها للخلق اعتماداً، ذلك لأنّ الجبال تحطم الرياح الشديده العاتيه وتمنع العواصف الرملية والسيول الخطيره، أضف إلى ذلك فإنّ أغلب الأنهار والعيون تنحدر من الجبال وهي مركز أكثر المعادن المفيده، إلى جانب بناء السيوت والقلاع المحكمه فيها، سيما المناطق التي تكون عرضه للسيول إنّما تلجأ لبناء الدور هناك خلاصاً من هذا الخطر. والسؤال ما الذي أراد أن يطلبه الإمام عليه السلام من الله في هذا الدعاء. قال عليه السلام

«إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا، فَجَنَّبْنَا الْبُغْيَ وَسَدَّدْنَا لِلْحَقِّ؛ وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ، وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذا الدعاء إلى هذه الحقيقه وهي أنّ الكثير ربّما يفارق العداله حين النصر والغلبه في المعركه ويمارس الظلم بحق العدو، ومن هنا يسأل الله في حاله النصر ابعاده عن هذا العمل أولاً، وثانياً، كثيرون هم الأفراد الذين ينشدون النصر ارضاء لغرورهم والسيطره على الآخرين. الإمام عليه السلام يدعو الله أن يسدده للحق وإقامه العدل إن كتب له النصر، وثالثاً، على فرض كون الغلبه للأعداء فإنّه يسأل الله الشهاده والاعتصام من الفتنه. الفتنه هنا يمكن أن تكون إشاره إلى الامتحان، ذلك لأنّ ساحه القتال من ميادين الامتحانات الصعبه وعلى الإنسان أن يسأل الله تثبيته في القتال. فالفرد الذي يعتقد أنّه على الحق ربّما ينقم حظه إن أصابه شيء، وينطلق لسانه بالشكوى وهذا فشل في ميدان الامتحان.

ثم دعى الإمام عليه السلام أصحابه لمواجهة العدو من خلال عباراته المؤثره في الدعاء فقال:

«أَيُّنَ الْمَانِعِ لِلذَّمَارِ (١)، وَالْغَائِثِ (٢) عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ (٣) مِنْ أَهْلِ الْحِفَاطِ! (٤) الْعَارُ

ص: ٣٣٢

١- (١). «ذمار» ما يجب على الإنسان حفظه كالأهل والعرض والوطن، ومن ذمر، على وزن رمل، بمعنى اللوم والتوبيخ، فهي

تطلق بهذا المعنى على من يقصر في حفظ الأهل والشرف والوطن حيث يستحق اللوم

٢- (٢) «غائر» بمعنى الغيور

٣- (٣) «حقائق» جميع حقيقه، تشير هنا إلى النوازل التي تحل بالإنسان أو المجتمع والوطن

٤- (٤) «حفاظ» من ماده (حفظ) تعنى هنا، الوفاء بالعهد ورعايه الذمه

وَرَاءَكُمْ وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!». وأخيراً يختم كلامه بتشجيع المدافعين وتهديد الهاربين فيقول:

«الْعَارُ وَرَاءَكُمْ وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!» فإن فررتم كان ذلكم عاراً عليكم وإن ثبتم فلکم الجنة.

تأمل

لقد شهد تاريخ البشرية نشوب العديد من الحروب العالميه والأقليميه، ولكن غالباً ما يكون الهدف منها، الطمع وحب الاستعلاء والسيطره والثأر، ومن هنا فإن النصر في المعركه إنما يؤدى إلى ارتكاب أفعال الجنايات، وذلك لغياب الهدف المقدس. نعم، يستثنى من ذلك حروب الأنبياء والأولياء، حيث الهدف منها إطفاء نار الفتنة، «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ» (١) والدفاع والوقوف بوجه المهاجم: «فَإِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ فَاتُّلُوهُمْ» (٢) ولذلك فإن الأصول الإنسانيه لا تغيب قط في المعركه. ومن ذلك ما أوصى به أمير المؤمنين عليه السلام جند الإسلام عند النصر بأن لا يتعقبوا فاراً ولا يجهزوا على جريح ولا يتهيجوا النساء بأذى وإن شتمن الأعراض وسببن الأمراء (٣).

وتراه عليه السلام في هذه الخطبه والدعاء الذى تقرب به إلى الله يسأله الثبات والتسديد إلى الحق عند ظهوره على العدو، وهذا هو الفارق بين من يخوض الحرب من أهل الدنيا وأولئك الذين يعملون للآخرة.

ص: ٣٣٣

١- (١) . سورة البقره، الآيه ١٩٣

٢- (٢) . سورة البقره، الآيه ١٩١

٣- (٣) . نهج البلاغه، الرساله ١٤

(١)

استهل الإمام عليه السلام الخطبه بحمد الله والثناء عليه ثم أشار إلى بعض الأعمال والأقوال الطائشه لبعض الصحابه المعروفين. تتكون الخطبه من ثلاثه أقسام. أشار في القسم الأول: إلى موقف عبدالرحمن بن عوف أو سعد بن أبي وقاص يوم الشورى (الشورى المؤلفه من ستة أفراد والتي شكلها عمر لاختيار الخليفه من بعده)، حيث نسب إلى الإمام عليه السلام الحرص على الخلافه فأجابه الإمام عليه السلام بجواب رائع. وشكى إلى الله.

في القسم الثاني، قريشاً ومن اصطف معها ضده. وتطرق.

في القسم الثالث، إلى قضيه طلحه والزبير وموقعه الجمل وعملها القبيح الذي ارتكبه حين أخرجوا عائشه (زوج النبي) إلى المعركه ولم يحفظا حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وما تبع ذلك من سفك للدماء.

ص: ٣٣٥

١- (١) سند الخطبه: يبدو أنّ هذه الخطبه جانب من كتاب كتبه الإمام عليه السلام في أواخر أيام خلافته ذكر فيه الأحداث التي وقعت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وأمر أن تقرأ على الناس، وقد ردّ الإمام عليه السلام على عبدالرحمن بن عوف حين قال له يوم الشورى: إنك على هذا الأمر لحريص، بذلك الجواب الذي ورد في الخطبه. رواها الطبري في كتاب المسترشد (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤١٤)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَاتَوَارَى عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً، وَلَا أَرْضٌ أَرْضاً.

منها: وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ يَا بَنَ أَبِي طَالِبٍ لَحْرِيصٌ؛ فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللَّهِ لِأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَحْصُ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقًّا لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ. فَلَمَّا قَرَعْتَهُ بِالْحُجَّهِ فِي الْمَلَأِ الْحَاضِرِينَ هَبَّ كَأَنَّهُ بُهِتَ لَأَيْدِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ!

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَعَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مُنَازَعَتِي أَمْرًا هَوَلِي. ثُمَّ قَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ.

الشرح والتفسير: قريش والخلافه

إستهل الإمام عليه السلام الخطبه بحمد الله والثناء عليه وركز على علم الله وسعته - بما يتناسب وأبحاث الخطبه - فقال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَاتَوَارَى عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً، وَلَا أَرْضٌ أَرْضاً».

يبدو أن بعض شراح نهج البلاغه تكلفوا في تفسير العبارة

«وَلَا أَرْضٌ أَرْضاً» على أساس عدم وجود أكثر من أرض، فذهبوا إلى أنها تشير إلى الأقاليم السبعة على الأرض التي نراها محيطه بالأرض بسبب كرويتها حتى وإن نظرنا إليها من خارج الكره الأرضيه، ولا يمكن رؤيه جميع المناطق في الأرض في لحظه معينه وإن نظرنا إليها من مسافه بعيده، إلّا أنّ الأمر ليس كذلك بالنسبه لله الذي لا يغيب

عن علمه شيء. وقيل: تشير العبارة إلى طبقات الأرض، فالأرض تتألف من طبقات ولا نرى سوى طبقه واحده منها، أما الله فلا يغرب عنه شيء. وقيل: المراد، المخلوقات التي تعيش في الأرضين، حيث ورد مثل هذا الكلام في تفسير الآيه الشريفه ١٢ من سوره الطلاق: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ» وقد قال كل من الفخر الرازي والمرحوم العلامة الطبرسي بأحد هذين التفسيرين المذكورين. الاحتمال الآخر في تفسير الآيه وكلام الإمام عليه السلام أن المراد، العوالم الواقعه في الجانب الآخر من الكره الأرضيه. توضيح ذلك، أننا نستخدم على ما فوقنا بالسماء وما تحتنا بالأرض، ونعلم أن الكره الأرضيه وسط مجموعه من الكواكب الثابته والسياره، وكما أن هناك عدداً هائلاً من تلك المجموعه فوقنا، كذلك لو تأملنا الجانب الآخر للكره الأرضيه فإن فيها مجموعه من هذه العوالم التي تعد سماءً بالنسبه لسكنتها بينما تعتبر أرضاً بالنسبه لنا، فالسماء لا تقتصر على هذا النصف الكروي الذي فوقنا، بل هنالك النصف الآخر تحتنا والملء بالكواكب والكرات السماويه (عليك بالتأمل).

ثم أشار الإمام عليه السلام في الجانب الآخر من الخطبه إلى وقائع يوم الشورى المكونه من ستة أعضاء لاختيار الخليفه الثالث فرد على مقوله عبدالرحمن بن عوف أو سعد بن أبي وقاص في حرص الإمام عليه السلام على الخلافه فقال:

«وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ يَا بَنَ أَبِي طَالِبٍ لَحْرِيصٌ؛ فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللَّهِ لَأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَحْصُ وَأَقْرَبُ». فالواقع أن عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ومن شاكلهما ينظرون من خلال أفقهم الضيق على أن الخلافه طعمه لذيذه لهم أو من يرونه مؤهلاً لها، فهم لا يعلمون أو لا يريدون أن يعلموا أن الخلافه ليست بذات قيمه لدى ابن أبي طالب سوى إحقاق الحق والانتصاف للمظلوم وزهق ودحر الظالم. والإمام عليه السلام لا يريد الخلافه لنفسه بقدر ما يريد لها لبسط العدل والقسط وسلامه المجتمع الإسلامي.

ثم قال عليه السلام

«وَأِنَّمَا طَلَبْتُ حَقًّا لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ». إِلَّا أَنَّ حَرَصَهُمْ حَال دُونَ إِذْعَانِهِمْ لِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ. لِذَلِكَ وَاصِل كَلَامِهِ قَائِلًا:

«فَلَمَّا قَرَعْتُهُ (١) بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلَأِ الْحَاضِرِينَ هَبَّ (٢) كَأَنَّهُ بُهِتَ لَأَيْدِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ!» قضيه الشورى التى شكلها عمر حين وفاته كانت ضججه ضخمة أفصحت عن الأحقاد والضغائن التى يكنّنها بعض الصحابة لأمر المؤمنين على عليه السلام وتشير إلى حجم المؤامرة المبيته بغيه زحزحته عن مقامه وحقه الاجتماعى حتى طالبوه بالتخلى عن حقه وإلا إتهم بالحرص على الخلافة. جدير بالذكر أنّ ابن أبى الحديد قال: يعتقد الشيعة أنّ الإمام عليه السلام قال هذا الكلام فى أبى عبيده الجراح فى سقيفه بنى ساعده التى شكلت لاختيار الخليفة بعد النبى صلى الله عليه وآله (٣). والحال لم نر أحداً من علماء الشيعة قال بذلك، والمسلم لدينا أنّ الإمام عليه السلام لم يكن حاضراً فى السقيفه. وقد فرغنا من شرح هذه الأحداث فى الجزء الأول من هذا الكتاب ذيل الخطبه الثالثه المعروفه بالشقيفه.

ثم تضرع الإمام عليه السلام إلى الله يشكو ما ألم به من ظلم فيستلهمه العون قائلاً:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ (٤) عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعْيَانُهُمْ! فَبَانَتْهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَيَّرُوا عَظِيمَ مَنَزَلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مُبَارَعَتِي أَمْرًا هُوَ لِي. ثُمَّ قَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ». فهذه العبارة تكشف بوضوح أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يرى الخلافة حقه الطبيعي، وذلك لأنه كان أجدر بها من غيره إلى جانب نص النبى الأكرم صلى الله عليه وآله على ولايته فى الغدير والذى أكده مراراً وتكراراً، إلما أنّ عشاق المناصب اسقطوا نص رسول الله صلى الله عليه وآله وحكم العقل، ومارسوا الأعمال التى من شأنها

ص: ٣٣٩

١- (١). «قرعته» من ماده (قرع) على وزن فرع، بمعنى ضرب الشيء على آخر بحيث يتولد صوت شديد. وتستعمل هذه المفردة فى الأمور المعنويه، أى تستعمل بشأن الأدله الواضحه والدامغه كالخطبه المذكوره
٢- (٢) «هب» من ماده (هبوب) بمعنى حركة الرياح، أحياناً، وأخرى بمعنى الهيجان، وكذلك البهت أو النهوض من النوم، والمعنى الثانى هو المراد فى العبارة

٣- (٣). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٣٠٥

٤- (٤). «استعديك» من ماده (استعداء) بمعنى الشكوى وطلب العون

قطع صله الرحم، والأمر الغريب أنهم يعترفون بهذا الحق، لكنهم يزعمون أنها من الحقوق التي ينبغي الإغماض عنها، فالظروف ليست مناسبة لاستحصاله.

والتعبير بقطع صله الرحم إما لاستدلالهم بأوليتهم في أمر الخلافة لقربهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وقد رد عليهم الإمام عليه السلام بأنه أخصّ منهم وأقرب (كما مرّ علينا في عبارته الخطبه) أو (أنا) إشاره إلى أنهم لم يأخذوا الخلافة وهي حقّي فحسب، بل لا يكفون عن ارتكاب الجنايات التي تعدّ مصداقاً بارزاً لقطع الرحم.

تأملان

١. العيون المعصوبه ازاء الحقائق

إنّ البعض وإن سعى المرور مرّ الكرام على القضايا المتعلقة بالخلافه، إلّا أنّ الأمر لا يبدو بهذه السهوله والبساطه. لا شك في أنّ علياً عليه السلام شكى مراراً من سلبه حقّه المسلّم في الخلافه (طبعاً ليس المراد من الحق، المقام الذي يختزن الفائده والربح والمنفعه) بل يمثل المسؤوليه الشرعيه وهدفها - على ضوء ما ذكره الإمام عليه السلام - إقامه العدل وإحقاق الحق وإجراء الحدود. ولعل الكلام المذكور هو أحد النماذج البارزه على شكواه حتى قال: إنهم اجمعوا على منازعتي ليصادروا حقّي، وسنورد المزيد بهذا الشأن في شرحنا للخطبه رقم ٢١٧.

الجدير بالذكر أنّ ابن أبي الحديد نقل هذا الكلام وحاول تبريره وتوجيهه بما لا يمكن قبوله بأي شكل من الأشكال. فقد صرح قائلاً: أعلم أنّه وردت أخبار متواتر عنه عليه السلام ومنها هذه الخطبه أنّه قال:

«مَا زِلْتُ مَظْلُومًا مُنْذُ قَبَضَ اللَّهُ رِسُولَهُ حَتَّى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا»، وقال أيضاً:

«اللَّهُمَّ اخْرِزْ قُرَيْشًا فَإِنَّهَا مَعَتَبَتِي حَقِّي وَغَضَبَتِي أَمْرِي» وسمع شخصاً يقول:

«أَنَا مَظْلُومٌ» فقال عليه السلام:

«هَلُمَّ فَلْنُصْرِحْ مَعًا فَإِنِّي مَا زِلْتُ مَظْلُومًا» وقال في الخطبه الشقشقيه:

«وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى» وأضاف في الخطبه المذكوره:

«أرى تراثي نهباً» ولما فرغ ابن أبي

الحديد من ذلك هب للدفاع عن الخلافة ليقول: أنّ أصحابنا يوجهون ذلك بأنّ مراد الإمام عليه السلام أنّه كان أفضلهم وأولاهم - وهذه حقيقته - لا- أنّ مراده أنّ النبي صلى الله عليه وآله نص عليه، لأنّ ذلك يدعوننا إلى تكفير وتفسيق كبار المهاجرين والأنصار (ننسبهم للكفر أو الفسق) وأضاف أنّ الزيدية والإمامية يحملون هذا الكلام على ظاهره (ويرون الخلفاء غاصبين للخلافة). ثم قال: والذي نفسى بيده أنّ مفهوم هذه العبارات وإن كان أغلب الظن ما يقوله هؤلاء، إلّا أنّ هذا الظن باطل وليس أمامنا سوى اعتبار هذا الكلام من قبيل الآيات القرآنية المتشابهة التي تطرح بعض الأمور التي لا نقرّها لله (١). والعجيب كيف يتأول ابن أبي الحديد وأمثاله هذه الكلمات الواضحة بهذا الشكل، والأسوأ من ذلك أنّه قاس هذا الكلام بآيات القرآن المتشابهة، فالآية القرآنية: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» (٢) يفهم كل فرد عاقل أنّ المراد منها قدره الله، وإلّا فالله ليس بجسم لتكون له يد كيدنا. نعم، قال الإمام صراحه في العبارة السابقة أنّ هؤلاء غصبوني حقّي، وليس لهذه العبارة أكثر من تفسير وتأبى التوجيه، ليت شعري ما الضير في قولنا إنّ طائفه من المهاجرين والأنصار أخطأت بشأن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؟ أفكانوا معصومين؟ الحق أنّ الأحكام المسبقة والتعصّب للمذهب يؤدّي بالإنسان أحياناً إلى أنّ يعصب عينيه عن رؤيه القضايا الواضحة والتشبث بالتوجيه غير المنطقي.

٢. هل ينبغي التنازل عن بعض الحق

تمسك غاصبوا الخلافة - كما ورد في الخطبه - بضروره استيفاء بعض الحقوق والتنازل عن بعضها الآخر على ضوء بعض المصالح. ويرون خلافة أمير المؤمنين عليه السلام من النوع الثاني. نعم، العبارة المذكوره تنطوي على مفهوم صحيح

ص: ٣٤١

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٣٠٦ و ٣٠٧

٢- (٢). سوره الفتح، الآية ١٠

وآخر باطل. فالإنسان ينبغي له التنازل عن جانب من حقه الشخصي أو جميعه بغيه الحيلولة دون نشوب النزاعات ومواصلة الخصومه ومراعاة للمحبه والموده، أمّا بالنسبه للحقوق المتعلقة بالمجتمع ومصيره، فلا يحق لأحد التنازل عنه أو المساومه على حسابه. وأصحاب هذه الحقوق هم وكلاء الأئمه. وليس للوكيل مثل هذا التنازل، والخلافه من هذا النوع من الحقوق، إلّا أنّ غاصبي الخلافه حاولوا خلط الأوراق. بمنطقهم الأجوف بغيه تحقيق أهدافهم ومآربهم. والعباره المذكوره تشير ضمناً إلى أنّ أعداء الإمام عليه السلام كانوا يعترفون بحقه، أو بعباره أخرى فإنّ حقه كان على درجه من الوضوح بحيث لم يسعهم إنكاره، فعمدوا إلى الذرائع والحجج الواهيه.

فَخَرَجُوا يَجْرُونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَمَا تُجْرُ الْأُمَمُ عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصْرَةِ، فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بَيْتَيْهِمَا، وَأَبْرَزَا حَبِيسَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا، فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَسَمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ، طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ، فَقَدِمُوا عَلَيَّ بِهَا وَخُرَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْرًا، وَطَائِفَةً عَدْرًا. فَوَاللَّهِ لَوْ لَمْ يُصَبِّ يَبُوءَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بَلَا جُزْمِ جَرَّةٍ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا يَدٍ. دَعُ مَا أَنْتَهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ!

الشرح والتفسير

فضيحة أصحاب الجمل

شرح الإمام عليه السلام هنا الخطأ الفادح الذي ارتكبه أصحاب الجمل ليعلم الجميع بأن الإمام عليه السلام إن قاتلهم وقتل طائفته منهم فهي مستحقة لذلك، فلا ينبغي التذرع بالأعذار ومواجهه هذا المنطق المتين، حيث أشار عليه السلام إلى ثلاث من جرائمهم الكبرى، فقال في الأولى:

«فَخَرَجُوا يَجْرُونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَمَا تُجْرُ الْأُمَمُ عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصْرَةِ». ثم قال:

«فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بَيْتَيْهِمَا، وَأَبْرَزَا حَبِيسَ (١) رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا».

ص: ٣٤٣

١- (١) «حبيس» من ماله (حبس) بمعنى المحبوس، وإشارته إلى عائشه زوج النبي صلى الله عليه وآله التي كانت منهيه عن الاشتراك في الحرب والخروج إلى المسرح الاجتماعي، لكن طلحه والزبير دفعها لذلك العمل

كَلْنَا نَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ أَوْصَىٰ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِأَنْ يَقْرَنَ فِي بُيُوتِهِمْ وَأَنْ لَا يَتَّبِعْنَ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ فَيَتَصَفَّحْنَ هَذَا وَذَآئِكَ: «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ» (١) . وَكَأَنَّ بَعْضَ الْأَحْدَاثِ كَمَوْقِعِهِ الْجَمَلِ كَانَتْ مَنظُورَةً مِنْ قَبْلِ، إِلَّا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَحَلِّينَ أَبْقَوْا عَلَىٰ نِسَائِهِمْ فِي بُيُوتِهِمْ وَأَخْرَجُوا زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خِلَافَ نَصِّ الْقُرْآنِ لِجَعْلِهَا وَسِيلَهُ لِتَحْقِيقِ مَآرِبِهِمْ.

ثم قال عليه السلام في جنائيتهم الثانية:

«فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَسَمَّحَ لِي بِالْبَيْعَةِ، طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ». وَلَا يَقْتَصِرُ الْإِلْتِمَامُ بِالْبَيْعَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ، بَلْ كَانَ يَلْتَزِمُ بِهَا حَتَّى قَبْلَ الْإِسْلَامِ، بَيْنَمَا نَقَضَ أَصْحَابُ الْجَمَلِ هَذِهِ السَّنَةَ وَنَكثُوا عَهْدَهُمْ عَلَانِيَةً وَاسْتَعَدُّوا لِمُؤَاجَهَةِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامِ. وَأَشَارَ إِلَى جَرِيرَتِهِمْ الْآخَرَى فَقَالَ عِنْدَ مَا دَخَلُوا الْبَصْرَةَ:

«فَقَدِمُوا عَلَيَّ عَامِلِي بِهَا وَخِزَانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْرًا (٢)، وَطَائِفَةً غَدْرًا». ذَكَرَ ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ فِي شَرْحِ لَجْنَايَاتِ أَهْلِ الْجَمَلِ أَنَّ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَأَعْوَانَهُمَا تَدْرَعُوا وَقَدِمُوا الْمَسْجِدَ عِنْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ وَكَانَ فِيهِ عَامِلٌ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامِ عُثْمَانُ بْنُ حَنِيفٍ. فَتَقَدَّمَ لِلصَّلَاةِ فَدَفَعَهُ أَصْحَابُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَقَدِمُوا الزُّبَيْرِ. فَتَقَدَّمَ

(السَّبَابِجَةُ) (حَمَاهُ بَيْتُ الْمَالِ) (٣) وَدَفَعُوا الزُّبَيْرَ خَارِجَ الْمَسْجِدِ، فَهَجَمَ عَلَيْهِمْ أَنْصَارُ الزُّبَيْرِ وَقَدِمُوهُ وَاسْتَمَرَّ النَّزَاعُ حَتَّى طَلُوعِ الشَّمْسِ.

فَصَاحَ النَّاسُ: اتَّقُوا اللَّهَ يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَالشَّمْسُ تَكَادُ تَطْلُعُ، فَغَلِبَهُمُ الزُّبَيْرُ وَصَلَّى بِالنَّاسِ. ثُمَّ أَمَرَ بِالْقَبْضِ عَلَى ابْنِ حَنِيفٍ فَضَرْبِهِ حَتَّى كَادَ يَمُوتُ، كَمَا قَبِضُوا عَلَى السَّبَابِجَةِ وَهُمْ سَبْعُونَ، حَمَلُوا عُثْمَانَ بْنَ حَنِيفٍ إِلَى عَائِشَةَ، فَأَمَرَتْ بِقَتْلِهِ. فَقَالَ عُثْمَانُ: إِنْ قَتَلْتُمُونِي سَيَقْتَصُّ مِنْكُمْ أَحَى (وَالَى الْمَدِينَةَ) فَخَافُوا وَتَرَكَوهُ. وَأَمَرَتْ

ص: ٣٤٤

١- (١) سورة الأحزاب، الآية ٣٣

٢- (٢) . «صبر» تعنى فى الأصل الحبس، ومن هنا يطلق الصبر على مسك النفس وحبسها عن المكاره. المعنى الآخر للصبر أن يحبس الإنسان أو الحيوان فى موضع، ثم يرمى بحجر أو سهم، بالتالى يقال، قتل صبراً لمن يقتل بالزجر والتعذيب

٣- (٣) . «السبابجة» جمع (سبيجى) قال صاحب لسان العرب، من ماده (سبيج) طائفه شجاعه من السند استؤجروا للقتال (الدفاع عن بيت المال). وقيل: كلمه فارسيه تعنى الشبان الصغار وألوانهم سوداء

الزبير بقتل السبايجه فذبحهم ابنه عبدالله كما تذبج الشاه. قال بعض المؤرخين كأبي مخنف كان السبايجه أربعمائيه وقد نقض طلحه والزبير عهدهم مع عثمان بن حنيف - بعدم التعرض لأحد - فكان السبايجه أول طائفه قتلت صبراً في الإسلام(١). وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله:

«فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْرًا، وَطَائِفَةً غَدْرًا».

وأخيراً خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة فقال:

«فَوَاللَّهِ لَوْ لَمْ يُصَبِّئُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بَلَا جُزْمَ جَرِّهِ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا بِيَدٍ. دَعَا مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ!».

أثار هنا بعض شراح نهج البلاغه أسئلة وأجابوا عنها، نوردها بما يناسب البحث:

سؤال: كيف تفسر فقيهاً عبارته الإمام عليه السلام في حليه قتل الجيش كله وإن أصابوا واحداً فضلاً عن قتلهم لذلك العدد الكثير؟

الجواب: أجاب البعض بأنهم أباحوا قتل المسلمين وهذا نوع من انكار ضروريات الدين وعليه فهم مرتدون. وقيل: إن قتلهم من باب النهي عن المنكر، ولو توقف النهي عن المنكر بذلك لكان جائزاً. الجواب الثالث: والأنسب، أنهم كانوا مصداقاً للمفسدين في الأرض، فقد جهزوا الجيوش ونكثوا البيعه وعاثوا فساداً في بعض مناطق البلد الإسلامي، فهم مشمولون بالآيه الشريفه «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا...»(٢). وعبارته الإمام عليه السلام أنهم حضروا ولم ينكروا ولم يدفعوا بلسان ولا بيدهم في الواقع مقدمه لاثبات كونهم من

ص: ٣٤٥

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٣٢٠

٢- (٢). سورة المائده، الآيه ٣٣

الجواب الرابع: الذى يتبناه مذهب أتباع أهل البيت عليهم السلام فى أنّ الخارج عن الإمام المعصوم كافر، كما ذكر ذلك الخواجه الطوسى فى تجريد العقائد (١) فقال:

«وَمُحَارِبُو عَلِيٍّ كَفَرَهُ» ذلك لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلى عليه السلام:

«حَرْبُكَ حَرْبِي». وقد فصلنا فجائع طلحه والزبير وعائشه فى موقعه الجمل فى الجزء الأول من هذا الكتاب ذيل الخطبه الثالثه عشره، والجزء الثانى فى تفسير الخطبه ٢٢ و ٣١، والجزء الخامس فى شرح الخطبه ١٣٧.

سؤال آخر:

لو استحق أولئك، القتل لمجرّد قتلهم جماعه من المسلمين وقبل المعركه، لماذا لم يقتص الإمام عليه السلام من أتباع طلحه والزبير بعد أن انتصر عليهم فى المعركه؟ بل حتى عائشه كانت تستحق القتل لخروجها على أمام المسلمين والفساد فى الأرض، لكن الإمام عليه السلام أعادها بكل احترام إلى المدينه؟ والجواب على هذا السؤال واضح، فالأوضاع كانت مضطربه والظروف معقده بحيث لو قام الإمام عليه السلام بمثل هذا العمل لتمكن أعداء الإمام عليه السلام من تأليب عامه المسلمين عليه وتعبئتهم ضده. ومن هنا قال عمرو بن العاص لعائشه: ليتك قتلت فى الجمل. قالت: لم لا أم لك؟ فقال عمرو:

لدخلت الجنه وحرضنا الناس على على بقتلك (٢). على كل حال، فإنّه لمن دواعى الفخر لعلى عليه السلام أنّه غصّ النظر عنهم وأراح المجتمع الإسلامى من شرهم.

ص: ٣٤٦

١- (١). شرح التجريد، ص ٢٤٠

٢- (٢). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٦، ص ٣٢٢

فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَمَنْ هُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يَكُونَ لِخَلِيفَتِهِ،

وَفِي هَوَانِ الدُّنْيَا (١)

نظره إلى الخطبه

تبدأ هذه الخطبه ببيان صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بصورة مختصره، كما يتعرّض الإمام عليه السلام في القسم الثاني إلى خصائص الجدير بخلافه رسول الله صلى الله عليه وآله فيؤدى حق الموضوع بعبارات قصيره. ويتحدث في القسم الثالث عن تقوى الله ويوصى صحبه بعدم العجله في الأعمال والتروى عند الإقدام. وأخيراً يذم الدنيا والتعلق بها والخداع بزخارفها.

ص: ٣٤٧

١- (١) سند الخطبه: ذكر صاحب تحف العقول قبل السيد الرضى، الفصل الأخير من الخطبه (إلّا وأنّ هذه الدنيا...) باختلاف، كما نقلها أبو جعفر الإسكافي (المتوفى عام ٢٤٠ هـ) في رسالته (نقض العثمانيه) (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤١٧)

أَمِينٌ وَحِيهِ، وَخَاتَمٌ رُسُلِهِ، وَبَشِيرٌ رَحْمَتِهِ وَنَذِيرٌ نِقْمَتِهِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِ.

فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ اسْتَيْغْتَبَ، فَإِنْ أَبِي قُوتِلَ. وَلَعَمْرِي، لَئِنْ كَانَتِ الْإِمَامَةُ لَا تَنْعَقِدُ حَتَّى يَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ، فَمَا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ، وَلَكِنْ أَهْلِهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا، ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَزْجَعَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ. أَلَا وَإِنِّي أَقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلًا ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ.

الشرح والتفسير: أجدر الأفراد بزعامه الأمة

كما ورد سابقاً فإن الإمام عليه السلام قد إستهل الخطبه ببيان جانب من خصائص رسول الله صلى الله عليه وآله حيث أشار إلى أربع منها، فقال:

«أَمِينٌ وَحِيهِ، وَخَاتَمٌ رُسُلِهِ، وَبَشِيرٌ رَحْمَتِهِ وَنَذِيرٌ نِقْمَتِهِ» والواقع، إنَّ أنشطه النبي صلى الله عليه وآله كانه يمكن إيجازها في هذه الصفات الأربع؛ ذلك لأن الفعاليه الأولى للنبي، تلقى الوحي وإيصاله وإبلاغه إلى الناس بكل أمانه والتخطيط لنشر مبادئ الدين إلى نهايه الدنيا ومن ثم التمهيد لطاعه الله عن طريق البشاره بالرحمه والإنذار بالعذاب والجزاء. وقد أكدت هذه الصفات الأربع من خلال الآيات القرآنيه حيث أشارت إلى بعضها من قبيل البشاره والإنذار.

ثم تطرق عليه السلام إلى شرائط خليفه الأئمه وإمامها ليوجزها في أمرين:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى ركنين أساسيين، لأحدهما بعد عملي، والآخر

علمي، فعلى المستوى العلمى ينبغي أن يكون أعلم الجميع، وفى الجانب العملى أقواهم فى أمور الإدارة، فكثيرون هم الأفراد العلماء، لكنهم يفتقرون إلى حسن الإدارة، أو أنهم يتمتعون بحسن الإدارة إلا أنهم يفتقرون إلى العلم، ولا يمكن النهوض بزعامه الأمة دون توفر هذين الشرطين معاً. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الموضوع فى قصة بنى إسرائيل أثر اختيار (طالبوت) كزعيم وقائد فاعترض البعض على أنهم أولى بالزعامة منه على أساس الثروه، فرد القرآن عليهم بأن طالبوت أولى بها لعلمه وقدرته: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ» (١) ومن الواضح أن الإمام عليه السلام أراد أن يكشف عن أولويته من الجميع بالتصدي لأمر الخلافة، ذلك لأن الجميع يعلم بأنه الأعم فى أصول الدين وفروعه وهو الأقوى والأقدر على الإدارة ومواجهه العدو.

سؤال:

لماذا لم يستدل الإمام عليه السلام بنص النبى الأكرم صلى الله عليه وآله على خلافته؟ أليس هذا دليلاً على أن الخلافه لم تكن على أساس النص، بل على ضوء انتخاب الناس لأكفأ الأفراد؟

الجواب:

قطعاً، لو استدل الإمام عليه السلام بالنص، لهب أغلبهم لإنكاره، وعليه فمن الأفضل الاستناد إلى مسلماتهم وإلزامهم بمنطقهم (الأمر الذى يصطلح عليه فى المنطق بالجدل) والذى قال بشأنه القرآن: «وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» (٢). جدير بالذكر أن ابن أبى الحديد حين يبلغ هذا الموضوع من شرحه لنهج البلاغه، وخلافاً لأولئك الذين لا يصغون لصوت الضمير يُقرّ بأن علياً عليه السلام أعلم القوم، لكنه يرى أن هذا ليس بدليل على نفى خلافه الآخرين، ذلك لأنه يمكن أحياناً تقديم المفضول على الأفضل (٣). طبعاً، هذا منطق الأفراد الذين لا يفقهون قوانين العقل ولا يرون قبح

ص: ٣٥٠

١- (١) . سورة البقره، الآيه ٢٤٧

٢- (٢) . سورة النحل، الآيه ١٢٥

٣- (٣) . شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٣٢٧

ترجيح المرجوح على الراجح، والحال، قبح هذا الأمر واضح للجميع، إلّا أنّ التعصب الأعمى يحول عادةً دون رؤيه الواقع.

ثم قال عليه السلام: فإن تصدى مثل هذا الفرد، للأمر:

«فإن شَغَبَ (١) شَاغِبٌ اسْتُعْتَبَ (٢)، فَإِنِ أَبِي قُوتِلَ». وقال القرآن بهذا الخصوص «وَإِنِ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ...» (٣).

ثم خاض الإمام عليه السلام فى الردّ على بعض المتخرفين، حيث انبرى البعض كمعاويه وعمرو بن العاص وطلحه والزبير وأمثالهم وصرحوا بأنّ الخلافة والإمامه لمن تنتخبه عامه الأمة. وعليه، لا تكفى بيعه المدينة وأطرافها لعلّ عليه السلام.

فقال عليه السلام:

«وَلَعَمْرِي، لَئِن كَانَتِ الْإِمَامَةُ لَاتَنْعَقِدُ حَتَّى يَخْضُرَهَا عَامَةُ النَّاسِ، فَمَا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ، وَلَكِن أَهْلَهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا». ثم واصل كلامه قائلاً:

«ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَزْجَعَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ». وأخيراً حذرهم جميعاً بالقول:

«أَلَا وَإِنِّي أَقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلًا ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ». يبدو أنّ العبارة الأولى تشير إلى معاويه الذى تخلف عن البيعه بذريعه المطالبه بدم عثمان، والحال، أن تتم المطالبه بدم عثمان من قبل أولياء الدم أو إمام المسلمين، ومن بايعه الناس أى، على بن أبى طالب عليه السلام. والثانية إشارة إلى طلحه والزبير وأمثالهما الذين بايعوا ثم نكثوا البيعه بما فيهم معاويه والآخرون. وأمّا ما قيل: إنّ المراد، ادّعاء الخلافة من قبل معاويه والذى ليس له حقّ، فلا ينسجم مع التواريخ، لأنّ معاويه لم يدع الخلافة على عهد أمير المؤمنين على عليه السلام، بل ركّز على المطالبه بدم عثمان.

ص: ٣٥١

١- (١). «شغب» من ماده (شغب) على وزن شرق، بمعنى إثارة الفتنة والشر والفساد

٢- (٢) «استعتب» من ماده (عتب) وعتاب بمعنى اللوم والتوبيخ بقصد الرجوع إلى الحق، وإن استعملت فى باب الإستفعال أفادت معنى الإسترضاء

٣- (٣) سورة الحجرات، الآية ٩

سؤال:

لم يستدل الإمام عليه السلام في حديثه المذكور في إثبات خلافته وإمامته على نص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بهذا الخصوص، ولم يتطرق إلى حديث الغدير وما شابهه، بل أكد على بيعه الأئمة، وهذا في الواقع إمضاء لخلافه من سبقه. لذلك قال ابن أبي الحديد، هنا، صراحةً: إنَّ هذا الكلام من الإمام عليه السلام دليل على صحه مذهبنا، ولا يؤيد مذهب الإماميه، فكيف تُحلَّ هذه الشبهة؟

الجواب:

لابدَّ من الإلتفات إلى أمور:

الأول: أنَّ الإمام عليه السلام استدل بمسلمات الخصم لإثبات حقِّه، لأنَّهم يرون كفايه قبول أهل الحل والعقد (علماء الأئمة) لثبوت الخلافه والإمامه. وعليه فقد أجابهم بمنطقهم (منطق الجدال بالتي هي أحسن)، ولو استدل بالنص لأنكروه.

الثاني: أنَّ خلافه من سبقه لم تستند إلى قبول الناس، أمَّا أبو بكر فقد انتخب من قبل أهل السقيفه حيث كانوا عدّه قليله من الناس، وأمَّا عمر فقد انتخب بنص من أبي بكر، بينما لم تتمَّ خلافه عثمان إلّا من قبل ثلاثة أو أربعة أفراد من الشورى.

الثالث: أضف إلى ذلك، فإنَّ الوقوف على رأى الإمام عليه السلام بشأن الخلافه لا يمكن من خلال خطبه أو خطبتين، بل لابدَّ من دراسته شامله لجميع كلماته بهذا الخصوص، لئرى كثرة تركيزه في نهج البلاغه على النص في الخلافه.

ص: ٣٥٢

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا خَيْرٌ مِمَّا تَوَاصَى الْعِبَادُ بِهِ، وَخَيْرٌ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ عِنْدَ اللَّهِ. وَقَدْ فُتِحَ بَابُ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَلَمَّا يَحْمِلُ هَذَا الْعَلَمَ إِلَّا أَهْلُ الْبَصِيرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ، فَامْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ، وَقِفُوا عِنْدَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ؛ وَلَا تَعْجَلُوا فِي أَمْرِ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا، فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكَرُونَهُ غَيْرًا.

الشرح والتفسير

تعليمات عسكريه

أعدَّ الإمام عليه السلام صحبه هنا لمواجهة الظلمه والطواغيت حيث أوصاهم باديء الأمر بالتقوى فقال:

«أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا خَيْرٌ مِمَّا تَوَاصَى الْعِبَادُ بِهِ، وَخَيْرٌ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ عِنْدَ اللَّهِ». القرآن الكريم من جانبه أكد هذا المعنى حيث إن الأفراد الذين لا- يصيبهم الخسران هم فقط الذين يتواصون بالحق والصبر: «وَالْعَصِيرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ». وقال: «وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى» (١) وقال أيضاً: «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» (٢).

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً:

«وَقَدْ فُتِحَ بَابُ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَلَا يَحْمِلُ هَذَا الْعَلَمَ إِلَّا أَهْلُ الْبَصِيرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ». ثم قال:

«فَامْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ، وَقِفُوا عِنْدَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ؛ وَلَا تَعْجَلُوا فِي أَمْرِ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا، فَإِنَّ لَنَا

ص: ٣٥٣

١- (١) سورة طه، الآية ١٣٢

٢- (٢) سورة الأعراف، الآية ١٢٨

مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غَيْرًا (١)».

تشير العبارة

«وَلَمَّا يَحْمِلْ هَذَا الْعَلَمَ» إلى أننا نضطر لأول مره في الإسلام لأن نقاتل أفراداً يدعون الإسلام، وأنهم من أهل القبلة لبغيهم وطغيانهم، ويبدو هذا الأمر مستصعباً بالنسبة للأفراد السطحيين وضيقي الافق، وعليه، فلا يستحق حمل هذا العلم سوى من تحلى بالبصر والعلم والصبر.

والعبارة

«فَمَا ضُؤُوا لِمَا تُوْمَرُونَ...» إشاره إلى أن هذا الطريق مسؤوليه كبيره، فينبغي المضى فيه بدقه ورعايه النظم والانضباط. أما العبارة الأخيره

«فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غَيْرًا» فتشير إلى أن الأوامر التي تصدر أحياناً من القيادة - الإمام عليه السلام - في القضايا الحريه وجزئيات الأعمال، بما لا ينسجم ورغبات أكثرية الناس، مثلاً، يرد الأمر بالهجوم على العدو في البصره من شمالها، إلّا أن الأكثرية ترى صعوبه ذلك وتود لو أنها هجمت من جنوبها. فالإمام عليه السلام يوصى هنا بالترث وعدم الاستعجال طالما لا تتضارب هذه الأوامر مع الشرع والمصلحه، فربما نمارس بعض التغييرات ونحقق رغباتكم، كذلك إن شكى بعض الناس من بعض الولاه فليس لدى من إصرار، كعثمان، على بقائهم وما دام رأى الناس موافقاً للشريعه والمصلحه فهو مقبول لدى. ولعل إحدى خصائص الأمر والمدير الناجح تتمثل في احترامه لأفكار الآخرين والإفتاح عليها ما لم تتعارض مع الأصول. أما ما ذكره بعض شراح نهج البلاغه من تفسير لهذه العبارة فلا يبدو مناسباً؛ ففسروا

(غيراً) مثلاً، بالمصالح، ولكن هذه المفرده؛ والاحتمالات الأخرى التي وردت في كلمات بعض الشراح ليست منسجمه مع ظاهر كلمات الإمام عليه السلام ومن هنا لا نرى ضروره الخوض فيها.

ص: ٣٥٤

١- (١) «غَيْرٍ» بمعنى الحوادث والتغييرات التي تقع في حياه الإنسان، وأريد بها في الخطبه، مطلق التغيير

لا شك في أنّ أهل القبلة والمسلمين إن مارسوا بعض الأعمال التي تهدد كيان الإسلام أو قاموا ضد الحكومه الإسلاميه، فلا بدّ من إرشادهم وإعادتهم إلى جاده الصواب من خلال الطرق السلميه؛ لكن إن واصلوا غيهم وتمادوا في أعمالهم، فليس هنالك من سبيل سوى اللجوء القوّه، ولا يبدو هذا العمل مستساغاً من قبل الأفراد السطحيين وضيقي الأفق، لذلك قال الإمام عليه السلام:

«وَلَا يَحْمِلُ هَذَا الْعَلَمَ إِلَّا أَهْلُ الْبَصِيرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ». ورد في أحداث موقعه صفين: روى عن نصر بن مزاحم، قال: «حدثني يحيى بن يعلى، قال: حدثني صباح المزني، عن الحارث حصن، عن رجاء بن ياسر، عن أسماء بن حكيم الفزارى، قال: كُنَّا بِصَفِّينَ مَعَ عَلِيِّ، تَحْتَ رَايَةِ عِمَارِ بْنِ يَاسِرٍ، ارْتِفَاعِ الضَّحَى، وَقَدْ اسْتَظَلَلْنَا بِرِدَاءِ أَحْمَرَ، إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ يَسْتَقْرِى الصَّفَّ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْنَا فَقَالَ: أَيُّكُمْ عِمَارُ بْنُ يَاسِرٍ، فَقَالَ عِمَارُ:

أنا عمار، قال: أبو اليقظان؟ قال: نعم، قال: إنّ لى إليك حاجه أفأنتق بها سرّاً أو علانيه؟ قال: اختر لنفسك، أيهما شئت، قال: لا بل علانيه، قال: فانطق، قال: إني خرجت من أهلى مستبصراً فى الحقّ الذى نحن عليه، لا أشك فى ضلاله هؤلاء القوم، وأنهم على الباطل، فلم أزل على ذلك مستبصراً، حتى ليلتى هذه، فإني رأيت فى منامى منادياً تقدّم، فأذن وشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونادى بالصلاه ونادى مناديهم مثل ذلك، ثم أقيمت الصلاه، فصلينا صلاه واحده، وتلونا كتاباً واحداً، ودعونا دعوةً واحده، فأدركنى الشك فى ليلتى هذه، فبتّ بليله لا يعلمها إلا الله تعالى، حتى أصبحت، فأتيت أمير المؤمنين، فذكرت ذلك له فقال: هل لقيت عمار بن ياسر! قلت: لا، قال عليه السلام فالحق، فانظر ماذا يقول لك عمار، فاتبعه، فجتتك لذلك، فقال عمار: تعرف صاحب الرايه السوداء المقابله لى! فإنها رايه عمرو بن العاص، قاتلتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

ثلاث مرات، وهذه الرابعة فما هي بخيرهنّ، ولا أبرهنّ، بل هي شرهن وأفجرهنّ.

أشهد بدرأً وأحداً يوم حُنين، أو شهدها أب لك فيخبرك عنها؟ قال: لا، قال: فإنّ مراكزنا اليوم على مراكز رايات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر، ويوم أحد ويوم حنين، وإنّ مراكز رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب، فهل ترى هذا العسكر ومن فيه! والله لو ددت أن جميع من فيه ممن أقبل مع معاوية ويريد قتالنا، مفارقاً للذى نحن عليه، كانوا خلقاً واحداً، فقطعته وذبحته، والله لدمأؤهم جميعاً أحلُّ من دم عصفور، أفترى دم عصفور حراماً؟ قال: لا بل حلال، قال: فإنّهم حلال كذلك، أترانى بينت لك، قال: قد بينت لى، قال عليهما السلام فاختر أى ذلك أحببت«(١). فهذه الواقعة وأمثالها تفيد أنّ ارتداء ثوب الإسلام من قبل تلك الفرق المنحرفة إنّما كان يخدع البعض من السذج، وهذا ما دفع الإمام عليه السلام لتحذيرهم من الفتنة.

ص: ٣٥٦

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٦، ص ٢٥٦ بتصرف وتلخيص، وقد نقل هذه الواقعة نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، ص ٣٢١

أَلَا وَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصَيْبِحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا وَتَزْعَبُونَ فِيهَا، وَأَصَيْبِحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَلَا مَنْزِلِكُمْ الَّتِي خُلِقْتُمْ لَهُ وَلَا الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ. أَلَمْآ وَإِنَّمَا لَيْسَتْ بِبَاقِيهِ لَكُمْ وَلَا تَبْقُونَ عَلَيْهَا؛ وَهِيَ وَإِنْ عَزَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَادَّتْكُمْ شَرَّهَا. فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْدِيرِهَا، وَأَطْمَاعَهَا لِتُخْوِفِهَا؛ وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَأَنْصِرُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا؛ وَلَا يَخْنَنَّ أَحَدُكُمْ خَيْنَ الْأَمَّةِ عَلَى مِمَّا زُوِيَ عَنْهُ مِنْهَا، وَأَسْتَيْتَمُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَالْمَحَافَظَةِ عَلَى مِمَّا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ. أَلَمْآ وَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ. أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ. أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَالْهَمْنَا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْرَ!

الشرح والتفسير: الدنيا ليست داركم

أشار الإمام عليه السلام فى هذا الموضوع من الخطبه إلى تقلب الدنيا وعدم ثباتها وحذر الجميع من زخرفها وزبرجها، ذلك لأن الإنحراف الذى طال أصحاب الجمل إنما يعزى إلى تهافتهم على الدنيا وحطامها، فلا ينبغي لهم السير على خطاهم، وعليهم أن يسلكوا سبيل الحق وإن انتهى بهم إلى الشهاده، فقال:

«أَلَا وَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصَيْبِحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا وَتَزْعَبُونَ فِيهَا، وَأَصَيْبِحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَلَا مَنْزِلِكُمْ الَّتِي خُلِقْتُمْ لَهُ وَلَا الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ».

فالعباره، إشاره لما تأكد مراراً في نهج البلاغه والقرآن أن الدنيا ليست خالده وأنها ليست بدار إقامتنا، بل هي ممر مؤقت نجتازه في سفرنا إلى الآخره حيث مقرنا ومقامنا بعد التزود من هذه الدنيا لتلك الحياه الحقيقه التي قال عنها القرآن:

«لَيْسَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (١).

ثم أكد الإمام عليه السلام أكثر فقال:

«أَلَا وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ وَلَا تَبْقَوْنَ عَلَيْهَا».

كما ردّ على أولئك الذين يصفون الدنيا دائماً بالخداع والغرور، فقال:

«وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَّرَتْكُمْ شَرَّهَا. فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا، وَأَطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا».

صحيح أن أغلب مظاهر الدنيا تثير الغرور والغفله، لكنها ترينا إلى جانب ذلك بعض المشاهد التي توقظ كل غافل من نوم غفلته. فاللحظه التي ينال فيها أحدهم السلطه ويستولى على العرش، هي ذاتها التي يسقط فيها أخيراً، وفي الوقت الذي يرث فيه شخص الآلاف المؤلفه من الثروه، هو نفس الوقت الذي يحمل فيه جثمان صاحب تلك الثروه ليوثيد التراب، وحين يولد طفل وتطالعنا مظاهر الفرح والسرور على سيماء وجوه أسرته، ترتفع إلى جانبه أصوات أسره بالعويل لفقدهم أحد أعزتهم، فلم نركز على الصوره الأولى وتتناسى الصوره الثانيه؟! حاول الإمام عليه السلام بهذه العبارات العميقه المعنى أن يلفت الانتباه إلى هذه الحقيقه وقد أكدها في سائر خطب نهج البلاغه وقصار الكلمات.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَأَنْصِرُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا»، كما قال:

«وَلَمَّا يَخْنَنَنَّ أَحَدُكُمْ خَنِينَ الْأَمَةِ عَلَى مَا زُورِي (٢) عَنْهُ مِنْهَا، وَاسْتَيْتَمُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَالْمَحَافَظَةِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ».

ص: ٣٥٨

١- (١) سورة العنكبوت، الآية ٦٤

٢- (٢). «زوى» من ماده (زى) على وزن حى، بمعنى الجمع والأخذ والحمل والإبعاد، وتعنى فى العباره الإبعاد والفقدان لأنها وردت بصيغه الفعل المجهول فى العباره ومعها الحرف عن

فقد شبه الإمام عليه السلام الأفراد الضعاف الذين لا يكادون يفقدون نعمه من نعم الدنيا حتى يعيشوا حاله من العزاء وكأنهم فقدوا عزيزاً من أعزتهم بتلك الأُمَّه التي يرتفع صوتها بالبكاء لأدنى مُلمه، وربما دوى صوت البكاء أثر شدّه الجزع. نعم، هذا فعل العبيد الضعاف؛ ضعف الدنيا وأسرى مظاهرها، والحال، لو فكروا بصوره صحيحه لأدركوا أنّ ما فقدوه مهما كان مهماً فلا قيمه له، لأنهم يفقدونه عاجلاً أم آجلاً، وإن لم يفقدوه اليوم فسيفقدونه ويفقد كل شيء عندما يموت غداً.

أضف إلى ذلك فإنّ أغلب النعم التي تزول إنّما تعود فيما بعد بفضل الله ولطفه، وعليه فلا داعى للتأوه والشعور بالألم والحسره. ويستفاد من العبارة الأخيره أنّ أحد عوامل بقاء نعم الله وديمومتها طاعه الله واتباع أوامره والالتزام بالقرآن والعمل بأحكامه.

وأشار الإمام عليه السلام فى ختام الخطبه إلى نقطه مهمه أخرى، تتمثل فى ضروره حفظ الدين حين يكون هنالك مفترق طرق وتضاد بين حفظ الدنيا بزینتها وزخرفها وحفظ الدين، فليس هنالك من ضرر يطيل الإنسان إن ذهب دنياه، بينما لا ينفعه شيء إن ذهب دينه:

«أَلَا وَإِنَّهُ لَإِيْضاً رُّكْمٌ تَضَيِّعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَهُ دِينِكُمْ. أَلَا وَإِنَّهُ لَإَيُّفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافِظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ».

إشاره إلى أنّ الغنى الحقيقى، فى حفظ الدين والإيمان الذى يشكل مفتاح حياه الإنسان الأبدية، لا النعم الماديه العابره، فهى عناصر ثانويه تغادر سريعاً كالفقاعات التى تطفو على سطح الماء. نقل المرحوم الكلينى أنّ أحد أصحاب الإمام عليه السلام كان يقدم كل عام إلى الحج ويرى الإمام عليه السلام، لكنه غاب مدّه. فسأل الإمام عليه السلام أحد أصحابه المعروفين عن ذلك الشخص، فلم يشأ أن يخبر الإمام عليه السلام بوضعه المالى الصعب. فقال عليه السلام وكيف دينه وإيمانه؟ قال: هو والله كما تحبّ. فقال عليه السلام: هو والله الغنى(1).

ص: ٣٥٩

وأخيراً اختتم عليه السلام الخطبه بهذا الدعاء:

«أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَالْهَمَمْنَا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْرَ!» لقد قلنا مراراً إنّ الإمكانيات الماديّه إن استعملت كوسيله لتحقيق الأهداف المعنويه فهى ليست مذمومه، بل هى من أفضل الوسائل لتطور الإنسان، ولما كان عصر الإمام عليه السلام والأئمّه من بعده قد شهد إقبال المسلمين على الدنيا أثر الفتوحات وما جلبت إلى البلاد من أموال طائله وثروات، فقد جهد الإمام عليه السلام على ذم الدنيا وتحذير الآخرين من الخداع بها، والخطبه المذكوره نموذج لذلك.

ص: ٣٦٠

فِي مَعْنَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَقَدْ قَالَه حِينَ بَلَغَهُ خُرُوجُ

طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ إِلَى الْبَصْرَةِ لِقِتَالِهِ (١)

نظره إلى الخطبه

خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبه حين بلغه خروج طلحه والزبير إلى البصره للإستيلاء عليها وقتال الإمام عليه السلام. فأراد الإمام عليه السلام بهذه الخطبه رفع معنويات صحبه وكشف حقيقه طلحه والزبير، وتتألف الخطبه من قسمين:

الأول: الذى قال فيه الإمام عليه السلام إنه لم يهدد من قبل شخص بالحرب لحدّ الآن، فقد لمس الجميع شجاعتى فى ميدان القتال، وعليه فتهديد طلحه والزبير هراء.

والآخر: يستدل فيه الإمام بالبرهان والمنطق أنّ المطالبه بدم عثمان - التى يتذرع بها طلحه والزبير من أجل إشعال فتيل الحرب - كذبه فارغه، ذلك لأنّ يد طلحه ملطخه قبل أى أحد بدم عثمان.

ص: ٣٤١

١- (١) سند الخطبه: يرى صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه أنّ هذه الخطبه متصله بالخطبه ٢٢ و ١٣٥ (وحسب أرقامنا، الخطبه ١٣٧)، وأضاف: رواها (باختلافات) المرحوم الشيخ الطوسى فى كتابه الأمالى، والخوارزمى فى المناقب وشرح ابن أثير فى كتابه اللغوى (النهايه) كلماتها الصعبه (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤١٩)

قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهْدِدُ بِالْحَرْبِ، وَلَا أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ؛ وَأَنَا عَلَى مَا قَدَّ وَعَوَّدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصِيرِ. وَاللَّهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّدًا لِلطَّلَبِ بِدَمِ عَثْمَانَ إِلَّا خَوْفًا مِنْ أَنْ يُطَالِبَ بِدَمِهِ، لِأَنَّهُ مِطْنَتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُعَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبَسَ الْأَمْرُ وَيَقَعَ الشُّكُّ. وَوَاللَّهِ مَا صَنَعَ فِي أَمْرِ عَثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ: لَيْسَ كَانَ ابْنُ عَفَّانٍ ظَالِمًا - كَمَا كَانَ يَزْعُمُ - لَقَدْ كَانَ يَتَّبِعِي لَهُ أَنْ يُوَازَرَ قَاتِلِيهِ، وَأَنْ يُنَابِذَ نَاصِرِيهِ. وَلَيْسَ كَانَ مَظْلُومًا لَقَدْ كَانَ يَتَّبِعِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَنْهِنِينَ عَنْهُ، وَالْمَعِزِّدِينَ فِيهِ وَلَيْسَ كَانَ فِي شَكٍّ مِنَ الْخِصْلَتَيْنِ، لَقَدْ كَانَ يَتَّبِعِي لَهُ أَنْ يَعْتَرِلَهُ وَيَزُكِّدَ جَانِبًا، وَيَدَعِ النَّاسَ، مَعَهُ، فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرِفْ بَابُهُ، وَلَمْ تَسَلِّمْ مَعَاذِيرُهُ.

الشرح والتفسير: تناقض طلحه دليل فضيحة

أشار الإمام عليه السلام في بدايه الخطبه إلى تهديد طلحه والزيبر فقال:

«قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهْدِدُ بِالْحَرْبِ، وَلَا أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ».

إشاره إلى أن الجميع يعلم بشده وقع سيفي في المعارك الإسلاميه قد جندلت صناديد العرب حتى اقترن اسمي بالشجاعه لدى الداني والقاصي. وأنه لمن دواعي العجب أن يجرأ طلحه والزيبر على تهديدي بالحرب وقد شهدوا صولاتي في الحروب.

ثم قال عليه السلام:

«وَأَنَا عَلَى مَا قَدْ وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصِيرِ». يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى الوعد الإلهي للمؤمنين بالنصر والذي نصت عليه الآية الشريفة «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» (١) كما يمكن أن تكون إشارة إلى وعد خاص وعده به رسول الله صلى الله عليه وآله في ظهوره على الناكثين، وقد أطلعه على موقعه الجمل وأخبر عائشه بها صراحة ونهاها عن الخروج، وقد ورد هذا الأمر في التواريخ (٢).

ثم تطرق عليه السلام إلى نية طلحه والزبير من هذه الفعله القبيحه فقال:

«وَاللَّهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّدًا (٣) لِلطَّلَبِ بِدَمِ عَثِمَانَ إِلَّا خَوْفًا مِنْ أَنْ يُطَالَ بِدَمِهِ، لَأَنَّهُ مَظَنَّتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ (٤) فِيهِ لِيَلْتَبَسَ الْأَمْرُ وَيَقَعَ الشُّكُّ. وَوَاللَّهِ مَا صَنَعَ فِي أَمْرِ عَثِمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ: لَكِنْ كَانَ ابْنُ عَفَّانٍ ظَالِمًا - كَمَا كَانَ يَزْعُمُ - لَقَدْ كَانَ يُتَّبَعِي لَهُ أَنْ يُوَازِرَ (٥) قَاتِلِيهِ، وَأَنْ يُنَابِذَ (٦) نَاصِرِيهِ. وَلَكِنْ كَانَ مَظْلُومًا لَقَدْ كَانَ يُتَّبَعِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنْهَنِّهِينَ (٧) عَنْهُ، وَالْمَعْدِرِينَ فِيهِ وَلَكِنْ كَانَ فِي شَكِّ مِنَ الْخَصْمَلَتَيْنِ، لَقَدْ كَانَ يُتَّبَعِي لَهُ أَنْ يَعْتَرِلَهُ وَيَرْكُدَ (٨) جَانِبًا، وَيَدْعَ النَّاسَ، مَعَهُ».

ثم قال عليه السلام:

«فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ، وَجَاءَ بِأَمْرِ لَمْ يُعْرِفْ بَابَهُ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ (٩)».

ص: ٣٦٤

١- (١). سورة غافر، الآية ٥١

٢- (٢) أوردنا شرحاً مفصلاً، ذيل الخطبه ١٣ في الجزء الأول

٣- (٣). «متجرد» من ماده (تجرد) بمعنى الإستعداد للقيام بعمل بجد واجتهاد، ومنه السيف المجرد

٤- (٤). «أجلب» من ماده (اجلاب) بمعنى، الجمع والعون

٥- (٥). «يوازر» من ماده (موازره) ينصر ويعين

٦- (٦) «ينابذ» من ماده (منابذه) بمعنى، المدافعه والمقاتله

٧- (٧). «منههين» بمعنى، الزجر والمنع من العمل، من ماده (نههه)، على وزن فهقهه

٨- (٨). «يركد» من ماده (ركود) السكوت والصمت

٩- (٩) معذرين من يصطنع العذر لنفسه أو غيره

وهكذا يكشف الإمام عليه السلام النقب عن كذب طلحه ومؤامرتة بهذا الأسلوب المنطقي ويشير إلى أنه سياسى محتال ومحترف، ذلك لأن وضعه إزاء عثمان - طبق الحصر العقلي - لا يتجاوز إحدى ثلاث حالات: إما، كان يعتبره ظالماً أو مظلوماً أو شاكاً فيه؛ وكل حاله تتطلب تعامل مناسب، لكنه وقف يوماً خلف الكواليس يؤلب الآخرين على قتل عثمان، وما أن قتل عثمان حتى هبّ للدفاع عنه والمطالبة بدمه.

هذه هي طريقه الساسه المحترفين الذين يغيرون مسيرتهم بين ليله وضحاها أحياناً.

ولا تبدو سياسه معاويه - وإن حاول الإبتعاد عن هذه الأحداث - مختلفه عن سياسه طلحه. فقد تخلى عن عثمان حتى قتل، ثم طالب بدمه. كان هؤلاء راضيين في الواقع بقتل عثمان، أملاً في نيل الخلافه. وقد صرح الإمام على عليه السلام بأن طلحه لم يتعاون مع قتله عثمان، والحال، يفيد التاريخ أنه ساعدهم. طبعاً، مراد الإمام عليه السلام أنه لم يرد الميدان علناً، لكنه كان ينسّق بعيداً عن الأنظار - ما يجدر ذكره أن ابن قتيبه ذكر في كتابه (الإمامه والسياسه) أن عائشه خطبت الناس في البصره ودعتهم للطلب بدم عثمان، فأبرز رجل من أشراف البصره كتابا كتبه إليه طلحه يحثه فيه على قتل عثمان. فقال لطلحه: أتعرف هذا الكتاب؟ قال طلحه: بلى. قال: فما الذى حدث؟ بالأمس تريد قتل عثمان، واليوم تدعوا إلى المطالبه بدمه؟ وقد قلت: إن علياً عليه السلام دعاك ليوليكم الناس الخلافه لكبر سنك، فأبيت وبايعته حيث قلت: هو أقرب للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسوابقه فى الإسلام مقدمه، فلم نقضت بيعتك؟ أجاب طلحه: لقد قال ذلك بعد أن بايعه الناس وولّى الخلافه، وكنت أعلم أنه لا يفعل، وإن فعل لم يرض بخلافه المهاجرين والأنصار، فخفت إن لم أبايع أقتل فبايعت مكرها؟ فقال له الرجل: وكيف تغير موقفك من عثمان؟ قال طلحه: إن قومنا عابوا علينا عدم نصرته، واليوم نطالب بدمه (1) ويتضح من هذا، أن الناس آنذاك كانوا يدركون عدم

ص: ٣٤٥

١- (١). الإمامه والسياسه، ج ١، ص ٨٨ ذكرنا مطالب أخرى فى الجزء الخامس من هذا الكتاب، ذيل الخطبه ١٣٧

صدق طلحه في مزاعمه. ومن عجائب التاريخ الإسلامي ما رواه المدائني في كتاب مقتل عثمان أن طلحه منع دفن عثمان ثلاثه أيام، حتى استعان بعض الصحابه بعلي عليه السلام لدفنه. وقد أمر طلحه بعض الأفراد بإطلاق الحجر على الجنازه، حتى دفنوه في المدينه في موضع يدفن فيه اليهود، يدعى (حش كوكب)، ثم رماه البعض بالحجر. فبعث علي عليه السلام من منعهم عن هذا العمل (١).

ص: ٣٦٦

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٠، ص ٦، كما ذكر هذه القصة دون ذكر اسم طلحه، الطبري في الجزء الثالث من تاريخه في حوادث سنة ٣٥ ص ٤٣٨ ثم كتب: أمر معاويه أن يهدم جدار حش كوكب ويوصل بالبيع

فِي الْمَوْعِظَةِ وَبَيَانِ قُرْبَاهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ (١)

نظرة إلى الخطبه

تتكون هذه الخطبه من ثلاثه أقسام: ذكر الإمام عليه السلام في القسم الأول: مواظب قيمه لجميع مخاطبيه - الذين يمثلون في الواقع، الناس على مر العصور - بعبارات مؤثره توقظ الغافل من غفلته.

وأشار في القسم الثاني إلى علمه بالأحداث القادمه وأن ذلك ممّا علّمه إياه رسول الله صلى الله عليه وآله حيث صرح بأنّه يستطيع أن يخبر كل أحد منهم بتفاصيل حياته، لكنه يتحفظ ذلك خشيه الغلو والكفر.

أمّا القسم الثالث - الذي يمثل آخر الخطبه - فقد أشار فيه إلى سبقه الجميع في الأوامر والنواهي، فلا يأمر بشيء حتى يأتمر هو به ولا ينهى عنه حتى ينتهى هو عنه.

ص: ٣٦٧

١- (١) سند الخطبه: من المصادر التي نقلت بعض هذه الخطبه، غرر الحكم للآمدى (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٢٢) ويفهم من كتاب تمام نهج البلاغه أنّ هذه الخطبه وردت في مصادر أخرى، وفيها إضافات: ومنها إخبار على عليه السلام عن الحجر الأسود ونقله من مكه إلى بلاد أخرى من قبل الأعداء ثم يعاد إلى موضعه الاصلى (كتاب تمام نهج البلاغه، ص ٢٨٧)

أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرِ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ، وَالتَّارِكُونَ الْمَأْخُودَ مِنْهُمْ. مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللَّهِ ذَاهِبِينَ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ! كَأَنَّكُمْ نَعَمَ أَرَاخَ بِهَا سَيِّئَاتِكُمْ إِلَى مَرْعَى وَبِيٍّ، وَمَشْرَبِ دَوِيٍّ، وَإِنَّمَا هِيَ كَالْمَغْلُوفَةِ لِلْمَيْدَى لَمَّا تَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا! إِذَا أَحْسِنُ إِلَيْهَا تَحَسَّبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا، وَشَتَبَعَهَا أَمْرَهَا. وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلَجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

الشرح والتفسير: الغفلة التامة

إستهل الإمام عليه السلام خطبته بخطاب جميع الناس قائلاً:

«أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرِ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ، وَالتَّارِكُونَ الْمَأْخُودَ مِنْهُمْ».

ثم أضاف عليه السلام:

«مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللَّهِ ذَاهِبِينَ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ! كَأَنَّكُمْ نَعَمَ أَرَاخَ (١) بِهَا سَائِمٌ (٢) إِلَى مَرْعَى وَبِيٍّ (٣)، وَمَشْرَبِ دَوِيٍّ (٤)».

رغم أن جميع المسلمين يتحدثون عن الله، إلا أن عمل البعض يشير إلى أنه

ص: ٣٦٩

- ١- (١) «أراخ» من ماله (إراحه) بمعنى إعادته الحيوانات عند المساء إلى الإصطبل، وتطلق أحياناً على حركة الحيوانات في كل زمان، وهذا هو المراد بها في العبارة
- ٢- (٢) «سائم» تعنى فى الأصل الشخص الذى يتابع الشىء، ثم استعملت بمعنى الراعى الذى يحمل الحيوانات إلى المرعى، والحيوانات التى ترعى، وتعنى فى العبارة، الراعى (وعليه لها معنى المتعدى واللازم)
- ٣- (٣) «وبى» من ماله (وباء) بمعنى، الشخص المصاب بالوباء أو أى مرض معدٍ، ومرعى وبى، فى العبارة المذكوره بمعنى المرعى الذى يجلب الوباء أو الملوث بالمرض
- ٤- (٤) «دوى» من ماله (داء) بمعنى، المرض، ودوى، يقال للماء والغذاء الذى يجلب المرض

تولى عن الله والتصق بالدنيا وهوى النفس، فقد شبه الإمام عليه السلام مثل هؤلاء بالحيوانات التي حملها الراعى الجاهل أو المغرض إلى مرعى ليس فيه ماء ولا كلاء سوى المرض والموت. هذا الراعى، هو الشيطان وهذه الحيوانات، هم الناس الذين لا يصغون لنداء العقل وقد استغرقوا فى هوى أنفسهم، وهذا المرعى المميت هو وادى اللذات والشهوات الذى يفرز الذنوب والمعاصى وبالتالي يقتل روح الإنسان ومعنويته.

ثم قال عليه السلام:

«وَإِنَّمَا هِيَ كَالْمَغْلُوفَةِ لِلْمُدَى (١) لَاتَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا! إِذَا أَحْسِنُ إِلَيْهَا تَحْسَبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا، وَشَبَعَهَا أَمْرَهَا».

فقد شبه الإمام عليه السلام بهذين التشبيهين أصحاب الدنيا، بالحيوانات التي لا هم لها سوى شبعها وأن من يقدم لها العلف يحسن إليها، ولا تعلم أن علفها وسقيها مقدمه لذبحها، وهذا حالهم حين ينغمسون فى لذات الدنيا وشهواتها.

وأخيراً أشار إلى جانب من علمه بأسرار الغيب وحوادث المستقبل ليقفوا على جديته ومعرفته بما يصلحهم:

«وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلَجِهِ (٢) وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فَيَبْرُسُوا إِلَيَّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

ورد فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان جالساً فدخل عليه على عليه السلام فقال:

«إِنَّ فِيكَ شَبَهًا مِنْ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَلَوْ لَأَنْ تَقُولَ فِيكَ طَوَائِفٌ مِنْ أُمَّتِي مَا قَالَتِ النَّصَارَى فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ لَقُلْتُ فِيكَ قَوْلًا لَاتَمُرُّ بِمَلَأٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا اخَذُوا التُّرَابَ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْكَ يَلْتَمِسُونَ بِذَلِكَ الْبَرَكَهَ» (٣).

ص: ٣٧٠

١- (١). «مدى» جمع (مدية) على وزن لقمه، بمعنى السكين

٢- (٢). «مولج» بمعنى الدخول إلى الشيء، من ماده (ولج)، على وزن، ورود

٣- (٣) اصول الكافي، ج ٨، ص ٥٧

أَلَمْآ وَإِنِّي مُفْضِيهِ إِلَى الْخَاصِّهِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذَلِكَ مِنْهُ. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَاصْرِطَفَاهُ عَلَى الْخَلْقِ، مَا أَنْطَقَ إِلَّا صَادِقًا، وَقَدْ عَهَدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَبِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنْجِي مَنْ يَنْجُو، وَمَالَ هَذَا الْأَمْرِ. وَمَا أَبْقَى شَيْئًا يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَّا أَفْرَعُهُ فِي أُذُنَيَّ وَأَفْضِي بِهِ إِلَيَّ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي، وَاللَّهِ، مَا أَحْتُكُمُ عَلَى طَاعِهِ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنَهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ إِلَّا وَأَتَايَ قَبْلَكُمْ عَنْهَا.

الشرح والتفسير: علمني رسول الله صلى الله عليه وآله كل شيء

بالنظر إلى أن الإمام عليه السلام أشار في السابق إلى علمه بأسرار الغيب وإخبار كل شخص عن تفاصيل حياته، إلا أنه يخشى منهم الغلو والكفر، ليشير هنا إلى أمرين؛ الأول: إنني أطلع على هذه الأسرار بعض الخواص من المؤمنين ممن يتحملون الأسرار ويحفظونها، والآخر، ما أقوله إنما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«أَلَمْآ وَإِنِّي مُفْضِيهِ (١) إِلَى الْخَاصِّهِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذَلِكَ مِنْهُ». هذه الخاصة، مثل، كميل بن زياد، ورشيد الهجري، والأصبغ بن نباته، وميثم التمار، وحبیب بن مظاهر، الذي يسع كل واحد منهم حفظ بعض الأسرار. وقد حفلت حياتهم بالتعرض لبعض الأسرار في المواقع الحساسة؛ فإذا كان التلامذه يحملون مثل هذه الأسرار ولهم مثل هذه

ص: ٣٧١

١- (١). «مفضيه» في الأصل، من مادة (فضاء)، بمعنى السعة، وعليه فالإفشاء، بمعنى، التوسعة، وحين يتصل شخص بآخر بصورة تامه يكون في الحقيقة قد وسع الوجود بمعونه الآخر. وتعني هذه المفردة الاختلاء بالشخص لبيان الأسرار وهذا هو المعنى المراد بها في العبارة

المقامات، فما ظنك بالأسرار المودعه لدى الأستاذ، والمقام الذى هو عليه!!؟

ثم خاض فى الأمر الثانى فقال:

«وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَاصْبِرْ طَفَاهُ عَلَى الْخَلْقِ، مَا أَنْطَقَ إِلَّا صَادِقًا، وَقَدْ عَهَدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَبِمَهْلِكِكَ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنْجَى مَنْ يَنْجُو، وَمَالِ هَذَا الْأَمْرِ. وَمَا أَبْقَى شَيْئًا يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَّا أَفْرَعَهُ (١) فِي أُذُنِي وَأَفْضَى بِهِ إِلَيَّ».

ترى هل كان تعليم النبي صلى الله عليه وآله لهذه الأسرار بصوره بيان جزئى وشرح لكل واقعه، أم أنه علم علينا عليه السلام أصول وكليات، وأن كل باب يفتح ألف باب، أم كانت الموارد مختلفه فتاره من خلال الأصول الكليه وأخرى من خلال التفاصيل؟ يبدو الإحتمال الثالث، هو الأقرب. نعم، هذه الأمور ليست واضحه لدينا، والله ورسوله أعلم، إلا أننا نعلم أنه أخبر عن حوادث جمه ووقعت كما أخبر، وقد بينت فى خطب متعدده من نهج البلاغه، ولو جمعت لكاتباً رائعاً. وبالطبع فإن أى من ذلك ليس من علم الغيب الذاتى - الذى يختص بالله تعالى - بل كما قال عليه السلام فى الخطبه ١٢٨

«إِنَّمَا هُوَ تَعْلَمُ مِنْ ذِي عِلْمٍ» (٢) ولما كان الإمام عليه السلام قد أفرد جانباً مهماً من الخطبه فى دعوه الناس إلى ترك الانغماس فى الدنيا عاد فى ختام الخطبه ليشير إلى هذه النقطه المهمه فى سبقه للعمل بما يأمر فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي، وَاللَّهِ، مَا أَحْكُمُ عَلَى طَاعِهِ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنهَاكُمُ عَنْ مَعْصِيَةِ إِلَّا وَاتَّأَمَّاهُ فَبَلَّغْتُكُمْ عَنْهَا». فالشرايط اللزومه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن لم تتضمن ضروره عمل الأمر والنهى.

كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوهُ وَأَنْهُوا عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَجْتَنِبُوهُ كُلَّهُ» (٣). ولكن الأمر والنهى إذا كان عاملاً قبل الآخرين بما

ص: ٣٧٢

١- (١) «أفرغه» من ماده (إفراغ) تعنى فى الأصل، سكب شىء سيال من الظرف بحيث يخلو ممّا فيه، ثم استعملت بمعنى إلقاء المطالب المختلفه على الآخر

٢- (٢). للوقوف على المزيد بشأن علم الغيب وعلم الأنبياء والأئمه عليهم السلام راجع إلى هذا الكتاب ج ٥، ص ٣٦٦

٣- (٣). ميزان الحكمه، ج ١، ح ١٢٧٧٦ هناك قضيه، وهى أنّ الإنسان إن دعى الآخرين إلى المعروف ونهاهم عن المنكر ولم يلتزم هو بذلك فإنه يشعر بالخجل من نفسه، وهذا الخجل يسوقه بالتالى إلى المعروف والإبتعاد عن المنكر

يأمر به وينهى عنه فسيكون لكلامه أبلغ الأثر في نفوسهم، لأنّ تأثير الكلام إنّما ينبع من القلب، فإن خرج من القلب استقر لا محاله في القلب. ومن هنا كان هذا هو الأسلوب الذي اعتمده رسول الله صلى الله عليه وآله والائمة المعصومين عليهم السلام وأتباعهم وأنصارهم، فإن نشبت الحرب، كانوا في خطوطها الأمامية وإن حل وقت العبادة تغيّرت ألوانهم، حتى حذر القرآن الكريم رسول الله صلى الله عليه وآله من إجهاد نفسه في العبادة: «طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى» (١). وقال أمير المؤمنين على عليه السلام بشأن سبق رسول الله صلى الله عليه وآله في القتال:

«كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ النَّبَأُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعُدُوِّ مِنْهُ» (٢). ونعلم جميعاً أنّ علياً عليه السلام إن حثّ الناس في هذه الخطبه وسائر الخطب على الزهد في الدنيا وعدم التعلق بزخارفها، فقد كان أزهد العباد، وحياته خير شاهد على زهده الفريد، والحق لو انطلق زعماء البلدان الإسلاميه من هذه المفاهيم في أن يلتزموا هم وبطانتهم بالعمل بالقوانين قبل غيرهم، لكان لكلماتهم أعظم التأثير في نفوس الآخرين.

ص: ٣٧٣

١- (١). سوره طه، الآيتان ١ و ٢

٢- (٢). نهج البلاغه، القصار الكلمات، الكلمه ٢٢٦

وَفِيهَا يَعِظُ وَيُبَيِّنُ فَضْلَ الْقُرْآنِ وَيُنْهَى عَنِ الْبِدْعَةِ (١)

نظرة إلى الخطبه

هذه خطبه طويله تتحدث عن مسائل مهمه وتتضمن وصايا حيه وبناءه لحياتنا المعاصره وتتألف من ثمانية أقسام: القسم الأول، الذى يتضمن مواظب قيمه يؤكد فيها الإمام عليه السلام أنّ جهنم حُفَّت بالشهوات، والجَنَّة بمقاومه هذه الشهوات. وشرح فى القسم الثانى، أهميه القرآن مع ذكر بعض التفاصيل الظريفه التى تضاعف من شوق القلوب إلى آيات القرآن. وتطرّق عليه السلام فى القسم الثالث، إلى العمل بالأحكام والاستقامه.

ثم عاود النصح والوعظ فى القسم الرابع، مؤكداً على مراقبه اللسان الذى يمثل

ص: ٣٧٥

١- (١) سند الخطبه: صرح ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغه، وابن ميثم بأن هذه الخطبه أولى خطبه بعد البيعه وقتل عثمان. وهذا يدل على أنّ هذين الشارحين وجداهما فى مصدر آخر، غير نهج البلاغه، لأنّ المرحوم السيد الرضى لم يشر إلى ما قالاه، كما روى الزمخشري فى كتابه (ربيع الأبرار) بعضها باختلافات متعدده، وقد بين البعض الآخر من هذه الخطبه فى أربعه كتب ألّفت قبل نهج البلاغه (كتاب الكافى، والمحاسن، للبرقى، والأمالى للصدوق، وتفسير العياشى)، (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص

(٤٣٠)

أولى مراحل إصلاح الذات والمجتمع. وأكد في القسم الخامس، على حفظ أصالة التعاليم الإسلامية، ونبذ البدع، كما تعرض في القسم السادس، إلى أهميّة القرآن وخصائصه. وأوضح في القسم السابع، أقسام ظلم النفس والآخريين. أمّا القسم الثامن (والأخير في الخطبه) فهو بيان مختصر عميق المعنى بشأن إصلاح الذات.

ص: ٣٧٦

اَتْتَفَعُوا بِبَيَانِ اللَّهِ، وَاتَّعَظُوا بِمَوَاعِظِ اللَّهِ، وَأَقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَدَّ لِيَكُم بِالْجَلِيلِ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّةَ مِنَ الْأَعْمِيَالِ، وَمَكَارِهِهُ مِنْهَا، لِتَتَّبِعُوا هَذِهِ، وَتَجْتَنِبُوا هَذِهِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ».

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةٍ لِلَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي كُرْهِهِ، وَمَا مِنْ مَعْصِيَةٍ لِلَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي شَهْوَاهِ. فَوَجَّهَ اللَّهُ أَمْرًا نَزَعَ عَنِ شَهْوَاتِهِ، وَقَمَعَ هَوَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدَ شَيْءٍ مَنَزَعًا وَإِنَّهَا لَأَنْزَالُ تَنْزِعَ إِلَى مَعْصِيَةٍ فِي هَوَى.

الشرح والتفسير: حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات

إستهل الإمام عليه السلام خطبته قائلاً:

«اَتْتَفَعُوا بِبَيَانِ اللَّهِ، وَاتَّعَظُوا بِمَوَاعِظِ اللَّهِ، وَأَقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللَّهِ» يمكن اعتبار هذه العبارات الثلاث تبياناً لحقيقته واحده بجمل مختلفه، ويحتمل أن تكون كل عباره مُبَيَّنَه لمطلب معين. فقد أوصى عليه السلام بادىء الأمر بالانتفاع ببيان الله والمراد به الأوامر والنواهي، ومن ثم الإلتعاض بمواعظ الله، أى الترغيب والترهيب والبشاره والإنذار التى تشكل دوافع الطاعه وترك المعصيه، والمرحله الأخيره مرحله الخير التى تتضمن بركات الطاعه وهجر المعصيه، فالمراحل الثلاث هى السبيل إلى القرب الإلهي. جدير ذكره أن لفظ الجلاله تكرر فى العبارات الثلاث، وذلك لبيان أهميه المواعظ والنصائح والشعور بمراقبه الله.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه من خلال الدليل والبرهان، فقال:

«فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعِيدَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيلِ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّهُ (١) مِنَ الْأَعْمَالِ، وَمَكَارِهِ مِنْهَا، لِيَتَّبِعُوا هَذِهِ، وَتَجْتَنِبُوا هَذِهِ».

فالإمام عليه السلام لا يرى من مبرر للتواني في قبول المواعظ والإتيان بالواجبات وترك المحرمات، ذلك لأن الله أتم الحجة على الجميع ووضع بما لا يقبل الشك، سبيل قبح العقاب بلا بيان. وخاض عليه السلام في الرد على إشكالات مقدره فقال:

«فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ (٢) بِالْمَكَارِهِ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ».

وواصل عليه السلام كلامه في بيان حديث الرسول صلى الله عليه وآله، فقال:

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مِمَّا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي كُرْهِهِ، وَمِمَّا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي «فِي شَهْوَةٍ. فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً نَزَعَ (٣) عَنْ شَهْوَتِهِ، وَقَمَعَ (٤) هَوَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنَزَعًا وَإِنِّهَا لَا تَزَالُ تَنزِعُ إِلَى مَعْصِيَةِ فِي هَوَى».

فهذه حقيقة، وهي أن الإنسان لا بد له من اجتياز الطرق الصعبة الوعرة في مسيرته العبادية وكسب الفضائل ودفع الرذائل، وعليه مراقبه الأخطار التي تكمن في طريقه وتعيقه عن الوصول إلى هدفه، أما في مسيره المعصية فكأن هذه النفس الجامحة تسلك سبيلاً سهلاً لا ينطوي على أية صعوبات، وهذا هو سر ثواب الطاعة وعقوبه المعصية.

نقرأ في حديث لطيفه عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أَنَّ اللَّهَ حِينَ خَلَقَ الْجَنَّةَ أَمَرَ جَبْرِيْلَ

ص: ٣٧٨

١- (١). «محاب» جمع (محب) من ماده الأمر المحبوب

٢- (٢). «حفت» من ماده (حف) على وزن كف، بمعنى الاحاطه بالشىء

٣- (٣). «نزع» من ماده (نزع) على وزن نبض، تتعدى هذه الماده بحرف (إلى) أحياناً فيقال: نزع عنه أى أفلع عن هذا العمل، وقد وردت فى العبارة بالمعنى الثانى، واستعملت بالمعنى الأول فى العبارات اللاحقه (تنزع إلى المعصيه). وتتعدى أحياناً دون حرف الجر كقولهم نزع الشىء أى، إبطاله وهدمه

٤- (٤) «قمع» من ماده (قمع) على وزن منع، بمعنى، القهر والغلبه

بالنظر إليها، فأقسم بعزّه الله وجلاله أنّ كل من سمع عنها يود دخولها، ثم حفّها الله بالمكّاره وأمره بالنظر إليها، فنظر إليها وقال أخشى أن لا يرغب فيها أحد، وحين خلق النار أمر جبريل بالنظر إليها، فلما نظر إليها أقسم بعزّه الله وجلاله أنّ كل من سمع عنها سوف لن يدخلها، ثم حفّها بالشهوات، وأمره بالنظر إليها، فأقسم بعزّه الله وجلاله أنّه يخشى أن يدخلها الجميع»(١).

تأمل: عشق الطاعة

ما ورد في هذه الخطبه حكم غالب، لا دائم، بعبارة أخرى أنّ أكثر الطاعات مصحوبه بالمشاكل وأغلب المعاصي محفوفه باللذّه. والجدير بالذكر أنّ هذا الحكم الغالب يختص بعامّه الناس، وإلّا فإنّ أولياء الله ودعاه الحق إنّما يبلغون درجه تجعلهم يتلذّدون بكل طاعه ويذوبون فيها ويتفوّرون من كل معصيه، حيث ورد في الروايه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«أَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ عَشِقَ الْعِبَادَةَ فَعَانَقَهَا»(٢) وقد اعتمد الإمام عليه السلام تلك العباده لأنّ مخاطبيه عامه الناس لا الخواص والأولياء. وصدر الخطبه يشهد على هذا الأمر. القرآن الكريم من جانبه يقول بشأن الصوم والصلاه:

«وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ»(٣) سؤال: قيل في تفسير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنّ المعروف ما عُرف؛ لأنّ روح الإنسان متعرّفه على المحاسن، والمنكر ما لم يُعرف، وروح الإنسان لا تعرف المساويء، أليس العبارة المذكوره في الخطبه، تتعارض مع هذا التفسير المشهور؟

يتضح من التأمل أن ليس هنالك من تعارض، لأنّ معرفه المعروف ومجهوليه

ص: ٣٧٩

١- (١) سنن أبي داود، ج ٢، ص ٤٢٢، ح ٤٧٤٤؛ وبحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٧٢

٢- (٢) . اصول الكافي، ج ٢، ص ٨٣

٣- (٣) . سورة البقره، الآية ٤٥

المنكر لا- تتنافى من حيث الإدراك الكلى مع جاذبه المعصيه ودافعه الطاعه، مثلاً- نلتدّ جميعاً بالعلم ونتنفّر من الجهل، إلّا أنّ
تحصيل العلم ينطوى على عدّه مصاعب، بحيث يزهد فيه بعض الأفراد، وينزعون إلى الجهل، حيث الكسل والخمول.

ص: ٣٨٠

وَاعْلَمُوا - عِبَادَ اللَّهِ - أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُضْبِحُ وَلَا يُمَسِّي إِلَّا وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ، فَلَا يَزَالُ زَارِيًا عَلَيْهَا وَمُسْتَزِيدًا لَهَا. فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلُكُمْ، وَالْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ. قَوُّوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ، وَطَوُّواهَا طَيَّ الْمَنَازِلِ.

الشرح والتفسير: نقد الذات

أعطى الإمام عليه السلام هنا دعاه الحق والسالكين إلى الله درساً معنوياً مهماً فقال:

«وَاعْلَمُوا - عِبَادَ اللَّهِ - أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُضْبِحُ وَلَا يُمَسِّي إِلَّا وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ (١) عِنْدَهُ، فَلَا يَزَالُ زَارِيًا (٢) عَلَيْهَا وَمُسْتَزِيدًا لَهَا».

فإننا نعلم أن أحد حجب تكامل الإنسان، هو حب الذات الذي يبدى له عيوبه محاسن وضعفه قوه، وعليه فإن أراد الإنسان سلوك طريق السمو والتكامل، لابد أن يتهم نفسه ويعرضها للنقد لي طرح عنها حجب حب الذات ويربها الواقع كما هو. وقد بين الإمام عليه السلام هذا الأمر بثلاث عبارات قصيره، قال في الأولى بوجوب إساءه الظن بالنفس ومن ثم انتقادها وأخيراً إيصالها إلى الكمال المطلوب. وقد أشار في خطبه المتقين التي تضمنت مائه وعشره دروس أخلاقيه إلى هذه القضية المهمه:

فَهُمْ

ص: ٣٨١

١- (١). «ظنون» صيغه مبالغه من ماده (ظن) ترد في مثل هذه الحالات بمعنى سوء الظن، وعليه، تعنى هنا، من ينظر إلى نفسه بالنقد ويتهمها، كما وردت ماده ظن بمعنى الشيء القليل، وعليه فالظنون تطلق على الفرد الضعيف، والمعنى الأول هو المراد
٢- (٢) «زاري» بمعنى عائب، من ماده (زرى)، على وزن جرى

لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ».

ثم رغب مخاطبيه - الإنسانيه جمعاء - فى ترك التعلق بالدنيا وقد عرض لهم نماذج السلف الصالح فقال:

«فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ، وَالْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ.

قَوْضُوا (١) مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ، وَطَوَّوْهَا (٢) طَى الْمَنَازِلِ».

وصايا ضروريه

١. ورد الحثّ فى الإسلام والتأكيد على حسن الظن، فما معنى تأكيد الإمام عليه السلام هنا على إساءه الظن؟ سبب ذلك واضح فى أنّ حسن الظن يتعلق بالآخرين، أمّياً بالنسبه للذات التى تعيش طبيعياً حسن الظن المفرط إلى درجه رؤيه الضعف قوّه، والرذيله فضيله، ورد الحثّ على إساءه الظن لإيجاد حاله من التوازن. فلا بدّ للإنسان من نقد ذاته وتقييم أعماله وسلوكه دون تهاون لينفتح على الكمال. فهو كذاك الذى يجتاز طريقاً خطراً، فإن اطمأن للطريق، هوى وإن احتاط وحذر، نجى.

جدير بالذكر أنّ نقد الذات لا يتنافى والثقه بالنفس، فالثقه بالنفس من قبيل وجود قوّه عظيمه لدى الإنسان وهو عالم بها، وهذا لا يمنع من الحذر فى مواضع الخطر وعدم نسيان الإحتياط حين الإستعانه بتلك القوّه.

٢. أورد الإمام عليه السلام لمخاطبيه نموذجين (كالسابقين من قبلكم) و (الماضين أمامكم) لانتواء حياه كل فئه منهما على الدروس والعبر.

٣. اختتم الإمام عليه السلام الخطبه بأمرهم بالنظر إلى الدنيا كمن قوض عماد الخيمه وجمعها وسلوك سبيله يطوى المنازل دون الإقامه فى الدنيا والإستقرار فيها، ويبدو أنّ جميع مشاكل أهل الدنيا تنبعث من هنا، فى أنّهم نسوا الموت تماماً وظنوا بخلودهم فى الدنيا، وكأنّهم لا يرون الزلازل والسيول التى تضرب بعض المناطق

ص: ٣٨٢

١- (١) «قوضوا» من ماده (تقويض) بمعنى الهدم، والمراد هنا نزع أعمده الخيمه وإطناها لرفعها وجمعها

٢- (٢) «طووها» من ماده (طى) بمعنى الاجتياز

فتحيلها خلال ثوانٍ، خراباً كأنّها لم تسكن من قبل، وتأتى على مزارع وحقول لتحطم كل محاصيلها التي استغرقت مئات السنين (١).

ص: ٣٨٣

١- (١) تعيش البلاد الإسلاميه حاله من العزاء بسبب الزلزال الذى ضرب مدينه (بم) ونواحيها وخلف آلاف الضحايا، حيث أحالت هذه الزلزله خلال ١٢ ثانيه (نعم، فقط ١٢ ثانيه) هذه المدينه النضره إلى كثبان من التراب كأنها مدينه مهجوره منذ آلاف السنين. نعم، نعلم أن لا اعتبار لهذه الدنيا، لكننا لم نر مثل هذا، حدث ذلك في ٢ ذى القعدة عام ١٤٢٤ هـ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ، وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ. وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بزيادته أو نقصان: زيادته في هدي، أو نقصان من عمى. وَاَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقِهِ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنَى؛ فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَانِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لِمَآوَاتِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ: وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنَّفَاقُ، وَالْغَيُّ وَالضَّلَالُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ.

الشرح والتفسير: القرآن دواء لكل داء

بين الإمام عليه السلام هنا أهميته القرآن الكريم بصفته الكتاب السماوي الشافي في خمسه أوصاف فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ، وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ. وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بزيادته أو نقصان: زيادته في هدي، أو نقصان من عمى. وَاَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقِهِ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنَى». فقد أشار بالعباره الأولى والثانية والثالثة إلى هذه الحقيقه و هي أن الناصح الأمين والهادي من لا يكذب أو يغش أو يغدر أو يضل حتى لا- يكون سبباً لانحراف الآخرين، فلعل هناك من يعرف السبيل إلما أنه لا- يصدق الآخرين أو يخدعهم، كما يمكن أن يكون صادقاً لكنه لا- يعرف الطريق، والحال، ليس القرآن كذلك، فالوحي إنما يستند إلى علم الله المطلق

الذى لا يتسلل إليه الكذب والغش والخيانة، فهو كتاب الله الغنى عن الجميع والمشفق بهم.

ومن هنا خلص الإمام عليه السلام إلى نتيجتين مهمتين لهداياه القرآن؛ الأولى، أنّ من يجالس القرآن فهو دائماً في إزدياد ونقصان؛ زياده في الهدى، ونقصان، من العمى والضلال، والأخرى أنّ القرآن مصدر عظيم، والفرد أو المجتمع الذى يلتزم بأحكامه ويعمل بتعاليمه، لا يصيبه فقر معنوى، ولا مادى، وعلى العكس من فارقته شهد الفقيرين. طبعاً قد لا يكون الفرد فى زمره أتباع القرآن الكريم إلّا أنّ أعماله تنسجم مع تعاليمه، كأن لا يكذب ولا يغش ولا يهضم الآخرين حقوقهم فذلك له نصيبه من النجاح والتوفيق، وهذا ما أكدّه الإمام عليه السلام فى وصيته

«اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ لَا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ» (١) وقد اختلف شراح نهج البلاغه فى كلمه (بعد) فى العبارة (بعد القرآن) هل معناها، بعد نزول القرآن، أم بعد العمل به؟ ويبدو المعنى الثانى هو الصواب، لأنّ العمل بالقرآن يزيل الفقر المعنوى والمادى، لا النزول دون العمل.

ويستفاد ضمناً من هذه العبارة أنّ ما يشهده العالم الإسلامى من ضعف وفقر فى الجانب المعنوى والمادى إنّما يُعزى لابتعاده عن القرآن، على غرار من جلس عند عين ماء صافيه ويشكو العطش.

ثم خلص إلى نتيجة أخرى فقال عليه السلام

:«فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَائِكُمْ» (٢)، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ: وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنَّفَاقُ، وَالْغِيءُ (٣) وَالضَّلَالُ». فالإمام عليه السلام يعتبر القرآن وسيله لحلّ المشاكل والشفاء من جميع الأمراض الأخلاقية والاجتماعية والمعنوية، ويوجز هذه الأمراض فى أربعه: الكفر والنفاق والجهل والضلال؛ ذلك لأنّ القرآن يقذف نور الإيمان والإخلاص فى القلب

ص: ٣٨٦

١- (١). نهج البلاغه، الرسالة ٤٧

٢- (٢). «لأوى» من ماده (لأى) على وزن سعى، بمعنى الشده والمحنه

٣- (٣) «غى» بمعنى العمل الطائش أو الجهل النابع من الاعتقاد الفاسد، حسب الراغب فى المفردات

ويهتك حجاب الجهل ويهدى الإنسان من الضلاله. قطعاً، ليس هنالك من مرض يهدد المجتمع القرآنى المعروف بالإيمان والإخلاص.

ثم خلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة أخرى:

«فَأَسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ». ويستفاد من هذا التعبير أن القرآن أهم وسيلة للنجاه ونيل العناية الإلهية، والعبارة

«وَلَمَّا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ» إشاره إلى عدم جعل القرآن وسيلة لإلغاف انتباه الآخرين بهدف تحقيق بعض الأطماع الدنيوية. روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ قَارِئٌ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيُطَلَّبَ بِهِ الدُّنْيَا وَلَا خَيْرَ فِي ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيَنْتَفِعَ بِهِ فِي صَلَاتِهِ وَلَيْلِهِ وَنَهَارِهِ»^(١).

تأمل

القرآن والشفاء

صحيح أن عدده روايات تحدتت عن تأثير القرآن فى شفاء أمراض البدن أيضاً، ولا يستبعد من كلام الله حتى إحياء الموتى به فضلاً عن شفاء الأمراض، إلّا أن ما ركز عليه الإمام عليه السلام فى الخطبه، شفاء القرآن للأمراض المعنويه والخليقيه التى أوجزها فى أربعة؛ الكفر والنفاق والجهل والضلال، كما أكد عليه السلام على ضروره الإستغاثه بالقرآن وتعزيز العلاقه به وحبّه. ويتضح أن المراد من التوسل والحب، ما ليس ببعيد عن العمل. وبالطبع فإنّ الاستشفاء بالقرآن من الأمراض الخليقيه والإجتماعيه والعقائديه يتم من خلال الوقوف على مضامين الآيات والإلتزام بها على صعيد العمل، على غرار ما فعله النبى صلى الله عليه وآله حين نهض بذلك المجتمع المريض ليجعله من أقوى وأفضل المجتمعات.

ص: ٣٨٧

١- (١) اصول الكافى، ج ٢، ص ٦٠٧ (باب من حفظ القرآن... ذيل الحديث)

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفِّعٌ، وَقَائِلٌ مُصَدِّقٌ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفَّعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَّ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلَا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلَى فِي حَرْثِهِ وَعِيَاقِبِهِ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرْثِهِ الْقُرْآنِ». فَكُونُوا مِنْ حَرْثِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَأَتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَاسْتَغْشُوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ.

الشرح والتفسير: القرآن شفيع القيامة

واصل الإمام عليه السلام حديثه هنا عن بركات القرآن وآثاره، مع هذا الفارق في أن الكلام في السابق عن البركات المعنوية والمادية للقرآن في هذه الدنيا، وهنا عن بركاته في الآخرة، وقد أكد على شفاعته، فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفِّعٌ، وَقَائِلٌ مُصَدِّقٌ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفَّعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَّ (١) بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ». لا شك في أن شفاعته القرآن بلسان الحال أو القول لمن عمل به، وشكواه ممن هجره ولم يحط به علماً.

ثم وضع عليه السلام أكثر فقال:

«فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلَا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ (٢) مُبْتَلَى

ص: ٣٨٩

١- (١). «محل» من مادة (محل) على وزن نحل، بمعنى الشكوى الممزوجة بالسعاية والعيب، لكنّها وردت هنا بمعنى الشكوى

٢- (٢). «حارث» تطلق على الفلاح، من مادة (حرت)، على وزن غرس، بمعنى الزراعة

فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبِهِ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرْثِهِ الْقُرْآنِ». فَكُونُوا مِنْ حَرْثِهِ وَأَتْبَاعِهِ». وتشير هذه العبارة إلى الحديث المعروف

«الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ» فالإمام عليه السلام يوصي بزراعة بذور الآيات القرآنية في هذه المزرعة، فلا بدور مثمر سوى هذه، وكل ما سواها ضرر وخسران. فمن طبقت أعماله تعاليم القرآن كانت بذوره آياته، ومن خالف سلوكه القرآن، فلا يحصد سوى الخيبة والخسران.

ثم اختتم عليه السلام بالإشارة إلى هذه الحقيقة وهي كون القرآن بمعيار والميزان لكل الأشياء، فقال:

«وَأَسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَأَتَّهَمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَاسْتَعِشُوا (١) فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ». حيث أشار عليه السلام بهذه العبارات القصيرة إلى ثلاثة أمور مهمّة، الأول: ضروره أخذ العقائد الصحيحة من القرآن، والثاني: كسب الفضائل الخلقية عن طريق القرآن، والثالث: جعل القرآن، الفرقان بين الحق والباطل، فما وافق القرآن صحيح وحق وما خالفه خاطئ وباطل. وهذه العبارة، تأكيد آخر على بطلان التفسير بالرأى وتحميل الأفكار على المفاهيم القرآنية.

جاء في الرواية

«مَنْ فَسَّرَ بِرَأْيِهِ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» (٢).

وورد في روايه أخرى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ:

«مَا آمَنَ بِي مَنْ فَسَّرَ بِرَأْيِهِ كَلَامِي» (٣).

جدير بالذكر أنّ الاستدلال بالقرآن لمعرفة الله يتمّ تارة عن طريق أدله التوحيد - الواضحة في القرآن بأسره - وتارة أخرى عن طريق ذات القرآن، حيث هذا الكتاب العظيم هو دليل النبوه من جانب، وذاته المقدّسه من جانب آخر. ويصدق هذا الكلام على جميع المعجزات بخصوص القرآن.

أمّا الفارق بين الآراء والأهواء التي وردت في العبارة. أنّ الآراء إشارة إلى

ص: ٣٩٠

١- (١). «استعشوا» من مادة (عش) على وزن مسّ، بمعنى، الخداع والأعمال غير الصالحة، وأريد به في العبارة، الظن بالغش في العمل

٢- (٢) وسائل الشيعه، ج ١٨، ص ٣٩

٣- (٣). بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٠٧

العقائد المخالفة للقرآن، والأهواء، الرغبات النفسانية المضادة له.

القسم الخامس

الْعَمَلِ الْعَمَلِ، ثُمَّ النَّهْيَةَ النَّهْيَةَ، وَالْإِسْتِقَامَةَ الْإِسْتِقَامَةَ، ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ، وَالْوَرَعَ الْوَرَعَ! «إِنَّ لَكُمْ نَهْيَةً فَانْتَهُوا إِلَى نَهْيَتِكُمْ»، وَإِنَّ لَكُمْ عِلْمًا فَاهْتَدُوا بِعِلْمِكُمْ، وَإِنَّ لِلْإِسْلَامِ عَنَائَةً فَانْتَهُوا إِلَى عَنَائَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَى اللَّهِ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ. أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ، وَحَجِيجٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْكُمْ.

الشرح والتفسير: الدفاع المشروط

أشار الإمام عليه السلام بعد الفراغ من بيان أهميته القرآن، إلى هذه الحقيقة وهي أن الهدف النهائي من نزول القرآن، العمل به، لا الاقتصار على تلاوته:

«الْعَمَلُ الْعَمَلُ، ثُمَّ النَّهْيَةُ النَّهْيَةُ، وَالْإِسْتِقَامَةُ (١) الْإِسْتِقَامَةُ، ثُمَّ الصَّبْرُ الصَّبْرُ، وَالْوَرَعُ الْوَرَعُ!». حَقًّا أَنَّ هَذِهِ الْمَرَاهِلَ الْخَمْسَ الَّتِي ذَكَرَهَا الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ عَصَارَةُ السَّمُوِّ وَالتَّكَامُلِ وَالسَّيْرِ إِلَى اللَّهِ. فَالْإِنْسَانُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَّجِهَ بِأَدَى الْأَمْرِ إِلَى الْعَمَلِ وَمَنْ ثُمَّ لَا يَتَّهَوَّنُ فِي إِتْمَامِهِ، وَيَرِاقِبُ نَفْسَهُ خِلَالَ ذَلِكَ حَذْرًا مِنَ الْإِنْحِرَافِ عَنْ جَادِهِ الصَّوَابِ وَيَتَحَلَّى بِالصَّبْرِ إِزَاءَ أَهْوَاءِ النَّفْسِ وَوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ، حَتَّى يَصِلَ الْمَرْحَلَةَ الْأَسْمَى، الْوَرَعَ عِنْدَ الشَّبْهِهِ حَتَّى يَصِلَ الْهَدْفَ.

ص: ٣٩١

١- (١). «الاستقامة» ملازمه الطريق المستقيم والثبات على المسار الصحيح، وفسره بعض أرباب اللغة، بالإعتدال، وكلاهما بمعنى واحد، كما وردت بمعنى الثبات والرسوخ، والاحتمالان واردان بشأن العبارة ولا مانع من الجمع بينهما

ذكر بعض شراح نهج البلاغه أنّ عبارته الثانيه والرابعه عطف بالحرف ثم والثالثه والخامسه، بالواو، لأنّ بلوغ الهدف يكون بعد العمل، ولما كانت الإستقامه هي كيفيه العمل فقد عطف بالواو، وحيث الصبر إزاء المعصيه وما ورد قبله، في الطاعه فقد عطف بالحرف ثم، وعطف الصبر والورع بالواو لأنهما متلازمان(١). طبعاً هنالك تفاسير أخرى وارده بشأن العبارة.

ثم أشار عليه السلام إلى هدف المراحل المذكوره وعلامه بلوغ الهدف، فقال:

«إِنَّ لَكُمْ نَهَايَةً فَانْتَهُوا إِلَيْ نَهَايَتِكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَمًا فَاهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ، وَإِنَّ لِلْإِسْلَامِ غَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى غَايَتِهِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى قضيه مهمه هي هديه حياه الإنسان إلى جانب هديه التعاليم الدينيه، فالله لم يخلقنا عبثاً، والشريعه تنشد هدفاً هاماً هو سعادته الإنسان في الدنيا والآخرة. وقد أوصى الإمام عليه السلام بالسعى لنيل هذا الهدف وحذر من الغفله والتوقف في الطريق، فعلاماته واضحه. وربما كان المراد من العلم وجوده عليه السلام والأنبياء والأولياء في كل عصر ومصر، الذين أضاءوا الطريق للجميع، أو المراد، القرآن المجيد، بعبارة أخرى، الكتاب والسنة، أو جميع ذلك.

وخلص في الختام إلى هذه النتيجة

«وَاخْرُجُوا(٢) إِلَى اللَّهِ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ. أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ، وَحَجِيجٌ(٣) يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْكُمْ».

المقصود بالشاهد أنه عليه السلام يشهد في القيامة على الأعمال الصالحه للناد وأداء الحقوق واستقامتهم في سبيل الوصول إلى الهدف وصبرهم وورعهم وتقواهم، والمراد من الحجيج، أتى سادافع عنكم وأجيب الملائكه في محكمه العدل الإلهي.

ص: ٣٩٢

١- (١). شرح نهج البلاغه للعلامة الخوئي، ج ١، ص ٢٠٤

٢- (٢). «اخرجوا» من ماده (خرج) ولما كان أداء الحق يخرج الإنسان من المسؤوليه فقد وردت بهذا المعنى، وإذ اتعدت هذه المفرده بالحرف (من) عنت أداء الحق

٣- (٣) «حجيج» من ماده (حج) وردت بمعنى الغلبه، ويطلق الحجيج على من يغلب الخصم بالدليل والبرهان

فهذه العبارات اقتباس من القرآن الكريم وقوله: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ»^(١) وقال بشأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ»^(٢).

ص: ٣٩٣

١- (١) . سورة الاسراء، الآية ٧١

٢- (٢) سورة النحل، الآية ٨٩

أَلَا وَإِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ، وَالْقَضَاءَ الْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ؛ وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بَعْدَهُ اللَّهُ وَحُجَّتِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنَّ لَاتَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ»، وَقَدْ قُلْتُمْ: «رَبُّنَا اللَّهُ»، فَاسْتَقِيمُوا عَلَيَّ كِتَابِيهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ ثُمَّ لَاتَمَرُّقُوا مِنْهَا، وَلَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا، وَلَا تُخَالِفُوا عَنْهَا. فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ مُنْقَطِعٌ بِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى الأحداث السابقة، فقال:

«أَلَا وَإِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ، وَالْقَضَاءَ الْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ (١)». وردت عدّه احتمالات من قبل بعض شراح نهج البلاغه بشأن المراد من القضاء والقدر في العباده، ولكن بالنظر إلى العبارات القادمه فلا يستبعد أن تكون إشاره إلى الأمور المرتبطه بزعامته عليه السلام - التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وآله ومواجهته للناكثين - والمفروغ منه أن القضاء والقدر - كما شرحناه في محله - لا- يعنى إجبار العباد وسلب اختيارهم، بل إن آثار الأفعال الإختياريه للإنسان نوع من القضاء والقدر؛ مثلاً، إن الله قدر نجاح من يسعى ويجد ويجتهد، وفشل من يتوانى ويكسل، فهذه الأمور وإن جرت باختيار الإنسان إلّا أنّ الله مسبب الأسباب جعل لذلك آثاراً تعتبر من القضاء والقدر، طبعاً، هناك القضاء والقدر

ص: ٣٩٥

١- (١). «تورّد» من ماده (ورود) بمعنى، الدخول، وتستعمل حين يكون الدخول تدريجياً

الإلزامى الخارج عن حدود الأفعال الإنسانية(١).

ثم بين عليه السلام وظيفه الناس بالنسبه للمستقبل، فقال:

«وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بَعْدَهُ اللَّهُ وَحُجَّتِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنَّ لَمَّا تَخَافُوا وَلَمَّا تَخَرُّونَ وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ».

ثم خلص إلى نتیجه واضحه، فقال:

«وَقَدْ قُلْتُمْ: «رَبُّنَا اللَّهُ»

فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ».

إشاره إلى أن القول بلا عمل لا يؤدى إلى الهدف ولا يوجب دخول الجنة والفوز بالسعاده الأبدية، فما دتم أظهرتم الإيمان فعليكم بالعمل لتشملون بوعده الله.

ثم بين عليه السلام الأخطار التى تكمن فى طريق المؤمنين، فقال:

«ثُمَّ لَمَّا تَمَرَّقُوا مِنْهَا، وَلَمَّا تَبْتَدِعُوا فِيهَا، وَلَمَّا تَخَالَفُوا عَنْهَا. فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ (٢) مُنْقَطِعٌ (٣) بِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فقد أشار عليه السلام فى هذه العبارة إلى ثلاث فرق من المنحرفين وحدّر من السير على نهجهم، الفئة الأولى: التى تمرق من الدين وترى نفسها على الدين بينما هى بعيدة عنه كل البعد، كخوارج النهروان الذين نعتهم الروايات والتواريخ بالمارقين، فقد بلغوا درجه من التبعده والتمسك بقشور الدين بحيث يحسبهم الجاهل من المتدينين الحقيقيين، والحال، ليس لهم حظ من الدين سوى ظاهره ولا يعلمون عن حقيقه الدين شيئاً.

الفئة الثانية: أهل البدع الذين يُحمّلون الدين ما ليس منه، والواقع أنّهم يقدمون أهواءهم وأفكارهم على أحكام الدين ولم يكونوا قلائل على عهد الخلفاء. الفئة الثالثة: التى تخالف الأحكام الشرعيه عامده وتترك ما لا ينسجم مع مصالحها

ص: ٣٩٦

١- (١) للوقوف على المزيد، راجع شرح آيات القضاء والقدر فى التفسير الأمثل، ذيل الآيه ٤٩ من سوره القمر، وكتاب دوافع ظهور الدين

٢- (٢). «مروق» تعنى فى الأصل، مرور السهم من الهدف، ويطلق المارقين على الخوارج الذين أفرطوا فى الدين حتى خرجوا منه

٣- (٣) «منقطع» بهم: بمعنى الفرد الذى انتهى متاعه أو أوقف مركبه وسط الطريق ولم يصل الهدف

ومنافعها، وأفضل نموذج على ذلك، معاويه حين ظهر ودخل الكوفه خطب الناس، فقال: «والله لم أقاتلكم لتصوموا وتصلوا وتحجوا وتزكوا فأنتم تفعلون ذلك، ولكن قاتلكم لأتأمر عليكم» (وقيل على روايه، لأتسلط على رقابكم) (١). نعم، من جانب هذه الطرق المنحرفه ولم يصغ لوساوس الشيطان وهوى النفس فهو الذى قال:

«قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنْزَّلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ» (٢).

تأمل: الإستقامه فى مسار الولاية

ورد فى بعض الروايات فى تفسير العبارة

«ثُمَّ اسْتَقَامُوا» (المقتبسه من الآيه ٣٠ من سوره فصلت) أنها إشاره إلى الولاية. فقد أجاب الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام من سأله عن الإستقامه فى الآيه المذكوره، فقال:

«هِيَ وَاللَّهِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ» (٣). طبعاً الإستقامه والثبات على الصراط لهما مفهوم واسع، واحد مصاديقه البارزه، ولاية أهل البيت عليهم السلام.

سؤال: متى هذه البشاره التى تزفها الملائكه للمؤمنين، عند الموت أم فى الحياه الدنيا أم القيامة؟ هل يلمس المؤمنون هذه البشاره، أم لا؟

الجواب: ممّ لا - شك فيه أن نجد الملائكه - طبق صريح الآيات القرآنيه - للمؤمنين فى الظروف الحساسه مبذوله فى هذه الحياه الدنيا، ونموذج ذلك ما حصل

ص: ٣٩٧

١- (١). نقل ذلك الكلام الكثير من مصادر المحدثين والمؤرخين ومنها: مصنف ابن أبى شيبه، ج ٧، ص ٢٥١؛ وتاريخ دمشق، ج ٥٢، ص ٣٨٠؛ والبدايه والنهايه لأبن كثير، ج ٨، ص ١٤؛ وشرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٦، ص ٥١٠ وورد إلى جانب ذلك، قوله: كل شرط أعطيته فهو تحت قدمى (إشاره إلى عدم التزامه بالشروط فى صلحه مع الإمام الحسن عليه السلام)

٢- (٢) سوره فصلت، الآيه ٣٠

٣- (٣). مجمع البيان ذيل الآيه ١٢٤

فى موقعه بدر والأحزاب (١)؛ طبعاً لم يرهم المؤمنون إلا أنهم شاهدوا إمداداتهم الغيبية على صعيد نصرتهم فى ميدان القتال. وما يستفاد من الروايات أن بشاره الملائكة المذكوره فى الآيه السابقه، والتي أشارت إليها الآيه ٣١ من سوره فصلت، تتعلق بلحظه الموت أو الحشر وقد فسرت العبارة

«نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...» بصيغه «ونحن كُنَّا أَوْلِيَاءَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»، أى، كُنَّا أَوْلِيَاءَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَسَتُولَاكُمْ لِحظهِ الْإِحْتِضَارِ وَالْقِيَامَةِ. روى صاحب مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«أَلَّا تَخَافُوا مَا تَقْدِمُونَ عَلَيْهِ وَلَا تَحْزَنُوا مَا خَلَقْتُمْ وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ فِي الدُّنْيَا» (٢).

ص: ٣٩٨

١- (١). سوره آل عمران، الآيه ١٢٤؛ سوره الأحزاب، الآيه ٩

٢- (٢) مجمع البيان، ذيل الآيه المذكوره

ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ الْأَخْلَاقِ وَتَضْرِيْفَهَا، وَاجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِدًا، وَلِيُخْزِنَ الرَّجُلُ لِسَانَهُ، فَإِنَّ هَذَا اللِّسَانَ جُمُوحٌ بِصَاحِبِهِ. وَاللَّهُ مَا أَرَى عَبْدًا يَتَّقِي تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يَخْزِنَ لِسَانَهُ. وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ: لَأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا أَبَدَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا وَارَاهُ. وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لَا يَدْرِي مَاذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ. وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ. وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ». فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ، فَلْيَفْعَلْ.

الشرح والتفسير: فرق المؤمن عن المنافق في إصلاح اللسان

بين الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه بعض المسائل المهمه المرتبطه بتهديب الأخلاق وتطهير الروح من الرذائل الخلقية، وأشار إلى الأمور المهمه التي تشكل مفتاح الإصلاح الأخلاقي، فقال:

«ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ الْأَخْلَاقِ وَتَضْرِيْفَهَا(١)». بالنظر إلى أنّ تهزيح، من ماده هزح، على وزن نظم، بمعنى التكبير، وكأنّ الإمام عليه السلام يرى أنّ الفضائل الأخلاقية كالبناء الشامخ والجوهر الثمين الذي يمثل أى انحراف فيه كسره وتغيير شكله، ولا يقتصر هذا البناء على الفرد، بل حتى المجتمعات البشرية إن

ص: ٣٩٩

فقدت الفضائل الاخلاقيه تنحدر نحو الفساد والانحراف والزوال:

إِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ

فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

ثم ركز الإمام عليه السلام على واحده من أهم المسائل الأخلاقيه التي لا- يتسنى تهذيب النفس إلّامن خلالها والتي تتمثل بإصلاح اللسان، قائلاً:

«وَأَجْعَلُوا اللَّسَانَ وَاحِدًا» حيث تقابل هذه العبارة تلك العبارة

«ذواللسانين» بحق المنافق، الذي يقول شيئاً في حضور الإنسان وآخر في غيابه، «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ»^(١) ومن الطبيعي أن تغيب كل معاني المحبّه والمواساه التي تشكل الركن الأساس للحياه الإجتماعيه في المجتمع الذي يمتاز أفراده بالنفاق والإبتعاد عن الصدق، وليس هنالك سوى سوء الظن الذي يسود المجتمع.

ثم قال في الوصيه الثانيه:

«وَلْيُخْزِنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ، فَإِنَّ هَذَا اللَّسَانَ جَمُوحٌ»^(٢) بِصِيَّاحِيهِ». فتشبيه اللسان بالفرس الجموح تشبيه رائع ولطيف، ذلك لأنّ اللسان أسهل عضو لدى الإنسان يحركه دون عناء، إلّا أنّ أهواء النفس ووساوس الشيطان قد تغلب الإنسان بحيث لا يستطيع السيطرة عليها، فيصبح كالفرس الجموح الذي يغلب فارسه فيوشك أن يطرحه في المهلكه. ولعل أفضل وسيله لحفظه من الخطر أن يقلل الإنسان من كلامه، وهذا هو المراد من حفظ اللسان، وليس بعدم الكلام قط، ذلك لأنّ اللسان أهم وسيله في الترييه والتعليم ونقل العلوم والمعارف والتجارب وذكر الله تعالى.

ثم أكد عليه السلام ذلك، فقال:

«وَاللَّهِ مَا أَرَى عَبْدًا يَتَّقِي تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يَخْزِنَ لِسَانَهُ».

فهذا التأكيد المقرون بالقسم إشاره إلى المرحله الأولى التي قال بها أرباب السير والسلوك إلى الله والتي تتمثل بإصلاح اللسان، وما لم يجتز الإنسان هذه العقبه فلن

ص: ٤٠٠

١- (١). سورة البقره، الآيه ١٤

٢- (٢). «جموح» من ماده (جمح) الفرس، الذي يغلب صاحبه

يقف على حقيقته التقوى والقرب من الله.

ثم تطرّق الإمام عليه السلام إلى أهميته حفظ اللسان في أنّ إحدى فوارق المؤمن عن المنافق إنّما تكمن في هذا الموضوع فقال:

«وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ: لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا أَبْدَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا وَارَاهُ. وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لَيَدْرِي مَاذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ».

طبعاً، لسان كل شخص في فيه، والقلب - سواء العضو الواقع في وسط الصدر أو المراد به العقل - مفصول عن اللسان، ولا فرق في هذا بين المؤمن والمنافق، لكن هناك كناية لطيفة في العبارة، أنّ المؤمن يفكر ثم يتكلم، أمّا المنافق فيتكلم ثم يفكر، الأمر الذي فسره الإمام عليه السلام في العبارات القادمة.

جدير ذكره أنّ هذا المعنى ورد بصورة أخرى في قصار كلمات الإمام عليه السلام ومنها:

«لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ» (١). وقال:

«قَلْبُ الْأَحْمَقِ فِي فِيهِ وَلِسَانُ الْعَاقِلِ فِي قَلْبِهِ» وكل هذه العبارات تشير إلى حقيقته واحده هي أنّ المؤمن والعاقل يفكر وينطق والمنافق والأحمق ينطقان ولا يفكران.

سؤال: يمتاز المنافقون عادة بالذكاء والخطط الجهنمية في مشاريعهم الهدامة فكيف يوصفون بأنهم لا يدرون ماذا لهم وماذا عليهم؟!

الجواب: تمكن الإجابة عن هذا السؤال من خلال الآيات القرآنية الواردة بشأن المنافقين وهو أنّ المنافق وإن كانت له بادية الأمر بعض الخطط الشيطانية والذكية حتى يرى نفسه عاقلاً والمؤمن سفيهاً، إلّا أنّ المنافق في خاتمه المطاف هو السفيه الحقيقي، قال القرآن الكريم: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ» (٢). وعليه تتضح فطنه المؤمن

ص: ٤٠١

١- (١). نهج البلاغه، القصار الكلمات، الكلمة ٤٠

٢- (٢). سورة البقرة، الآية ١٣

وبلاده المنافق من خلال التأمل الدقيق، والمنافق شاء أم أبى فهو مفضوح فى الدنيا والآخرة.

ثم استدل عليه السلام بحديث عميق المعنى عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ. وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ».

فالعلاقة القائمة بين إصلاح اللسان والقلب والإيمان فى هذا الحديث هى علاقه جدليه واضحه. وقد دلت التجربه على أن سوء اللسان وتلوته بالذنوب والكلمات العبيثه الفارغه، يسود القلب ويخلى الروح من المعنويه، ومن الطبيعى أن القلب إذا اسودَّ لن يجد بصيص نور الإيمان. قال القرآن الكريم فى تعبير دقيق وبعيد: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ» (١) وعليه فالعلاقة بين إصلاح اللسان وإصلاح القلب وإصلاح الإيمان علاقه لازم وملزوم، وإن تكلف بعض الشراح فى تفسير العبارة. طبعاً، لا يمكن إنكار صدق عكس هذا المعنى، أى أن قوه الإيمان تؤدى إلى نورانيه القلب والذى يؤدى إلى إصلاح اللسان، وبعباره أخرى، تؤثر هذه الأمور الثلاثه فى بعضها البعض الآخر تأثيراً متبادلاً، إلّا أن الأبرز، ما ورد فى حديث النبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى ثلاثه مواضيع مهمه أخرى، فقال:

«فَمَنْ اسْتِطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِيمِ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ، فَلْيَفْعَلْ» قطعاً، أن مثل هذا الفرد على درجه رفيعه من الورع والتقوى التى تجعله مشمولاً بعنايه الله ورحمته. وأى تقوى أعظم من كف الأذى عن الناس واحترام أموالهم وأعراضهم وأنفسهم. ويبدو هذا الموضوع على قدر من الأهميه بحيث كانت رعايته دليلاً على كون الفرد مسلماً وهجره دليلاً على بعده عن

ص: ٤٠٢

الإسلام. ورد في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» (١) وأبعد من ذلك ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام الذى أوسعته ليشمل الناس، فقال:

«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ وَالْمُؤْمِنُ مَنْ ائْتَمَنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ» (٢).

تأملان

١. اللسان اعجب اعضاء البدن

لهذه القطعه البسيطة من اللحم والتي نسميها (اللسان) مسؤوليات خطيرة على مستوى الظاهر والباطن. ولو تأملنا نطق الآخرين لرأينا أنّ اللسان يتحرك بسرعه مذهله فى الفم فيرتب الحروف سريعاً لينطلق ببعض الكلمات، ولا يكل أبداً. ولو أخطأ قليلاً فى الحركة لصدرت منه الكلمات المهملة والمضحكة أحياناً، كما يقوم بدور فريد حين تناول الطعام حيث يدفع الغذاء بسرعه فائقه إلى الاسنان وينسحب قليلاً بغيه طحنه. ووظيفته الأخرى تتمثل فى جمع الطعام الممضوغ ودفعه إلى البلعوم، ولولا اللسان لتعذر علينا ابتلاع الماء والغذاء؛ هذا من حيث الظاهر. وأما من حيث القضايا المعنويه والأخلاقية، فدور اللسان واضح وجلّى؛ فهو أبسط وسيله عباديه وأهم وسيله للمعصيه؛ فأفضل العبادات (الصلاه، تلاوه القرآن، الترييه والتعليم، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و...) إنّما تتمّ باللسان، كما قيل بأنّ ثلاثين كبيره (من قبيل الغيبه، التهمه، أذى المؤمن، الحكم بالباطل، إيجاد الفساد، والإختلاف و...) ترتكب بواسطه اللسان، فاللسان أفضل وسائل الطاعه كما أنّه أخطر وسائل الذنب، ذلك لأنّه مستعد فى كافه الأزمنه والأمكنه والظروف ودون أدنى تكاليف لارتكاب الذنب، والأدهى من ذلك أنّ ذنوب اللسان أثر كثرتها وسعتها لم تعد قبيحه لدى عوامّ الناس، ومن هنا كانت الخطوه الأولى لإصلاح

ص: ٤٠٣

١- (١). ميزان الحكمه، ح ٨٧٧٨

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٥١، ح ٣

الذات تكمن فى إصلاح اللسان. هنالك طريقان مهمّان للنجاه من معاصى اللسان أشار إليهما الإمام عليه السلام؛ الأول: قلّه الكلام واجتناب الفضول للخلاص من آفات اللسان. الثانى: أن يفكر كلما أراد الكلام، كما قال الإمام عليه السلام أن يكون لسانه وراء قلبه، لا أن يكون قلبه وراء لسانه كالمناقق والأحرق. ويبدو الكلام بهذا الشأن كثير، نختصره ونختتمه بالحديث النبوى الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«يُعَذِّبُ اللَّهُ اللِّسَانَ بِعَذَابٍ لَّا يُعَذَّبُ بِهِ شَيْئًا مِنَ الْجَوَارِحِ فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ عَذَّبْتَنِي بِعَذَابٍ، لَمْ تُعَذَّبْ بِهِ شَيْئًا فَيَقَالُ لَهُ: خَرَجْتُ مِنْكَ كَلِمَةً فَبَلَغَتْ مَشَارِقَ الْمَآرِضِ وَمَغَارِبَهَا فَسَيَّفَكَ بِهَا الدَّمُ الْحَرَامُ وَانْتَهَبَ بِهَا الْمَالُ الْحَرَامُ وَانْتَهَكَ بِهَا الْفَرْجَ الْحَرَامَ، وَعَزَّتْ بِي (وَجَلَالِي) لَأَعَذِّبَنَّكَ بِعَذَابٍ لَّا أُعَذَّبُ بِهِ شَيْئًا مِنْ جَوَارِحِكَ» (١).

٢. رصيد الإنسان

إن رصيد الإنسان ثلاثة أشياء: النفس والمال والعرض، ولعل العرض يتقدم على الجميع حيث يستعد الإنسان للتضحيه بنفسه من أجله، ثم النفس والأموال. وقد أولى الإسلام هذه الأمور الثلاثة أهميته فائقه، وكما ورد فى الخطبه فإن النجاه يوم القيامة لمن سلمت يده من دماء الناس وأموالهم ولم يتعرض لأعراضهم. ويرى الإسلام حرمه الأموال كحرمه الأنفس، وأن حرمه إنسان كحرمه البشرىه جمعاء، وأن انتهاك حرمه مؤمن بغيبته كمن يأكل لحم أخيه ميتاً. ورد فى الحديث النبوى فى حجه الوداع فى منى، (التي يقصدها الناس من مختلف مناطق العالم) أن رسول الله صلى الله عليه وآله خطب الناس بعد أداء مناسك الحج فقال: أى يوم أفضل أيام السنه؟ قالوا:

هذا الشهر. قال: وأى أرض؟ قالوا هذه الأرض. فقال صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ

ص: ٤٠٤

عَلَيْكُمْ حَرَامٌ لِحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمٍ تَلْقَوْنَهُ فَيَسِدْ بُلُوكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ»، ثم قال: هل بلغت؟ قالوا: بلى. قال صلى الله عليه وآله:

«اللهم فاشهد» (١).

ص: ٤٠٥

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٢٥٠

وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعِيَامَ مَا اسْتَحَلَّ عَاماً أَوَّلًا، وَيُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلًا؛ وَأَنَّ مَا أَخِيذَتِ النَّاسُ لَأِيحُلَّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ. فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْأُمُورَ وَضَرَسْتُمُوهَا، وَوَعِظْتُمُ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَضَرَبْتِ الْأَمْثَالَ لَكُمْ، وَدُعَيْتُمُ إِلَى الْبَأْمَرِ الْوَاضِحِ؛ فَلَمَّا يَصَّمُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَصَّمْ، وَلَا يَعْمَى عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَعْمَى. وَمَنْ لَمْ يَنْفَعَهُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ وَالتَّجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ، وَأَتْبَاهِ التَّقْصِيرِ مِنْ أَمِيَامِهِ، حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ، وَيُنْكَرَ مَا عَرَفَ. وَإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُتَّبِعِ شِرْعَهُ وَمُبْتَدِعِ بَدْعَهُ، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانٌ سُنَّهِ، وَلَا ضِيَاءٌ حُجَّتِهِ.

الشرح والتفسير: أخطار البدع

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى آفة دينيه واجتماعيه أخرى ليكمل ما ذكره من آفات، وتلك الآفة هي البدعه وتغيير أحكام الله على ضوء الرغبات والأهواء النفسيه، فقال:

«وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعِيَامَ مَا اسْتَحَلَّ عَاماً أَوَّلًا، وَيُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلًا».

لا يُخضع الأحكام الشرعيه لهوى نفسه ويغيرها بأفكاره الناقصه، فلو فتح باب البدع فى الأحكام لغير الظلمه والطواغيت كل ما لا ينسجم مع مصالحهم ومنافعهم، فلا تمضى مدّه حتى تدرس أصول الدين وفروعه ويمحق محتواه. والعبارة تشير

إلى البدع التي وردت إلى الدين عقب وفاه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ولم يكتف القوم بالقياس عند عدم وقوفهم على نصوص الكتاب والسنة، بل هبوا لمخالفه صريح القرآن وسنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. فالخليفة الثالث خالف طريقه رسول الله صلى الله عليه وآله في توزيع أموال بيت مال المسلمين وتسويته بينهم في العطاء، فقدم الأعيان والأشراف ولا سيما خاصته وبطانته من قرابته. ثم انبرى الخليفة الثاني ليقول صراحة: متعتان كانتا حلالاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا أحرمتها وأعاقب عليهما، متعه النساء (الزواج المؤقت) ومتعه الحج (الحج بصورة حجاج التمتع) ناهيك عن سائر البدع التي ظهرت على عهد الخلفاء والتي أحصتها بعض الكتب (١). والإمام عليه السلام بدرأيته الواسعة شعر أنه إن لم يقف بوجه هذه البدع لمحق الدين وغيب أحكامه، ولذلك عدَّ الإبتعاد عن البدع من الإيمان.

ثم قال عليه السلام

: «وَأَنَّ مَا أَخَذَتِ النَّاسُ لِيُحِلَّ لَكُمْ شَيْئًا مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ». ومن ثم أشار إلى نقطه بمثابه الدليل على ما ذكر، فقال:

«فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْأُمُورَ وَضَرَسْتُمُوهَا (٢)، وَوَعظْتُم بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَضَرَبْتِ الْأَمْثَالَ لَكُمْ، وَدُعَيْتُم إِلَى الْأَمْرِ الْوَاضِحِ». بمعنى أنكم شاهدتم حجم المصائب والإرباكات التي جرّتها البدع السابقة على الإسلام والمسلمين. فالبدع في زمان عثمان أدت إلى تلك الثورة الهوجاء التي سفكت دمه وأحدثت التمييز بين العرب والموالي، إلى تلك الفرقة بين المسلمين أيضاً وكان عاقبتها سفك دمه أيضاً (٣). وناهيك عما سبق، فإنَّ الله ذمَّ اليهود في القرآن الكريم على بدعهم وتحريفاتهم وكشف عن مصيرهم، وأنتم قد جرّبتهم البدع وقد وعظتم بمن كان

ص: ٤٠٨

١- (١). راجع النص والاجتهاد للمحقق المرحوم السيد عبدالحسين شرف الدين

٢- (٢). «ضرستموها» من ماده (ضرس) على وزن درس، بمعنى، العض أو البعض أو العض الشديد بالأسنان، ثم وردت بمعنى الدراسة الدقيقه للشيء، وهذا هو المراد بها في العبارة

٣- (٣). ذكرنا قصه أبو لؤلؤه غلام المغيرة بن شعبه الذي شكى مظالم المغيرة إلى عمر فلم يُصغ له فشعر بالبغض والكراهيه له حتى قتله. راجع الجزء الأول من هذا الكتاب، ذيل الخطبه الشقشقيه

قبلكم، فقد دعوتكم إلى مطلب واضح قامت عليه الأدلة الحيه والتجريبية والنقلية.

ثم خلص إلى هذه النتيجة:

«فَلَمَّا يَصُمْ عَنْ ذِكِّكَ إِلَّا أَصَمَّ، وَلَمَّا يَعْمَى عَنْ ذِكِّكَ إِلَّا أَعْمَى. وَمَنْ لَمْ يَنْفَعُهُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ وَالتَّجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ، وَأَتَاهُ التَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ (١)، حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ، وَيُنْكَرَ مَا عَرَفَ».

فالتجارب الحسيه والبلاء الإلهي أهم وسيله لإيقاظ الإنسان، فمن لم يتيقظ بهذا الاسلوب يستبعد أن ينتفع بالمواعظ والنصائح، وليس له من عاقبه سوى رؤيته للحسن سيئاً والسيء حسناً، كما أورد ذلك القرآن الكريم: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» (٢).

فقد حسب معاويه وطلحه والزبير أنفسهم من المدافعين عن دم المظلوم (دم عثمان) هذا فى صدر الإسلام، واليوم يرى أصحاب البدع الوهابيون أنهم مصلحو هذه الأمة، وعاده ما يزعم المبتدعون طيله التاريخ أنهم مصلحون.

ويختتم الإمام عليه السلام الخطبه بعباره، لتمييز صفوف المبتدعين من صفوف المتبعين للدين، فيقول:

«وَإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُتَّبِعٌ شَرِّعَهُ وَمُتَّبِدِعٌ بَدَعَهُ، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانٌ سُنَّهِ، وَلَا ضِيَاءٌ حُجَّهِ» وعليه فلا بد لكل شخص من معرفه صنفه. فإن كان متشرعاً فهو تابع للكتاب والسنة والدليل العقلى اليقيني، وإن كان فى صف المبتدعين فليس لديه دليل من كتاب ولا سنة ولا نور ولا ضياء من عقل ولا يتبع سوى أهوائه ويغير أحكام الله بما ينسجم وتلك الأهواء. وبناءً على ما سبق فإن برهان السنيته إشاره إلى الأدله النقلية، وضياء الحجه الأدله العقلية، وهكذا يُعرّف الإمام عليه السلام أهل البدع بأنهم الأفراد الذين يتبعون أهواءهم وخيالاتهم الباطله.

ص: ٤٠٩

١- (١) «أمامه» تعنى فى الأصل جهه الأمام والعباره (أتاه التقصير من أمامه)، أى، أتاه التقصير علانيه

٢- (٢) سوره الكهف، الآيتان ١٠٣ و ١٠٤

ركز الإمام عليه السلام في المقطع المذكور من الخطبه على وقوفه بوجه البدع. والبدعه في اللغة تعنى إيجاد الشىء دون تجربته أو مثال وهي ممدوحه حيناً ومذمومه حيناً آخر. فالقرآن يصف الله بالقول: «يَدْبِعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» (١)، كما يصف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ» (٢) والمراد هو المفهوم المذكور. إلا أن لهذه المفردة مفهوماً خاصاً في لسان الروايات وكلمات الفقهاء وهو تغيير الأحكام الشرعيه وتبديلها بأحكام طبق الرغبات النفسيه والمنافع الشخصيه. ومن هنا ورد الذم الشديد للبدعه في الروايات، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أَهْلُ الْبِدْعِ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيفَةِ» (٣).

وقال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«أَمَّا أَهْلُ الْبِدْعَةِ فَالْمُخَالِفُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ الْعَامِلُونَ بِرَأْيِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ وَإِنْ كَثُرُوا» (٤) والروايات كثيره بهذا الشأن والتي ذمّت بشده، البدعه والمبتدع. والسبب واضح، فكما ذكرنا سابقاً أن باب البدع لو فتح لما بقى من أحكام الدين وأصوله وفروعه شىء ولمحق الدين. وعلى هذا الأساس قال رسول الله صلى الله عليه وآله

: «مَنْ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِ مُبْتَدِعٍ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْمِ دِينِهِ» (٥).

ويتضح من هنا خطأ أولئك الذين خلطوا المعنى الواسع للبدعه بمعناها الخاص ليزعموا أن كل القضايا متجدده، فمن يسعه الوقوف بوجه التجدد؟ وأما أولئك فإنهم يرون تغيير الآراء الإجتهديه وكشف المسائل المستحدثه من الكتاب والسنة ضرباً من البدعه، فإما أنهم يخدعون أنفسهم أو أنهم يريدون خداع الآخرين. فكشف

ص: ٤١٠

١- (١). سورة البقره، الآية ١١٧

٢- (٢). سورة الأحقاف، الآية ٩

٣- (٣) ميزان الحكمه، ح ١٦٢٩

٤- (٤). المصدر السابق، ح ١٦٣٢

٥- (٥). المصدر السابق، ح ١٦٣٥

المسائل المستحدثة من الكتاب والسنة تبعيه للشرع لا بدعه بالمعنى الخاص للكلمه؛ أى، تحريم حلال الله وتحليل حرمة استناداً لأهواء النفس والمنافع الشخصية. جدير بالذكر أن المبتدعين وخشيته اعتراض المؤمنين يلجأون إلى التغيير بالرأى، فيحرفون آيات القرآن الكريم أو روايات المعصومين عليهم السلام ليوردوا البدع.

وبالطبع فإن هؤلاء أعظم خطراً من الذين يمارسون البدعه علانيةً. على كل حال، فقد قال الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه: إن المؤمن من يلتزم بحلال الله وحرامه ولا يغيرهما، ويعمل بالأحكام الشرعيه فى كل الأوقات ولا يحيد عن الكتاب والسنة.

وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَدًا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ «حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ»، وَسَبَبُهُ الْأَمِينُ، وَفِيهِ رَبِيعُ الْقَلْبِ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جِلَاءٌ غَيْرُهُ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُتَذَكَّرُونَ، وَبَقِيَ النَّاسُونَ أَوْ الْمُتَنَاسُونَ. فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْرًا فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَادْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَانَ يَقُولُ: «يَا بَنَ آدَمَ، اعْمَلِ الْخَيْرَ وَدَعْ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ».

الشرح والتفسير: القرآن ربيع القلوب وينابيع العلوم

تطرق الإمام عليه السلام هنا ثانيه إلى القرآن وعظمته ليطم ما ذكره سابقاً فأشار إلى بعض الأمور الجديدة فقال:

«وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَدًا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ». ذلك لأنّ الكتب السماوية التي أنزلها الله لهدايه الخلق تشتمل على أعظم المواعظ.

ويمتاز القرآن من بين هذه الكتب بكونه الشمس المشرقة ومواعظه فريده وإرشاداته قيّمة. فتارة يتحدث مباشرة للعباد، وأخرى كسؤال يجيب عنه الوجدان، وأحياناً يطرق التاريخ الماضي المليء بالدروس والعبر، وأحياناً أخرى يتحدث من خلال المثال البليغ ويلبس الحقائق العقلية ثوب الحسّ، ويورد كل ذلك بعبارات تفيض رقة وعذوبة وبلاغه، ومن هنا فليس هنالك من مواعظ كمواعظ القرآن.

ثم ذكر عليه السلام أدله ذلك، فقال:

«فَإِنَّهُ «حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ (١)»، وَسَبَبُهُ الْأَمِينُ، وَفِيهِ رَبِيعُ

ص: ٤١٣

١- (١). «متين» من ماده (متن) يعنى فى الأصل العضلتان القويتان على طرفى العمود الفقري، ثم أطلق على كل موضوع محكم

الْقَلْبِ، وَيَنَابِيعُ (١) الْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جَلَاءٌ غَيْرُهُ». فقد أوجز الإمام عليه السلام بهذه العبارات الخمس ما يمكن قوله في القرآن؛ الأول: أنه جبل الله المتين وكأنته سحب من السماء إلى الأرض ليمسك به العباد، فيحلقون به إلى عنان السماء ويبلغون مقام القرب. وهذه هي العروة الوثقى التي أشار الله إليها في كتابه: «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَأَنْفِصَامَ لَهَا». يعنى لا شك فيه أن الطريق إلى الإيمان بالله والكفر بالطاغوت هو القرآن.

الثانى: أنه السبب الأمين، أى، الواسطه بين الخلق والخالق والذى لا يعرف الزلل والخيانة وكل ما فيه حق خالص. والثالث: أن القرآن ربيع القلوب، فكما تدب الحياة فى الربيع فى الأشجار الميتة وتتفتح غصونها وأوراقها، كذلك من يفتح على القرآن يشعر بحيوية روحه وحياته بالإيمان والفضائل والأخلاق. الرابع: أن القرآن ينابيع العلوم، ليس فقط العلوم التى تتعلق بمعرفة الله وتربى فى الإنسان روح الفضيله والورع والتقوى فحسب، بل القرآن دافع للخوض فى العلوم التى تعنى بخلق الإنسان والسماء والأرض وسائر الأحياء والكائنات، وله إشارات عميقة المعنى فى كل هذه العلوم. وأشار فى الخامس إلى هذه الحقيقة وهى، أن جلاء القلوب مما يعلق بها من أدران الذنب والغفلة لا يتيسر إلا بنور القرآن الذى يزيل عنها الصدأ من خلال تلاوته وتدبر آياته. أما قصر الجلاء على القرآن فذلك لأن سائر الوسائل إنما تستند فى الواقع إلى القرآن، فالقرآن مصدر كل شىء. ومن الطبيعى أن يكون الكتاب الذى يشتمل على هذه الخصائص أفضل واعظ.

وأعرب الإمام عليه السلام عن أسفه لوضع المسلمين تجاه القرآن، فقال:

«مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُتَيَدِّكُونَ، وَبَقِيَ النَّاسُونَ أَوْ الْمُتَنَاسُونَ» هذه العبارة إجابته عن سؤال مقدر فى أن الآثار العظيمة التى أشير إليها بشأن القرآن إن انحسرت فى المجتمع الإسلامى فسبب ذلك لا يعزى إلى القرآن، بل لغفلة الجهال والمنافقين أو تغافلهم

ص: ٤١٤

عن هذا الفيض الإلهي. ولعل هذه العبارة تشبه تلك التي ذكرها الإمام عليه السلام في الخطبه ١٨٢ حين أعرب عن أسفه على شهادته صحبه الأوفياء، فبكى، وقال:

«أَوْهَ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَّوْا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفُرُضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوْا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ».

فقد صنّف الإمام عليه السلام الناس إلى ثلاث فئات، فنه يقظه تنتفع دائماً بآيات الله، وأخرى غارقه في ماديّات الدنيا نسيّت القرآن، وثالثه، عمدت إلى تناسي تعاليم القرآن، فهي تمرّ عليه بكل بساطه رغم معرفتها بأهدافه. طبعاً إن رأينا المجتمع الإسلامي يشكو المرض من عدّه جوانب، فذلك ليس لتقصير الطبيب ولا عدم فائده الوصفه الطبيه، بل السبب الحقيقي يكمن في عدم الإلتزام بهذه الوصفه الإلهيه الشافيه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه وكأنه ردّ على إشكال من يقول: إن كانت هناك فئه نسيّت طريق الحق أو تناست، فذلك لأنّ طريق الحق ليس معروفاً وقد امتزج بطرق الباطل، بحيث لا يبدو تشخيصه سهلاً، فقال:

«فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْرًا فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَادْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَانَ يَقُولُ: «يَابْنَ آدَمَ، اعْمَلِ الْخَيْرَ وَدَعْ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ حَيَّوَادٌ (١) قَاصِدٌ (٢)». يتّضح من العبارة أنّ للخير والشرّ معاني واسعة، كما تشير العبارة إلى الحسن والقبح العقليين في أنّ الإنسان يدرك بعقله وفكره الخير والشر، وإن عمل به فقد طوى مسافه واسعه من الطريق القويم والجاده المستقيمه. وللوقوف على عظمه القرآن وأهميته مضمونه، فقد أوردنا مباحث كثيره في الأجزاء السابقه (الجزء الأول، ذيل الخطبه ١٨، والجزء الرابع، ذيل الخطبه ١١٠) وسنتطرق بإذن الله إلى مبحث مفصل بهذا الشأن في شرح الخطبه ١٩٨.

ص: ٤١٥

١- (١). «جواد» تعنى فى الأصل، الفرس السريع، ومن ماده (جود)، معروف، ثم اطلقت على الإنسان المجدوالمستقيم

٢- (٢) «قاصد» من ماده (قصد) بمعنى الاعتدال، وعليه فالقاصد، من يسير على الدرب دون إفراط وتفريط

أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لِيُغْفَرَ، وَظُلْمٌ لِيُتْرَكَ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لِيُطْلَبَ.

فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَمْ يُغْفَرْ فَالشُّرُكُ بِاللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ». وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ.

وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَمْ يُتْرَكَ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضَهُمْ بَعْضًا. الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ. لَيْسَ هُوَ جَزْحًا بِالْمِيدَى وَلَا ضَرْبًا بِالسَّيَاطِ، وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَضِيءُ غُرَّ ذَلَمِكَ مَعَهُ. فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوْنَ فِي دِينِ اللَّهِ، فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ. وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَدًا بِفُرْقَةٍ خَيْرًا مِمَّنْ مَضَى، وَلَا مِمَّنْ بَقِيَ.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ «طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ»، وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَكَلَ قُوْتَهُ، وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، «وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ» فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغْلٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ!

الشرح والتفسير: إصلاح النفس

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة الذي يمثل ختامها إلى ثلاثه مواضيع مهمه؛ أحدها، أقسام الظلم الثلاثه، والآخر، موضوع وحده المسلمين وأهميتها، والثالث، التهذيب وإصلاح النفس بدلاً من تقصير عيوب الآخرين، والأبحاث التي ذكرت في هذه الخطبة بشأن المسائل الأخلاقية والنصائح الواردة بهذا الخصوص تكتمل بهذه المواضيع الثلاثه. فقد قال عليه السلام في الموضوع الأول:

«أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ

ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يُطْلَبُ».

ثم خاض عليه السلام في شرح كل قسم، فقال:

«فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشَّرْكَ بِاللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ»». طبعاً، بالتوجه إلى صدر الآية وذيلها:

«وَيُغْفَرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»^(١) يتبين لنا أن الذنب الوحيد الذي لا يغفره الله، إن مات الإنسان ولم يتب منه، هو الشرك، أما سائر الذنوب، كبيرة كانت أم صغيرة إن مات الإنسان ولم يتب منها، فربما يُشمل بالعتو الإلهي، وإن لم يكن ذلك قطعياً وشموله بالعتو خاضع لبعض الشرائط، لأنَّ العبارة

(من يشاء) لا- تعنى العفو عن المذنبين دون حساب وكتاب، ذلك لأنَّ الله حكيم وإرادته ومشيتته حكيمه، ولا يشمل بالعتو سوى من امتلك مقوماته، بالضبط على غرار العفو عن السجناء والذي ينظر إلى حاله السجين، فإن رأى فيه الإستعداد شمل بالعتو، والمراد من الشرك هنا هو الشرك الجلي من قبيل عبادة الأوثان وما شابه ذلك، وأمَّا الشرك الخفي

(كالرياء) فهو من قبيل الكبائر الداخلة في ذيل الآية المذكوره.

ثم خاض عليه السلام في بيان القسم الثاني والثالث، فقال:

«وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهِنَاتِ^(٢). وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ. لَيْسَ هُوَ جَزَاءً بِالْمُدَى^(٣) وَلَا ضَرْبًا بِالسَّيَاطِ، وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَصَيَّرُ غَيْرَ ذَلِكَ مَعَهُ». فقد أشار الإمام عليه السلام في العبارة الأولى إلى الصغائر التي ذكر القرآن شرط عفوها بترك الكبائر: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نَهَوْا عَنْهُ نَكْفَرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ»^(٤). أو إشاره إلى الكبائر التي لها بعد حق الله ويستطيع الإنسان غسلها بماء التوبة والندم وتداركها بالأعمال الصالحة، أما العبارة الثانية التي تبين النوع الثالث

ص: ٤١٨

١- (١) . سورة النساء، الآية ٤٨

٢- (٢) . «هنات» جمع (هن) على وزن من، بمعنى الأمر المهم والحادثه الشديده، كما ورد في لسان العرب، ماده (هن)، وتطلق أحياناً على الموضوعات الصغيره قليله الأهميه، وهذا هو المعنى المراد بها في العبارة

٣- (٣) . «مدى» جمع (مدية) على وزن، بنيه، السكين

٤- (٤) . سورة النساء، الآية ٣١

للظلم، فهي إشاره إلى حق الناس الذي توعد الإسلام عليه أشد العقوبات، والله لا- يغفره ما لم يتنازل صاحب الحق، وعليه، فالتعبير بالقصاص في العبارة إشاره إلى العقاب، لا القصاص الإصطلاحي المعروف، ولذلك قال: ليس ذلك القصاص جرحاً بالسكين والخنجر ولا ضرباً بالسياط، بل عقاب يهون كل ذلك معه: «نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ» (١).

ورد في الروايه، عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى نَبِيِّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ فِي مَمْلَكِهِ جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَّارِينَ أَنْ آتِ هَذَا الْجَبَّارَ فَقُلْ لَهُ: إِنِّي لَمْ أُسْتَعْمَلِكْ عَلَى الدِّمَاءِ اتِّخَاذِ أَمْوَالٍ، بَلِ اسْتَعْمَلْتَكِ لِتُكْفَ عَنِّي أَصْوَاتِ الْمَظْلُومِينَ، فَإِنِّي لَمْ أَدْعُ ظَلَامَتَهُمْ وَإِنْ كَانُوا كُفَّارًا» (٢).

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام:

«مَا مِنْ أَحَدٍ يَظْلِمُ بِمَظْلَمَةٍ إِلَّا أَخَذَهُ اللَّهُ بِهَا فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَمَا ظَلَمَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ فَإِذَا تَابَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ» (٣).

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى موضوع وحده صفوف المسلمين، فقال:

«فَأَيُّكُمْ وَالتَّلَوْنَ فِي دِينِ اللَّهِ، فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ فِرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ. وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَدًا بِفِرْقَةٍ خَيْرًا مِمَّنْ مَضَى، وَلَا مِمَّنْ بَقِيَ».

العبارة

«فَأَيُّكُمْ وَالتَّلَوْنَ فِي دِينِ اللَّهِ...» إشاره إلى أن كل طائفة كانت تتخذ لها صيغه تميز برنامجها من الآخرين، سواء في المسائل العقائديه أو العمليه، وهذا التلون يؤدي إلى فرقه الصفوف وضياع الطاقات وأحياناً نشوب الحروب الأهليه التي تهدد مصير المجتمع ومنافعه. وكلما كان أفراد المجتمع - كما ورد في عبارات الإمام عليه السلام المذكوره - يتحولون بالمرونه في القضايا البسيطة، والصبر في الأمور التي لا تنسجم مع رغباتهم، فإنّ الوحده ستسود هذا المجتمع جانب الهدوء والأمن

ص: ٤١٩

١- (١) سورة الهمزه، الآيتان ٦ و ٧

٢- (٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٣٣، ح ١٤

٣- (٣) المصدر السابق، ح ١٥

والإستقرار. وبالطبع، فإنَّ اختلاف الصفوف والفرق طيله التاريخ - كما ذكر الإمام عليه السلام - لم يجلب من خير قط.

وأخيراً اختتم الإمام عليه السلام الخطبه بدعوه الجميع إلى إصلاح الذات وترك البحث عن عيوب الآخرين، فقال:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ «طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عَيْبِ النَّاسِ»، وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَكَلَ قُوتَهُ، وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، «وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ». ثم خلص عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغْلٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ!» إشاره إلى أنَّ كل انسان - سوى أولياء الله والمعصومين عليهم السلام - ينطوى على عيب، فإنَّ إنهمك بعيوب الآخرين غفل عن إصلاح نفسه ولا يسعه بلوغ القرب الإلهي والتهذيب الخلقى والسير إلى الله، أمّا إن اختلفى بنفسه وانشغل بعيبه وشعر بالندم لما فرط منه وغسل أدران المعصيه بمياه طاعه الله ولاسيما بقطره دمع صادق، أنذاك سيتمكن من إصلاح تلك نفسه والعروج بها إلى ساحه القدس.

تأمل: العيش بصوره جماعيه أم الإنزواء

حتَّ الإمام عليه السلام فى ختام الخطبه على الإنزواء والإعتزال، الإعتزال الذى يعدّ مقدمه لتهذيب النفس والإبتعاد عن المفاسد الإجتماعيه، وذهب أغلب علماء الأخلاق إلى أنَّ الإعتزال يعدّ أحد الشرائط اللازمه لتهذيب الأخلاق. ولو تأملنا آيات القرآن الكريم لرأينا مرحله العزله التى شهدها الأنبياء العظام والصالحون فى حياتهم. فقد قال إبراهيم الخليل عليه السلام حين واجه المجتمع الضال والمتعصب - الذى كان يصر على عباده الأوثان - «وَأَعْتَرِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا» (١).

وقد اعتزل موسى عليه السلام قومه أربعين يوماً لأخذ الألواح واتّجه إلى الطور، حيث

ص: ٤٢٠

وردت تفاصيل هذا الموضوع فى الآيه ١٤٢ من سوره الأعراف.

وكما ورد اعتزال مريم عليها السلام حيث أشارت إليه الآيه ١٦ من سوره مريم، وكذلك ما ورد فى شأن أصحاب الكهف عندما عجزوا من مقارعه الوثنيين فاعتزلوهم إلى الكهف وأشار القرآن الكريم إلى ذلك حيث قال: «وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُغِيْدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا» (١).

وإننا لنعلم جميعاً باعتزال النبی صلی الله علیه و آله القوم حين كان يختلى فى الغار لأيام بل أشهر قبل البعثه ويجدّ ويجتهد فى العباده.

نعم، وردت عدّه روايات بهذا الشأن ومنها، أنّ رسول الله صلی الله علیه و آله قال:

«الْعَزْلَةُ عِبَادَةٌ» (٢).

وقال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«الْعَزْلَةُ أَفْضَلُ شَيْمِ الْأَكْيَاسِ» (٣).

وقال عليه السلام أيضاً:

«فِي اعْتِرَالِ ابْنَاءِ الدُّنْيَا جِمَاعُ الصَّلَاحِ» (٤). والحال هنالك بعض الروايات أكدت على الجماعه، فقد روى عن رسول الله صلی الله علیه و آله أنه قال:

«أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ» (٥).

وورد مثل هذا المضمون عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال:

«وَالزَّمُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذَّبِّ» (٦).

فالأحاديث فى الموضوعين كثيره، ويتصور أحياناً تعارضها مع بعضها، والحال، صرحت ذات الروايات بكيفيه الجمع بينها. فالذى يفهم من النصوص القرآنيه

ص: ٤٢١

١- (١) سوره الكهف، الآيه ١٦

٢- (٢) ميزان الحكمه، ح ١٢٨٨٤

٣- (٣) غرر الحكم، ح ١٤١٤ و ٦٥٠٥

٤- (٤) . المصدر السابق

٥- (٥) كنز العمال، ج ١، ص ٢٠٦، ح ١٠٢٨

٦- (٦) نهج البلاغه، الخطبه ١٢٧

والروايه أنّ العزله تتمّ على ضوء بعض الشرائط الإجتماعيه الخاصه، والواقع أنّها استثناء إزاء حكم كلى بالاجتماع، وقد ورد الحثّ على العزله فى الأمور التاليه:

١. الإبتعاد عن طلاب الدنيا والتي صرّحت به الأحاديث المذكوره.

٢. الإبتعاد عن المجتمع الفاسد والمنحرف، كما ورد ذلك فى قصّه إبراهيم وأصحاب الكهف، وقد سئل الصادق عليه السلام عن سبب اعتزاله، فقال:

«فَسَدَ الزَّمَانُ وَتَغَيَّرَ الْإِخْوَانُ فَرَأَيْتَ الْإِنْفِرَادَ أَشَكَّنَ لِلْفُؤَادِ»^(١).

٣. حين تكون العزله بهدف التفكير والتهذيب وإصلاح النفس، كالذى كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله قبل البعثه وتفرغه للعباده فى غار حراء. ولا- شك أنّ الإنسان إذا أفرد بعض الوقت من يومه وليلته للتفكير فى نفسه ومجتمعه كان لذلك آثاره الطيبه والنافعه.

٤. الإبتعاد عن الأشرار - الذين يشكلون جزءاً من المجتمع - فقد. ورد الحثّ على الإبتعاد عن هؤلاء، وقد روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنّه قال:

«مَنْ اعْتَزَلَ النَّاسَ سَلِمَ مِنْ شَرِّهِمْ»^(٢). وإلّا ليس هنالك من يسعه التنكر للجماعه التى حظيت باهتمام واسع من أحكام الشريعه السمحاء. والإبتعاد التام عن المجتمع يعنى الإبتعاد عن التجارب والعلوم والمعارف وطاقت أفراد المجتمع، أضف إلى ذلك فإنّ العزله على ضوء ما أثبتته التجربه قد تدفع بالإنسان إلى العجب والفخر وإساءه الظن بالآخرين، إلى جانب بعض الإدعاءات الباطله والفاسده.

ص: ٤٢٢

١- (١) بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٦٠، ح ١١٦

٢- (٢). غرر الحكم، ح ٨١٥١

فِي مَعْنَى الْحَكَمَيْنِ (١)

نظرة إلى الخطبه

كما ورد في سند الخطبه فقد خاطب الإمام عليه السلام الخوارج الذين ضغظوا بادىء الأمر على الإمام عليه السلام في قبول التحكيم فاضطر إلى الموافقه رغم ممانعته للحيلولة دون الإنقسام في صفوف أتباعه ووقوع الحرب الأهليه، ولكن ما إن ظهرت نتيجة التحكيم السلبيه أثر خيانه ممثله في تحكيم أبى موسى الأشعري وخداعه من قبل عمرو بن العاص ممثل معاويه حتى اعترضوا على الإمام عليه السلام في قبوله التحكيم. فرد عليهم الإمام عليه السلام بذلك الرد الحاسم في أنكم أنتم الذين أثرتم هذه الفتنة وقد حذرتكم فلم ترعوا، والآن حيث ترون سوء اختياركم تعترضون! أضف إلى ذلك أن التحكيم كان مشروطاً لا مطلقاً، وشرطه عدم الإنحراف عن القرآن ولكنهم انحرفوا، وعليه فينبغي الاعتراض عليهم لا على.

ص: ٤٢٣

١- (١) سند الخطبه: روى هذه الخطبه مع اضافات كثيره، المؤرخ المعروف، الطبرى، في تاريخه في حوادث سنة ٣٧ هجرية عن أبى مخنف، وقد خاطب بها أصحاب النهروان. وقد ذكر الإمام على عليه السلام في بدايه الخطبه أموراً بشأن الحكيمين وأخطأتهما، ثم بين (باختلاف) ما رواه المرحوم السيد الرضى (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٢٨) ولا يبعد أن تكون هذه الخطبه جزءاً من الخطبه ١٢٨

فَأَجْمَعَ رَأْيُ مَلَائِكُمْ عَلَى أَنْ اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ، فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجْعِلَا عِنْدَ الْقُرْآنِ، وَلَا يُجَاوِزَاهُ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا تَبِعُهُ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَ الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا، وَالْإِعْوَجَاجُ رَأْيُهُمَا. وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا. وَالثَّقَةُ فِي أَيْدِينَا لِأَنْفُسِنَا، حِينَ خَالَفْنَا سَبِيلَ الْحَقِّ، وَأَتَيْنَا بِمَا لَا يُعْرَفُ مِنْ مَعْكَوسِ الْحُكْمِ.

الشرح والتفسير: بطلان الحكم بانحراف الحكيمين

فَصَلْنَا الْكَلَامَ بِشَأْنِ الْحَكَمِينَ فِي الْخُطْبِ السَّابِقِ وَلَا- سِيَمَا الْخُطْبَةَ ١٢٥ و ١٢٧ وَخِلَاصَتَهُ، أَنَّهُ لَمَّا أَوْشَكَ جَيْشُ الشَّامِ عَلَى الْهَزِيمَةِ، لَجَأَ عَمْرُوبُ بْنُ الْعَاصِ إِلَى خُدَعِهِ، فَأَمَرَ بِرَفْعِ الْمَصَاحِفِ عَلَى أَسْنَنِ الرِّمَاحِ وَقَوْلُوا: بَيْنَا وَبَيْنَكُمْ الْقُرْآنُ، فَمَا حَكَمَ بِهِ الْقُرْآنُ رِضِينَا بِهِ. أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَذَّرَهُمْ مِنْ أَنَّهَا خُدَعُهُ وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَتَّبِعُونَ الْقُرْآنَ فَاَمْضُوا فِي الْقِتَالِ، إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الْجَهَالِ وَالْمَغْرُضِينَ رَفَضُوا وَضَغَطُوا عَلَى الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَبُولِ الْإِحْتِكَامِ إِلَى الْقُرْآنِ. لَمْ يَسْتَجِبْ لَهُمُ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَصْرُوا عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ اخْتَلَفُوا، فَلَمْ يَرِ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَدَأَ مِنَ الْقَبُولِ. ثُمَّ أَصْرَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ عَلَى اخْتِيَارِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ. الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي كَانَ يَعْلَمُ بِحِمَاقِهِ هَذَا الرَّجُلَ وَضَعْفِ إِيمَانِهِ، أَشَارَ إِلَيْهِمْ بِابْنِ عَبَّاسِ الرَّجُلِ الْعَاقِلِ الْعَالِمِ الْمَعْرُوفِ وَالَّذِي لَا يَخْدَعُ بِالْأَعْيَبِ عَمْرُوبُ بْنُ الْعَاصِ، لَكِنَّهُمْ رَفَضُوا وَأَصْرُوا عَلَى اخْتِيَارِ أَبِي مُوسَى، وَهَذَا

اضطر الإمام عليه السلام ودفعا للفرقة والانقسام، إلى القبول بعده شروط، منها، عدم خروج الحكمين عن الحق والعدل. استغرقت المحادثات بين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري، شهوراً عديده حتى قال ابن العاص: ليخلع كل منا صاحبه حتى يختار الناس خليفه. فأعلن أبو موسى هذا الجاهل والأحمق - عن خلعه للإمام على عليه السلام من الخلافه، ثم انبرى ابن العاص ليعلن نصبه لمعاويه. فشبّ النزاع بين القوم، وقدم أولئك الذين أصروا على وقف القتال وقبول التحكيم واختيار الأشعري على الإمام عليه السلام واعترضوا عليه، لم قبلت التحكيم؟ قال الإمام على عليه السلام:

«فَأَجْمَعَ رَأْيِي مَلِكِكُمْ (١) عَلَى أَنْ اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ، فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجْعَجَعَا (٢) عِنْدَ الْقُرْآنِ، وَلَا يُجَاوِزَاهُ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا تَبَعَهُ». فالإمام عليه السلام يشير إلى أن قبول التحكيم وإن حصل بفعل الضغط إلا أنه كان مشروطاً لا مطلقاً دون قيود وشروط بحيث يفعلون ما يشاؤون حسبما تمليه عليهم أهواؤهم ورجباتهم وينبغي أن يقبله الآخرون. فالشرط كان تبعيه القرآن وعدم الإنحراف عن تعاليمه، إلا أن الشيء الوحيد الذي غيَّب في العملية، إنما كان القرآن، فانطلق الأشعري الأحمق ليتصرف خلاف منطق الحق والعدل القرآني.

ومن هنا قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه:

«فَتَاهَا (٣) عَنْهُ، وَتَرَكَ الْحَقَّ وَهُمَا يُبَصِّرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهِمَا، وَالْإِعْوِجَاجُ رَأْيَهُمَا». ثم أكد الإمام عليه السلام على شروط التحكيم، فقال:

«وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا».

فهل في القرآن الكريم آية تصرّح بضروره خلع شخص كعلی عليه السلام الذي بنى صرح الإسلام بجهاده وتربی فی حجر رسول الله صلى الله عليه وآله والقرآن، وكان مظهر الحق

ص: ٤٢٦

-
- ١- (١). «مألاً» تعنى لغوياً، ما يملأ العين ويشير إعجاب الناظر، ومن هنا تطلق على الجماعه الكثيره المتفقه فى الرأى والعقيده والتي يملأ تجمعها العين، وماده هذه الكلمه وكلمه مملوء واحده
 - ٢- (٢) «يجعجع» من ماده (جعجعه) تطلق فى الأصل على بروك البعير، ثم استعملت بمعنى الخضوع والإستسلام
 - ٣- (٣). «تاه» من ماده (تبه) بمعنى، الحيره والضلال

والعدل من الخلافه، أم هل هناك من آيه تصرّح باستخلاف سليل الجاهليه والكفر والظلم والجور الذي لا يخفى مكره وخذاعه على أحد، وقد استقطب حوله كل المنافقين والشياطين؟

ثم خلص عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«وَالثَّقَّةُ فِي أَيْدِينَا لِأَنْفُسِنَا، حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ الْحَقِّ، وَأَتَيَا بِمَا لَأَيُّغْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ». وهكذا يردّ بحسم على المعترضين:

أولاً إن قبول التحكيم كان من قبلكم، ثانياً، إن هؤلاء لم يطلق لهم العنان في التحكيم، بل كانوا مأمورين باتباع القرآن والإنصياح لأحكامه لا- الإنصياح لأهوائهم. وماداموا لم يلتزموا بالشروط فلا- اعتبار لحكمهم، الغريب في الأمر أن الحكّمين نفسيهما لم يتفقا في الحكم وسعى كل منهما لخداع الآخر وليضعه أمام حقيقه لا نقاش فيها، بينما يشترط في التحكيم اتفاق الحكّمين على الشروط المطروحه في التحكيم؟

تأمل: تولى الحكّمين عن القرآن

صرّح الإمام في هذه الخطبه بتجاهل الحكّمين للقرآن ومخالفه الحق وهما يبصرانه وقدّموا أهواءهما على الحقيقه وكان ذلك واضحاً، ولو أنّهما فكّرا قليلاً في مختلف الآيات القرآنيه الوارده بحق على عليه السلام أو تلك التي تبين أصلاً كلياً، والذي يمثل الإمام على عليه السلام نموذج البارز طبق روايات رسول الله صلى الله عليه وآله لما تردّدًا لحظه في ترجيحه على شخص ك معاويه بن أبي سفيان أعدى أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله. فقد صرّح القرآن قائلاً: «إِنَّمَا وَكَّلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ» (١). وهل كان غير الإمام على عليه السلام من تصدق بخاتمه حين ركوعه ونزلت هذه الآيه بحقه؟ وقد روى هذا، عشره من كبار الصحابه مثل ابن عباس

ص: ٤٢٧

وعَمَّار بن ياسر وجابر بن عبد الله الأنصارى وأبوذر الغفارى وأنس بن مالك وعبد الله بن سلام ومسلمه بن كهيل وعبد الله بن غالب وعقبه بن حكيم وعبد الله بن أبي، وذكر شرحه فى التفاسير العامه.

وهل يساوى شخص بمن نام فى فراش النبى صلى الله عليه و آله ليله المبيت(١) وفداه بنفسه فنزلت بحقه الآيه الشريفه: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاهِ اللَّهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ»(٢) وهل يتقدم عليه شخص وهو الذى عدّه القرآن الكريم خير البريه [بعد رسول الله صلى الله عليه و آله] فقال: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ»(٣). لما نزلت هذه الآيه قال رسول الله صلى الله عليه و آله:

«أَنْتَ وَشِيعَتُكَ يَا عَلِيُّ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ»(٤).

وهل ينبغى الإستغراق لشهور، لكى تعلم الأئمه الإسلاميه أيها أفضل على أم معاويه؟ حقاً إنها مقارنه عجيبه وجفاء كبير لأئمةالمؤمنين الإمام على عليه السلام فى أن يُقرن بمعاويه ويعلم فضله، أين هذا من ذاك وأين الثرى من الثريا؟!

ص: ٤٢٨

١- (١). راجع من ذكر سبب نزول الآيه فى على عليه السلام ومنهم، الطبرى وابن هشام والحلبى واليعقوبى وأحمد بن حنبل وابن الجوزى وابن الصبَّاح المالكى (الغدیر، ج ٢، ص ٤٨-٤٩)

٢- (٢). سوره البقره، الآيه ٢٠٧

٣- (٣). سوره البينه، الآيه ٧

٤- (٤) راجع شواهد التنزيل والصواعق المحرقه والدر المنثور ونور الأبصار وتفسير الطبرى وكتاب آيات الولاية لسماحه المؤلف

فِي الشَّهَادَةِ وَالتَّقْوَى

وَقِيلَ إِنَّهُ خَطَبَهَا بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ فِي أَوَّلِ خِلَافَتِهِ (١)

نظرة إلى الخطبه

أشار الإمام على عليه السلام بادية الخطبه إلى صفات الله، ومنها، علمه المطلق سبحانه بجميع الأشياء حتى أصغرها حجماً - كعدد قطرات المطر وذرات التراب - ليعلم الناس أن أعمالهم محفوظة عند الله ولا يخفى عليه شيء من أسرارهم.

ثم شهد في القسم الثاني، لله تعالى بالوحدانيه ولرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله بالنبوه، وقرن كل بصفاته ليكشف عن عمق تلك الشهاده.

أما القسم الثالث، فقد تحدّث فيه عن خداع الدنيا ووعودها الكاذبه التي تمنى بها من تعلق بزخرفها.

وأخيراً حذّر الجميع من أن الذنوب سبب زوال النعم، وأن أياً من الأمم لم تعيش

ص: ٤٢٩

١- (١) سند الخطبه: روى الشيخ صدوق، إلى جانب كتابه الخصال، جانباً من هذه الخطبه، وشرح ابن أثير في كتابه (النهايه) مفرداتها الصعبه، كما روى بعضها الزمخشري، في (ربيع الأبرار) (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٤٣٥)

البؤس والشقاء إلتارتكابها الذنوب والمعاصى، ومن هنا فقد دعى الجميع لإعاده النظر فى أعمالهم وتصرفاتهم فيهبّوا لإصلاحها
بغية السعاده والفلأاح.

ص: ٤٣٠

لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلَا يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ، وَلَا يَغْرُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ وَلَا نُجُومِ السَّمَاءِ، وَلَا سَوَافِي الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا دَيْبُ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا، وَلَا مَقِيلُ الذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ. يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأَوْرَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ الْأَخْيَاقِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ بِهِ، وَلَا مَشْكُوكٍ فِيهِ، وَلَا مَكْفُورٍ دِينُهُ، وَلَا مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ، شَهَادَةٌ مِنْ صَدَقَتْ نَيْتُهُ، وَصَفَتْ دِخْلَتَهُ وَخَلَصَ يَقِينُهُ، وَثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُجْتَبَى مِنْ خَلَائِقِهِ، وَالْمُعْتَمَدُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ، وَالْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ وَالْمُصْطَفَى لِكِرَائِمِ رِسَالَاتِهِ، وَالْمَوْضَّحُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَى، وَالْمَجْلُوبُ بِهِ غَزِيبُ الْعَمَى.

الشرح والتفسير: عظمه الله وكرامه نبيه صلى الله عليه وآله

كما أشرنا سابقاً استهل الإمام عليه السلام خطبته خمس صفات من صفات الله الجماليه والجلاليه بعبارات قصيرة وعميقه المعنى فقال:

«لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلَا يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَلَا يَحْوِيهِ (١) مَكَانٌ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ». هذه الصفات تنبع من ذاته القدسيه المطلقه. فالفرد المحدود العلم والقدرة إن خاض في شيء واستعان بعلمه وقدرته، فمن الطبيعي إلما يسعه التعامل مع عمل آخر، أما الذات المقدسه فهي تدبر عالم الوجود برمته في لحظه واحده، يسمع سبحانه استغاثه العباد ويعلم بحاجاتهم، وحيث كانت ذاته غنيه

ص: ٤٣١

١- (١). «يحوى» من ماده (حوايه) على وزن شفاعه، بمعنى الإحاطه بالشىء

عن الحدود وجامعه للكمالات كاهه فليس من سبيل لتغيير تلك الذات، كما أنّ المكان من لوازم محدود الوجود، فتلك الذات المطلقة عن الحدود حاضره فى كل مكان، وفى نفس الوقت هى ليست بحاجه إلى مكان. أضف إلى ذلك فإنّ صفات الله خارجه عن نطاق وصفنا، فنحن محدودون، والذات وصفاتها ليست محدوده، وليست لنا من قدره للحديث عن كمالات الله وإن طال بنا الحديث فإننا نعود من حيث ابتدأنا، شئنا أم أبينا. نعم، له وحده وصف ذاته وكمالاته كما ورد فى الحديث:

«لَا أَبْلُغُ مَدْحَكَ وَالتَّنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا اثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» (١).

ثم خاض فى الصفه الخامسه وهى علمه المطلق حيث ركّز على سبعة مواضع خفيه تماماً عن الآخرين، فقال:

«وَلَا يَعْزُبُ (٢) عَنْهُ عَيْدٌ قَطْرِ الْمِيَاءِ وَلَا نُجُومِ السَّمَاوَاتِ، وَلَا سَوَافِي (٣) الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا دَيْبٌ (٤) النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا (٥) ، وَلَا مَقِيلٌ (٦) الذَّرِّ (٧) فِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ. يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأُورَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ (٨) الْأَخْدَاقِ».

فالعباره

«عَيْدٌ قَطْرِ الْمِيَاءِ» تشير إلى قطرات المطر وقطرات ماء البحار والأنهار والآبار والينابيع التى لا يعلمها إلا الله، كما يعلم عدد نجوم السماء التى يقول العلماء اليوم أنّ مجرتنا فقط تحتوى على ٢٠٠ مليار نجمه، لكن ما عدد النجوم فى سائر المجرات التى لا تعد ولا تحصى؟ لا- يعلم ذلك إلا الله. والأدهى من ذلك، ذرات الغبار التى ترتفع فى كل آن فى أمواج الرياح فى كرتنا الأرضيه وتنتقل من موضع إلى آخر ولا يعلم بها إلا الله. ذهب البعض إلى أنّ المراد من ديب النمل، الأصوات

ص: ٤٣٢

١- (١) أصول الكافى، ج ٣، ص ٣٢٤، ح ١٢. مناجاه النبى عند سجوده منتصف الليل

٢- (٢). «يعزب» من ماده (عزوب) على وزن غروب، بمعنى الإبتعاد والإختفاء، ومن هنا يقال، الأعزب

٣- (٣). «سوافى» جمع سافيه، بمعنى، الريح الشديده

٤- (٤) «ديب» المشى البطيء

٥- (٥) «صفا» جمع صفاه، على وزن وفا، بمعنى، الحجر الأملس الضخم

٦- (٦) «مقيل» من ماده (قيلوله) النوم قبل الزوال، ومقيل اسم مكان بمعنى، موقع الراحة والنوم منتصف النهار

٧- (٧) «ذر» جمع ذره، وهى صغار النمل

٨- (٨) «طرف» بمعنى جفن العين، وترد بمعنى النظر وتحريك الأجفان

التي تصدر عن وقع أقدام النمل على الحجر، والذي يصعب إدراكها بأيّ وسيلة متطوره، إلّا أنّ الله عالم بكل ذلك، كما يعلم بمخادعتها، والمراد، جميع النمل في نقاط العالم كاهه.

وتشير العبارة

«يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْمَأْوَرَاتِ» إلى موضع سقوطها في أنحاء الكره الأرضيه كاهه حيث يسقط في كل لحظه ما لا يعدّ ولا يحصى من الأوراق في البساتين والحدائق وأعلى الجبال وأعماق الوديان ولا يعلم ذلك إلّا الله، كما يعلم عدد أطباق أجفان عيون الناس والحيوانات وكل ذى عينين. أجل، لا يخفى عليه شيء من الكليات ولا الجزئيات في عالم الوجود بأسره، وكفى الإنسان تربيته وأدباً، إيمانه بهذا الإله، كفاه أن يعلم أنّ العالم حاضر بأسره لدى الله وهو عليم بظاهرنّا وباطننا، ومن هنا ورد في القرآن «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمِيْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبِغَهُ أَبْحُرٍ مَا نَفِذْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (١). ثم شهد لله بالوحدانيه، فليس سوى الله تعالى أهل للعبوديه:

«وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ» (٢) به، ولما مشكوك فيه، ولما مكفور دينه، ولما مجحود تكوينه. وهكذا ينفي الإمام عليه السلام كل أنواع الشرك والشك والكفر بالآيات التكوينيّه والتشريعيّه، بعبارة أخرى ينفي كل شبيه وشريك لله ثم يخوض في الشك في ذاته المقدّسه وأفعاله التشريعيّه والتكوينيّه ويقول: ليس من سبيل للشك في دينه ولا في خالقيته وربوبيته في عالم التكوين، ثم قال:

«شَهَادَةٌ مِنْ صِدْقَتِ نَبِيِّهِ، وَصَفَتْ (٣) دَخَلَتْهُ (٤) وَخَلَصَ يَقِينُهُ، وَثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ».

إشاره إلى أنّ هذه الشهاده لذات الحق وصفاته شهاده من اتصف بهذه الصفات الأربع: صدق نبيّه وطهاره قلبه من الشرك والرياء وبعد يقينه عن الربيه والشك

ص: ٤٣٣

١- (١). سورة لقمان، الآية ٢٧

٢- (٢). «معدول» من ماده (عدل) على وزن علم، بمعنى التشبيه والمثيل

٣- (٣). «صفت» من ماده (صفا) بمعنى طهرت

٤- (٤) «دخله» بمعنى، باطن الشيء

وتكشف أعماله عن عمق إيمانه بالله، وهي ليست كشهادته المنافق أو الطامع بالمال والجاه، ولا ذلك الذى خلط إيمانه بالشك، ولا ذلك الذى يتحدث عن الإيمان ولا يبادر العمل الصالح.

ثم أُرِدَف شهادته لله بالوحدانيه بالشهاده لمحمد صلى الله عليه وآله بالرساله ونعته بست صفات، فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُجْتَبَى مِنْ خَلَمَائِقِهِ، وَالْمُعْتَمَدُ (١) لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ، وَالْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ (٢) كَرَامَاتِهِ وَالْمُضِيَّ طَفَى لِكِرَائِمِ رِسَالَاتِهِ، وَالْمَوْضَّحُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَى، وَالْمَجْلُوبُ بِهِ غَرِيبُ (٣) الْعَمَى».

الصفه الأولى، التى ورد الحديث فيها عن صفته التى سببت اختياره للرساله.

والصفه الثانيه، وظيفته فى شرح حقائق الدين والعقائد الصحيحه. وتطرق فى الصفه الثالثه، إلى مكارم خلقه، والصفه الرابعه، فى وظيفته المهمه فى بيان الأحكام، والصفه الخامسه، هدايته صلى الله عليه وآله عن طريق قوله وفعله وإمضائه العملى. وتحدث فى الصفه السادسه، عن جهوده فى محاربه الجهل والذى عبر عنه بالعمى. وتشير هذه الصفات إلى أنى لم أشهد اعتباطاً بنبوته وأنقاد لإمامته.

تأملان

١. مشكله الصفات

كما ورد فى كلمات الإمام عليه السلام العميقه المعنى فإن الذات القدسيه تتجاوز الحدود والزمان والمكان ولها إحاطه علميه تامه بكل شىء فى عالم الوجود. نعم، فالعالم بأسره حاضر عند الله وله حضور فى كل مكان دون أن يضمه مكان. وإن صفاته الجماليه والجلاليه وإن منحتنا معرفه عميقه، إلا أنه لا بد من الاعتراف بأنه خارج

ص: ٤٣٤

١- (١). «معتم» من ماده (عيم) على وزن غيب، تعنى فى الأصل الشغف باللبن، والمعتم هنا، الشخص الشديد الحب لإتيان الوظيفه المكلف بها

٢- (٢). «عقائل» جمع عقيله، بمعنى اقتطاف كل شىء، ومن هنا يقال للجوهره الثمينه عقيله البحر

٣- (٣) «غريب» تعنى الشىء الأسود المعتم، وتعنى هنا، ظلمه الجهل

عن وصفنا. أحياناً تبدو تعبيراتنا بشأن الذات لغز ونوع من التناقض، إلّا أنّ حلّ هذا اللغز يمكن في الإلتفات إلى نقطه وهي أنّ وجوده مطلق ولا-متناهٍ من جميع الجهات، فليس له من بدايه ولا-نهايه ولا-حد محدود. وإن تصور هذا الموجود للانسان المحدود من جميع الجهات يبدو مستصعباً، ولكن على كل حال لا تحل قضية الصفات الإلهيه دون الإلتفات إلى ذلك الأمر. فإن قلنا إنه عالم بكل شيء حتى بذرات الغبار التي تتعلق بالهواء، فذلك لأنه حاضر في كل مكان، وقولنا إنه حاضر في كل مكان بمعنى أنّ وجوده غنى عن الحدود ومحيط بكل شيء. وإن قلنا ليس له مكن زمان أو مكان، ذلك لأنّ الزمان يأتي من الحركة والمكان بواسطة محدوديه الإنسان، وليس للوجود المطلق من حركة نحو النقص أو الكمال، وحيث هو غنى عن كل شيء فلا-حاجه به إلى مكان. وخلاصه الكلام إذا أردنا معرفه الله فإنّ علينا أن ننفي جميع صفات المخلوقات التي تنبع من الحاجه والمحدوديه عن تلك الذات المقدسه.

٢. أهداف بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

تضمنت آيات القرآن الكريم والروايات وخاصة نهج البلاغه، الكثير من الكلمات بشأن هدف بعث الأنبياء ولا سيما نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، ومن ذلك، العبارات العميقه التي أوردتها الإمام عليه السلام في هذه الخطبه. فقد بين الإمام عليه السلام أنّ أحد أهداف رساله النبي صلى الله عليه وآله شرح الحقائق والتي يمكن أن يراد منها كل حقيقه أو حقائق مرتبطه بالمبدأ والمعاد وأصول العقائد، إلى جانب بيان القيم الخلقية كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»(١).

والهدف الآخر، بيان الرسالات السماويه في الأحكام الدينيه وكشف علامات الهدايه وأخيراً طرح حجب الجهل والعمى عن قلوب الناس وأبصارها. فهو معلم عظيم ومرّب ربّاني ومرشد خبير.

ص: ٤٣٥

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الدُّنْيَا تُعْرَى الْمُؤْمَلِ لَهَا وَالْمُخْلَدِ إِلَيْهَا، وَلَا تَنْفَسُ بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا. وَإِيْمُ اللَّهِ، مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضٍّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلَّا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا، لِأَنَّ «اللَّهُ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ».

وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النَّقْمُ، وَتَنْزُولُ عَنْهُمْ النَّعْمُ، فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ، وَوَلَّهِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ. وَإِنِّي لَأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فِتْرِهِ. وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتَمٌ فِيهَا مِثْلَهُ، كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ، وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسَعْدَاءُ. وَمَا عَلَيَّ إِلَّا الْجُهْدُ، وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ!

الشرح والتفسير: صدق النبي مع الله

خاطب الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة الناس كافة وذكرهم بأربع نقاط مهمّة، لها بالغ الأثر في حياة الناس، فقال في النقطة الأولى:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الدُّنْيَا تُعْرَى الْمُؤْمَلِ لَهَا وَالْمُخْلَدِ إِلَيْهَا، وَلَا تَنْفَسُ (٢) بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا». لما كان حبّ الدنيا كما ورد في الحديث رأس كل خطيئه فقد شرع الإمام عليه السلام بحبّ الدنيا. الجدير بالذكر أنّه لم يرد ذم لمن حصل على الدنيا بل على

ص: ٤٣٧

١- (١). «مخلد» من ماده (خلد وخلود) الشخص الذي يسكن مكاناً بصورة دائميّه وتشير في العبارة إلى من التصق بالدنيا

٢- (٢) «تنفس» من ماده (نفاسه) بمعنى الثمين، ووردت هنا، بمعنى الأهميّة

أولئك الذين يتهافتون على الدنيا ويتعلقون بزخارفها. وقد تغر زخارف الدنيا أولئك المتكالبين عليها حتى يظنون بأن كل شيء خالد فيها، إلا أنهم يرون فجاء زوال كل شيء بفعل حادثه أليمه، على سبيل المثال، فإن زلزه لا تستغرق بضع ثوان تضرب المدينة فتقضى على ما فيها ومن فيها، نعم ربّما يفوق لمدّه وسرعان ما يعود إلى سبات الغفله.

ثم أشار إلى النقطة الثانيه فقال كقاعده كليه:

«وَإِيمُ اللَّهِ، مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضٍّ (١) نِعْمَهُ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلَّا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا (٢)، لِأَنَّ «اللَّهُ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ». والواقع أن هذه العبارة اقتباس من الآيه الشريفه: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (٣) والآيه: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (٤). طبعاً، نعم الله تقسم على العباد حسب استعدادهم وأهليتهم، ومن هنا يستحقها الصالحون الطاهرون لا الآثمون الملوثون.

سؤال: ورد في بعض الروايات أن الله يبتلى أوليائه بأنواع البلاء كما جاء في الخبر «البلاء للولاء» (٥) لرفع مقام أوليائه، كما يستفاد من بعض الروايات أن البلاء قد يكون امتحاناً للمؤمن وأخرى تحذيراً وإيقاظاً للعباد، أفلا يتنافى هذا وما ورد في عبارته الإمام؟

الجواب: ما ورد في كلام الإمام عليه السلام قانون كلى ونعلم أن لكل قاعده شواذ، فموارد الامتحان والإيقاظ وأمثال ذلك استثناءات من تلك القاعده الكليه والقانون

ص: ٤٣٨

١- (١). «غض» النظر والجديد

٢- (٢) «اجترحوا» من ماده (جرح) وما يصيب البدن من ضرر ويبقى أثره، واجترح، بمعنى، الإتيان بالذنب، وكأن الإنسان يجرح نفسه، ثم توسع هذا المعنى ليطلق على كل اكتساب وارتكاب

٣- (٣). سوره الرعد، الآيه ١١

٤- (٤). سوره الاعراف، الآيه ٩٦

٥- (٥). وردت في كلمات العلماء وهى مقتبسه من الأحاديث الإسلاميه، مثل قول الإمام الصادق عليه السلام «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بَلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ تُمَالَّذِينَ يُلُونَهُمْ تُمَالْمَثَلُ فَالْمَثَلُ». (أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٥٢ باب شدة ابتلاء المؤمن)

العام، وبعبارة أخرى، عبارة الإمام عليه السلام تحمل على الغالب وهذا شبيه ما ورد في القرآن: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ» (١) قطعاً، ليس هناك من منافاه بين هذه الآيه، والآيه: «وَلَنُبَلِّغَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ...» (٢) التي تتحدث عن مختلف الإمتحانات الإلهيه بواسطه البلاء، وكذلك الآيه: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (٣) ولعل الإنسان إذا تأمل قليلاً- لأمكنه التعرف على الموارد التي يكون البلاء فيها جانب العقاب والجزاء أو الامتحان والتحميص والتحذير. فإن بدرت منه معصيه أو قارف المجتمع أنواع الفساد وأصابته بعض الحوادث المريره فإن ذلك عقاباً؛ أما الحوادث المريره التي تطيل الصالحين فهي تمحيص يهدف إلى رفع مقامهم.

ثم خالص الإمام عليه السلام إلى نتيجته فقال:

«وَلَمَّا أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النَّقْمُ، وَتَزُولُ عَنْهُمْ النَّعْمُ، فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ تَيَاتِهِمْ، وَوَلَهُ (٤) مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدِّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ (٥)، وَأَضْمَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ». عاده ما يعمد هذا الطبيب الرباني الماهر إلى وصف العلاج بعد ذكر المرض، ويعلم الناس سبيل دفع المكروه والبلاء، ويرى أن الدعاء إن كان صادقاً وخارجاً من أعماق القلب بمعنى تحدث حاله من التغيير لدى الإنسان فإنه يدفع البلاء كما ورد ذلك في العديد من الروايات، ومنها ما روى عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال:

«الدُّعَاءُ يَدْفَعُ الْبَلَاءَ النَّازِلَ وَمَا لَمْ يَنْزِلْ» (٦).

ثم أشار إلى النقطه الرابعه التي بينها سابقاً على نحو العموم فقال:

«وَإِنِّي

ص: ٤٣٩

١- (١) . سورة الشورى، الآيه ٣٠

٢- (٢) . سورة البقره، الآيه ١٥٥

٣- (٣) . سورة الروم، الآيه ٤١

٤- (٤) . «وله» بمعنى الحيره، من شدّه الحزن حتى يفقد الإنسان أحياناً عقله ووعيه، ومن هنا اطلقت على العشق الذي يسلب عن الإنسان سكونه وواعيته

٥- (٥) . شارذ الشخص الذي يفر من الطريق أو ينحرف

٦- (٦) اصول الكافي، ج ٢، ص ٤٦٩، باب الدعاء يرد البلاء، ح ٥

لَأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فِتْرِهِ (١). وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِثْلَكُمْ فِيهَا مِثْلَهُ، كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ، وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسِيَعَدَاءٌ. وَمَا عَلَيَّ إِلَّا الْجُهْدُ، وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ!». أمّا مراد الإمام عليه السلام من هذه الإشارة المطلقة إلى بعض انحرافاتهم، فقد قيل إنه أشار قضيه عثمان وحكومته التي فوّضت إليه من جانب شوري عمر الظالمه بعد أن سلبتها من أولى الناس بها (عليّ) - والذي أثبتت الحوادث اللاحقه هذه الحقيقه - وقد سلمتم لتلك الحكومه، وورود الخطبه بعد مقتل عثمان في أوائل خلافه الإمام عليه السلام شاهد على هذا المعنى. لكن الاحتمال الأكبر أنه إشاره إلى جميع الخلفاء والأحداث المريره التي رافقت الخلافه. ومراده من العبارة »

وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ»، أى لو أردت أن أكشف النقاب عن هذه الأحداث الأليمه لاستطعت، لكنني أغض النظر عنها وأسأل الله أن لا يؤاخذكم ويعفو عن تقصيركم (٢).

ص: ٤٤٠

١- (١). «فتره» تعنى فى الأصل، التوقف والضعف والعجز، ومن هنا هى تطلق على الفاصله بين برنامجين لإيقاف الأعمال، وحيث تمتزج بالغفله استعملت لهذا المعنى

٢- (٢) ذهب كأغلب شراح نهج البلاغه و مترجميه، إلى ترجمه هذه العبارة بمعنى: «إذا أردت أن أقول شيئاً قلت، عفا الله عما سلف»، ولكن هذا المعنى بعيد، لأنه ما ورد فى كلام الشيخ المفيد فى كتاب «الجمال» وفى كتاب «مناقب» حسب ما نقله كتاب «تمام نهج البلاغه» بوجود (لكن) قبل العبارة «عفا الله عما سلف»، فعليه أن جملة «عفا الله عما سلف» دعاء لأولئك، وهذا ما تقتضيه العلاقه بين هذه الجملة والجمال التى سبقتها: واختار عدّه من الشراح هذا المعنى، راجع الكتب، معارج نهج البلاغه، تأليف البيهقى، بحار الأنوار، العلّامة المجلسى، ج ٢٩، ص ٥٩٩، وشرح حدائق الحقائق، البيهقى، ج ٢، ص ٩٤، وشرح المرحوم الخوئى، ج ١٦، ص ٣٥٩

وَقَدْ سَأَلَهُ ذِغْلِبُ الْيَمَانِيِّ فَقَالَ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَفَأَعْبُدُ مَا لَأَأْرَى؟

فَقَالَ: وَكَيْفَ تَرَاهُ؟ فَقَالَ: (١)

نظره إلى الخطبه

يدور محور الكلام حول صفات الله ويؤكد هذا المعنى: إن تعذرت رؤيه الله بالعين فإنه يمكن مشاهدته من خلال قبسات صفاته بالبصيره.

ص: ٤٤١

١- (١) سند الخطبه: وردت العبارة المذكوره (باختلاف فيها) في عدّه كتب معتبره من كتب علماء الشيعة بطرق متعدده قبل تأليف نهج البلاغه، ومنها المرحوم الكليني في الجزء الأول من أصول الكافي حيث نقلها في باين، والمرحوم الصدوق في كتاب التوحيد والمرحوم الشيخ المفيد في الإرشاد. ومن علماء العامه ابن الجوزي الحنفي في كتابه (التذكره) عن ابن عباس (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٣٧)

فقال: لَأُتَدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهِدَةِ الْعَيْنِ، وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ. قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرَ مُلَابِسٍ، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ. مُتَكَلِّمٌ لَمَّا بَرَوِيهِ، مُرِيدٌ لِابْتِهَمِهِ، صَانِعٌ لِابْتِجَارِحِهِ. لَطِيفٌ لَأَيُوصَفُ بِالْخَفَاءِ، كَبِيرٌ لَأَيُوصَفُ بِالْجَفَاءِ، بَصِيرٌ لَأَيُوصَفُ بِالْحَاسَةِ، رَحِيمٌ لَأَيُوصَفُ بِالرَّفَةِ. تَعْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ، وَتَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ.

الشرح والتفسير: هل رأيت الله؟

يستفاد من مختلف الروايات في سيره أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال مراراً:

«سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي»، فقد أعرب عن استعداده للإجابة عن كل سؤال يتعلق بدين الناس ودنياهم، وقد كرر هذه العبارة حتى حين التقى الناس وهو على فراش الموت بعد ضربه ابن ملجم. وحين وُلِّي عليه السلام الخلافة خطب فقال:

«سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي» وأكد بهذا المعنى بأنه أعلم بآيات القرآن فيم نزلت وأين نزلت وناسخها ومنسوخها ومتشابهها ومحكمها. فقام ذعلب اليماني وكان رجلاً شجاعاً وبليغاً فسأله السؤال المذكور وأجابه الأمير عليه السلام (1) فقال:

«أَفَأَعْبُدُ مَا لَا أَرَى؟» بمعنى أن العبادة فرع من المعرفة وللمعرفة درجات أرفعها درجة الشهود، وقد التفت الإمام في كلامه عليه السلام إلى مرحلته العبادية الرفيعة التي ترافق مشاهدته الذات المقدسة، ذعلب غرق في التفكير في أن مراد الإمام عليه السلام هنا أيه رؤيه؟ هل الرؤيه الحسيه التي

ص: ٤٤٣

يقول بها أم المجسمه؟ أم الرؤيه الروحيه والمعنويه التي تفوق الرؤيه العقليه؟ لذلك أردف سؤاله بسؤال آخر فقال:

«وَكَيْفَ تَرَاهُ؟»

هل هذا سؤال واستفهام لكشف الحقيقه أم نوع من الإنكار والجدال؟ الجواب عن هذا السؤال يتوقف على تقييمنا لذعلب، فإن كان من أصحاب الإمام عليه السلام فلا شك في أنّ سؤاله كان لمعرفة الحقيقه، وإن كان أنساناً طائشاً، كما يستفاد من بعض روايات الماره - فإنّ سؤاله يستند إلى الإنكار والجدال. على كل حال أجابه الإمام عليه السلام بما يميّط اللثام عن بعض الحقائق وقد أثر جوابه بالجميع بما فيهم ذعلب، حيث نفهم على قدر مطالعتنا أنّه أُصيب بالذهول عندما فرغ الإمام من الكلام.

فقد قال عليه السلام:

«لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعَيْنِ، وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ». المراد من حقائق الإيمان، الأصول العقائديه والمعارف الحقه. ولتوضيح هذا الكلام ينبغى الالتفات إلى هذه النقطه وهى أنّ المشاهده على ثلاثة أنواع:

١. المشاهده الحسيه التى تتم بالعين، وأحياناً تزود هذه العين ببعض الأجهزة كالمجهر والتلسكوب.

٢. المشاهده العقليه التى يبلغها عن طريق الإستدلال به فيرى الحقائق ببصيره كالشمس من قبيل - ما ذكره المرحوم مغنيه فى شرح نهج البلاغه - مشاهده نيوتن لقانون الجاذبيه الذى يستحيل رؤيته بالعين أثر مشاهدته لسقوط التفاحه من الشجره على سطح الأرض.

٣. الشهود الباطنى وهو نوع من الإدراك الباطنى لكن ليس الاستدلالى.

فالإنسان يرى ببصيرته الواقع الموجود ويؤمن به دون الحاجه إلى الاستدلال ويبدو فهم هذا الإدراك والرؤيه صعباً ما لم يبلغه الإنسان، ولهذا الموضوع نماذج كثيره فى الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه، فقد ورد فى آيه بشأن إبراهيم: «وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» (١). وبشأن يعقوب حين انطلق إخوه يوسف

ص: ٤٤٤

بقميصه، فقال: «إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ» (١) والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله حين حفر الخندق قبيل شروع معركة الأحزاب لما ضرب الحجر ثلاث مرات وزف البشاره لصحبه بفتح قصور كسرى وقيصر وقصور صنعاء فى اليمن (٢). وقد أخبر على مراراً فى نهج البلاغه عن المستقبل، وكان يقول فى بعض المواقع، كأنى أرى جماعه ستفعل كذا وكذا، بل نال بعض المؤمنين المخلصين هذا الكشف والشهود.

ومعروفه هى قصه ذلك الفتى الذى قال للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ، يَتَنَعَّمُونَ فِيهِ الْجَنَّةِ... كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ». فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه:

«هذا عبثٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ» (٣). وسائر الموارد التى تستحق كتاباً مستقلاً فى الكشف والشهود، والتى تدل جميعاً على وجود شهود آخر يفوق الشهود الحسى والعقلى (٤).

ثم بين الإمام عليه السلام احدى عشره صفة من صفات الله وأسمائه الحسنى، وقد قرن تسعه منها بعبارات تنفى عنه صفات المخلوقات لتوضيح هذا المطلب فى كيفية إدراك القلوب لله بحقائق الإيمان فقال فى الصفة الأولى والثانية:

«قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرِ مُلَابِسٍ» (٥)، «بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرِ مُبَايِنٍ». ذكرنا مراراً أنّ مشكلتنا فى فهم صفات الله هى الإنطلاق من صفات المخلوقات والممكنات التى تعيقنا عن إدراك صفات الله ما لم نبتعد عنها، مثلاً فى هذين الوصفين حين نقول: الله قريب، يترأى لنا سىء مثل

ص: ٤٤٥

١- (١). سورة يوسف، الآية ٩٤

٢- (٢). الكامل لابن أثير، ج ٢، ص ١٧٩

٣- (٣). اصول الكافى، ج ٢، ص ٥٣ (باب حقيقه الإيمان واليقين، ح ٢)

٤- (٤) للوقوف على المزيد وفهم معنى الشهود وأسبابه وموانعه (راجع نفحات القرآن، ج ١، ص ١٩٣)

٥- (٥). «ملابس» اسم فاعل من ماده (ملابسه) بمعنى، الإختلاط والإلتصاق بشىء

قرب جسمين من بعضهما يقعان في مكانين حسيين، وعندما نقول: الله بعيد يتداعى لنا جسمان بعيدان عن بعضهما وانفصالهما، والحال، بعدهما وقربهما ليس كذلك، فهو قريب من كل شيء، بمعنى إحاطته التامه بجميع الموجودات، وبعيد بمعنى تنزه كبريائه عن أدناس المكان وصفات المخلوقات الناقصه.

وقال في الصفه الثالثه والرابعه:

«مُتَكَلِّمٌ لِّأَبْرَوِيَّةٍ (١)، مُرِيدٌ لِّأَبِيهِمَّ (٢)». وإن طرح موضوع الكلام والإرادة يتبادر إلى أذهاننا إنَّ الشخص جيد لغه معينه ويفكر في مطلب ثم يصوغه في إطار كلمات وعبارات، ثم يستعين بلسانه وشفتيه ليوصل صوته المنطلق من حنجرتة إلى الآخرين، وهكذا الأمر بالنسبه للإجراده في أن يفكر المرید مسبقاً ويتأمل صلاح الشيء من فسادة ثم يعزم على القيام بالعمل وأمر الجوارح والأعضاء بالتنفيذ. قطعاً إنَّ أيّاً من هذه الأمور لا تصدق على الله، فهو ليس بجسم وليس له أعضاء وجوارح وليس بحاجة إلى التفكير. فكلامه ليس سوى خلق الموجات الصوتيه في الفضاء كتلك الأمواج التي سمعها النبي موسى عليه السلام من الشجره، وإرادته ليست سوى علمه بالمصالح والمفاسد. وهذه الحقيقه صادقه تماماً على الصفات السبع الأخرى. ومن هنا اعتبر الإمام عليه السلام أن أفضل طريق لمعرفة الله، نفى صفات المخلوقات عنه، فقال:

«وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ» (٣).

وقال في الصفه الخامسه:

«صَيَانِعٌ لِّأَبِيحَارِحِهِ» نعم، إنَّ أمره إذا أراد شيئاً إنَّما يقول له كن فيكون، وله أن يخلق عالماً واسعاً ومترامياً كعالمنا فيقول له كن فيكون ولا يحتاج إلى وسائل وأدوات وأجزاء كالإنسان.

وقال في الصفه السادسه والسابعه:

«لَطِيفٌ لِّأَيُّوَصْفُ بِالْخَفَاءِ، كَبِيرٌ لِّأَيُّوَصْفُ بِالْجَفَاءِ»، لشراح نهج البلاغه وعلماء الكلام أحاديث مسهبه في باب صفات الله ومنها صفه اللطيف، فذكروا لها عدّه معانٍ، فتاره فسّروه بالخفي، وأخرى بخالق الأشياء الظريفه وأخيراً ذو اللطف والحبّ، ولله كل هذه الصفات، إلّا أنّ المعنى الأول أنسب، أي أنّ الذات المقدّسه ظريفه الخفاء، لكن لا بمعنى الخفاء عن العباد،

ص: ٤٤٦

١- (١). «رويه» من ماده (ترويه) تعنى، أحياناً، الشبع من الماء، كما وردت بمعنى التفكير

٢- (٢) «همه» من ماده (هم) بمعنى العزم على الإتيان بشيء، كما تعنى، الهم الذى يشغل فكر الإنسان، والنوع الأول هو المراد

٣- (٣) نهج البلاغه، الخطبه ١

ذلك لأن آثاره ملأت أركان العالم وتجلت فيه جميع الموجودات، والعبارة

«لَمَّا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ» إشارته إلى عظمته، لكن ليست كعظمه الطواغيت والجبابره الممزوجه بالظلم والجور والجفاء، كما قال القرآن الكريم في أواخر سورة الحشر:

«الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ».

وقال في الصفه الثامنه والتاسعه:

«بَصِيرٌ لَّيُوصَفُ بِالْحَاسِيهِ، رَحِيمٌ لَّيُوصَفُ بِالرَّقِيهِ». فإن قلنا: فلان بصير، تبادر إلى الذهن بسرعه العين التي يبصر بها، وحين يقال: فلان رحيم تتداعى شفقته قلبه ورقته، والحال، هذه الصفات الممكنات والموجودات الجسمانيه والله أسمى من ذلك. فبصره سبحانه بمضى علمه بالموجودات كافه التي ترى بالعين ورحيمته بمضى لطفه وعطائه لعباده، وإن مثل هذه الصفات مركبه من النقص والكمال، ولله كمالها ونزاهته من نقصها.

وقال في الصفتين الأخيرتين:

«تَعْنُو (١) الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ، وَتَجِبُ (٢) الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ». إشاره إلى أنه رغم لطفه ورحمته، إلّا أنّ ذلك لا يعنى جرأه العباد على الذات من خلال التشبث بتلك الصفات، بل لابد من خشيه عقابه إلى جانب الأمل بلطفه ورحمته. ومن هنا قال القرآن بشأن المؤمنين: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ» (٣). ونعلم جميعاً بأن تعادل الخوف والرجاء من شأنه الأخذ بيد الإنسان إلى السمو والكمال.

ص: ٤٤٧

١- (١). «تعنو» من ماده (عنو) على وزن غلو، بمعنى، تذلل وتخضع

٢- (٢) «تجب» من ماده (وجوب) تعنى أحياناً، الثبوت، وأخرى السقوط والوقوع ولازمته الثبوت والاستقرار، وإن وردت بشأن القلب عنت الاضطراب

٣- (٣). سورة المؤمنون، الآية ٦٠

فِي ذَمِّ الْعَاصِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ (١)

نظرة إلى الخطبه وسبب الورود

يستفاد من كتاب (الغارات) للثقفى، أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبه حين أتاه رسولا محمد بن أبي بكر لنجدته قبل قتاله مع عمرو بن العاص في مصر، فدعى الإمام عليه السلام الناس إلى المسجد وأخبرهم بالأمر، إلّا أنّه لم يستعد للجهاد سوى نفر قليل. ثم بعث، ليلاً، إلى أشرف الكوفه ودعاهم إلى دار الإماره، وكان حزينا، لأنّه كان يعلم بعمق الخساره في ظهور ابن العاص وأعوان معاويه على مصر. فعرض بالذم في هذه الخطبه لصحبه العاصين وناشدهم دفع فتنه عمرو بن العاص عن مصر.

ويتضح ممّا قيل أنّ مضمون الخطبه ذم لترك الجهاد وحثّ على جهاد العدو إلى جانب العواقب الوخيمه للوهن والضعف.

ص: ٤٤٩

١- (١) سند الخطبه: روى هذه الخطبه قبل السيد الرضى، إبراهيم بن هلال الثقفى، في (الغارات) عن حبيب بن عبد الله. (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٣٩ و ٤٤٠)

أَحْمَدُ اللَّهُ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَعَلَى ائْتِلَائِي بِكُمْ أَيُّهَا الْفِرْقَةُ الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِيعْ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ. إِنْ أُمِّهَلْتُمْ خُضْتُمْ، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ وَإِنْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ إِلَى مُشَاقَّةٍ نَكَصْتُمْ. لَأَنِّي لَغَيْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ؟ الْمَوْتُ أَوِ الدُّلَّ لَكُمْ؟ فَوَاللَّهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي - وَلِيَأْتِيَنِي - لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَنَا لَصِدِّحِيَّتِكُمْ قَالٍ، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ.

الشرح والتفسير: الجهاد أو الموت والعار

إستهل الإمام عليه السلام الخطبه كسائر أغلب الخطب بحمد الله والثناء عليه، وقال:

«أَحْمَدُ اللَّهُ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَعَلَى ائْتِلَائِي بِكُمْ». لشراح نهج البلاغه عدّه تفاسير في المراد بالقضاء والقدر في هذه العبارات هل له معنى واحد ويشير بأجمعه إلى المقدرات الإلهيه، أم له معنيان؟ قال البعض: كلاهما بمعنى واحد، وقال الآخر: القضاء يتعلق بخلق عالم الأمر والعقول يعنى عالم ماوراء الطبيعه، والقدر إشارة إلى عالم الخلق أى عالم الطبيعه. وأحد التفاسير الواضحه للقضاء والقدر - والذي تؤيده الآيات والروايات - أنّ القضاء سواء في عالم التكوين أو عالم التشريع يشير إلى أمر الله بأصل وجود الشيء، ويشير القدر بحجمه وأجزائه وشرائطه، مثلاً، شخص يأمر ببناء مسجد أو مستشفى، فهذا مصداق للقضاء، ثم يبين متطلباته، وهذا هو القدر. فأمر الله بالصلاه والصوم في عالم

التشريع، القضاء، وأمره بالنسبة لأجزائه وشروطه، قدر.

النقطة الأخرى فى كلام الإمام عليه السلام حمده الله على ابتلائه بأصحابه العاصين. ذلك لأن أولياء الله المسلمون لأمره ويرون كل ما ينالهم منه حسناً جميلاً.

ثم خاطب عليه السلام الحاضرين فى المجلس من زعماء قبائل الكوفه فقال:

«أَيُّهَا الْفِرْقَةُ الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِيعْ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ. إِنَّ أُمِّهَلْتُمْ خُضْتُمْ (١)، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُزْتُمْ (٢) وَإِنْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيَّ إِمَامًا طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ (٣) إِلَى مُشَاقَّةٍ (٤) نَكَصْتُمْ (٥)». فقد أشار إلى أربع نقاط لضعف الناس تجاهه: المعصية وعدم الإهتمام بالدعوة وتضييع الفرصه والضعف فى ميدان القتال، ولا شك أن كل واحده تكفى لأن تكون سبباً للهزيمة فضلاً عن اجتماعها. ثم وبخهم بنوع من الحب، فقال:

«لَا أَبَا لِعَيْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَالْجِهَادِ عَلَيَّ حَقُّكُمْ؟ الْمَوْتُ أَوْ الذُّلُّ لَكُمْ؟» (٦).

إشاره إلى أن الوضع الذى أنتم عليه - إزاء العدو الماكر كعناويه وجيشه والذى يتسم بالضعف وعدم الإكتراث - ليس له من نتيجة سوى الموت أو الذل، وإن بقيتم أحياء فالذله لهؤلاء، العز فى الجهاد ونتيجته النصر أو الشهاده، كما قال الإمام عليه السلام:

«الْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَالْحَيَاءُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ» (٧).

ثم قال:

«فَوَاللَّهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي - وَلِيَأْتِيَنِي - لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَنَا لَصُحْبَتِكُمْ

ص: ٤٥٢

١- (١). «خضتم» من ماده (خوض) على وزن حوض، قال الراغب فى المفردات، الورود شيئاً فشيئاً فى الماء والمشى فيه، ثم وردت بالمعنى الكنائى للشروع بالأعمال السيئه أو الأقوال القبيحه

٢- (٢). «خرتم» من ماده (خوار) الصراخ وحيث ينشئ الصراخ من الضعف فهى تعنى الضعف أو العجز

٣- (٣) «أجئتم» من ماده (أجاء) وجذرها مجىء، جلب الشخص أو الشئ، وعليه إن اجئتم بمعنى أن جلبوكم

٤- (٤) «مشاقه» بمعنى الصعوبه أو الخصومه والعداء من ماده (شق) على وزن حق

٥- (٥) «نكصتم» من ماده (نكص) على وزن عكس، الرجوع إلى الوراء، القهقرى

٦- (٦) اعتبر شراح نهج البلاغه العبارة «الموت أو الذل» لكم نوعان من اللعن والدعاء عليهم، أى متم أو ذلتم، وهى ليست كذلك فقد أراد الإمام عليه السلام أن يبين وهنهم وضعفهم فى الجهاد، أى أن نتيجة عملكم إما الموت أو الذله، لاسيما أن العبارة التى وردت قبلها «لا أبأ لغيركم!» والعبارة اللاحقه «لله أنتم!» تفيد أنه لم يكن فى مقام الدعاء عليهم، وقد أذعن الشراح بأنه تلى من الإمام عليه السلام بتوجيه الدعاء لغيرهم

قَالَ (۱)، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ. فَقَدْ لَفَّتِ الْإِمَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ انْتِبَاهَهُمْ إِلَى قَضِيهِ مَهْمَهُ وَهِيَ أَنَّ وَجُودِي سِنْدٌ عَظِيمٌ لَكُمْ فَعُورُوا ذَلِكَ. وَاعْلَمُوا إِنَّ مِتُّ فَسَوْفَ لَنْ أَخْسِرَ شَيْئاً سِوَى جَيْشٍ لَا إِرَادَةَ لَهُ، بَيْنَمَا سَتَخْسِرُونَ أَنْتُمْ كُلَّ شَيْءٍ وَتَسْتَفْقِدُونَ قَائِداً شَجَاعاً وَآمِراً لَا يَقْهَرُ.

ص: ۴۵۳

۱- (۱). «قال» بمعنى العدو، ومن ماده (قلا)، على وزن ندا، بمعنى، شده البغض والعداء

لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَمَا دِينَ يَجْمَعُكُمْ! وَلَا حَمِيَّةَ تَشْحَذُكُمْ! أَوْلَيْسَ عَجَبًا أَنْ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجَفَاءَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مُعُونَةٍ وَلَا عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ - وَأَنْتُمْ تَرِيكُهُ الْإِسْلَامَ، وَبَقِيَّةَ النَّاسِ - إِلَى الْمَعُونَةِ أَوْ طَائِفِهِ مِنَ الْعَطَاءِ، فَتَفْرَقُونَ عَنِّي وَتَحْتَلِفُونَ عَلَيَّ؟ إِنَّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِى رِضَى فَرَضُونَهُ، وَلَا سُخْطَ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ؛ وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لَاقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ! فَذَارَسْتُكُمْ الْكِتَابَ، وَفَاتَحْتُكُمْ الْحِجَابَ، وَعَرَفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ، وَسَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَّجْتُمْ، لَوْ كَانَ الْأَعْمَى يَلْحَظُ، أَوْ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ! وَأَقْرَبُ بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ! وَمُؤَدَّبُهُمْ ابْنُ النَّابِغَةِ!

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام عرضه بالدم لأولئك الضعاف من أصحابه فى الامتثال لأوامره:

«لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَمَا دِينَ يَجْمَعُكُمْ! وَلَا حَمِيَّةَ (١) تَشْحَذُكُمْ (٢)!».

إشاره إلى أن الوقوف بوجه العدو والدفاع عن الأهداف المقدسه يتطلب أحد العنصرين: أحدهما الإيمان بالله ويوم الجزاء ووعده للمجاهدين والشهداء أو الدفاع القومى الوطنى، وللأسف ليس فيكم أى من هذين العنصرين، فدينكم وإيمانكم ضعيفان وليس فيكم من دافع أو هاجس لحب الوطن، ولذلك توانيتم حتى شئت

ص: ٤٥٥

١- (١) «حميه» بمعنى الغيره والشخصيه والتعصب، كما وردت بمعنى التكبر وأصلها من ماده (حمايه)، لأن مثل هذه الصفات سبب لحمايه الشخص أو الشىء

٢- (٢) «تشحذ» من ماده (شحذ) على وزن قبض، بمعنى حد، وتستعمل فى المسائل المعنويه كالذكاء والفظنه

عليكم الغارات وداهمكم العدو.

ثم قارن الإمام عليه السلام بينهم وبين أصحاب معاوية فقال:

«أُولَئِكَ عَجَبًا أَنْ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاءَ (١) الطَّغَامَ (٢) فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلَمَّا عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ - وَأَنْتُمْ تَرِيكُهُ (٣) الْإِسْلَامَ، وَبَقِيَّةَ النَّاسِ - إِلَى الْمَعُونَةِ أَوْ طَائِفِهِ مِنَ الْعَطَاءِ، فَتَفَرَّقُونَ عَنِّي وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ؟». فهنا سؤالان جديران بالاهتمام، الأول أن معاوية معروف في البذل والعطاء السياسى الهادف، فكيف يقول الإمام عليه السلام إن معاوية لا يقدم للأفراد معونه ولا عطاء؟ أجب بعض شراح نهج البلاغه عن هذا السؤال بأنه كانت لمعاوية مساومات سياسيه مع زعماء القبائل وقاده الجيش فكان يغدق عليهم الأموال الطائلة دون الالتفات إلى الناس، أمّا الإمام على عليه السلام فكان يقسم أموال بيت المال بالتسوية على الناس بمنتهى العدل والقسط ويقدم التكليف الحربي لجميع المقاتلين.

والثانى: لم عبأ معاوية الناس بتلك الطريقة من توزيع الأموال، بينما لم يتعبأ الناس لأمير المؤمنين عليه السلام رغم تعميمه العطاء والمعونه على أساس العدل؟ ولا تبدو الإجابة عن هذا السؤال صعبه، فإضافه إلى ضعف أهل الكوفه وغدرهم كان هناك وفاء أهل الشام وانصياع الأفراد لزعماء قبائلهم الذين كان يرشيهم معاوية بالأموال، ولكن زعماء القبائل كانوا يشعرون بعدم الرضا من تسوية الإمام عليه السلام بينهم بالعطاء، فلم يكونوا يعبئون أفراد قبيلتهم.

ثم ذم الإمام عليه السلام فرقتهم واختلافهم فقال:

«إِنَّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضَى فَرَضُونَهُ، وَلَا سُخْطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ».

ويبدو تفسير هذه العبارة واضحاً رغم اختلاف الشراح فى تفسيرها فالإمام عليه السلام

ص: ٤٥٦

١- (١). «الجفاه» جمع جافٍ، الشخص الغليظ والسيء الخلق، من ماده (جفاء)

٢- (٢) «الطغام» جمع طغامه، بمعنى، ضعاف الفكر وأراذل الناس

٣- (٣). «تريكه» من ماده (ترك) والمراد به، الشخص أو الشىء المتبقى، والمراد هنا المتبقون من شخصيات صدر الإسلام

يريد أن يقول إنكم دائماً تحثون الخطي باتجاه التشتت والفرقه وليس هناك ما يوحد كلمتكم، لا العناصر التي ترضيني ولا النواهي عن الأمور التي تغضبني، والفرقه هي أهم عوامل فشلكم، فأنتم لا-تمثلون لأوامري ولا تنتهون بنهيي، كما يحتمل أن يكون مراد الإمام عليه السلام أنكم تجتمعوا على ما يخالف رغبتكم أو يطابقها، كمن يقول للمريض انك لا تتناول الدواء المر ولا-الحلو، أى إن لم تقبل الأول فاقبل الثانى، كحد أدنى. ثم تشتعل النار فى قلب الإمام عليه السلام بعد ذلك الذم والتوبيخ فيقول:

«وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لِمَا قِ إِلَى الْمَوْتِ!». حَقًّا إِنَّهَا لِفَاجِعِهِ أَنْ تَبْلُغَ الْحَالَةَ دَرَجَةً يَتَمَنَّى مَعَهَا هَذَا الْجَبَلَ الشَّامِخَ الَّذِي يَفِيضُ صَبْرًا وَتَحَمُّلاً الْمَوْتَ. نَعَمْ أحياناً يَصِيبُ الْإِنْسَانَ مِنْ صَحْبِهِ الْغَدْرَةَ الْفَجْرَةَ مَا لَا يَصِيبُهُ مِنْ أَعْدَائِهِ وَهنا يَتَمَنَّى الْإِنْسَانَ الْمَوْتَ، الْمَوْتَ الَّذِي يَفْرُقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مِثْلِ هَؤُلَاءِ الْأَفْرَادِ الْتَاكِرِينَ لِلْجَمِيلِ الْمُنْحَرِفِينَ عَنِ الْحَقِّ.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أياديه الثقافيه والتربويه لأُمّه الإسلاميه سيما بالنسبه لصحبه فأشار إلى أربعه مواضع مهمه فقال:

«قَدْ دَارَسْتُكُمْ (١) الْكِتَابَ». طبعاً القرآن كان بأيدي المسلمين يتلونه أثناء الليل والنهار ولم تكن هنالك من حاجه لتدريس الإمام عليه السلام، فالمراد فهم مضمون القرآن الكريم وسبر أغواره والوصول إلى مفاهيمه حيث يعتبر الإمام عليه السلام المفسر الأول بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فكان يفسر للناس آيات القرآن ويستشهد بها فى أغلب خطبه، ثم تطرق إلى خدمته الثانيه للأمه فقال:

«وَفَاتَحْتُكُمْ الْحِجَابَ (٢)». أى علمتكم الأدله العقليه كحجه شرعيه بعد الأدله النقليه.

وقال فى الخدمه الثالثه:

«وَعَزَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ» فقد كشفت لكم الغطاء عن مكنون كثير من الحقائق الخافيه عليكم وكنتم تجهلونها، كما يمكن أن يكون لهذه العبارة مفهوم آخر هو انكاركم لبعض المسائل واتخاذكم مواقف أخرى منها بفعل

ص: ٤٥٧

١- (١) . «دارستكم» من ماده (مدارسه) بمعنى، التدريس والتعليم والتفهم

٢- (٢) «حجاج» جمع حجه، بمعنى الدليل والبرهان، ولها أحياناً معنى مصدرى وتستعمل بصيغه المفرد

جهلكم، عرفتكم حقيقتها لتقلعوا عن انكاركم، وأخيراً

«وَسَوْعَتُكُمْ (١) مَا مَجَّجْتُمْ (٢)».

فهناك الكثير من المفاهيم التي لم تبلغوا عمقها وحقيقتها، ومن هنا كنتم تمجون هذه المفاهيم وتبتعدون عنها، إلّا أنّي كشفت لكم عن أسرارها لتصبح لديكم كالماء الزلال.

ثم أعرب عن أسفه عن سداجه مخاطبيه فقال:

«لَوْ كَانَ الْمَاعَمَى يَلْحِظُ، أَوْ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ!». فأنا لم أقصر في تربيتكم وتعليمكم، وقد بنيت لكم كل ما ينفعكم، ولكن ليس لديكم من استعداد وكان بذور علمي وتربيتي وحكمتي قد صادفت أرضاً قاحله.

ثم اختتم عليه السلام خطبته بإبراز تعجبه قائلاً:

«وَأَقْرَبُ (٣) بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ! وَمُؤَدَّبُهُمْ ابْنُ النَّابِغَةِ (٤)!». جاء في الرواية أنّ الإمام عليه السلام قال هذه العبارة مع إضافات حين مرّ بجماعه من أهل الشام كان فيهم الوليد بن عقبه، المعروف بشرب الخمر وقد أُقيم عليه الحد، حين سمعه البعض قد شتم الإمام عليه السلام فهموا به ونهاهم الإمام عليه السلام (٥).

تأملان

١. الفرق بين المعونه والعطاء

قال الإمام عليه السلام في الخطبة المذكوره إنّ معاويه لم يقدم لأتباعه معونه ولا عطاءً

ص: ٤٥٨

١- (١). «سوغتكم» من ماده (تسويع) جعلت الشىء سائغاً، ثم استعملت بمعنى، الأذن

٢- (٢) «مجاجتم» من ماده (مجاج) على وزن حجج، بمعنى رمى الماء أو شىء آخر من الغم، ثم استعملت بمعنى كئيب هو إبراز الكراهيه من شىء

٣- (٣). «أقرب» بقوم من قبيل صيغه التعجب، حيث يبدى الإمام عليه السلام تعجبه بهذه الصيغه من الأفراد الجهال الذين استسلموا لخطط معاويه

٤- (٤). «نابغه» تعنى فى الأصل الفرد المشهور والعبرى، من ماده (نبوغ)، وتطلق أحياناً على الفرد المشهور بالفساد، ليس لها داع هنا

٥- (٥) تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ٣١ حوادث سنة ٣٧ هجرية

(طبعاً، المراد الأفراد العاديون، وإلا فإنَّ شراءه لزعماء القبائل بواسطة الأموال الطائلة ما تناقلته كتب التاريخ). والفارق بين المعونه والعتاء، إالأنَّ العطاء شىء من قبيل المرتبات الرسميه والمعونه ما يقدم من منح ومساعدات لإعداد السلاح أو الدابته للقتال.

٢. الخدمات الثقافيه الأربع للإمام عليه السلام

أشار الإمام عليه السلام فى الخطبه المذكوره إلى أربع من خدماته لصحبه، وأجزها فى:

تعليم كتاب الله، القرآن الكريم، والثانيه، تعريفهم بالأدله العقليه والبراهين الجليه، والثالثه، تعليمهم ما كانوا يجهلونه وكشف أسرار أغلب الحقائق المتعلقه بالدين والدنيا، والرابعه، والأخيره إعادتهم إلى المفاهيم الحقه وجعلها مستساغه لهم بعد أن كانت ممجوجه، والواقع هو أن هذه الأصول الأربعه تشكل دوره تعليميه ودينيه وفكريه متكامله، ينبغى لجميع القائمين على شؤون التعليم، الإلتفات لها، وبالطبع فإنَّ النتيجة المطلوبه لهذه اللحظه إنما تتأتى حين يتمتع الفرد الخاضع للتربيه والتعليم بالإستعداد التام لتقبلها.

اللهم ارزقنا عيناً باصرهً وأذناً سامعهً ويقظهً ووعياً لنصغى إلى كلمات أوليائك التى تطهر روح الإنسان وتهذبها وننظر إلى آيات عظمتك بعين البصيره.

اللهم لا تفرق بيننا وبينهم ولا طرفه عين فى الدنيا وفى الآخره وثبتنا على مسيرتهم. يارب العالمين.

ختام الجزء السادس

كانون الثانى ٢٠٠٣ م

محرم الحرام ١٤٢٥ هجرى

ص: ٤٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدّم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
الغمامة
اصبحان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

